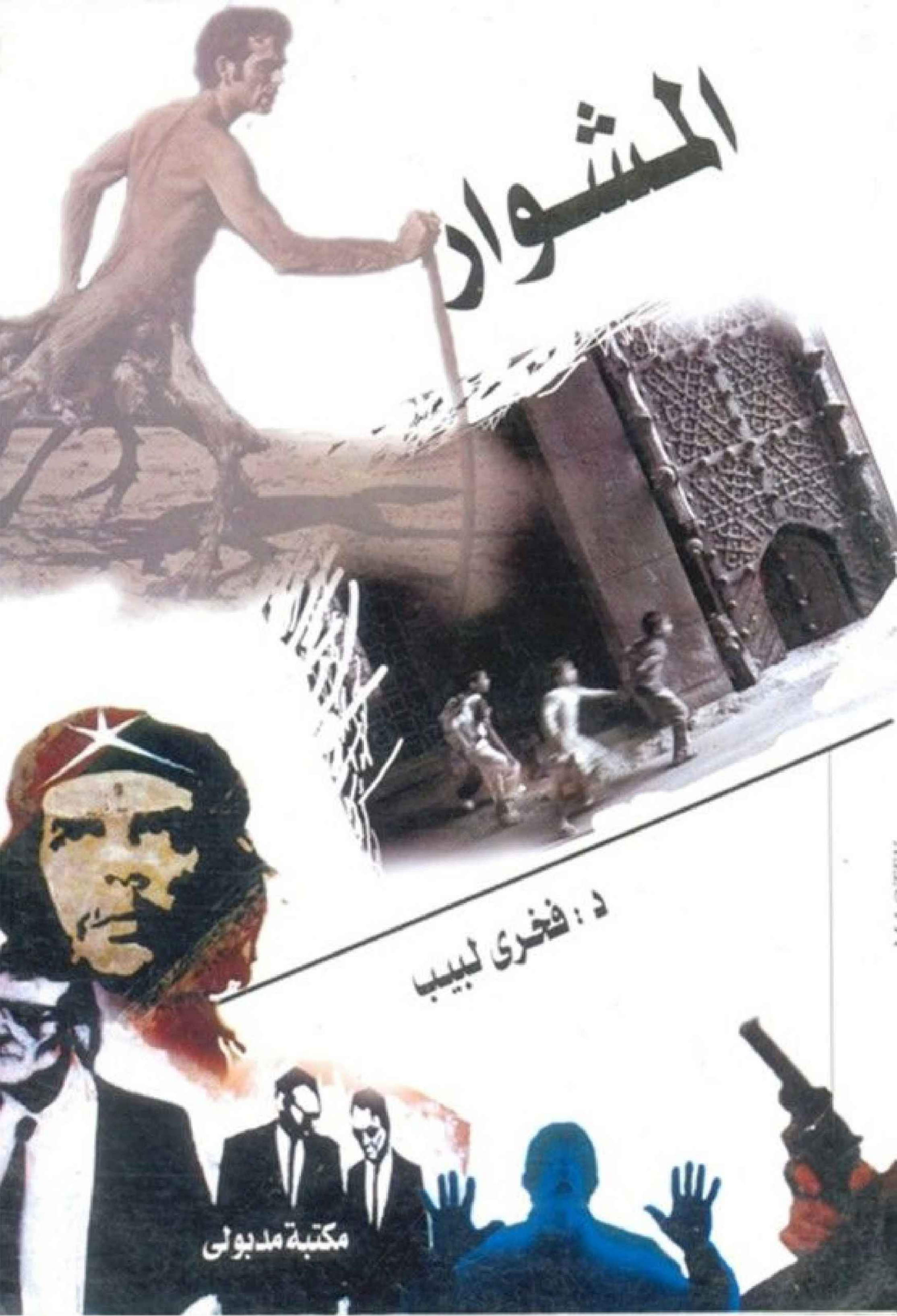

المشوار
د : فخرى لبيب
مكتبة مدبولى

جمع وتنسيق: أحمد قاسم

المشوار

تـأليــف : د.فخرى لبيب

إعــداد فني :ناهد عفيفي

مـركز البحـوث العـربية والإفريقية- 5 شارع حسن برادة
متفرع من شارع قرة بن شريك– أمام مستشفى رمد الجيزة
القاهرة - ت/ف: 35714785-37744644
البريد الإلكتروني: info@aarcegypt.org
الموقع على الإنترنت: Website: aarcegypt.org
الطبـعـــة :الأولى عام 2008
النـاشـــر :مكتبة مدبولى 6 ميدان طلعت حرب – القاهرة
تليفون : 25756421
فاكس : 25752854
الموقع الإلكـترونى :
البريد الإلكـترونى :www.madboulybooks.com
Info@madboulybooks.com
رقـم الإيـداع : 2008 /4876
الترقيم الـدولى :ISBN 977-208-739-1

إهداء إلى روح المناضل الرفيق فخري لبيب وكل المناضلين من أجل الحرية

تم شراء الكتاب وتوفيره إلكترونيا وجمعه وتنسيقه بواسطة أحمد قاسم

مقـــــــــدمـــــــــة

فخرى لبيب... الشجرة الوارفة التى نستظل بها

شعبان يوسف

ليس من المبالغة إذ نقول: إن مشوار فخرى لبيب، الذى قطعه –نضالاً- منذ عقد الأربعينيات، حتى الآن، هو عبارة عن تاريخ ومشور وكفاح مصر. وليس هذا الكتاب، الذى بين أيدينا، إلا قطعة نابضة وحية وحقيقية من قلب هذا الوطن. وليس هذا من المبالغة، أو المديح، أو الإطراء، بل لا يسعنى إلا أن اقول: إن أى كلمات تقال لن تفى هذا الرجل والمناضل والإنسان حقه، فرحلته التى بدأت من مكان ناءٍ فى جنوب مصر، ثم الفيوم، ثم أسوان، حتى تصل به إلى القاهرة، رحلة مضنية، وغنية ومثيرة، وتضج بالمعانى النبيلة والوطنية والإنسانية، من البيت، إلى المدرسة إلى الجامعة، إلى فضاء مصر كلها. نستطيع أن نتعرف على هذا الوطن بتفاصيله المدهشه، وحكاياته المذهلة، من خلال ذاكرة نشطة، ويقظة، ومتأملة، لا تحكى، ولا تصف أو لا تقف عند التأمل فحسب، بل تتوغل فى التفسير والتحليل، وبالتالى فهى ذاكرة لا تبرر، بقدر ما هى ذاكرة جارحة –أيضاً-، تكشف وتعلن، أكثر مما تستر وتخفى، ذاكرة لا تدعى بطولة لصاحبها، بقدر ما تفرغ مخزونها ببساطة وهدوء عجيب، هذا الهدوء الذى يهدر بأحداث جسيمة وثقيلة، منذ انتقال الوالد- معاون المحطة بالسكك الحديدية- من بلد إلى بلد، ودخول الأخوة للمدرسة. ورفض صاحب السيرة أن يذعن لقرار المدرسة بعدم قبوله، فظل يذهب كل يوم مع أخوته، ويقف على باب المدرسة، حتى أدهش ناظر المدرسة الذى استدعاه، وتعرف عليه بعد حوار مكثف، فألحقه بالمدرسة التى تعلم من مدرسيها أشياء كثيرة، وضعته على أسنة أسئلة حادة ومصيرية، هذه الأسئلة التى حرّكت مشاعر الفتى وأفكاره، وظل هو بالتالى يعيدها على نفسه، ويحاولٍ أن يطورها، ويجد لها إجابات، ويبحث عن حلول، لكن الحلول –دوماً- لا تكمن فى الكلمات، بل تتفجر فى العمل. وهذا ما أدخرته الأيام التالية للفتى عندما ذهب إلى القاهرة المتفجرة بأحداثها، والمشتعلة بمظاهراتها، والمحتجة على ما يحدث، والكاسرة لشوكة الأباطرة المتعددى الأوجه،

والمختلفين فى طرق سيطرتهم واستغلالهم لطبقات الشعب الفقيرة...
جاء الفتى الشاب فخرى لبيب، من الجنوب، وهو مدجج بحلم الثورة، وبكلمات مدرس التاريخ التى وجدت هوى جامحاً بقلبه، فقلبها الفتى، وحركها فى روحه، فأثمرت الكلمات/ البذور- لتصبح أشجارًا وارفه فيما بعد. جاء الفتى مفتوناً بمدرس التاريخ، وبكلماته، هذا المدرس الذى كتب عنه لصديقه عبد الله، كامل رسالة يقول فيها: (أصبت عندما قلت أننى أحب مدرس التاريخ. لقد توجهت إليه أسأله عن الكيفية التى تمكننا من القيام بثورة فى مصر، ثورة مثل الثورة الفرنسية، التى قادها ميرابو ودانتون وروبسبير ومارا، من أين لنا بمثل هؤلاء هنا. بدا فى البداية متردداً.. وإن كان سعيداً. سألنى لماذا أهتم بمثل هذه القضية هكذا؟
أوضحت له أنه هو الذى أخبرنا بذلك. سألته إن كان يمكن للملك أن يقوم بها؟ فهو الشاب الذى رفض مطالب الإنجليز فحاصروه بالدبابات ليرغموه على قبول مطالبهم. بحلق الرجل فى وجهى مندهشاً، قال: إن الثورة الفرنسية أطاحت بالملكية وأن الملكية فى مصر والملك شخصياً فى حاجة إلى الإنجليز، وهم الذين يحمون نظامه، إذ أن الأسرة المالكة وحدها تمتلك خمس الأراضى الزراعية، وهى أسرة ألبانية أجنبية، كيف أستولت على كل تلك الأراضى؟ كيف حرمت المصريين منها وحولتهم إلى عبيد فى مزارعهم وتفاتيشهم الملكية؟) هذه الأسئلة جميعاً لم تسقط فى روح الفتى عبثاً... بل نشبت أظافرها الحادة فيها. وظلت تنبش وتحرك وتهتف حتى وجد الفتى نفسه يبحث فى القاهرة عن من يساعده فى سلسلة اغتيالات لهؤلاء الذين نهبوا مصر، واستغلوا ثرواتها، وسرقوا شعبها، وحولوا أبناء هذا الوطن الأصليين إلى خدم عندهم.
وعندما قابله أحدهم، وأفهمه أن الاغتيالات لا تجدى، بل العمل الجماعى هو الذى يستطيع أن يحرر هذا البلد من كل أدرانه الأجنبية والمحلية، وُضع الفتى على أول الطريق الذى لم يتخل عنه –مطلقاً- فى شبابه ورجولته، ونضاله الدائم، الذى نفخر به ونعتز بإنجازاته الوارفة، والذى ما زال يظللنا نحن الأجيال التالية كسماء شامخة نحتمى بها...
ومنذ ذلك التاريخ الذى يسجله فخرى لبيب بدقة مدهشة، بتوثيق، مستعيناً بأوراق، ورسائل، وأظن أن الرسائل التى أوردها –لبيب- فى هذا

الكتاب، تضاف إلى أدب الرسائل الرفيع، والذى يجمع بين الأسلوب الأدبى الراقى، والأفكار العميقة، الغنية بالمعانى، هذه الرسائل التى كان يتبادلها مع صديقه الحميم عبد الله كامل، وهو فى السادسة عشرة من عمره، أو أقل. ويندهش المرء –حقاً- من هذه الرسائل الفاتنة، والمكتوبة بوعى يفوق وعى هذه السن الصغيرة، هذه الرسائل التى تفجرت وفجرت روح الفتيان معها بكل ما هو ناضج وشاب وأخضر للدرجة التى تضع الشابين أمام وعيهم. يقول عبد الله كامل فى رده على فخرى فى الرسالة الخامسة: (أفزعنا خطابك الأخير أشد الفزع، لقد سمعنا حقاً عن وباء الملاريا، لكننا سمعنا أيضاً أن الحكومة والملك يتخذان كل الإجراءات اللازمة لمعاونة المصابين، غير أننا لم نتصور ابداً أن ما يحدث لكم هو هذه الحالة البشعة من الانحدار والاستهانة بحياة الناس، أى عالم هذا الذى تحكى لنا عنه؟ أين فرض الدين على هؤلاء الذين لا يعرفون الرحمة؟ وهى جوهر الدين والإسلام!!).. لاحظوا أن الذين يكتبون هذه الرسائل، ويرسلون تلك الأفكار، ويسألون هذه الأسئلة، ما زالوا صبية صغارًا فى الخامسة أو السادسة عشرة من أعمارهم، ومن المفترض ألا يكونوا قد غادروا ملاعب الكرة، أو على الأقل تتصرف أذهانهم وانشغالاتهم إلى ما يخص مراهقاتهم، حيث الفتيات التى تداعب ذكورتهم المتفجرة، والتى تبحث لها عن تحقق...

لكن الفتى ورفاقه كان لهم شأن آخر... فيأتى فخرى لبيب إلى القاهرة ليلتحق بكلية العلوم، والتى كان عميدها د.مصطفى مشرفة. ويلتقى بزملائه، والحال متفجرة، ومحمود فهمى النقراشى باشا، رئيس الحكومة، ورئيس حزب السعديين، دائم الحديث عن المفاوضات مع الحليفة بريطانيا العظمى. وكان المصريون أصدقاء الإنجليز –يتحدثون عن أن ما بين مصر وبريطانيا هو أقرب بالزواج الكاثوليكى، أى زواج لا يعرف الطلاق أبداً.. ويتقدم بعدها رئيس الوزراء فى 25 ديسمبر 1945 بمذكرة هزيلة إلى الحكومة البريطانية للدخول فى مفاوضات لإعادة النظر فى معاهدة 1936، فترد بريطانيا على النقراشى رداً مجحفاً وسخيفاً ومذلا: (إن سياسة حكومة جلالة الملك هى أن تدعم بروح الصراحة والعدل التعاون الوثيق الذى حققته مصر ومجموعة

الأمم البريطانية أثناء الحرب).... إذن ماذا يفعل الفتى المتفجر، والمخنوق بأسئلته العنيفة، سوى أن ينضم لمجموعة أخرى تشبهه، وتتعاون معه، ويتعاون معها للقيام بثورة تكسح كل هذا البلاء الطافح على وجه الوطن،... وتشتعل البلاد، وتتفجر المظاهرات. ويسجل فخرى لبيب هنا يوميات الحركة الثورية، فى مصر، أثناء اشتعالها. ورغم أن يوميات فبراير، أو أحداث فبراير عام 1946 كتب عنها الكثيرون، إلا أن فخرى لبيب، الشاهد والمشارك فى الأحداث، والضالع فى تفجيرها، يسجلها بدقة وأمانة وتوثيق.. لحظة بلحظة، وساعة بساعة. ويلاحق الأحداث بأوصاف يندهش المرء من براعته، رغم دموية هذه الأحداث التى مرت بفتح كوبرى عباس. ويورد بعض ما كتبه طه حسين- أنذاك- جريدة الوفد قائلاً: (لو حوكم صدقى على جرائمه عام 1930 لما ارتكب النقراشى جرائمه، يجب أن يقدم هؤلاء السادة إلى المحاكمة، ويجب قبل كل شىء أن تعرف الأمة المصرية بالضبط عدد القتلى والجرحى، وإذ كان قتيل واحد يكفى محاكمة ألف وزارة وألف نقراشى...). هكذا كتب طه حسين بغضب عارم، وحماس بالغ، محتجاً على ما يحدث، ومطالباً بمحاكمة الوزارة ورئيسها. ودعنا مما كتبه خالد بكداش، ويورده أيضاً –فخرى لبيب، حتى يتضح لنا كيف كانت البلاد- آنذاك، وكيف كان الفتى الطالع من دم البلاد... والمتفجر من طينها الطيب والطاهر...

منذ ذلك الوقت لم يعرف الفتى هدوءًا، ولم يعرف استقراراً، إلا عندما يتحرر هذا الوطن من أمراضه- فكانت السجون والمعتقلات محطاته الدائمة، ومواجهاته مع الجلادين، إنها دأبه المعتاد- ورغم أن أحداث هذا الجزء تنتهى عند عام 1955، إلا أننا نقرأ أحداثاً جساماً تحملها الفتى برضا كامل، وروح وثابة مثمرة، طامحة فى مستقبل جماعى أفضل- ما زال يحلم به الرجل للآن، رغم كل الأحداث المريرة التى مرت بها البلاد، وتنتظرها... وبهذه الأحلام والأحداث يعتبر فخرى لبيب أحد المعلمين العظام، الذين علمونا كيف يكون المناضل قادرًا على الثبات على المبدأ، رغم كل التنصلات التى شهدها زماننا السعيد. فخرى لبيب الرجل والحركة والإنسان والكاتب والمترجم، ليس أيقونة نحتفى بها –

كما يفعل السدنة والكهنة فى معابدهم-، بل هو الرجل الذى نتعلم من مشواره النبيل كل المعانى الإنسانية التى ناضل من أجلها الأنبياء والقديسون والمناضلون البررة على مدى التاريخ الإنسانى.. فهو ما زال يثمر فى كل اتجاه، فى الترجمة، فلا ننسى ترجمته البالغة العذوبة لرواية "عريان بين ذئاب" لبرونوابيتز الألمانى. ولا ننسى ترجمته لرباعية الإسكندرية للورانس داريل، هذه الترجمة التى فاقت شهرتها اسم الرجل ذاته... وفخرى لبيب لا تهمه الشهرة، ولا تشغله النياشين، ولا يبحث عن مكافآت، فهو من الذين يعشقون مبدأ: (نحن فى الظل، ولكن نحن فى المواجهة)... وسوف تظل مسيرته وسيرته وكتاباته تعمل فى الأمام، وفى المواجهة، كمصباح يضىء لنا، نحن الأجيال التالية، هذا الطريق الوعر...

أفخر بأننى رافقت الرجل وتجادلت معه ما يزيد عن ربع قرن، وذلك من خلال عملنا المشترك فى ورشة الزيتون بحزب التجمع. واعترف أنه كان له فضل التأسيس، والإنشاء، والتحريض المستمر. ومن عرف العمل العام وويلاته، سيعرف كم يعانى المرء من بناء مشروع ناجحٍ، لا ينتج سوى القيمة، ولا توجد من ورائه مكاسب مادية أو عينية مطلقاً، عدا ما تجره هذه المشاريع الفكرية والسياسية والحماهيرية من متاعب.. أعترف أن الرجل كان محرضاً عظيماً، وفاعلاً كبيراً فى إنشاء تلك المشاريع.. ورغم ذلك فإنه يعانى من نشر أعماله التى ظل يكتبها بصبر ودأب نادرين. ويشهد على ذلك كتابه الملحمى: (الشيوعيون وعبد الناصر)... هذا الكتاب الذى سجله مع كافة المناضلين الذين عانوا من تجربة الاعتقال فى عهد عبد الناصر، وفرغ الأشرطة، وصاغ الكتاب.. وذاق الأمرين –كما يقولون- كى يجد ناشراً له، وكنا نذهب معاً لدور النشر التى زعمت ثورية زائفة، فماطلت، وسوّفت، حتى خرج الكتاب دون ناشر، وعلى نفقة مطبعة الأمل، هذا الكتاب الذى لم يروج له–حتى الآن- كما يجب، ولم يجد له عارضين وشارحين ومهللين، لأنه ببساطة، يتحرى صدقاً نادراً، لذلك لم يجد له أفراحاً نشهد بعضها الآن. لقد خاض فخرى لبيب اشتباكات حقيقية ولذلك لم تكف السلطة السياسية عن ملاحقته وتوقيفه واعتقاله حتى عام 1989، أى بعد أن جاوز الستين

من عمره...
أى رجل هذا. ومن أى معدن صيغت حياته؟ أقرر وأنا فى كامل وعيى: أن فخرى لبيب هو أحد اللبنات الكبرى الإنسانية لهذا الوطن، والتى تظل سيرته قبساً نستضىء به، ويظل مشواره هو مشوار النبل والشجاعة النادرين فى هذا الزمان..
ورغم كل هذا لم يكتف الرجل بكونه مؤخراً شاهداً ومشاركاً، ولا مترجماً يترجم كل ما يقع فى يديه ويخص مصر، فهو له وجهة نظر فيما يترجم. ولم يكتف بكونه ناشطاً عاماً يبين هنا ويشيد هناك، بل كتب القصة والرواية أيضاً، فكانت إبداعاته الفردية انعكاساً جدلياً لحياته، فكتب روايته (الجبل وأنا)، و(الأيدى الخضراء).. ومجموعته القصصية (كنز الدخان).. ولديه ما ينتظر النشر... هذه الإبداعات التى بدأها فخرى لبيب منذ أواخر الخمسينيات، بقصة نشرها فى جريدة "المساء" تحت عنوان "هدى"، نشرها باسم شقيقه الراحل رأفت لبيب، حيث كان هاربا وملاحقاً، حتى وقع فى أيدى السلطات.. وظل خمس سنوات فى المعتقل، وتستمد هذه السنوات الخمس ببطولة الرجل، هذه البطولة التى كتب عنها الكثيرون مثل طاهر عبد الحكيم فى (الأقدام العارية)، وفتحى عبد الفتاح فى (شيوعيون وناصريون) وفى (حدتو) لمحمود الوردانى.. الجميع يشهد بمواقف الرجل.. واستبساله المنقطع النظير فى المعتقل.
ولا أنسى أيضاً ما كتبه عنه فوزى حبشى فى (معتقل لكل العصور)... أن الاحتفال بفخرى لبيب الذى بلغ الثمانين من عمره المديد (مواليد 7 فبراير 1928)... هو تأكيد لثقل هذا الرجل. أن فخرى لبيب بهذه السيرة التى تضاف وتضيف إلى أدب السيرة، سوف يحدث، كما أظن، الكثير من إعادة النظر وكشف لكثير من الحقائق، وأتمنى أن يتخلى الصامتون عن صمتهم.

الفصل الأول

الاختطاف

انتهى العام الدراسى، وكذا الامتحانات. نحن الآن، فى مدرسة الأقباط الإعدادية بطنطا، نصحح أوراق التلاميذ. الوقتِ رمضان، وأنا أتسلل، ساعة الظهيرة، إلى معمليٍ، أتناول غداء سريعاً، أعده فراش المعمل والمدرج. أنا أعمل مدرساً للطبيعة. أسكن شقة صغيرة، جملتها قدر استطاعتى لتكون عشى الهادىءٍ. إنها تقبع فوق سطح عمارة فخيمة أستطيع من نوافذها أن أرى حياً وادعاً رائعاً يزخر بالأشجار والأزهار. ما أن ينتهى التصحيح خلال يوم أو اثنين حتى أغادر هذا المكان.
أقضى الإجازة الصيفية فى الأسكندرية. البحر يموج بالبشر. من كل نواحى البلاد، حيث يمكن للمرء أن يتعرف على منابع المصيفين من لهجاتهم. الشاطىء عامر بالألوان والحسان، وشماسى مزخرفة، وأردية بحر مزركشة، وأجساد جميلة ممشوقة تطلق الفرحة والرغبة. وأطفال كالورود يشيدون أبنية من رمال، ما أن تداعبها الأمواج حتى تتلاشى. الزياط شديد، والكل يقبل على الماء يغسل مشاق العام الذى مضى، وكأن المرء يجىء إلى هنا، موعداً مع عماد[1]* تتجدد به حياة الإنسان.
غير أن شيئاً من ذاك لم يحدث هذا العام. قبل أن ينتهى التصحيح بيوم أو اثنين. والتاريخ 29 مايو 1954، ما أن ابتعدت عن دارى، وبلغت الشارع الرئيسى، حتى أحاط بى عدد من الرجال لا أعرفهم. وأمسكوا بى بطريقة شلت حركتى، فصحت فيهم، غير أن صياحى ذهب سدى. سكون المكان الذى طالما عشقته غداً كابوسًا، تسمع صدى صوتك ولا مجيب. قال أحدهم:
-مباحث.
يبدو أنه ضابط. قام بتفتيشى. لم يجد ما آثار اهتمامه غير مفاتيح مسكنى. قلت:
-انت معاك أمر بالقبض علىّ وتفتيشى؟
لم يجبنى أحد. قال آخر يبدو أنه ضابط، أعلى رتبة:
-يلا بينا.
تساءلت، إلى أين، لم يرد علىّ أحد. كانت تكسو وجوههم الجدية

والصرامة. كنت أتوقع هذه اللحظة التعسة، فقد قبض على زملاء لى منذ عامين، لكننى لم أن أتوقعها على هذا النحو. ساروا عودة فى اتجاه منزلى، فأردكت أنهم يعرفون أين أقيم. صعدوا بى حتى شقتى. وضع الضابط المفتاح فى قفلها. قلت مرة أخرى:

-معاكو أمر تفتيش؟

لم يبالى أحد بسؤالى. دفعونى إلى الداخل وأغلقوا الباب علينا. قلبوا الشقة رأساً على عقب.

وجدوا بعض المطبوعات والأوراق لكنهم لم يجدوا كل الأوراق. كنت قد أعددت مخبأ لمثل تلك المفاجآت. لم يصلوا إليه. عثروا على برواز خشبى، أمسك به كبيرهم فرحاً. نظر إلىّ متسائلاً فى يقين:

-عزيزة!؟

إنه الاسم «الحركى» لمطبعة الرونيو البدائية. إلا أننى لم أرد عليه. قال:

-فين بقيتها إنشاء الله؟

لم أرد عليه أيضاً. كنت أنظر من النافذة، أرى كل الأشياء كما اعتدت أن أراها، ما عدا شقتى الجميلة وقد غدت ركاماً. يبدو أنه لم يكن يتوقع منى إجابة، فاستمر فى تفتيشه. طلب من مخبريه أن يحملوا كل الكتب والمخطوطات الموجودة. نهبوا جهد أعوام: بعض القصص التى كتبتها، ومكتبة وافرة، وألبوم صور عائلى. الكلام معهم لا يجدى. منذ أن فتحوا الشقة، واندفعوا إلى داخلها، حتى أحسست أننى لم أعد ولياً عليها. بل لم أعد أملك من أمر نفسى شيئاً. كنت أحس، وأنا أنظر من النافذة، أن كل ما يحيط بى الآن إلى وداع. كنت أنظر من النافذة أيضاً، لأنى قرأت يوماً، أن «المتهم» يوضع أثناء تفتيش موضع إقامته تحت رقابة غير ظاهرة، وإلى حيث تتجه عيناه يركزون البحث. إذ أن الإنسان يركز بصره دوماً دون أن يدرى على المنطقة التى يخشى أن يأتيه الخطر منها.

عندما أنهوا تدمير كل شىء باسم التفتيش الدقيق، غادروا الشقة وأنا وسطهم. تركوا بابها مفتوحاً كأنها لم تعد تعنيهم. تصرفوا على نحو يغرس فىّ شعوراً بأن أمرها لم يعد يعنينى أيضاً. وأن ذلك هو آخر عهدى بها.

بينما أهبط درجات السلم، رأيت باب شقة أصحاب المنزل مفتوحة. يبدو أنهم أحسوا بأن شيئاً غير عادى يجرى هنالك أعلى. كانت علاقتى الشخصية بابنيهم جيدة للغاية. كنت قد أخبرت أحدهما، ذات يوم، أثناء مناقشة ما، أننى قد أتلقى مثل هذه الزيارة غير المحببة. قال يومئذ أن ضابط المباحث المحلى صديقهم، وأنه لا يمكن أن يفعل هذه الفعلة فى منزلهم. إلا أننى ضحكت يومها، بينى وبين نفسى، فضابط المباحث الذى له علاقة بالأمن السياسى، سوف يشك فيهم هم أنفسهم حينذاك، (اكتشفت فيما بعد أن الضابطين الذين ألقيا القبض على –الصاغ حسن المصيلحى واليوزباشى محمود مراد- قد قدما من القاهرة مباشرة).

أمام المنزل، كانت هناك عربة. لم أرها فى الصباح. كان علىّ أن أدخلها لا أدرى إلى أين؟ اتجهت إلى مبنى المديرية. لحق بىّ ابنا صاحب المنزل ووالدهما. كانوا منزعجين غاية الانزعاج. حاولت تهدئتهم. كنت قد بدأت اعتاد هذا الوضع الغريب. كانوا غاية فى الشهامة والشجاعة. وقد تسببت هذه «الزيارة» لى فى تعرض منزلهم للتفتيش الدقيق، ربما بحثاً عن بقية «عزيزة»، أو أية أوراق «قد تفيد التحقيق».

من المديرية، سارت بنا العربة ووراءها عربة أخرى. ربما كانت من قوة المباحث المحلية. لكن إلى أين؟ لم أعد أسأل. إذ صار واضحاً أننى لم أعد أملك هذا الحق. كان علىّ أن أفكر وأن ألزم الصمت. الطريق الذى سلكته السيارتان يفضى إلى المدرسة. أتأمل الشوارع وقد امتلأت بالناس، كبارًا وشباباً وأطفالاً، ذكوراً وإناثاً نفس المحلات التجارية ونفس المطاعم التى أراها كل يوم. نفس الزحام. نفس الحياة تسير على وتيرتها. أرى بعضاً ممن أعرفهم، لكننى لا أستطيع أن أكلم أحداً. إلا أن أحداً لا يحس بما حل بى، أو يدرى بهذا «التكريم» الذى يحيطنى (هل يعانى الميت نفس الأحاسيس أيضاً، وهو يقاد إلى مرقده الأخير). أحس بوداع صامت من طرف واحد.

نصل المدرسة فتنقلب رأساً على عقب، أدخل محاطاً بكل هؤلاء «السادة». يتوجه ثالث، ربما كان ضابط المباحث المحلى، إلى حجرة الناظر ثم يعود ليقول لكبيرهم:

-تمام يا أفندم.

اصطحب معه سكرتير المدرسة. توجه الجميع، وأنا معهم، إلى المعمل والمدرج. جرى «التفتيش الدقيق» مرة أخرى، غير أنهم لم يجدوا شيئًا البتة. فراش المعمل وقف فاغرافاه، عاجزاً عن الكلام. المدرسون ينظرون من نوافذ الغرف حيث ما زال تصحيح أوراق الامتحان جارياً. ناظراً المدرسة وقف أمام باب غرفته ينظر إلى ما يجرى فى مدرسته صامتاً حائراً. لا بد أنه قد عرف بالأمر، شيوعى «خطير» فى مدرسته دون أن يدرى! كنت أنظر حولى أودع كل ما أراه، بشراً أم جماداً. لا أدرى متى سأرى هذا العالم مرة أخرى، إن قُدر لى أن أراه. الموكب الحافل، وأنا فى وسطه يسير نحو بوابة المدرسة. نمتطى السيارتين، فتنطلقان. إلى أين؟ لا أدرى. لكننى أدركت بعد قليل أننا نتجه إلى خارج المدينة. صاحبتنا السيارة المحلية حتى الأطراف ثم عادت. إننا فى طريقنا الآن إلى القاهرة. الضابط الأعلى رتبة يسوق السيارة وإلى جواره الآخر الأقل رتبة. أنا جالس فى الخلف وسط الإثنين الآخرين، وقد انحشر السائق الأصلى معنا. لاحظت أنه كلما سبقتنا سيارة، قال كبيرهم:

-خدتها؟

فيقول الآخر:

-أيوه، خدتها.

عجبت فى البداية، ما الذى يأخذه؟ اكتشفت أن ما يأخذه هى أرقام السيارات التى تسبقنا. يبدو أنهما كانا يخشيان أن يطاردهما أحد ليخلصنى منهما. ضحكت فى سريرتى لهذا الخاطر. (علمت فيما بعد أن إبنى صاحب الدار التى كنت أقطنها، قد فكرا بالفعلِ فى القيام بمثل هذا العمل، غير أن الموقف لم يسعفها. كما علمت أيضاً أن جريدة محلية نشرت حكاية القبض علىّ بالبنط العريض، وأضافت أن المباحث قد عثرت فى منزلى على دفتر الشيكات الذى كنت أصرف منه للأعضاء. وللحق أقول، والله على ما أقول شهيد، أننى حتى ذلك التاريخ لم أكن قد رأيت شيكاً فى حياتى.

كان السؤال الذى يشغل بالى، كيف توصلوا إلىّ؟ أنا جالس بين المخبرين أتأمل المساحات الخضراء تترى وراء السيارة، والشمس

ساطعة، والناس جميعاً إلى أعمالهم. الحياة كما هى، سيرها الحثيث أو البطىء. وأنا إلى أين؟ كيف وقعت قبل أن أتوه فى زحام الإسكندرية بيوم أو بيومين؟ لابد أننى كنت مراقباً مراقبة دقيقة، حتى أمكنهم التوصل إلى دارى وشقتى فيها. هنالك من يعرف تحركاتى، بل ربما خطواتى. كيف حدث ذلك؟ كيف؟ فجأة سمعت الضابط الأعلى رتبة والذى يسوق السيارة يقول:

-على فكرة، أنا قريت جواباتك.

لم ألتفت إليه. لم أعرف تحديداً إن كان يقصدني أم يحادث الضابط الآخر الأقل رتبة. استمر وكأنه لا ينتظر جواباً من أحد.

-عاملين نشاط مش بطال فى الأرياف، وفى العمال، وفى وسط الأفندية كمان.

شدت الكلمات الساخرة انتباهي تماماً، رغم تظاهرى بعدم الالتفات، باعتبار أن الأمر لا يعنينى أبداً.

هذا آخر خطاب أرسلته بالفعل إلى الزملاء فى السجن، أطمئنهم على أن التنظيم قائم، لملم جراحه بعد القبض عليهم واستمر يتقدم فى طريقه.

-لما توصل مصر، هوريك الجوابات.

وأنا لا أجيب أو أتجاوب. أحاول فقط الحفاظ على تماسكى، وإن كانت أعماقى تفور بالقلق. شخص واحد كان يتسلم منى تلك الخطابات، عامل، عضو جديد بالتنظيم، تطوع لزيارة الزملاء فى السجن وتوصيل الخطابات إليهم. وقد وصلتهم بالفعل كل الخطابات التى أرسلتها إليهم. تيقنت ذلك بأساليب أخرى. لم أكن أكتب إليهم عن أشياء محددة يمكن أن تضير أمان التنظيم، كنت أكتب كلاماً عاماً. غير أن تلك ليست هى المشكلة الآن. المشكلة هى من يكون هذا الاختراق؟ ومن أين جاء؟ من داخل السجن؟ أم من خارجه؟ الزملاء داخل السجن أعرفهم معرفتى بنفسى. نحن معاً منذ سنوات طوال، وأنا أعرف أيضاً أن أحداً منهم لم يضعفه السجن أو يوهن قواه. وهذا العامل المتطوع، أعرفه منذ شهور قليلة. وقد أنقذت حياة زوجته من مرض عضال، عن طريق بعد الأصدقاء الأطباء. حقاً، أنه لم يختبر اختباراً عسيراً بعد، لكنه يحتل بين العمال موقعاً قيادياً. إنه محل ثقتهم. هل يمكن أن يخون هذه الثقة،

ويكون جاحدًا إلى هذا الحد؟
وبرز أمامى، فجأة، سؤال آثار حيرتي. إن هذا الضابط، عالى الرتبة، يعلم جيداً أنه يحرق، بما يقول، واحداً من عملائه. لماذا يفعل ذلك؟ لماذا يضحى به؟ إلا أن الحالة التى صرت إليها، نبهتنى إلي ما استهدف. إنه يحرق واحداً من عملائه، فى مقابل أن يحرقنا، جميعاً، الشك فى بعضنا البعض. إننا حتى نصل إلى الخائن الفعلى، سوف نجوس فى مراجعة دور كل منا، واحتمال الشك فيه. بل إن وصول هذا الخبر إلى الزملاء الذين ما زالوا يعملون فى الخارج سوف يصيبهم بالشلل. هذا بالإضافة إلى شعورنا (أنا وغيرى، إن كان قد قبض على آخرين) بضعف موقفنا، إذ نحن لا ندرى ما الذى يخبئونه لنا؟ وما الذى يعرفونه عنا؟ وإلى أى مدى تعرينا؟ إلا أننى تماسكت ثانية. إننى بهذا النحو من التفكير أحقق له ما يريد.
كان علىّ، والطريق إلى القاهرة ما زال طويلاً، أن أفكر فى شىء آخر، أفكر فى احتمالات تلك الضربة ومداها.

* * * *

1* العماد هو أحد الطقوس الدينية فى المسيحية، حيث يعمد المرء بتغطيسه مرات ثلاث فى ماء جرت الصلاة عليه.

الفصل الثانى

قيد وقضبان

أخذونى فى القاهرة إلى مبنى ضخم جهمٍ كل ما فيه مريب. كلما مررت بأحد ممن فيه تفرس فىّ مبحلقاً، غارساً فى وجهى عينيه. المبنى كان، بشراً وحجارة، صرامة فى صرامة. كل من فيه يرحب «بالبطلين» اللذين معى، فقد «وفقهما الله» وعادا بالعديد معهما. لمحت زميلىّ محمد محمود عثمان وصلاح هلال فى حجرتين منفصلتين. تصرفت وكأنى لا أعرفهما. عزلونى فى حجرة ثالثة. الضربة فى اللحم الحى، فمحمد له دوره فى جسد التنظيم، وصلاح له دوره العمالى والنقابى والحزبى.
لم يحضر المصيلحى لىّ الخطاب الذى حدثنى عنه فى السيارة. ولم أسأله أنا أيضاً أين هذا الخطاب. أرسلونى إلى أحدهم لأجيب على أسئلة لا معنى لها، فالمفروض أنهم، كما يدعون، يعرفون عنى كل شىء.
سألنى ما اسمك؟ ما سنك؟ ما وظيفتك؟ ما عنوانك؟ هل لك اخوة؟ أسماؤهم؟ أين يعملون؟ ما عناوينهم؟ هل ما زال والداك أحياء؟ ما عنوانهما. لم أذكر كل أسماء أخوتى، وأحلت الجميع إلى عنوان أبى.
أخذونى إلى وكيل النيابة. كانت الأوراق والمطبوعات وبرواز «عزيزة»، التى عثروا عليها لدىّ أمامه. سألنى بطريقة من يمارس عملاً مملاً:
-هل تعرف هذه الأوراق وتلك المطبوعات وذلك الرونيو؟
-لا أعرف.
-هل تعرف مصدرها؟
-إذا كنت لا أعرفها، فكيف لى أن أعرف مصدرها. إن ما أود أن أعرفه هو لماذا أنا مقبوض علىّ؟ ولماذا فتش منزلى دون أمر قبض أو تفتيش؟
تجاهل سؤالى، واستمر يسأل:
-أنت متهم بتأسيس وإدارة منظمة شيوعية هى طليعة الشيوعيين المصريين.
-عليك أنت أن تثبت ذلك.
-ما علاقتك بالمدعو محمد محمود عثمان؟
-لا أعرف أحداً بهذا الاسم.

-ما علاقتك بالمدعو صلاح هلال؟
-لا أعرف أحداً بهذا الاسم.
-هل لديك أقوال أخرى؟
-نعم، إننى أطالب بالإفراج الفورى عنى، حيث لا يوجد أى سند قانونى للقبض علىّ.
هز وكيل النيابة رأسه كمن يرثى لحالى. طلب منى الاستكتاب، فكتبت بطريقة لا تماثل خطى بأى حال من الأحوال، وبذا تصبح تلك الأداة دليل براءتى، لا إدانتى. طلب منى التوقيع فوقعت، وانصرفت.
أرسلوا بنا معاً إلى قسم الخليفة. تظاهرنا بأن أحداً منا لا يعرف الآخر.
قسم الخليفة هذا يكاد يكون من أقذر أقسام البوليس. ما أن دخلت التخشيبة حتى صدمتنى رائحة عطنة عفنة. كانت كقبر جماعى، ما زالت أجساد من فيه تفرز أردأ ما فيها. رائحة النوشادر طافحة سابحة، تزكم الأنوف وتمسك بالصدور.
أخذنا بعضنا البعض بالأحضان. لم يعد هنالك داع للتخفى. انتحينا جانبا نحن الثلاثة. كان علينا أن نتدارس ما جرى، استعداداً لمجهول لا ندريه. لقد عثروا عند محمد على بعض الأوراق أيضًا. لكنهم لم يجدوا شيئًا عند صلاح. أسئلة النيابة لثلاثتنا كانت متماثلة، على وجه التقريب، وكذلك إجابتنا.
أخرجونا فى اليوم التالى لوجودنا فى التخشيبة من الجب النتن إلى سيارة. كاد هواء الشارع أن يصيبنى بالدوار. سارت بنا السيارة إلى مبنى هائل أشبه بصندوق خرافى تملؤه الثقوب. ولجنا بوابة ضخمة من باب صغير، وعلى البوابة شعار «السجن إصلاح وتهذيب» وكان السجن «سجن مصر» الشهير بـ «سجن قره ميدان».
أحسست وأنا أخطو إلى داخل السجن برهبة وخشية. هنا المكان الذى يعزل فيه الإنسان عن الحياة، لتتحول فيه أيامه إلى كابوس ثقيل لا تبدو له نهاية. إنها خطوة واحدة من الخارج إلى الداخل، لكنها تساوى عمرًا بأكمله.
كانت المفاجأة التى أذهلتنا أننا وجدنا زملاء لنا من المسجونين يتحركون بحرية فى غرف الشئون الإدارية للسجن. قدموا أنفسهم لنا. هجموا علينا

بالتحيات والسلامات، رغم أننا نراهم لأول مرة. إنهم دون شك يقصدون أن يبثوا فى نفسونا الطمأنينة. أحسسن براحة عميقة. انتهت الإجراءات، وجاء السجان ليصطحبنا إلى العنبر.
غادرنا مبنى الإدارة مع السجان وأحد الزملاء. رأيت حوشاً واسعاً، على جانبيه بنايتان مستطيلتان ضخمتان. البناية التى إلى اليمين تطل من ثقوبها خلف القضبان إناثٍ صغارٍ وكبار، بل وهنالك أطفال أيضاً.
نظرت إلى الزميل مندهشاً متسائلاً، فابتسم. كان على ما يبدو يتوقع ذلك، قال:
-دا عنبر النسا.
إزداد عجبى. تساءلت إن كانت النساء مسجونات معنا فى ذات العنبر.
تحولت ابتسامة الزميل إلى قهقهة.
-لا أبداً المبنى واحد، بس مقسوم عنبرين، عنبر «جيم» للسياسيين وعنبر «دال» للنساء. وصلنا عنبرنا. ذهلت وأنا أعبر بوابته الحديدية. كان مليئاً بالبالونات الملونة. والزملاء يرتدون ملابس نظيفة. كان أمامى عبد الله محمود كامل ومنصور زكى ومحمد درويش مصطفى فى انتظارنا. يبدو أن خبر وصولنا كان قد بلغهم. لم يكن عمر مكاوى معهم. كان قد غادر السجن. استقبلونا بالأحضان والأناشيد والهتافات. شاركهم زملاء آخرون، ربما من باب المجاملة، أو طبقاً لتقاليد الترحيب ومراسم الاستقبال. الفرق شاسع بين تخشيبة الخليفة وعنبر «جيم» المزدان بالأعلام والرايات الحمراء والمطرقة والمنجل وصور لينين وماو. بدا العنبر وكأننا فى بلد أحمر خلف جدران قاتمة.
اليوم أول يونيو، عيد الطفولة. ومنحنى الزملاء زنزانة انفرادية. كنت فى أشد الحاجة إلى الراحة، بعد هذه الرحلة الشاقة. قلت لمنصور:
-فيه موضوعات كثيرة عاوزين نتكلم فيها.
قال منصور:
-أنت دلوقت تستحمى وتستريح، والوقت هنا بالكوم، ما تقلقش.
غير أننى كنت قلقاً بالفعل، لا أدرى كيف ستتلقى أسرتى الخبر. كنت على يقين من أن أصحاب المنزل فى طنطا سوف يتصلون بها ويخبرونها بما حدث. ولا أدرى أيضاً ما حال وظيفتى، والأرجح أننى

سأفصل كما فصل كل من سبقنى.

أحسست أن كل ما يربطنى بالخارج يتمزق. أخذت حمامى ودخلت زنزانتى. قرفصت فوق السرير وحيداً، أتأمل تلك الجدران التى تطبق على أنفاسى. هنا سأقضى أيام وسنوات، ربما البقية الباقية من عمرى. من يدرى. هنا من حكم عليه بخمس سنوات وعشر سنوات. من يضمن لى بقية من عمرى تكفى السجن والعودة إلى الشوارع والطرقات أسير فيها بلا قيد ولا حُراس.

كان المفروض أن أكون الآن فى الأسكندرية. ما أبعد الشقة بين كليوباترا حيث يقيم أخى إدوارد وبين قرة ميدان. انقطعت عادتنا السنوية، عندما كنا صغارًا، حيث كنا نقضى أسبوعاً أو أسبوعين، صيف كل عام فى منزل جدى، جدى لأبى أو جدى لأمى، أو كليهما معًا.

ووجدت نفسى تنساب، دون أن أملك وقفها، خارج قضبان تلك الطاقة التى تسدها قضبان متقاطعة.

انطلقت إلى سنورس، إلى منزل جدى لأمى، لأبدأ الرحلة من أولها.

* * * *

الفصل الثالث

سنورس- طما

1928-1936

كان جدى لأمى وكيل تلغراف مدينة سنورس، مديرية الفيوم. هنالك رأى أبى أمى. كان وقتها يعمل «معاون بدل»، أى المعاون الذى يحل محل المعاون الأصلى عندما يقوم بإجازته. رآها فأعجب بها، فتزوجا. كانت صغيرة، والفرق بينهما قرابة أعوام عشر، أنجبت أخى الأكبر إدوارد. ثم لحقت أنابه بعد عامين. ولدتنى أمى فى منزل جدى الذى كان يقبع على امتداد رصيف المحطة، إلى جوار منزل ناظر المحطة ومنزل معاونها. وقد ظللنا نتردد على منزل سنورس، ربما حتى بلغت الثامنة من عمرى.

إننى لا أتذكر جدتى لأمى، فقد ماتت شابة، وتركت لجدى ثلاث بنات وثلاثة أولاد. كان أصغرهم يكبر أخى إدوارد بعامين، فكنا نبدو وإخوالى، كالإخوة «فوق رؤوس بعضهم البعض». بل كانت خالتى الصغرى وخالى الأصغر يلعبان معنا باعتبارنا جميعاً فى سن الطفولة.

كان جدى أصفر الشعر أبيض الوجه مشربا بالحمرة، ملون العينين، حتى أنهم كانوا يشبهونه بالأتراك أو الشوام. كان طويلاً وديعاً حنوناً واسع الصدر طويل البال.

ولدت أثناء صيام يونان. وثارت فكرة أن أدعى يونان. غير أن التقاليد تغلبت على المصادفة. أشعلت الأسرة ثلاث شمعات، ووضع على كل شمعة اسم: فخرى، فكرى، لمعى. احترقت شمعتا فكرى ولمعى، وظلت شمعة فخرى مشتعلة. وكان ذلك فألا، أن من يحملٍ اسم فخرى هو الأطول عمراً. كان أبى هو من اقترح الإسم، تيمناً باسم فخرى عبد النور الزعيم الوفدى لمديرية جرجا، مديريتنا. فقد كانت بلدتنا هى سوهاج، عاصمة المديرية. سنورس محفورة فى الذاكرة، الفراخ الفيومى، والبيض الفيومى، والعنب الفيومى، والتين الفيومى (الرمادى)، والبلح السيوى الذى يباع «بالأنجر» صف بيوت العاملين بالمحطة يمتد متماسكاً، تحيط به الحدائق وعشش الطيور والأرانب. الحديقة ناحية الرصيف، وسور عال، يحجبان المنزل عن عيون المسافرين. العشش

تحيط به من خلف، تحدها قناة مياه جارية أحياناَ، وراكدة فى أغلب الأحيان. قناة تدعى «الخليجة». لا أدرى إن كان الإسم مؤنث خليج أم شىء آخر، غير أنها خلجة حياة تمد الحدائق بماء ريها، ومن ورائها ساحة شاسعة يحدها سور هى السوق، الذى كثيراً ما كانوا يعثرون فيه، وفى الخليجة، على جثث قتلى، نسجت حولها قصص العفاريت وأفاعيلها وهى تسرح تمرح فى المنطقة كلها. وشوشة الماء ونفيق الضفادع وخربشات الصراصير والجنادب، وهذا السواد الداكن الساكن، الجاثم الممتد بلا حدود، إن حل الظلام، يوقظ رعبا رهيباً من المجهول، وخيالاً نشطاً يجسد العفاريت والشياطين، حتى وفاة جدتى، كان للعفاريت فيها نصيب وافر. كانت تجلس بمفردها وقت غبشة المساء. سمعت أصواتاً غريبة، فهرعت إلى الداخل، غير أن أصحاب الأصوات لاحقوها ولحقوا بها، ورموها بحصوات ثلاث، وكانت تلك هى بداية النهاية، ومرض الموت (شخص الأطباء المرض بأنه التهاب رئوى).

أعيش قصص العفاريت، وأجهد ذهنى كيف تخرج من أرض هى حبيسة فيها. هدانى عقلى، حينذاك، إلى أنه لا توجد فتحة فى الأرض غير فتحة المرحاض البلدى. لابد أنها منفذ كل تلك العفاريت. ولذا كان دخول المرحاض، بالنسبة لى، إن ضافت بى الحاجة، كرب أى كرب، وبلاء ما بعده بلاء، أستعين بكل قوى السماء كى تهب لنجدتى من هذا المجهول المهول.

عفاريت سنورس ليست إلا امتداداً لقصص بيت جدود جدى فى أسيوط. بيت واسع شاسع، يقبع فى نهاية شارع ضيق، أطلق عليه اسم السندى، لقب العائلة، يحيط به سور عال كأسوار الحصون، وبوابة خشبية مصفحة بالحديد (يمكن أن تصد جيشاً من الغزاة)، أو هكذا تصورت، عندما رأيته أول مرة. ما أن تعبر تلك البوابة، حتى ترى باحة، يحدها من اليسار صف من الحجرات، وفى الواجهة مصطبة عريضة تجلس عليها خالة أمى، وكانت الوحيدة التى ظلت بهذه الدار المهيبة الرهيبة، ومعها ابنتها، بعد أن هاجر الجميع إلى القاهرة، وكان فى الحائط الذى ينهى المصطبة كوة فيها «السبرتاية وعدة القهوة»، حيث تعد القهوة لنفسها وضيوفها، بنفسها. وكانت الباحة الكبرى، وهى ضعف الباحة

الصغرى تجيء خلف الحائط، ويجرى دخولها عبر باب جانبى، وهنالك فى وسطها بئر ماء كالجب، وبقايا أوانى ورشة لصباغة الأقمشة.
وحكايات مختلفة عن أصوات تصعد من البئر، ورائحة بخور تملأ المكان دون مصدر معروف لها. فحكاية أمى عن كنز هذه الدار، وحارسه الكلب الأشبه بالوحش، لكنه كلب طيب. والحلم الذى انقض على أنفاسى ليلة سمعت الحكاية، كنت أبحث عن الكنز، لكن حارسه أمسك بى. كان غولاً بشعاً، لا كلباً طيباً. كاد يفتك بى، فانطلقت صرخاتى داوية من أعماقى فايقظتنى ألهث مذعوراً. رأيت هذه الدار مرة، غير أن نفسى لم تتق لرؤيتها أبداً. لم أكن أجرؤ على تخطى باب الباحة الداخلية إليها. وآخر ما أذكره عنها هو انطلاقنا إلى الشارع الرئيسى عندما سمعنا صوت بائع الأذرة المسلوقة. دفع بسيخ حديدى إلى داخل قدر تماسى كبير، ليخرجه وقد انغرست فيه «أكواز» الأذرة يتصاعد منها بخار يملؤ الخياشيم، ونحن نحشو أفواهنا بالحبات الذهبية الساخنة اللاسعة.

* * * *

انتقل جدى من سنورس إلى منفلوط. وأصبح والدى معاون محطة طما. كانت والدتى قد انجبت سمير ثم رأفت.
وتعرفت على المدرسة أول ما تعرفت فى طما، كانت مدرسة إلزامية، حيث كنا نحفظ القرآن، بالضرب المبرح إذا لزم الأمر. ليس هنالك ذرة تسامح أو تهاون مع خطأ فى القواعد أو التشكيل أو سقوط كلمة هنا أو حرف هناك. وكان الأمر كذلك فى الحساب عامة وجدول الضرب خاصة.
كانت طما تتوسط منفلوط، التى تقع شمالها، حيث يعمل جدى لأمى، ينى السندى، وسوهاج التى تقع جنوبها، حيث يقطن جدى لأبى، المقدس حنا إبراهيم. وكان ذلك الموقع يوفر لنا فرصة ذهبية لقضاء الإجازة الصيفية عند الجدين.
ذهبنا هذا الصيف إلى منفلوط. كنت فى السابعة من عمرى، صبياً شقياً. شكلنا فريقين، فريق فيه إدوارد شقيقى الأكبر، والفريق الآخر كنت أنا فيه ومنير خالى الأصغر. وباقى أعضاء الفريقين من أبناء المنطقة التى يقع فيها منزل جدى. لم يكن منزلاً حكومياً كما كان الحال فى سنورس،

كان منزلاً فى أحد أحياء المدينة، منزلاً كبيراً «من بابه»، لا يسكنه غير جدى وأسرته. كان هنالك دور أرضى لا يستخدم، والدور الثانى تعيش فيه الأسرة، وسطح المنزل حيث حجرة الفرن والخبيز، والباقى مساحة فارغة يحيط بها سور منخفض.

تسلح الفريقان بأيدى المقشات وقطع الأخشاب. واعد كل فرد من الأفراد لنفسه غطاء رأس من ورق الجرائد. وأخذ كل فريق يسير فى خطى عسكرية يتحدى الفريق الآخر. كان أحد الفرق يسمى نفسه الفريق الأزرق ويسمى الآخر نفسه الفريق الأخضر (أشبه بفرق الوفد ومصر الفتاة)، ومرة أخرى يسمى أحدهما نفسه الفريق الحبشى والآخر الفريق الطليانى، ويجىء التحرش بعد التحدى ثم الصدام والالتحام، وترتفع صرخات الحرب فى الشارع، ويهرع الأهل من بيوتهم يفضون هذه الاشتباكات اليومية. وكان خالى الأوسط فريد، هو الذى ينزل، ممثلاً أسرة جدى، ليساهم فى فض هذه الاشتباكات، وتوجيه اللوم لنا على أفعالنا الصبيانية المزعجة. كان خالى الأكبر وليم يدرس فى كلية التجارة بالقاهرة، ولم يكن قد عاد بعد. كنا نعيد الكرة يوماً بعد يوم. حتى جاء مساء اشتد فيه وطيس الحرب، فأسرع البعض منا إلى المنازل، لإحضار السكاكين دعماً للمقاتلين فأمسك الأهل بهم. وأسرعنا نحن الثلاثة نستكمل الحرب داخل المنزل نطارد بعضنا البعض، واستغاث خالى فريد بجدى فهرع إليه غير أنه كان قد كبر سناً، فزلقت قدمه وسقط، ثم انطلق وخالى وراءنا وأمسكا بإدوارد ومنير ونالا علقة طيبة. أما أنا فقد هربت إلى السطح حيث كانت خالاتى، فتوسطن عند جدى ليعفو عنى، إذ كنت أصغر الشياطين الثلاثة. وكانت تلك الليلة هى نهاية حرب الزرق والخضر، وإيطاليا والحبشة.

وقررنا نحن الثلاثة ألا نعود إلى لعبة الحرب تلك مرة أخرى، وأن نبدأ فى عمل شىء مفيد، خلال ما تبقى لنا من أيام فى منفلوط. وتوصلنا إلى أن يشكل ثلاثتنا فرقة مسرحية، تتخذ من سطح البيت مسرحاً وقاعة، ومن حجرة الفرن، حجرة للملابس والمكياج. وحددنا أجر دخول المسرح بمليم واحد، يدفعه المتفرج فنسمح له بالصعود إلى السطح ليجلس القرفصاء. وأصبح زبائن المسرح هم أعضاء الفريقين

المتناحرين، بالإضافة إلى خالى وخالاتى ووالدتى وسمير ورأفت.
كنا نقدم نمراً، كما نقدم للصبية حلوى بمقدار المليم الذى دفعوه. وكانت واحدة من تلك النمر التى تقدمها غرة سودانية مصحوبة بالرقص. كنا ندهن وجوهنا برماد الفرن أو «هباب» لمبة الجاز لنصبح سود البشرة، ونخرج واحداً بعد الآخر، وقد شمرنا ملابسنا، يمسك كل منا بقطعة خشبية باعتبارها سيفاً أو رمحاً، نخرج من حجرة الفرن إلى خشبة المسرح (الذى هو جزء من السطح)، لنقابل بالتصفيق والتهليل، ونحن نقفز بلا نظام نشوح بالسيف أو الرمح، نرقص ونغنى:

نحن عبيد من السودان
وقت الحرب زى الجان
نضرب بالسيف الرنان
أيا لا موزا وسلمك الله

إلا أن خالاتى تأففن من هذا العمل الفنى وآثاره التى تمثلت فى اتساخنا واتساخ ملابسنا واتساخ المنزل، والضجة التى كان يحدثها رواد المسرح والتى أقلقت الجيران. كما أن تكرار النمر لذات المتفرجين، وصعوبة الظروف الاقتصادية لأسر بعض زبائننا التى لا تستطيع توفير مصروف يومى ثابت قدره مليم واحد، وربما لأكثر من إبن، قد أثر على انتظام جمهورنا فاتجه نحو التناقض، مما أدى إلى إغلاقنا للمسرح.
انتهت مدة إجازتنا فى منزل جدى ينى، فعدنا إلى طما. غير أننا ما أن وصلنا حتى بدأنا الاستعدادات للذهاب إلى منزل جدى لأبى، المقدس حنا، فى سوهاج. اتسعت الزيارة هذه المرة لتشمل أبى أيضاً.
كان جدى فى الأصل من نواحى ديروط، وجدتى من نواحى أولاد إلياس. غير أن جدى، لسبب ما، ترك بلده إلى المنيا، ربما اختفاء من السلطة، وربما خشية صراع حول ميراث، ثم انتقل من المنيا إلى سوهاج، حيث استقر وانجب قبيلة المقدس حنا. كان يعمل خراطاً فى ورش السكك الحديدية. ويسكن فى نجع الورشة الذى يقع قريباً من الورش، وشوارع النجع كلها حوارى. ويبدو أن جدى كان من أوائل من سكنوا تلك الحارة. كان يمتلك فيها ثلاثة بيوت، وكانت جدتى تمتلك بيتا رابعاً. وكانت واحدة من عماتى تسكن فى الجوار أيضاً، فى بيت تمتلكه.
كانت حارة جدى، لا تسمح بمرور عربة الحنطور. فبالإضافة إلى

ضيقها، كثيراً ما يرقد بعرضها جمل أو أكثر، ينام مسترخياَ يجتر. كنا نترك الحنطور على رأس الحارة، ونجتازها سيراً على الأقدام حتى منزل جدى. وكانت أمى تخشى من الحسد، علينا، وعلى نفسها وزوجها. فقد كان أهل الحارة يطلقون عليها اسم «أم الولاد»، لأن ذريتها كلها حتى الآن كانت ذكوراً. كانت تخشى أن يراها أهل الحارة هى وزوجها وخلفها أولادهما الأربعة، أفندية صغارًا. لذا كانت تصر دوما على الاحتماء وأسرتها، من عيون الحاسدين، بالليل وقد أظلم المكان.
كنا نعرف بيت جدى الذى سننزل فيه من تمساح كبير محنط محشو بالقش معلق على بابه. كان مدخل البيت يقود إلى حجرتين فارغتين بلا أبواب، ومنافذهما مغلقة طوال الوقت مما كان يجعلهما مظلمتين تماماً.
كنا نأتى بـ «قلة» فخاربه، ونكسر رقبتها، ونقلبها على ما تبقى من هذه الرقبة، بعد أن نكون قد فتحنا، بعناية شديدة، ثقبين أشبه بالعينين فى جزئها المستدير، ونضع أسفلها فتيلاً مشتعلاً، وبذا تصبح أشبه برأس إنسان، واقعة على الأرض، والنار والدخان يخرجان من فتحتى الثقبين. وكان الأطفال الذين يلعبون معنا «الغماية» من الأقارب أو الجيران، يحاولون الاختفاء فى «بير السلم» فيفاجأون بهاتين العينين المشتعلين فى رأس «أقرع»، ملقى فوق الأرض، فـ «ينسرعون» ويصابون بالذعر صارخين «عفريت، عفريت». وتسرع جدتى تخفف عنهم أثر هذا الرعب:
-دى قُلة يا ضناى. ما تخفش يا حبيبى. تعالى أوريهالك.
وتدارى جدتى ابتسامتها من شقاوة أحفادها.
-صحيح ما عفريت إلا بنى آدم.
ثم تنادى على أمى:
-تعالى يا إلين شوفى عيالك وشقاوتهم. شياطين من صغرهم.
كانت تحبنا كثيراً. وأعتقد أنها كانت سعيدة بشقاوتنا. ولكن لو بلغت تلك المسائل جدى يختلف الأمر. كان يتمنطق بحزام جلدى عريض، فيخلعه، وتكون تلك إشارة لما يمكن أن يحل بناء فنسرع هاربين، أو نحتمى بجدتى وأمى. كانت جدتى تهدأ من إنفعاله:
-خلاص يا مقدس، مش هيعملوا كده تانى. قول يا فخرى مش هعمل كده

تانى.
لكننى أتردد وأقول:
-إحنا كنا بنلعب يا سيدى، حتى إسأل ستى.
وتسرع أمى تتدخل:
-خلاص يا عمى أنا هضربه. هوه أصله لمض.
ويهدأ جدى وتمر الأزمة. غير أن أزمة أخرى كادت ألا تمر. لم تكن تلك فى سوهاج، لكنها كانت فى طما. فقد جاءنا طبيب قريب لنا من طهطا، طبيب مشهور للغاية، لكنه قبل أن يجرى لنا عملية ختان بالجملة. كنا نحن الأربعة، ومعنا خالنا الصغير منير والذى تصادف وجوده معنا. وسافر الطبيب مشكوراً، وجاء جدى لزيارتنا والاطمئنان علينا. كنا نسير وقد انفرجت سيقاننا، ونحن نضحك من بعضنا البعض، من منظرنا وما حل بنا. ولا أدرى ما الذى أخذه جدى علينا، إذ أنه غضب غضباً شديداً، وخلع حزامه، ولم يكن خالى الأصغر يعرف دلالة هذه الحركة، لكننا نحن أحفاده كنا نعرفها جيداً، فجذبناه بشدة، حتى كاد يقع، وانطلقنا مذعورين نبحث عن مأوى نختفى فيه، وكل منا يحمل جرحه بين ساقيه. هربنا إلى الحديقة وسطح المنزل وحجرة الفرن، وعشش الطيور، تناثرنا هباء. ودارت أمى ملهوفة تبحث عنا، تجمعنا، وتهدأ مخاوفنا، وتتأكد، فى الأساس، أن جراحنا لم تنزف بمناسبة هذا الحدث الجلل.
كان سيدى وستى (جدى وجدتى) كتلة من الحنان. وأنا لا أتذكر أبداً أن هذا الحزام الجلدى الرهيب قد نزل على جسد واحد منا. لكنه كان وسيلة تخويف «تربوية». كان رمزاً أكثر منه أداة.
كانت ذرية جدى، أربعة من الذكور: صبحى ومهنى ولبيب وناشد، وثلاث من الإناث. كان عمى الأكبر يعمل منذ صباه خراطاً مع جدى. وقع عليه ما كان يقع على الإبن الأكبر من غبن أن يكون فداء لباقى أخوته، ويعمل، فى الغالب، فى مهنة أبيه، كى يعاونه على تربية الباقين. وكان عمى مهنى معاون بريد فى مكتب سوهاج، أما عمى ناشد، فإننى أتذكره كظلال وأطياف بعيدة. كان يمسك بيدى، يطوحنى فى الهواء فوق سطح المنزل وأنا أصرخ فى سعادة بالغة. كان فى البكالوريا، وكان

فرحة الأسرة كلها وأملها أن يلتحق بالجامعة. لكنه مرض ومات فى ريعان شبابه، فكان صدمة داوية لوالديه وأخوته.
كان عمى صبحى يسكن وأسرته فى المنزل الملاصق لمنزل جدى، وكان يمتلكه أيضًا. كان لديه حينذاك ابنة وابنان: إبراهيم ونبيل (وسوف يكون لديه عندما تكتمل ذريته، ابنة وستة أبناء). وكان فى وسعنا الانتقال ما بين البيتين من أبوابهما، أو قفزا من فوق الأسطح، وتلك كانت الأقرب إلينا، والمفضلة لدينا.
وكان عمى مهنى يسكن هو وأسرته فى نجع أبو شجرة، فى منزله الذى يمتلكه. ونجع أبو شجرة حى أرقى من نجع الورشة. كان لديه حينذاك ابنتان وابن: داود (عندما تكتمل ذريته سوف يكون لديه ابنتان وثلاثة أبناء).
أما عماتى الثلاث، فقد تزوجت إحداهن وأقامت فى الإسكندرية وأنجبت إبنين. وتزوجت الثانية وعاشت فى القنطرة، وأنجبت قبيلة. وتزوجت الثالثة فى سوهاج وأقامت إلى جوار جدى، وقد أنجبت بنتين أسمتها الضبعة والغولة، رغم رقتهما الشديدة. لم يكن يعيش لها خلف، وكان للحسد مكانته العالية، فنصحها المعارف والأحباء وذوى الخبرة أن تطلق على من تنجبه أسماء مخيفة تبعد عنه عيون الحساد. وكان اسماهما الحقيقيان فايزة وفوزية، فقد فازتا بالحياة.
كان جدى وجدتى وعمى صبحى وزوجته وابنته قد ذهبوا جميعاً إلى القدس فى هذا العام. مصلحة السكك الحديدية تمنح العاملين لديها تذاكر مجانية، والقطار ينطلق من القنطرة شرق إلى القدس. وعاد جدى المقدس حنا وهو يحمل لكل ولد من أحفاده طاقماً عربياً، عقالاً وشالاً، وارتديناهما على الجلاليب البيضاء التى «تشف وترف» والصنادل المحترمة لنختال بكل هذا على باقى أبناء الحارة.

* * * *

الفصل الرابع

أبو قرقاص

1936-1940

نُقل والدى من طما إلى أبو قرقاص. نحن نزحف من الجنوب إلى الشمال، من مديرية جرجا إلى مديرية المنيا. ليس لنا منزل حكومى نسكن فيه على المحطة كما كان الحال فى طما. استأجر والدى شقة جميلة واسعة، بجنيهين اثنين فى الشهر. كان يسكن معنا، فى ذات المنزل، ناظر المدرسة الابتدائية التى التحقت بها، بعد أن أنهيت دراستى الإلزامية فى طما.

غدت زوجة الناظر صديقة حميمة لوالدتى. كانت سيدة جميلة للغاية، واسمها إقبال. وكانت أمى تحبها، وتقول عنها لبهائها أنها تركية. انجبت أمى خلفها الخامس، وكانت طفلة جميلة، أسمتها أمى دون تردد إقبالٍ. كانت أمى تحلم بابنة، لذا كانت سعيدة غاية السعادة، وكنا نحن أيضاً فرحين لفرحتها، ولأن الله قد من علينا بشقيقة.

المدرسة الابتدائية فخمة، كبيرة، واسعة، على شكل مستطيل، فصولها مرصوصة حول الضلعين الطوليين، وضلع بالعرض هو المدخل، والضلع المواجه له هو الإدارة. إننا نحس بالاعتزاز ونحن ندخلها. اليوم الدراسى على فترتين، الصباحية حتى الظهيرة، ثم نذهب إلى بيوتنا للغذاء، والعودة لاستكمال اليوم الدراسى، ولا نغادر المدرسة إلا بعد الانتهاء من واجباتنا، وسؤال الأساتذة عما عصى علينا فهمه وإدراكه.

أمام الفصول طرقة واسعة تسير بامتداد المستطيل، ويحدها ناحية حوش المدرسة درابزين خشبى جميل.

المدرسة غنية بمكتبة هائلة يشجعنا أساتذة اللغة العربية على ارتيادها، والإطلاع على ما بها من مجلات كالمقتطف والرسالة. وأغرق فى كتب المنفلوطى، تشدنى لغتها الفخيمة، وأسلوبها الموسيقى، فأكاد أحفظ البعض منها عن ظهر قلب.

أخبرونا ذات يوم أن نكون فى الغد على أتم استعداد، نرتدى أنظف ملابسنا وجواربنا، وقد لمعنا أحذيتنا، وقصصنا شعرنا وأظافرنا.

جاء الغد، وقد غدا مدرسونا فى حالة من التوتر شديدة، وناظر المدرسة

يلقى بالأوامر والتعليمات. أوقفونا صفوفاً كالمعتاد. مر المدرسون علينا يفحصوننا فحصاً دقيقاً، ومن لم يكن مطابقاً للمواصفات أبعد من الطابور. ثم جُمع من ثم اختيارهم فى سيارة كبيرة، حملتنا إلى حيث لا نعلم شرقى النيل. وقد عرفنا عندما وصلنا أن المكان يدعى «بنى حسن». وأن باخرة سوف تصل وعليها ولى العهد، أمير الصعيد، الأمير فاروق، ابن الملك فؤاد الأول.

وانتقل إلينا قلق الآخرين وتوترهم. غير أننا كنا نحس بالتميز إذ نحن من وقع عليه الاختيار لاستقباله.

لاحت السفينة الجميلة تتهادى، تقترب من الشاطىء. وتعالت منا الهتافات، غير أن المدرسين الملازمين لنا اسكتونا حتى نحتفظ بقوة أصواتنا لحين يمر أمامنا الأمير. كنا منفعلين للغاية، مشدودين كدمى خشبية، نخشى أن يتحرك منا أى جزء حتى إن كان هدب العين. رست السفينة المحروسة، وهبط منها الأمير الشاب. وما أن اتجه نحونا، تحيط به حاشية فخيمة، حتى انطلقنا بالنشيد، بعد إشارة من مدرس الألعاب الرياضية:

بلادى، بلادى، فداكى دمى
وهبت حياتى فدا فاسلمى
غرامك أول ما فى الفؤاد
ونجواك آخر ما فى فمى
سأهتف باسمك ما قد حييت
تعيش بلادى ويحيا الملك

واقترب الشاب الأمير منى حلو الصورة، ناعماً، ريانا، تفور وجنتاه البيضاوتان بالدماء. وخيل إلىّ أنه يبتسم لى، فكادت ركبتاى أن تتهاويا. وشعرت بفخار ما بعده فخار، أن أرى أمير الصعيد، وولى العهد وجهاً لوجه. أحسست أن خيوطاً قوية تربطنى به، تشدنى إليه، حتى أنه عندما مات الملك فؤاد وأصبح الأمير فاروق ملكاً على البلاد، خرجت مع «تلاميذ المدرسة» نهتف فى شوارع أبو قرقاص «مات الملك، يحيا الملك»، وأنا سعيد للغاية، فقد غدا صديقى الأمير فاروق، غدا الملك فاروق الأول، حفظه الله. أحسست وكأنى أنا نفسى قد أصبحت لى يد فى حكم البلاد.

* * * *

الترعة الإبراهيمية تفصل المحطة شرقاً عن البلدة غرباً، عن أبو قرقاص الفكرية. غير أن هنالك أبو قرقاص أخرى تقع شرقى الترعة والمحطة، أنها أبو قرقاص البلد، والفرق شاسع بين تلك وبين أبو قرقاص الفكرية. تبعد أبو قرقاص البلد حوالى كيلو مترين عن محطة السكة الحديدية، وهى منطقة ريفية تماماً قرب النهر، وتنتشر فيها الخنازير بكثافة شديدة.

أبو قرقاص الفكرية تقع غربى الترعة الإبراهيمية، التى يعلوها كوبرى أمام المحطة، كوبرى يصب فى الشارع الرئيسى الذى يمتد بحذاء الترعة، والذى يزينه محل الإسكندرانى للأسماك الشهية، ومخبز بيع «العيش المجر، وهو خبز لذيذ للغاية يغطى السمسم صفحته العليا المقددة حتى الاحمرار بلون الكهرمان. وهنالك أيضاً محل «كاتشونى الجريجى»، والذى تعرض فى واجهته أنواع الياميش المختلفة، وكذا «الوشنة» التى تصنع منها مربى غاية فى الجمال. ولكوبرى الإبراهيمية ذكرى لا أحبها أبداً. كنت أعبره عائداً من عند والدى فى المحطة. كنت منتشياً سعيداً أشوح بقدمىّ فى الهواء، وفجأة اندفعت فردة الحذاء اليمنى إلى أعلى، وقبل أن أتبين ما جرى سمعت صوت طرطشة شديدة فى الماء. وكان علىّ أن أهرع إلى المنزل نصف حافٍ، لأتلقى نصيبى من اللوم والتقريع.

أبو قرقاص الفكرية جميلة نظيفة. تبدو كأنها قد قامت امتداداً «لفابريكة السكر»، ذلك المصنع الذى يبعث الحياة فى المدينة بأجور العاملين فيه، والتى تفوق أجور الموظفين العاديين.

حدث ذات ليلة أن اشتعلت النيران فى مخازن قصب المصنع. أسرع المدير يعاين ما يجرى ويحاول إطفاء الحريق. أطلقت عليه النيران وقتل. قيل أن الأساس فيما جرى الليلة هو القتل، فقد كان المدير مستبداً بالعاملين، وأن الحريق لم يكن غير الفخ الذى نصب له لاستدراجه.

* * * *

مر علىّ أحد زملائى وأصدقائى فى المدرسة. قال، إن هنالك صندوقاً عجيباً أحضره المقهى الذى يجاور منزلهم، صندوقاً يتكلم. قالت والدتى، إلى أين؟ قلت، لأرى صندوقاً يتكلم. بدا عليها الاندهاش والتوجس.

قالت، بسم الصليب وإشارة الصليب. نصحتنى ألا أقترب منه، بعد أن حاولت منعى من الذهاب، ولم تستطع. ذهبت وصديقى. كان المقهى ممتلئاً بالناس، بين مصدق وغير مصدق، لكن الجميع فى حالة من «الهياص والزياط». شققنا طريقنا بين سيقانهم حتى بلغنا الصندوق المتكلم بعد جهد جهيد. كان صندوقاً من خشب جميل وواجهة مزخرفة، وقد وقف صاحب المقهى قبالته، بينما وقف العاملون فى المقهى حوله حماية له. لعب صاحب المقهى دور الحاوى. كان يدير أزراراً فتصدر عن الصندوق أصواتاً مختلفة، ثم ثبته على قراءة القرآن الكريم. قال صديقى، ونحن نغادر، بينما يتلفت حوله فى خوف وخشية:

-دا باين جواه عفريت.

شخط فيه أحد المزاحمين:

-وهو العفريت بيقرا القرآن الكريم يا ولد.

أطلقنا سيقاننا فراراً. قال أبى عندما سألته تفسيراً:

-يا بنى الأسلاك بتنقل المكالمات فى التليفون، وبتنقل الإشارات فى التغراف، ممكن الهوا ينقل الكلام للبتاع اللى انت شفته النهاردة. دا العلم بحره غويط يا بنى.

* * * *

أعلن مدرس التاريخ، فى منتصف العام الدراسى، أنه سيكون فرقة مسرحية. أسرعت أنضم إليها، ربما استمراراً لهواية التمثيل التى مارسناها فوق سطح منزل جدى بمنفلوط. جمعنا المدرس وقال، أننا سنتدرب على تمثيلية عن الفرس ودخولهم مصر، وهى، كما قال، من اقتباسه وإعداده. وطلب من كل منا أن يحفظ دوره.

كنا نتدرب بعد انتهاء اليوم الدراسى، ساعة أو ساعتين، يوماً أو يومين فى الأسبوع. أسند إلىّ دور قمبيز، لا أدرى لماذا؟ فأنا لست طويلاً ولا عريضاً بهيئة القادة والغزاة، أنا على عكس ذلك نحيل، لكننى حفظت الدور سريعاً وأجدت أداءه، وكان نطقى للعربية جيداً لتعلمى المبكر فى المدرسة الإلزامية، مما أهلنى لهذا الدور.

لم أكن أكتفى بالتدريب الذى نقوم به فى المدرسة، كنت أنتهز أية فرصة فى المنزل، لأمتطى ظهر السرير وأمثل دورى، إلقاءً وأداءً، مما آثار لى المشاكل مع والدتى، لما كنت أسببه من إزعاج. امتلأ الصوان فى

يوم العرض، وأنا وزملائى نعيش فى الكواليس توتراً شديداً، نعيد ونعيد «تسميع» أدوارنا، فامتحان اليوم عسير.
جلسٍ ناظر المدرسة والمدرسون فى الصفوف الأولى. كان الناظر عملاقًا أحمر الوجه، يمسك دوما بخيرزانة رفيعة لمعت من كثرة استخدامها. لم تكن معه اليوم فى هذا الحفل الحاشد، لكننا جميعاً كنا نحس بها فى موضعها، مخفاة هناك وراء مقعدته. كان أحياناً يمر علينا أثناء البروفات، يسأل مدرسنا بصوت «يلعلع» تهديداً ووعيداً، وهو يدفع بالخيرزانة فى الهواء، فيصدر عنها أزيز وصفير:
-الولاد دول عاملين إيه، أنا خايف يفضحونا يوم الحفله.
كان يسير خلفه مدرس الألعاب الرياضية. كان فى الأصل مجنداً بالجيش. وهو المسئول عن الضبط والربط فى المدرسة، وهو الذى يحمل الأولاد المذنبين «ليعبطهم» حضرة الناظر بالخيرزانة على مؤخراتهم.
وهو المسئول اليوم عن المحافظة على النظام واجلاس الضيوف يعاونه بعض تلاميذ القسم المخصوص. عندما دقت الساعة الخامسة، وهى الموعد المحدد للبداية، أسرع مدرس الألعاب الرياضية إلى ناظر المدرسة ليبلغه أن كل شىء «تمام التمام»، فيعطى إشارة البدء، ليتقدم مدرسنا، وهو يفرك يديه، يلقى كلمة الافتتاح تمجيداً للمدرسة وناظرها واهتماماً بتنشئة جيل يحب الفن ويمارسه، وترحيباً بالضيوف الكرام.
وقوبلت كلمته بالتصفيق، فانحنى محييا ثم اتجه إلى خشبة المسرح ليدق ثلاث دقات ارتفعت بعدها ستارة المسرح وبدأ العرض.
كان التصفيق الحاد يقاطع الممثلين الصغار، مما كان يثير حماسنا، ويبعث بالطمأنينة إلى نفوسنا، حتى جاء دورى فتقدمت أرتدى ملابس ملك قائد فارسى، وفى يدى سيفاً الوح به فى الهواء، وأقول متحدياً:

أنا قمبير ابن كسرى
صاحب العرش العتيد
قد ملكت الآن مصر
كل من فيها عبيد

وسمعت استحساناً من الحاضرين يقول: الله الله، ثم تصفيق فردى، تلاه تصفيق جماعى حاد. وأعتقد أن أخى سمير هو الذى بدأ الاستحسان،

فتلك جملته التى يشجعنى بها دوما عند أمثل فى المنزل.
انتهت التمثيلية بنجاح هائل وفرحة غامرة. وغادرنا المدرسة. كنت أسير وأبى وأمى وأخوتى، والجميع فى أزهى أرديتهم وأجملها، توقف أبى لحظة، نظر إلىّ وقال:
-أنت مثلت كويس قوى النهارده، يا قمبيز أفندى.
وأحسست أننى قد حصلت اليوم على أعظم تحية وتقدير.

* * * *

التحقت بالفريق المخصوص، فريق الألعاب الرياضية، وفرقة الأشبال.
جاء اليوم الرياضى قرابة آخر العام. سرنا فيه بملابسنا المميزة لنا.
الأهل يحتلون الطرقة أمام الفصول، وقد تحولت إلى شرفة يطلون منها علينا. نحن نسير فى الطابور الرياضى ثم طابور الأشبال، نضرب الأرض بأقدامنا، والهواء بأذرعنا، ونحن على يقين أن أسرنا هنالك، ترمقنا فى فخار، وتصفق لنا فى حماس. وقدمت لنا المدرسة فى نهاية العرض جوائز ثمينة، منبه، زمزمية، ليحملها كل منا عالياً. وقد عاد بالخير إلى أسرته.

* * * *

انتهى العام الدراسى ونجحت –انتقلت إلى السنة الثانية. توجهت الأسرة كلها باستثناء والدى إلى منفلوط. كان جدى وخالى فريد ومنير فى انتظارنا على المحطة، ما أن رأونا حتى هللوا باسمين ملوحين. كنا نتقافز فى شبابيك القطار، أنا وإدوارد وسمير ورأفت ونصيح، سيدى ينى، سيدى ينى. دفعنا بالحقائب من الشباك ليتلقاها حمال كان يقف معهم. أسرعت والدتى بالنزول وهى تحمل إقبال، ونحن فى ذيلها.
تلقانا جدى وخالى فريد واحداً بعد الآخر حتى لا يقع من القطار إلى تحت الرصيف. أخذنا حنطوراً إلى المنزل. انتصبت إقبال على قدميها فى حجر أمها، بحلقت، فى جدها أمامها، إبتسمت له وأمسكته من ربطة عنقه، فانفجرنا ضاحكين. حاولت أمى جذب يدها فى رفق وهى تقول:
-عيب يا إقبال، دا سيدك ينى.
غير أن إقبال احتجت، بأن أخذت تضرب أمها بقدميها. قالت لها أمى فى غضب مفتعل:
-يا بت أنا مش قدك، بطلى الهرك دا.

وأجلستها قسرا على حجرٍها.
كانت أمى تحب إقبال حباً عظيما. كانت الإبنة التى جاءتها بعد شوق إليها، بعد صبيان أربع. كانت فى شهرها التاسع أميل للبياض، جميلة، عيناها واسعتان لها رموش طويلة، خداها اسفنجيان حمراوان يغريان بتقبيلها. كانت دوما باسمة، متيقظة، متأهبة، شقية، منقضة، كان غريمها رأفت فى الثالثة، من عمره، يغار منها بشدة، ويحاول انتزاع طعامها فتنهض إلى قدميها، تدفعه بعيداً عنها، أو تضربه وهى تزوم مزجرة، كأنما تنهره ألا يقترب مما لها. كنا نضحك مما تفعل، فتنظر إلينا مندهشة.
احتلت خالاتى نوافذ منزلهن فى انتظارنا. ما أن هلت عربة الحنطور حتى هرعن إلى الدور الأرضى لفتح الباب. اندفعنا من العربة إلى أحضانهن. اختطفن إقبال وأنهلن عليها تقبيلاً، وهى تنظر إليهن ذاهلة.
صعدنا السلالم فى زفة، وكل منا يحمل ما استطاع من متاعنا. جلسنا فى الدور الثانى نلتقط أنفاسنا وقد تحلقت حولنا خالاتى وخالى وجدى، الرجل الطيب، يتأمل أحفاده الخمسة، من ابنة واحدة ما زالت صغيرة، مما ينذر بقبيلة كبرى فى المستقبل.
أمضينا اليوم الأول فى هدوء قلق. فى اليوم الثانى حولنا المنزل إلى ساحة ألعاب، الاستغماية، والمطاردة، والسباق من أعلى إلى أسفل، وبطول الشقة والسطح، وعساكر وحرامية. أثرنا فوضى عارمة فى كل شيء. فعلنا كل ما يخطر على البال أو يجيء به الخيال، حتى الاستحمام جماعة، نحن الأربعة وأصغر أخوالى.
غير أن حدثا أخذ يلزمنا الصمت والهدوء. أصيبت إقبال بإسهال شديد. تحولت كتلة النشاط العارم، خلال يومين، إلى ما يشبه الخرقة. استنزف الإسهال قوتها ونضارتها، فزبلت وغارت عيناها وشحبت ابتسامتها أو تلاشت، ولم تجدى الأدوية التى تناولتها. وقال الطبيب أنها نزلة معوية حادة، وأن حالتها غير طيبة.
فى اليوم الثالث لمرضها، قررت أمى أن تعود بها إلى أبو قرقاص. حاول جدى وخالى وخالاتى إثنائها عن عزمها، لكن كل المحاولات ذهبت هباء. فقرر جدى أن تجيء خالتى روز معنا كى تكون إلى جانب

أمى فى هذا الوضع غير المطمئن.
غادر القطار المحطة، ونحن فى كرب شديد، إذ بينما تدخل أمى الديوان منفعلة اصطدمت رأس إقبال بالباب، فصرخت أمى:
-اسم الله عليك يا بنتى، إنشا الله أنا.
ضمتها بعنف أكثر إلى حضنها، وقد شهقنا جميعاً خشية أن تكون قد أصيبت، إلا أن صوتا لم يصدر عنها أو حركة. طلبت أمى منا أن نظل فى طرقة العربة، وأن نغلق الديوان عليها وخالتى حتى لا نكدر نوم إقبال أو راحتها.
فجأة فتح الديوان وقالت خالتى وصوتها يرتعش:
-إدوار، فخرى، أمكو عاوزاكو؟
أسرعنا بالدخول. كان وجه أمنا قاتما، وأنفاسها تتلاحق فى صدرها.
قالت وهى تلهث:
-شوفو اختكو. معرفش جرالها إيه. ليها مدة ما بتتحركش.
كانت أمى تتنفض. وبحلقنا فى إقبال، لا ندرى ماذا حل بها، ولا ماذا فى وسعنا أن نفعل. كانت عيناها اللامعتان الممتلئتان حياة، صامتتين بلا حراك، وأهدابها الطويلة الجميلة تراخت منكسرة.
دخل الكمسارى الديوان. كان يمر فرآنا ورأى إقبال. طلب من أمى أن تضع الطفلة فوق المقعد. رفضت أمى فى عناد وازدادت تشبثاً بها. نظر إليها الرجل مندهشاً. كانت تنتفض فخيل إليها إن إقبال هى التى تتحرك. رفعتها إلى صدرها وضمتها بقوة.
-أدفيها أحسن تبرد.
طلب الرجل من خالتى أن تقنعها بوضعها فوق المقعد. امتثلت أمام الإصرار. أغمض الرجل عينى إقبال وأغلق فمها، وفرش الغطاء عليها.
كانت شاحبة هزيلة، ذهب تورد خديها، واختفت الغمازتان اللتان كانتا تظهران كلما ضحكت أو حتى ابتسمت.
عندما رأت أمى ما فعل الرجل لطمت خديها، فأمسكت خالتى بيديها واحتضنتها. انسابت دموعها كالسيل وهى تندب صغيرتها، وقالت فى حنان حزين.
-بنتى، حبيبتى. ليد كده يا رب، دى لسه صغيره.

وأدركنا أن إقبال قد ماتت، فأخذنا نبكى بصوت مرتفع. فعاد الرجل إلينا سريعاً.
قال محذراً
-لأ مش كده إنتو رجاله وعيب اللى بتعملوه دا أقعدوا ساكتين لغاية ما تنزلو فى المحطة.
ثم نظر إلى خالتى وسألها:
-انت تقربلها إيه؟
قالت وهى تبكى:
-أختها.
-يا ستى لازم تسكتيهم كلهم. دا مش كويس عشان الطفلة. وأقفلوا باب الديوان. (علمت فيما بعد أنه فى حالة وفاة أى فرد فى قطار أو مواصلة عامة فإنه لابد من أخذه إلى المستشفى لإجراء الفحوصات اللازمة لمعرفة سبب الوفاة).
منعنا أنفسنا من البكاء بصوت مرتفع. لكننا عجزنا عن منع أنفسنا من البكاء الصامت والشهيق المكتوم. تلك أول مرة أواجه فيها الموت. أختى الملاك الطاهر أين ذهبت الآن. لقد ذهبت ولن أراها بعد الآن. وأحس بقهر شديد أمام ذلك المجهول الرهيب.
طرقات على باب الديوان فنفتحه. كان فراش العربة وقد ارتسم الحزن والأسى على وجهه. قال:
-أبو قرقاص، خلاص قربت.
دخل ليحمل متاعنا. غادرنا الديوان إلى جوار باب العربة، حاول الكمسارى أن يحمل إقبال أسرعت أمى تحملها وتحتضنها. تركنا الكمسارى سريعاً إلى الباب الآخر. رأيته يقفز من القطار قبل أن يقف، ويعود ووالدى فى خطى متعجلة تكاد تكون جرياً. غادرنا القطار، فحمل أبى إقبال وأسرع إلى خارج المحطة ونحن وراءه لا نكاد نلحق به.
وأمى تناديه بصوتها الدامع الباكى.
-على مهلك عليها.
انحشرنا فى عربة حنطور، أسرعت بنا إلى المنزل. انتحى أبى بخالتى جانباً، قال لها:

-لازم آخذ البنت وانزل حالا، عشان نصلى عليها وندفنها.
سمعته أمى فتشبثت بها:
-بنتى، حبيبتى، هتودوها فين؟
قالت خالتى وهى تربت عليها:
-انت عارفة يا ختى هنوديها فين، لازم نجهزها.
وصرخت أمى:
-أبداً، أبداً، محدش ياخدها منى، محدش ياخدها منى.
واستمرت خالتى وهى تكاد تنهار:
-أصلها لازم هتتاخد منك يا إلين. دى أمور ربنا. هوه عاوزها ملاك عنده. هوه اللى ادهالك وهوه بياخدها منك. ودى إرادته.
أمى مؤمنة، عميقة الإيمان، لكنها فى تلك اللحظة كانت تتساءل:
-ليه كده يا رب، ليه كده يا رب، دى لسه صغيره، راحت منى فى شربة ميه. ليه يا رب دانا كنت متمنياها.
وأخيراً نجحت خالتى فى انتزاعها، ودخلت بها حجرة النوم، وأغلقت الباب وراءها. نظفت جسدها بالكولونيا، وألبستها أزهى أرديتها.
كان والدى يجلس فى غرفته يبكى. ما إن دخلت عليه أخبره بأن إقبال قد استعدت حتى مسح دموعه، ووضع على وجهه قناعاً من الجدية والصرامة.
عندما أحست أمى أن اللحظة الأخيرة قد حلت، اندفعت تتشبث بها وهى تصيح:
-خلوها معايا شوية. خلوها معايا شوية. حرام عليكو.
وقال أبى فى هدوء حازم:
-اللى بتعمليه ده هو الحرام يا إلين. دى وديعة من ربنا، ولما ربنا يعوزها يستردها، لازم ليه حكمه فى كده، ولازم هيعوضنا عنها.
غير أنه لم يتمالك نفسه فبكى. وتهاوت أمى فتلقفتها خالتى. واندفع أبى نحو الباب محتضناً إقبال.
كان قد كلف أحد معاونيه أن ينهى الإجراءات اللازمة: تصريح الدفن، وفتح كنيسة المقابر التى تقع خارج البلدة للصلاة عليها، وتوفير مكان لدفنها. بعد أن عاد أبى استقبلته أمى مولولة:

-خلاص دفنتها يا لبيب. وجالك قلب تدفن ضناك يا لبيب.
واندفع أبى إلى حجرته وأغلق الباب وراءه. كان قد تحمل بمفرده كل هذا العبء الثقيل، لقد ودع إقبال إلى جدها زهرة فواحة يانعة، واستقبلها عائدة هامدة خامدة لقد بدأ بعد أن أكرمها بدفنها، يعانى الإحساس الرهيب بالفقدان الذى لا يعوض.
ذهبنا فى أول عيد لنا، أمى وأخوتى وأنا، إلى المقابر كى نزورها. لم نعرف أين دفنت. كان أبى يعرف مكانها، لكنه لم يخبرنا به أبداً.
وشعرت بحزن عميق، وكأنى أفقدها للمرة الثانية. وظللنا فى المنزل طويلاً نحس أننا نفتقد شيئاً عزيزاً، حتى جاء مدحت فانشغلنا به.
أصيبت والدتى بمرض غريب، كانت تعانى من داء ألزمها الفراش.
كنت أقوم بخدمتها غير أنه لم يمضى يومان حتى سقطت مريضاً. كنا نعتقد أن ما بها أصابها بسبب حزنها، غير أن الطبيب قال، عندما جاء لعيادتنا، أن هذا وباء منتشر فى المدينة كلها. إن أسمه «الدنج» وهو يماثل تماماً المرض الذى يصيب الدجاج، ويسبب موته. وفزعنا فزعاً شديداً. غير أن الطبيب قال أن العدوى تجىء من التنفس، ومن يرعانا عليه ألا يقترب منا كثيراً. وأن المرض ليس خطيراً بالنسبة للبشر، إن اعتنوا بعلاجه، لكنه يصبح خطرًا حقيقياً إن جرى إهماله.
شفيت والدتى ثم شفيت أنا من بعدها. كنت أفكر طوال الوقت، هنالك مشترك قاتل بيننا وبين الدجاج، وقررت أن أعمل ما فى وسعى لعلاج الدجاج إن أصابه المرض.
السنة الثانية الابتدائية إلى نهاية. عدت من المدرسة لأجد المنزل فى حالة حزن، والدتى باكية، ووالدى صامت لا يتكلم. انتحيت بإدوارد جانباً لأعرف ما الحكاية. قال وحلقه يكاد أن يكون يابساً:
-الخزنة بتاعة المحطة اتسرقت من بابا. خد مصاغ ماما وباعه عشان يسد السرقة. فاضلة اللبة بس.
سألته وقد جف ريقى:
-طيب مين اللى سرقه؟
قال هامساً:
-محدش عارف. هوه كان على رصيف المحطة ساعة وصول القطر

لغاية ما قام، ولما رجع مكتبه لقى الخزنه مسروقه. الحرامى خد كل الإيراد.
مر يوم واثنان. فى اليوم الثالث دخل والدى وخلفه إمرأة طويلة، ترتدى السواد، فى أنفها ما يشبه الحلق، وفى عينيها بريق مخيف، وعلى رأسها قفة، وقد منطقت وسطها بحزام جعل نصفها السفلى يتحرك حركة دائرية. قالت والدتى فى صوت واهن:
-وليه غجريه.
تربعت على الأرض فوق فروة خروف بنية جميلة، كانت تبعث الدفء فى أوصال من يجلس عليها. وضعت ما فوق رأسها على الأرض أمامها. تربعنا فوق سجادة نرقبها. طلبت فنجاناً من القهوة السادة. ارتشفته على مهل. أخرجت لفافة من القفة وفردتها، كانت تحتوى رملاً وقواقعاً. فرشت الرمل ووضعت القواقع فى كفيها. كنا نحملق فيها فغضبت، قالت:
-أنا ما محيش حد يبحلق فىّ كده.
زغر لنا والدى، فقلنا نحن الثلاثة فى نفس واحد:
-إحنا كنا بنبص بس.
قدمت «الودع» لأبى، قالت آمره:
-وشوش الدكر.
ثم مؤكدة:
-أنا بإذن الله هجيب لكو الحرامى اللى سرق فلوسكو.
الآن فهمت الحكاية تلك إمرأة ساحرة، وهى سوف تعاوننا فى استرداد ما فقد منا.
كان منظر والدى العملاق المهيب غريباً وهو يهمس للقواقع. كدنا ننفجر ضاحكين، غير أن نظراته ألجمتنا. المرأة ألقت بالودع فتناثر فوق الرمل. غير أن الأمر لم يعجبها، فجمعته ثانية وألقته، ثم ثالثة متحدية. ثم نفخت فيه وتركته ينساب من أصابعها على مهل. طافت بوجهها لمحة رضا، أشارت بأصبعها متشنجة إلى قوقع صغير قابع وراء قوقع كبير. قالت فى صوت مكتوم أقرب للزمجرة:
-الكلب الخاين أهه.

نظرنا جميعاَ إلى القوقع الخائن. وأكملت هى بصورة أكثر عصبية ويقين:
-دا قريبك، أو زميلك، وأكل عيش وملح معاك.
بدا أنها توشك أن تمسك به. غير أنها توقفت، تيبست ثم نفضت رأسها بقوة وارتخت
بدأت تلملم قواقعها ورمالها. تساءل أبى فى صوت بعيد الغور:
-إيه خلاص؟
قالت فى حسم:
-بكرة هنكمل.
قامت من فوق «الفروة» ثم بدأت فى طيها. تساءل أبى وقد ازدات رنة الجفاف فى حلقه:
-إيه، فيه إيه؟
-هاخد الفروه دى، همه عاوزينها.
-همه مين؟
عاد صوتها إلى الزمجرة:
-همه اللى هيدلونا على الحرامية.
نظر أبى إلى أمى فى صمت وعجز. أكملت المرأة:
-وهمه كمان عاوزين وقة جوز، ووقة لوز، وكمان صنوبر وعين جمل، وقمعين سكر.
واتسعت حدقتا أبى، وفخرت أمى فاها واستمرت المرأة:
-بكرة تكون الحاجات دى جاهزه هنا.
كنا نتبادل النظرات ذاهلين. توالت ضرباتها كالمطارق متلاحقة. أخيراً سمعت أبى يتساءل:
-هتيجى بكره امتى إنشاء الله؟
قالت وقد بلغت عتبة الشقة:
-الضهر، بعد صلاة الضهر.
عندما غادرت وأغلقنا الباب وراءها، قالت أمى فى اضطراب بالغ:
-دى مصيبة وحلت علينا. واحنا هنجيب دا كله منين؟
حاول أبى لملمة الموقف:

-اهدى، إهدى عشان نعرف نفكر.
قالت والدنى فيما يشه اليأس:
-نفكر فى إيه؟ مادى البيرو وآدى غطاه.
ثم بدت وكأنها تحدث نفسها:
-الوليه لفت فروة الخروف وخدتها، من غير إحم ولا دستور.
ونظرت أنا إلى مكان الفروة وقد خلا منها وغدا بلاطاً. هنا كنت أجلس عليها أتدفأ بصوفها وبنار «المنقد»، الذى يتوهج بالفحم المشتعل، تتصاعد منه ألسنة حمراء زرقاء تبعث الحرارة فى كل ما حولها، و»أبو فروة» (الكستناء) يطقطق ينفجر غلافه الأسود البنى، ويبرز من داخله الأبيض المائل للاصفرار، لينضج ويحمر فننزعه من النار، نزيح غلاف حباته الصلب الملتهب ونحن نتصايح من لسعاته، وندفع بأبى فروة فى أفواهنا نقضمه، ننفخه ونحن نمضغه لعله يبرد. ذهبت فروة الخروف ولن تعود.
اقترض والدى ليدبر ثمن مطالب العفاريت. كان يأمل، يتعلق بأى خيط، يضارب على المجهول، لعل وعسى.
جاءت الغجرية فى اليوم التالى. كان والدى نائماً بعد أن عاد من وردية الليل مرهقاً، وأمى تعد الغذاء فى المطبخ، وسمير ورأفت فى الشرفة يراقبان المارة ويتفرجان على الشارع. وأسرعت أنا أوقظ أبى وأخبر أمى، بينما ظل إدوارد معها. عندما جئنا جميعاً لنجلس أمامها، وقد فردت الرمل والودع، كان إدوارد متخشباً وقد جحظت عيناه على اتساعهما. لكزته لأعرف ما الحكاية، فلم يستجب لى أبداً. قالت المرأة بلهجة آمرة:
-القهوة.
أسرعت أمى تعدها لها.
قال ابى متباسطاً:
-إنشاء الله نوصل النهارده..
قاطعته فى غضب:
-ما حدش يقدر يقولهم على شغلهم.
وجمنا جميعاً. كانت البداية عاصفة. قالت دون أن تنظر إلى أبى:

-جبتو طلبات إمبارح؟
نظرة فى أبى جعلتنا نسرع أنا وإدوارد حاملين اللوز والجوز والصنوبر وعين الجمل والسكر ونضعه إلى جوارها، فتضعه فى القفة.
جاءت أمى بالقهوة فدفعت بها إلى حلقها. بدت اليوم أكثر عصبية من الأمس.
جمعت الودع ونثرته على الرمال، مرة وثانية وثالثة. تكلمت فجاء صوتها غريباً.
تجاوز الزمجرة إلى العواء، صرخت فينا:
-انتو بتتكلموا علينا من ورانا.
تبادلنا نظرات فزعة. حاول أبى نفى التهمة، فلم تمهله هجمت فى صوت وحشى:
-انتو أن ما بطلتوش الحكاية ديه، احنا هناكل وليم.
وصرخت أمى:
-وليم، أخويا وليم.
واستمرت المرأة دون رحمة:
-وهناكل فريد.
وصرخت أمى ثانية:
-أخويا فريد.
وازدادت المرأة عدوانية:
-وهناكل صبحى.
وتساءل أبى مندهشا:
-أخويا صبحى!؟
فأكملت:
-ومهنى كمان.
وقال أبى منزعجاً:
-إيه، هو فيه إيه؟
وصرخت المرأة كذئب مسعور:
-لينا طلبات، ولزمن تجيبوها.
كان آخرون يتحدثون إلينا على لسانها، لابد أنهم الجان الذين تعمل

معهم.
كنا قد سحقنا تماماً، ولم نعد قادرين على فعل أى شىء. طلبت نوعين من الأقمشة، حريمى ورجالى، وأنهت كلامها وهى تجمع الرمل والودع، بصوت باتر حاسم:
-وكمان اثنين جنيه نقدية.
ووضعت القفة على رأسها واتجهت إلى الباب وهى تقول:
-بكره جايه زى دلوقت.
وأغلقت الباب وراءها.
ارتفع صوت أمى بالبكاء. كيف عرفت تلك المرأة أننا نتحدث عليها بعد خروجها، هل تترك معنا عفريتاً يتجسس علينا؟ قال أبى أن ذلك أمر يسهل تخمينه. إذ لا بد أننا سوف نتحدث عنها بعد خروجها.
-المشكلة إزاى عرفت أسماء أخواتك وأخواتى.
كانت تلك هى المسألة المحيرة، خاصة أن تهديداً بالأكل قد صاحبها.
كان إدوارد يجلس صامتاً لا يتكلم، وقد بدا عليه الهلع وهو ينتفض بشدة. شدنا جميعاً إليه. قال أبى وهو يربت عليه مهدئاً:
-مالك يا إدوار، متخفش يا بنى، إرشم الصليب ومتخفش.
غير أن إدوارد استمر ينتفض محاولاً الكلام. وأخيراً نطق فى كلمات متقطعة:
-أنا يا بابا اللى قلتلها على الأسماء. ساعة ما دخلت كنت أنا وهيه بس، وسألتنى فأنا قلتلها. وقالتلى إن أنا لو تكلمت العفاريت راح تكلنى.
وصرخ والدى:
-بنت الكلب.
وسقط كلام إدوارد علينا كماء بارد فأفقنا. توقفت أمى عن البكاء، وأسرعت تتأكد من إدوارد أن هذا ما حدث فعلاً، وهو يؤكد لها معتذراً.
وأبى ما زال يصرخ يضرب كف بكف:
-الغجرية النصابة ولسه عاوزه أقمشه حريمى ورجالى ونقديه.
واندفع إلى غرفة النوم، فلحقت به أمى، وأنا وإدوارد فى رجليها:
-أنت رايح فين دلوقت؟
-أخلص عليها. إزاى أنا وافقت على حاجة زى دى. الزنقة اللى احنا

فيها.
قالت أمى تهون الأمر عليه:
-خلاص ما تروح فى داهية باللى خدته. أهو من جملة الخساره. ما تضايقش نفسك. صحتك بالدنيا.
قال أبي فى إصرار:
-لا أبداً، مش ممكن تفلت باللى خدته.
وأكدت لأبي:
-خصوصاً فروة الخروف.
وأكد أبى أنه لابد ذاهب باكر صباحاً، بعد انتهاء وردية الليل، إلى مضارب الغجر. وأحسست براحة شديدة. سوف يثأر أبى لكل الخوف الذى بثته هذه المرأة فينا.
فى صباح اليوم التالى اصطحب أبى معه اثنين من الشيالين فى عربة حنطور، واتجه فى عزم إلى المنطقة الخلاء غربى المدينة حيث يعيش الغجر. عرف مسكن الغجرية التى خدعتنا على الفور. كان مسكنا من خيش والصفيح وأمامه الفروة وقد اتكأ عليها رجل بدا كالخنزير يتسلى باللوز والجوز، وأمامه طفلان «بلبوصان» يرقدان على خرقة قماش.
تقدم والدى على الفور نحو الرجل وانتزع الفروة من تحته فتدحرج من عليها وهب فزعاً. وصرخ فيه الشيالان بعنف والشر يقدح فى عيونهما وهما يشيران إلى الجوز واللوز:
-فين بقية الحاجات دى.
وللحال أشار نحو داخل الخيش، فاندفع أحدهما يحضرها، بينما جمع الآخر ما كان يتسلى به الزوج الخنزير، والذى وقف مبهوتاً عاجزاً عن الكلام. وانطلق أبى والشيالان إلى العربة الحنطور.
كان أبى يرتدى حلته الرسمية الصفراء، وكان الشيالان بجلاليبهما الزرقاء، فظن الغجر أنها «كبسة» «بوليسية، فلزموا الصمت حتى تنقضى ولا تتسع لتشمل آخرين.
عندما عدت من المدرسة كانت فروة الخروف فى موضعها، وأشارت أمى إليها وهى فرحة للغاية:
-بابا رجع كل حاجة تانى.

فصحت منفعلاَ:
-بابا جدع، بابا بطل.
فقالت أمى محذرة، وهى تضع أصبعها فوق فمها:
-وطى صوتك، بابا نايم.
وسرت على أطراف أصابعى إلى المكسرات «لأجرشها». وأحسست أنها ألذ وأحلى مكسرات أكلتها فى حياتى.

* * * *

انتهى العام الدراسى. انتقلت إلى السنة الثالثة. كنا نخطط لسفريات الصيف، عندما شكوت من صداع حاد، وإحساس بالبرودة، وضع والدى الترمومتر فى فمى، قرأه ثم قال لأمى:
-دا حرارته 38.
أخذنى أبى إلى الطبيب الذى قال مهونا:
-حاجة بسيطه، انفلونزا صيفى، عشان كده سخيفه شويه.
لم تظهر علىّ باقى أعراض الإنفلونزا، كالرشح والزكام والسعالٍ. لكن المرض اشتد، وارتفعت درجة الحرارة، وسمعت أبى يقول همساً لأمى:
-التيفود منتشر فى البلد.
فزعت لم استطع الذهاب إلى الطبيب فجاء هو إلى المنزل. لم يكن طبيب الإنفلونزا، أكد أنى مريض بالتيفود. طلب وضعى فى حجرة معزولة، وإبعاد أخوتى عنى. إن شاءوا رؤيتى وقفوا عند الباب. علىّ أن أنام على ظهرى، وألا يدخل جوفى شيئاً غير الليمونادة ودواء بطعم ورائحة الثوم. ووضع كمادات ماء بارد فوق جبهتى واليدين.
إزداد ضعفاً ونحولاً كل يوم حتى عجزت عن القيام نصف «قومة» لشرب الليمونادة دون مساعدة أمى. الطبيب يزورنى مرة بعد أخرى. وأنا أعيش مللاً لا حد له. بعد حوالى ثلاثة أسابيع بدأت درجة الحرارة فى الانخفاض، وأخذت أحس رغبة فى الأكل. قال الطبيب أن تلك بوادر شفاء، وأننى سأمر بفترة نقاهة يسمح لى فيها بالحركة من حجرة النوم إلى الصالة. زفنى اخوتى فى أول يوم خطوت فيه خارج حجرتى. اشتد حيلى يوماً بعد يوم، وأصبحت أكثر قدرة على الحركة وازدادت رغبتى فى الأكل. كنت أحب «قراقيش» «العيش الشمسى». كانت صلبة على أسنانى المتعبة. فأخذت أغمسها فى مياه الصينية النحاسية للقلل

الفخارية، وأتركها حتى «تبوش» وتتنفش، لتذوب فى فمى. كنت أفعل ذلك فى سرية تامة حتى لا تضبطنى أمى. وفجأة ارتفعت درجة حرارتى. وجاء الطبيب فحكيت له ما فعلت، فقال فى إيجاز:

-ليه كده، أديك اتنكست، وهنرجع نبتدى من تانى.

وعدت أرقد على ظهرى. وبدأت أمى المسكينة الموال من جديد.

وضاعت مشروعات السفر الصيفية، أضعتها على نفسى وأسرتى.

* * * *

بدأ العام الدراسى، والسنة الثالثة تسير بخطى سريعة. عدت إلى المنزل ذات يوم، فإذا الحزن الشديد يخيم عليه. سألت أمى التى كانت تجلس وقد وضعت رأسها بين كفيها:

-إيه، فيه إيه يا أمى؟

نظرت إلىّ وهزت رأسها ندباً:

-أبوك اتسرق تانى.

وصرخت:

-يا خبر اسود.

لم يكن أبى بالمنزل، سألت:

-وفين بابا دلوقت؟

-الله أعلم، الله أعلم.

-طيب وهيعمل إيه؟

-ولاد الحلال لموله تبرعات. لكن ما كفتش فسحب التأمين بتاعه على الحياة من شركة جريشام. وسحب اللى كان موفره للزمان من البوسته. وإحنا دلوقتى بِقينا ع الحميد المجيد.

عاد أبى مرهقاً غاية الإرهاق. كان يحس بالخجل من جمع التبرعات. حتما، إنها روح طيبة من الآخرين، لكنها تثير فيه شعوراً بعجزه عن مواجهة تلك المصيبة. كان مذهولاً يضرب كفاً بكف. كيف حدث ذلك للمرة الثانية؟ نفس ما حدث فى المرة السابقة، خرج لمقابلة القطار، وعندما عاد وجد الخزينة مسروقة.

وأحيل إلى التحقيق رغم سداده المبلغ. وانتهى التحقيق إلى نقله معاوناً لمحطة إدفو. وكان ذلك يعنى توجيه اللوم الضمنى إليه.

وما انتهى العام الدراسى حتى نفذ النقل إلى إدفو

* * * *

الفصل الخامس

إدفو- جرجا

1940-1942

لم يكف أبى منذ وصلنا إدفو عن التظلم والشكوى. كان منزلنا منزلاً حكومياً يقع على المحطة شرقى النيل، وإلى جواره منزل ناظر المحطة. المحطة بناؤها فرعونى فخيم، ووراؤها حديقة واسعة يابسة الأشجار والأوراق، تبدو مهملة مهجورة فتزيد المكان وحشة.

إدفو البلد هنالك غربى النيل، حيث المدارس والمعبد المصرى القديم التليد. والنيل ما بين الشرق والغرب عريض، عريض، وعبوره خطر ما بعده خطر. وأبى لا يترك فرصة إلا ويثير ضجة حول براءته. هو يحشدنا جمياً أمام كل مسئول يجىء إلى المحطة ليسأله متحدياً، ماذا أفعل بهؤلاء؟ هل أبقيهم من المدارس، أم أدفع بهم غرباً إلى المدارس، ليعبروا النيل كل يوم، ليغرقوا ذات مرة؟ إن عملية نقله إلى إدفو هى عملية تنكيل به وبأسرته.

وجاء خطاب من ناظر محطة أبو قرقاص، يخبره فيه أن السارق قد وقع. حاول سرقة المعاون الذى جاء بعه، فانفضح أمره وأمسك به.

وكانت المفاجأة المذهلة أن اللص هو معاون البدل. كانت ينتظر خروج أبى من المكتب، ليندفع إلى داخله، فإن وجد الخزانة مفتوحة سرق ما فيها وانصرف.

كان ذلك اليوم بالنسبة لنا عيداً هائلاً يموج بالفرحة. وأعلن أبى أن فترة نفينا توشك أن تنتهى، وأنه سوف يقلب الدنيا رأساً على عقب حتى يسترد كرامته ومكانته. وأثمرت جهوده ودفاعه المستميت عن نفسه، فصدر الأمر بنقله، قبل أن تنقضى الإجازة الصيفية إلى جرجا. وكان ذلك بمثابة اعتذار رسمى له، ورد لكرامته ومكانته.

* * * *

جرجا اسم مديريتنا، غير أن العاصمة هى سوهاج، حيث يقيم جدى لأبى وأعمامى. جرجا مدينة كبيرة، تمتد شرقى السكة الحديدية حتى النيل، بها ميادين، تبدأ بميدان المحطة بمقاهيه ومتاجرة، ثم شوارع رئيسية، طولية وعرضية، بها مدرسة ابتدائية أميرية، ومدرسة ثانوية حرة.

يقع منزلنا على المحطة قرب رصيفها، حيث يحتل أول صف بيوت العاملين فى المحطة، ناظر المحطة ومعاونيها، أبى ومعاون آخر.
المنزل واسع، تكاد صالته الطويلة العريضة أن تقسمه قسمين: حجرتان واسعتان للنوم، وحجرة للجلوس فى جانب، والمطبخ والحمام وغرفة الخزين فى الجانب الآخر. وحول المنزل سور، توجد فى باحته الأمامية شجرة نبق باسقة سامقة، اجتازت أعلى السطح بعيداً نحو السماء. ونحن نصعد إلى السطح من سلم داخلى، ثم نهبط من فوق «النبقة» إلى الباحة الأمامية، وأحياناً أتسلق النبقة لأنزل منها فوق السطح، ثم من السطح إلى داخل المنزل.
إننا نتسلق الشجرة العملاقة فى موسم النبق كالقردة. نجمع من فوقها الثمار «المستوية» الناضجة. أو نستيقظ مبكراً قبل المدرسة لنلتقط «براحتنا» ما تساقط منها أسفلها. غير أننا نعيش المهرجان الحقيقى عندما نفرش «تحتها» الملاءات، ويصعدها العامل الجناينى، ليهز فروعها، فيتساقط النبق ويتراكم فوق بعضه بعضاً، لنملأ منه مقاطف كبيرة، نوزع منها على المعارف والأحباب، ولأحشو جيوبى وأنا ذاهب إلى المدرسة لأتقاسمها والزملاء والأصدقاء.
الباحة الخلفية للمنزل يصلنا بها باب جانبى فى الصالة. هنالك حجرة الفرن وبها «المواجير» الفخارية فوق بعضها تحتل «الزنقور»، ركن الحجرة. المواجير التى يعجن الدقيق بها، و»المقارص» التى «يُقرص» العيش الشمسى عليها، وهى أقراص مستديرة، تصنع من فضلات المواشى مخلوطة بالتراب، ويصل قطر القرص منها إلى «شبر»، هو امتداد كف اليد، ولاستخدامها تغطى «بالردة» حتى لا يلتصق الرغيف العجين بها، عندما يوضع عليها لرصه فى الشمس حتى يختمر. وهنالك أيضاً سلخات حادة من غلاف البوص، تستخدم فى شق الرغيف من جوانبه الأربع، تفريغاً لتخمره، وتتحول تلك الشقوق الجانبية إلى ما يشبه الأذان. كذلك هنالك «البشكور» وهو سيخ حديدى طويل ينتهى بمثلث صغير حديدى عمودى. يستخدم فى استخراج الأرغفة من الفرن. وتوجد أيضاً الـ «فودة» وهى قطعة قماش كبيرة تُغمس فى الماء وتُوضع على طرف البشكور لينظف بلاطة الفرن التى يوضع عليها

الخبز وتشعل تحتها النيران.
يوم الخبيز يوم حافل. تأتى «العجانة الخبازة» وابنتها منذ الفجر. تغسل الماجور بالماء الساخن، ثم تأتى بقفة الدقيق من حجرة الخزين، و»المنخل الناعم» بفتحاته الضيقة للغاية، لتنخل الدقيق جيداً فى الماجور مباشرة، وتتبقى «النخالة»، «الردة»، لتوضع فى «ماعون» آخر لتستخدم فيما بعد.
صوت العجين، والعجانة تقلبه من أسفل إلى أعلى، يدوى مثل الطبل. يترك قليلاً فى الماجور ليختمر بعض الشىء. تبدأ المرأة «تقطيعه»، إلى قطع متساوية، «وتقريصه» فوق المقارص، لتحمل، إبنتها ثلاثة منه فى المرة الواحدة، واحدة فوق الرأس، وواحد فى كل يد. لترصها فى الباحة الخلفية التى تغمرها الشمس، حتى يختمر العجين جيداً. وتكون الباحة، فى مثل هذا اليوم، خالية تماماً، إذ تغلق على الطيور أبوابها. وتلتصق بجدران الماجور بقايا العجين الذى تستخلصه العجانة لحسابنا، نحن صبية المنزل. وتصنع لنا، من «فركة الماجور» أرغفة شمسية صغيرة، يسمى كل منها «جناو». وعندما ينضج هذا «الجناو» يأخذ كل منا «جناوه» وهو ساخن للغاية، ليفقأ وسطه فيصنع حفرة صغيرة يملأها بالسمن البلدى أو الزبد والعسل الأسود، و»يلهط» كل منا رغيفه.
تغسل الصبية الماجور غسلاً جيداً، ثم تضعه «مكفياً» على وجهه، تصفيه، مما لا يزال به من ماء. ثم تجلس المرأة وابنتها لتناول الإفطار وشرب الشاى. تبدأ الصبية فى إعداد «وقيد الفرن»، من حطب القطن الذى تحضره من مخزنه فوق عشش الطيور. تنظف الأم بلاطة الفرن بالفودة. وتتأكد من أن مكان «الوقيد» والنار خال من أى شىء. أن بعض الدجاجات تضع بيضها هنالك. ثم تبدأ مراسيم «حمى» الفرن، إشعال «الوقيد» أسفل البلاطة. إذ تأخذ العجانة الخبازة فى «البسملة» (بسم الله الرحمن الرحيم) إن كانت مسلمة، أو أن «تُسمى» (بسم الصليب وإشارة الصليب) إن كانت مسيحية، ثم يجىء النداء المشترك، الذى تحذر به الخبازة، سواء كانت مسيحية أو مسلمة، سكان الفرن من العفاريت، من النار القادمة:

-حوشو عيالكو، النار جيالكو.
وتظل تكرر هذا النداء مدة تكفى أى عفريتة لجمع أبنائها والإنصراف بهم بعيداً عن الفرن خشية المسئولية والضرر.
وعندما «يستوى» الخبز وينضج، نقوم بتقسيم قرابة نصفه إلى شرائح تعود مرة أخرى إلى فرن هادئة حتى «تتحمص» كى نستخدمها مثل «القراقيش» فى «فتة» اللبن أو الشوربة أو مع الجبن الأبيض اللذيذ.
وقبل أن تهدأ نيران الفرن تضع الخبازة على بلاطتها «طاجنين» من السمك أحدهما بالفريك والآخر «بالدمعة» وغالباً ما يكون السمك «شيلاناً»، كما توضع كمية من البيض لشيها. كما «تدفس» أسفل البلاطة «ملز» فول أو عدس «بجبته» حتى يتم «تدميسه» تدميساً رائعاً يكون كالزبدة أو الطحينة.
وتأخذ العجانة الخبازة وابنتها، فى نهاية اليوم، نصيباً من الخبز، وأجرهما، وتنصرفان بعد تناول طعام الغداء.
هنالك فى الباحة الخلفية أيضاً بناء صغير، لا يرتفع كثيراً عن الأرض. إنه «الكانون»، و»وقيده» من الخشب الكسر أو الأغصان وفروع الأشجار الجافة اليابسة. ويستخدم الكانون فى مناسبات خاصة، كالعيد مثلاً عند سلق الديك الرومى، أو كمية كبيرة من اللحم حيث يلزم استخدام أكبر حلة نحاسية فى البيت، وهى ذاتها الحلة التى «تُسلى» فيها الزبدة كى يتم تخزينها سمنة. ونرتع نحن فى «المورتة» التى تتبقى من سلى الزبدة، نأكلها «حافاً»، دون خبز، أو بالخبز، أو نقلى فيها البيض فيكون لها مذاق خاص غاية فى اللذة.
وتوجد وراء المنزل عشش عديدة تفتح كلها على الباحة الخلفية. وقد ملأ أبى هذه العشش بالطيور. هنالك أكثر من خمسة عشر زوجاً من الحمام مما يجعل وجباتنا منه متاحة فى أى وقت. وهو تتزايد أعداده أثناء فترات الصيام، حيث لا يأكله أحد، فيتجاوز مرحلة أن يكون «زغلولاً» إلى مرحلة أن «يفرغ»، أى يستطيل ويقل لحمه وينتهى الريش «الزغب» ويبدأ فى الطيران، فهو أن بلغ تلك المرحلة نجا من الذبح.
لدينا ذكر حمام نسميه «دكر الهنا» هو أعرج فبنى عشه على الأرض.
هو يرعى زوجته بكل حب وحنان. إنه يقوم «بتزغيطها»، ولا يكف

عن خدمتها طوال فترة نوبطشيتها فى احتضان البيض.
وهنالك أيضاً البط والأوز والرومى والدجاج البلدى والفيومى والإنجليزى وتقوم أمى بتفريخها كلها. والأنثى هنا فقط هى المسئولة عن هذه العملية. ونحن ننتظر يوم الفقس بفرحة غامرة. ونتابع الفرخ الحديث منذ خروجه من البيضة إلى لحاقه بأمه يسير خلفها فى الباحة.
أفراخ الرومى جميلة مدللة، تتغذى على البيض والبصل. البيض وافر لدينا من الدجاج، والبصل ما أكثره فى جرجا. وإن قل البيض لدينا، وذلك أمر نادر الحدوث، فإننا نشتريه، كل خمسة عشر بيضة بقرش صاغ واحد.
والأرانب تملؤ الدنيا جرياً هنا وهناك. جاءت فترة اختفت فيها ذرية الأرانب. وآثار هذا الأمر قلقنا الشديد. غير أننى خرجت ذات ليلة مقمرة إلى الحديقة فوجدتها «تشغى» بالأرانب الصغيرة، ترعى، تلمع فى ضوء القمر، وتلك الأنوار الشبحية القادمة من ناحية المحطة. كانت بكل الألوان، حمراء، سوداء، بنية، بيضاء. كانت أرضية الحديقة مفروشة بها، حتى أننى لم أتمالك نفسى فصرخت فرحاً، وأسرعت أخبر أمى بما اكتشفت. كانت الأرانب الكبيرة قد حولت فتحات أنفاقها، تحت الأرض، لتفتح فى الحديقة، ولم تعد تستخدم فتحاتها داخل العشة، ربما حذراً وربما بحثاً عن الانطلاق والطعام الطازج.

* * * *

هنالك عشة مهجورة، اتخذت منها أمى مخزناً لحبوب الطيور، وقررت أنا أن استفيد منها، فاشتريت عنزة بثلاثين قرشاً، وجعلت تلك العشة مقرها، وإن كان لها فى الباحة مكان آخر، حيث كنت أربطها من أحد قدميها الأماميتين بحبل طويل مشدود إلى وتد. إننى اشترى لها البرسيم، إن لم يتوافر لها غذاء من الحديقة. وعندما يجىء موسم «التعشير» أعطها «للمعازة» حيث ترعى ثلاثة أشهر وتحبل. ويحصل الراعى مقابل ذلك على خمسة قروش، وأحصل أنا على جدى صغير، على الأقل، من إنتاجها.

* * * *

حديقة المنزل واسعة جميلة، بها أشجار الرمان والجوافة والبرتقال واليوسفى والليمون. وهى محاطة بسور خشبى يغطيه اللبلاب، ويداريها

من عيون المارة. يرعى الحديقة عامل من المحطة. إنه يزرع ما بين الأشجار خضروات حسب أوانها، ملوخية وبامية، سبانخ وكوسة وباذنجان، وفجل وجرجير وبصل وفول حراتى، وخيار وبطيخ وشمام وحرش.

جاء فى أحد الأيام غاضبًا مهمومًا. سألته عما يغضبه. قال مشوحًا بضرب الهواء:

-مرتىّ.

-ما لها مرتك.

-جرفانى فى عيشتى.

-طيب وهتعمل معاها إيه؟

-هدوز عليها.

-إزاى، هوه الجواز مش عاوز فلوس؟

-وماله أبيعٍ عنزة بتلاتين قرش، بخمسين قرش وادوز بيها؟

قلت مندهشاً:

-المره بعنزة!

قال .... مؤكداً:

-أيوه، فى بلدنا، المره تساوى عنزه، موش أكثر.

سقط جزء من سور الحديقة، تآكل الجزء السفلى من العمود الخشبى الأوسط، الذى يثبته إلى الأرض، فانهار رُكن السور الذى انكسر، فاستخدمناه «مرجيحة» كان أحدنا يجلس على طرفه، ويجلس الثانى على طرفه الآخر. جعلنا ما بقى من العمود الأوسط مرتكزاً يعلو حوله أحدنا فيهبط الآخر. جاء ابن عمى الأوسط لزيارتنا، فأخذته لنلعب «المرجيحة». وبينما أنا فى الجزء المرتفع، وهو فى الجزء المنخفض، غادر المرجيحة، ففقدت توازنها، وسقطت بعنف فوق الأرض. أحسست بألم شديد فى ظهرى، فتحاملت إلى داخل المنزل. وبدأت أعيش دوامة رهيبة. أبى يحملنى من طبيب إلى طبيب فى جرجا وسوهاج، ولا أحد قادر على التشخيص الصحيح والعلاج. قال البعض أنه قد يكون سرطاناً، وقد يكون تسوساً فى العظام. كان أبى يشرب القهوة، فسقط الفنجان من يده. فزع فزعاً شديداً وقرر السفر فوراً إلى القاهرة. إلى

أكبر استاذ فى أمراض العظام فى كلية طب القصر العينى.
ذهبنا إلى منزل إخوالى فى الظاهر. كان جدى ينى قد توفى، وانتقلت الأسرة بكاملها إلى القاهرة. كان خالى وليم قد تخرج من الجامعة، وخالى فريد يوشك أن يدخلها. وكان كشف هذا الطبيب الشهير خمسين قرشاً، وهو مبلغ جسيم إذ يساوى ثمن عشرين رطلاً من اللحمة الكندوز. الرجل ربعة القوام، مريح الوجه، ابتسم فى وجهى، فزالت الرهبة التى صاحبتنا ونحن نتوجه إليه. كشف علىّ مدققاً. طلب عمل أشعة.
وللتخفيف عنا أدخلنى القصر العينى لأجرى هذه الأشعة مجاناً. هز رأسه بعد أن رأى الأشعة، ولم يقل لنا شيئاً عما بى. فقط عندما ألح والدى بالسؤال، قال له:
-ما تقلقوش. لا سرطان ولا تسوس. إنشاء الله بسيطة هوه رفيع شوية، عاوزينه يتخن عشان عضمه ما يخبطش فى بعضه.
العلاج حبوب مسكنة، و»لزقة أنتو فلوجستين»، توضع فوق الظهر فى موضع الألم، كل أربع وعشرين ساعة. وعلىّ أن أتغذى غذاء جيداً. لابد كل صباح من صفار بيضتين فى كوب لبن، وملعقة من زيت السمك.
أصابى هذا الغذاء بالقرف من البيض. أما عن زيت السمك فقد كان بشعاً طعماً ورائحة. كنت أسد أنفى وأتناوله كدواء لا كغذاء. كما أوصى بأن أكثر من أكل الكبدة، وتلك كنت أحبها للغاية. تحسنت حالتى بعض الشىء، على الأقل من الناحية النفسية، وزال شعور القلق الشديد الذى أمسك بالبيت.

* * * *

نحن أبناء المحطة والعاملين فيها، ناظر المحطة والمعاونين والمخزنجى ومعاونى التلغراف والعاملين فيه وفى التليفونات، عالم خاص. أيام رمضان، نذهب معاً، وكل منا معه «ماعونه»، نشترى الفول، ونذهب إلى حيث يوجد مدفع الإفطار، حيث يوجد جندى المطافىء الذى يشحنه أمامنا بالبارود والخيش والخرق. ونظل فى انتظار انطلاقه، لنضع ما نحمله فوق الأرض ونسد آذاننا. وقبل أن تختفى سحابة الدخان من فوهة المدفع، نكون قد انطلقنا فى جوقة رهيبة، نصرخ بأعلى أصواتنا:
يا فاطر رمضان يا خاسر دينك
كلبتنا الحمرا تقطع مصارينك

أننا نلعب معاً كل الألعاب، المساكة، عسكر وحرامية والغماية والكرة الشراب، وشرخ برخ والبلى. وتجىء أحياناً فتيات فى سننا أو أكبر وربما أصغر منى قليلاً من بنات الموظفين فيشتركن معنا فى اللعب.
منهن واحدة أكبر منى قليلاً. عيناها مثل اللوز، تشع، تبرق، عندما تنظر فى عينىّ، أو هكذا يخيل إلىّ. عندما تبتسم تغوص غمازتين فى خديها الممتلئين، فتضحك الدنيا. سمراء، حمراء خمرية. قالت، تعالى معى أريك مكاناً نختبىء فيه، فلا يعثر علينا أحد. أمسكت بيدى، شدتنى وجرت، فكدت اتجرجر وراءها. أخذتنى إلى حديقتنا، دخلت من فتحة يخفيها نبات اللبلاب، أصابنى الذهول. قلت هذه حديقتنا وأنا لا أعرف فيها هذا المدخل. قالت، أنا أعرفه من قبل مجيئكم. اختبأنا متلاصقين يظللنا اللبلاب، قالت:
-بوسنى.
صُدمت بقوة، سألتها للتأكد:
-بتقولى إيه؟
عادت تكرر:
-بقولك بوسنى.
انقضت علىّ تقبلنى. أحسسن بنار الدنيا تشتعل فى جسدى. احتضنتها وانهلت عليها تقبيلاً. بادلتنى العناق وهى تنتفض بشدة وأنا معها ثم همدنا. الأرانب تنظر إلينا ثم تقفز بعيداً. قالت هامسة:
-يلا بينا نرجع أحسن يحسو إننا اتأخرنا.
أحسست وأنا أغادر الحديقة، من تلك الفتحة الضيقة، أننى قد دخلت عبرها عالماً جديداً، مبهراً، وأننى قد انتقلت إلى طور جديد. كنت أنظر إلى الصبية الذين يلعبون معى وأنا أخشى أن يعرفوا من وجهى ما حدث هنالك تحت أغصان اللبلاب. غير أن أحداً لم يتلفت إلى أى شىء. لكن الأمر الذى أذهلنى حقاً هو أن الفتاة كانت تتصرف بطريقة عادية تماماً، وكأن شيئاً لم يكن، أو أنها اعتادت ما يحدث تماماً: فى تلك الليلة ولجنا فتحة الحديقة أكثر من مرة، وغدت، فيما بعد، مرقدنا الدائم الأثير.
تمتد وراء منزلنا ومنازل باقى الموظفين فى المحطة وعمال الدريسة، حديقة البلدية. أنها تبدأ من ميدان المحطة وتنتهى بعيداً فى آخر الشارع

الرئيسى قرب المستشفى الأميرى. أنها حديقة رائعة دائمة الخضرة والزهور، يعتنى بها الجناينية عناية شديدة. إنها مرتع لهونا إن ضاقت بنا المحطة.

كنا ليلة حد الزعف، نقضى جزءًا كبيراً من أول الليل نجدل «الخوص»، ونستيقظ فى الصباح الباكر، نزين «قلب الزعف» بالزهور من الحديقة، ونذهب إلى الكنيسة فى جماعات. كان بعض الصبية المسلمين والمسيحيين أيضاً يعترضون طريقنا يحاولون خطف الخوص منا، غير أننا مستعدون دوماً لمثل هذه اللحظات، إذ كنت أحمل سكيناً، أدسه فى ملابسى، وأشهره إن لزم الأمر فيفرون. وكان البعض يقول «إشمل يا بلعوط»، ولم أفهم فى بادىء الأمر معنى تلك الجملة، غير أن أحد الأولاد قال لى مترجماً، أنها تعنى، «إمشى إلى الشمال يا نصرانى» لكننى لم «أشمل» أبداً.

كنا نذهب إلى الكنيسة مع أبى وأمى وقد ارتدينا أحسن ما لدينا من ملابس، ليلة سبت النور، الليلة السابقة على «أحد القيامة» كان الأنبا يوساب مطران جرجا (والذى غدا بطريركا لمصر كلها فيما بعد) يبدأ الصلاة متأخراً. تبهرنى مراسيم تلك الليلة، مراسيم إظلام الكنيسة، ثم تفجير النور من الهيكل، مع حدوث قيام المسيح من الأموات. ويطلق البعض الرصاص ابتهاجاً، ويوزع البعض الآخر قطعاً من اللحم محشوة فى الخبز أمام الكنيسة. وننطلق نحن نتحدى اليهود فى الشوارع، فقد هزمهم المسيح، وقهر الصلب:

سبت النور عيدنا
وفرحنا بسيدنا
سيدنا أتانا
بدمه فدانا
إحنا اليوم فاراحا
واليهود حزانا

*** * * ***

أحب الجلوس فى حديقة البلدية، أحب زهورها بألوانها المتناثرة على بساط أخضر. أحب الرائحة الندية الذكية، والهواء المشبع برائحة رش الحديقة. كانت ابنة أحد العاملين فى التليفونات كثيراً ما تأتى لتجلس

معى و»نرغى» فى أى شىء. كانت تكبرنى بسنتين أو ثلاثة. فى هذا اليوم جلست كعادتها أمامى، لكنها ثبتت نظرها فى عينى فأحسست بالارتباك. سألتها، لماذا تبحلق فىّ هكذا، لكنها مصمصت شفتيها وقالت، أنها لا تبحلق فى أحد. غير أنها سرعان ما تنمرت وقالت:

-إيه اللى عاجبك فى البت الممصوصة دى!

وقعت المفاجأة على رأسى كالصاعقة، تساءلت فى حذر وعدم اهتمام ظاهرى:

-بت إيه دى؟

قالت وهى تقلب شفتيها ازدراء:

-البت بتاع التلغراف دى. أنا واخده بالى منكم كويس.

وجف ريقى. كانت هى ممتلئة الجسم، نافرة الصدر، ينساب شعرها الأسود الفاحم ناعماً فوق كتفيها. عيناها واسعتان عميقتان، وشفتاها مكتنزتان. كانت تبدو كقطة متحفزة تهم بالانفضاض على فريسة ما. قلت وحلقى يزداد جفافاً:

-ما لها بت بتاع التلغراف؟

قالت فى تحدى:

-معصعصة، ورجليها معرقبة، وما تعرفش حاجة.

ووجدتنى أمسك بالجملة الأخيرة لعلى أجد منفذاً يخرجنى من هذه «الخية» التى تلتف حولى قلت:

-متعرفش إيه يعنى؟

استمرت متحدية:

-متعرفش أى حاجة، حتى متعرفش العريس وعروسته بيعملوا إيه ليلة الدخلة.

قلت فى استهانة، وإن كنت غاية فى التوجس:

-بيعملوا إيه يعنى؟

مصمصت شفتيها مرة أخرى:

-أنت راخر باين عليك متعرفش كمان.

ولم تنتظر منى رداً، بدأت تحكى بالتفصيل منذ لحظة إغلاق الباب على العريس وعروسته ليلة الدخلة. ويبدو أن معالم وجهى قد تغيرت وتبدلت

حتى بدوت فى حال غير الحال الذى كنت عليه. وفهمت هى من ذلك أننى لا أصدقها، فقالت متحدية:
-أنت مش مصدقنى، طيب تعالى أوريك أننى عارفة كل حاجة، وعارفاها كويس كمان.
وأشارت إلى كشك مهجور، كان يستخدم كمكان تشحن فيه بطاريات التلغراف، وقالت فى عجلة:
-أنا هدخل قبلك، وأنت تحصلنى لما تتأكد أن مفيش حد واخد باله.
وأسرعت إلى الكشك ودخلت. لم يكن هنالك أحد. كانت ساعة الظهيرة، وليس هنالك من ركاب أو قطارات حتى الساعة الثانية. وتغلب فضولى على خشيتى، فدخلت الكشك وراءها. لم أرها فى بادىء الأمر، كان الداخل مظلماً تنيره حزمتا ضوء من فتحتين فى واجهة الكشك وخلفيته. غير أننى كدت أصرخ أو أغادر مسرعاً عندما اعتدت هذا القدر من الإنارة، ورأيتها راقدة فوق الأرضية، عارية تماماً وقد افترشت ملابسها.
-المره بتنام زى ما أنا نايمه كده. والراجل يخلع هدومه.
وبدأت أخلع جلبابى كالمسحور. وعندما وصلت إلى ملابسى الداخلية كى أكون مثلها،
قالت بذات الصوت:
-كفايه كده المره دى.
وأكملت تشرح خطوات درسها العملى الأول، فقالت:
-وبعدين الراجل يبرك على المره.
ثم فى صوت آمر:
-إبرك بقه.
وبركت. لم أكن فى حاجة إلى أمر. حقا لم تكن فتاة التلغراف شيئاً يذكر إلى جوار فتاة التليفونات، المتوحشة، التي تعرف كل شىء. كنت وكأنى فى حلم مسحور لا أود أن أصحو منه أبداً، وهي تموء كقطط زمن التكاثر، وقد لفت ذراعيها حولى. أدخلتنى عالماً خيالياً، وعرفتنى أسماء أعضاء فى جسم الذكر والأنثى ما كنت أعرفها من قبل هكذا، وما كان فى وسعى أن أتفوه بها أمام أحد، وإلا كنت خارجاً على الآداب

والأخلاق والأعراف. كانت تتكلم فى بساطة شديدة، عن أشياء معقدة للغاية، كما كنت أتصورها. هى تسمع وترى، فالنساء حيث تعيش، ومنهن «الدايات» اللواتى كثيراً ما يتواجدن مع العروسين ساعة الدخلة، يتحدثن فى كل شىء دون اكتراث أو مبالاة, بل ويمارس بعض الرجال والنساء، لضيق المكان، علاقاتهم دون اعتبار لأن يراهم صبية أو صبايا، يتصورون أنهم لن يفهموا ما يجرى. لكن الصبايا والصبية يدركون بصورة أو أخرى ويحين وقت يحاولون ويجربون. كنت أحس بعد أن توثقت علاقتنا أكثر وأكثر أننى أعرف أشياء لا يعرفها كل أولاد المحطة. أحسست أننى قد غدوت أكثر قرباً من عالم الرجولة.
وحصلت على شهادة الابتدائية. وكان ذلك عام 1940.
* * * *
كان والدى قد وعدنا، إن نجحنا، إدوارد وسمير وأنا، أن يأخذنا، خلال الإجازة الصيفية، لزيارة عمتى التى تعيش فى القنطرة غرب، حيث يعمل زوجها فى السكة الحديدية أيضاً.
قال أبى ونحن نركب القطار، أنه سوف يرينا كيف دخل الإنجليز مصر، وكيف قاومهم أحمد عرابى.
كان أبى كثيراً ما يحدثنا، ونحن نلتف حول «المنقد»، أو تحت الألحفة نتدفأ بها حوله، عن الإنجليز، أعداء الوطن. كيف احتلوا مصر، وسيطروا على كل شىء فيها، وكيف يحمون الأجانب وهم ينهبون بلادنا ويسيئون إلينا، وكأن البلد بلدهم ونحن أغراب فيه. كان قد اشترك فى ثورة 1919. كان حينذاك شاباً فى مدرسة التلغراف، فى العشرين من عمره، وخرج مع شباب مصر يهتفون للوفد وسعد زغلول والهلال والصليب والاستقلال التام أو الموت الزؤام. ووجدت نفسى أتشرب ما يقول منبهرا به. هو مثلى الأعلى الجبار الذى واجه الاستعمار. غير أن الثورة لم تسفر عما آمنوا به، أجهضنا الإنجليز والسراى والارستقراطيون. وأحس أبناء الجيل الذين بذلوا الدماء بالإحباط والخذلان. تمسكوا بوفديتهم باعتبارها خيط الأمل المتبقى. وركزوا انتباههم على تعليم أولادهم سبيلاً إلى التغيير الاجتماعى والطبقى، والانتقال من حال إلى حال، كوسيلة وحيدة للترقى. وأبى يقول دوماً، «إن أنا لم أجعل أبنائى أفضل منى، فإننى لا أكون قد فعلت شيئاً».

تحتاج الرحلة إلى القنطرة إلى إعداد خاص. لابد من عمل «قَرص» طازجة، ثم تقطع غالبيتها إلى شرائح ويجرى «تحميصها» إلى «فايش» يؤكل مع اللبن. وكذلك شرائح العيش الشمسى «المحمص» ثم هنالك «الرشتة» و»الشعرية» من غرفة الخزين.

إن لغرفة التخزين فى منزلنا أهمية خاصة. فيها القمح والفريك والدقيق والأرز والبصل والتوم، والملوخية الناشفة والبامية المجففة فى خيوط معلقة لصناعة «الويكة»، والجبنة القديمة بالمش، وصفيحة جبنة بيضاء من ملوى، وبلاص عسل أسود، و»برانى» السمن واللفت والبصل المخلل، وأحياناً «كلاب الملوحة الصعيدى».

«الرشتة» تعدها أمى بمعاونة العجانة الخبازة. تعد رقائق من العجين أشبه برقائق الفطير بواسطة «النشابة». وترش بالدقيق حتى لا يلتصق العجين ببعضه عندما ثنيه بما يساوى عرض الأصابع الكبرى الثلاثة. ثم تقطع بسكين حادة إلى شرائح عرضا يقارب نصف السنتيمتر. ثم تُنفض، فتفرد فى أطوال مختلفة، وترص فى صوان توضع فى فرن هادئة لتحميصها وتخزينها لتؤكل باللبن الحليب. أما الشعرية فلصناعتها نساء متخصصات. يحضرن معهن «قاروس أو دولاب الشعرية»، وهو مكبس محمول على أرجل حديدية طويلة، ومكون من علبة حديدية أيضاً ذات قاعدة عديدة الثقوب، توضع العجينة فيها، ثم تكبس بقرص ضاغط يدفعه عمود حديدى قلاووظ تجرى إدارته باليد، فتنثال الشعرية رفيعة من الثقوب لتقطع عند أطوال معقولة وتحمص فى الفرن لتؤكل مالحة أو حلوة بالسكر واللبن.

جاء يوم السفر، بعد شوق شديد إليه. لم نرى عمتنا تلك إلا نادراً ومصادفة فى بيت جدى، وقت الإجازة، حيث كانت تجيء أحياناً لزيارة الأسرة. وكانت عمتنا الكبرى تقيم مؤقتاً فى سوهاج هرباً من إقامتها الدائمة فى الإسكندرية بسبب الغارات الجوية.

ملأت أمى لنا قفتين بالقرص والفايش والعيش الشمسى المحمص والرشتة والشعرية والفريك. و»فوّمت» القفتين بقطعتين من القماش القديم النظيف، خيطت القماش فى أطراف القفتين «بالميبر» والدوبار. أحضر أبى قفصاً كبيراً للدواجن، وضع فيه زوجان من الدجاج وزوج

من البط وزوج من الأوز. كما أعدت أمى شنطة السفر، وحمل الشيالون أحمالنا إلى المحطة، وشحن قفص الطيور فى عربة العفش والطيور، ووضعت باقى الأشياء معنا فى الديوان.
حدثنا أبى، فى الطريق إلى القنطرة غرب، عن أحمد عرابى وكيف وقف ضد الخديوى، فاستعان بالإنجليز لحمايته. كان عرابى رجلاً وطنياً، طيباً حتى أنه صدق الأجانب. لقد قال له ديليسبس، عندما هدد بردم القناة حتى لا يستخدمها الإنجليز، أن أحداً لن يستخدمها، كان يخدعه. ومرت عليه الخديعة. كان ضابطاً مصرياً فلاحاً عظيم الإيمان، فاستخدم العثمانيون الدين لإدانته وإضعافه فى مواجهة الإنجليز. ثم أكتملت الحلقة بمعركة التل الكبير حيث خانه خنفس، أحد ضباطه، ولقى الهزيمة. وأكمل أبى:
-ومن بعدها قعد الإنجليز على قلبنا.
ثم جاء مصطفى كامل وحادثة دنشواى، وكيف قلب الدنيا على الإنجليز، ثم ثورة 19 والمظاهرات واستشهاد الشباب وقطع السكك الحديدية وقتل الإنجليز. وأحسست أننى أكره الإنجليز كراهية الموت، وأن ما سمعته من أبى سيظل محفوراً فى عقلى لا يمحى أبداً.
وصلنا القنطرة. كان زوج عمتى واثنان من أبنائه فى انتظارنا. استقبلونا بالترحاب والأحضان. تأخر والدى وزوج عمتى لاستلام طرد الطيور. سرنا وابنا عمتى إلى منزلهم والمحطة صغيرة مرتفعة عن الأرض، وأبرز ما فيها «الغراب» الذى يمد القطار بالماء.
استقبلتنى عمتى استقبالاً حاراً وهى تكرر:
-أهلاً ولاد لبيب، أهلاً ولاد الغالى. أمال فين أبوكو يا ولاد.
وقال عبده ابن عمتى:
-أبويا وخالى جايين ورانا.
كانت عمتى ممتلئة، طويلة القامة مثل جدتى، نبع حنان فياض. التف أبناء وبنات عمتنا حولنا. نحن نتأملهم وهم يتأملونا. لا يكفون عن الترحيب بنا. وعمتى تسألنى عن أمى وأخوتى، ولماذا لم يأتوا معنا؟
عندما دخل أبى، استقبلته مهللة. وعندما رأت قفص الطيور عاتبته بشدة:
-ليه كده يا لبيب. يعنى انت مش جاى عند ناس، جايب زادك وزوادك

معاك.
يعنى مش هنقدرٍ على لقمتكم.
وقال أبى مهوناً:
-حاجة بسيطة يا لبيبة، فضلة خيرك
كان منزل عمتى واسعاً رحباً، نظيفاً للغاية. نلعب وأولاد عمتنا فى الأرض الرملية المحيطة، أو نذهب لنجلس على «شط الكنال»، نتفرج على السفن العابرة. تلك كانت أول مرة أرى فيها سفناً ضخمة، عمارات رائعة وجميلة. وأبناء عمتى يشيرون إلى الشط الشرقى ويقولون:
-دى سينا، القنطرة شرق، وبيقوم منها القطر اللى بيروح القدس. سيدى وستى وعمى لما قدسو، عدو من هنا.
كنا نلعب أمام المنزل، والوقت غروب، فتعثرت قدمى، فصحت وأنا أقع:
-يا بوى.
ووجدت زوج عمتى، عمى غبريال، يسرع إلىّ لينهض وهو يقول:
-اسم الله عليك.
ثم سألنى:
-أنت قلت إيه دلوقت؟
ولم انتبه تماماً لسؤاله فقلت:
-أنا مقلتش حاجة.
قال وهو يبتسم مشجعاً:
-لأ، قلت حاجة وأنت بتقع.
وتنبهت فقلت:
-أيوه قلت يا بوى.
كان قد جلس فعدل جلسته وقال:
-وأنت قصدك إيه بكلمه يا بوى؟
قلت:
-ولا حاجة الواحد لما يقع ينده على أبوه.
قال:
-تمامٍ. بس هو هنا بينده على مين؟ على أبوه السماوى ولا الأرضى؟
طبعاً بينده على أبوه السماوى هو اللى هيغيته، هيلحقه وينقذه.

وقد تستمر الموعظة ساعة أو أكثر. إنه شيخ طائفة البلموس. وهو لا يترك فرصة إلا ويعظ فيها. كان أبى أيضاً متديناً، غير أنه لم يكن متعصباً على الإطلاق. كنا من الأقباط الأرثوذكس. كان عميق الإيمان. إلا أنه لم يكن، كما أعتقد، على قناعة بمبدأ من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً. كان يقول لى، لا تعد أبداً وأنت مضروب. لا تبدأ أبداً أحداً بالعدوان، لكن إن اعتدى عليك أحد، رد عدوانه على الفور، وأنا معك، ولكن إن اعتدى عليك ولم ترد العدوان فسأضربك أنا أيضاً. واعتدت ألا أعتدى، غير أنى لا أسكت على عدوان علىّ، وأنا مطمئن إلى أن أبى يقف ورائى يسندنى ويدعمنى، مما جعلنى لا أخاف أبداً إن دخلت، عن حق، فى مشاجرة.

انتهى أسبوع الزيارة سريعاً. لعبنا ولهونا فى هواء صحراوى طلق جميل. استمتعنا برؤية السفن الهائلة تختال فوق صفحة الماء وخاصة فى الماء والأضواء البراقة تزينها، وبرائحة البحر. أكلنا البورى والكابوريا والجمبرى والجندوفلى، وتلك كائنات بحرية لا نعرف عنها شيئاً فى الصعيد، حيث الكائنات النهرية هى البياض وقشر البياض والبلطى والشلبه والشيلان والبيس الذى تصنع منه الملوحة الصعيدى، والقراميط التى لا نحبها ولا نأكلها. وكان الأهم هو تشديد روابط الرحم، ورؤيتنا للتل الكبير، والطريق الذى دخل منه الإنجليز، وكل من سبقوهم من غزاة، منذ زمن الفراعنة.

استقبلتنا عمتى هى والأسرة بالفرحة والسعادة وودعتنا والدموع تترقرق فى عينها.

* * * *

عدنا إلى جرجا، إلى مراعى مرحنا، المحطة على اتساعها، وحديقة البلدية على امتدادها.

كان رصيف المخزن الملىء بأجولة الغلال والبصل يشكل مسرحاً لعمليات صيدنا. كنا ننصب الفخاخ التى تمسك بعصفور أو أكثر، والتى كانت تمسك أحياناً بيمامة أو قمرية. وأحياناً كان يمتد نشاطنا إلى المنزل حيث نحول إحدى الحجرات إلى مصيدة كبيرة، نبدر الغلال فى أرضيتها فتدخل العصافير زرافات وراء زرافات، ويكون أحدنا كامناً تحت النافذة التى دخلت منها ليغلقه. ونتكاثر نحن على العصافير

نطاردها بقطع قماش، حتى يصيبها الإرهاق فتتساقط دائخة فنمسك بها، وللحال «نملص» رقبتها، فلا وقت لدينا للذبح. ثم نجمع هذا المحصول الوفير لنبدأ «سمطه» فى ماء مغلى، وأمى تصرخ فينا، فقد أحلنا المنزل إلى فوضى عارمة وامتلأت الدنيا بالريش. ننظف العصافير ونسلقها و»نحمرها» فى خلفية من الضجيج لا حد لها. ثم نجلس إلى الطبلية فى وليمة يسيل لها اللعاب.

* * * *

انتظر القطار القادم من القاهرة. يصل الخامسة عصراً. ينفث دخان الفحم الذى يُشعل ليحيل الماء إلى بخار يمد القطار بالطاقة. بساتم القطار الهائلة، داخلة، خارجة فيما يشبه المراجل. يطلق صغيراً يملؤ الجو دوياً، يحيطه العفار، والغبار والأتربة تندفع من تحت الرصيف فتجبرنا على التراجع قليلاً بعيداً عن حافة الرصيف. يقف القطار فتهدأ رهبته وهيبته. نقترب منه نبحلق، نبحلق، فى عربات النوم البولمان وعربة الأكل. الناس فى هذه العربات خدودهم كالورد، عيونهم تلمع، تشع ضياء. يتفرجون عليا وقد كست وجوههم ابتسامة عامرة بالدهشة، كمن يتأمل كائنات غريبة. نحن نرتدى جلاليب نظيفة، وفى أرجلنا شباشب أو قباقيب، رؤوسنا حليقة. ركاب عربات النوم والأكل والدرجة الأولى، هم الأجانب وأبناء البيوتات والأكابر، يتسموا بالنعومة والرائحة الجميلة، وركاب الدرجة الثانية تكاد ألا تكون لهم رائحة، أما ركاب الدرجة الثالثة فهم الفلاحين المكدسين المحشورين والذين تفوح منهم رائحة الحلبة.

قطار الخامسة، قطار الصحافة، القطار الذى تجىء فيه الجرائد. للمحطة نسخة يومية من الأهرام. أبى يغلق الباب عليه فى مكتبه بعد قيام القطار. يحصى ما بيع من تذاكر وثمنها، ويطابق ذلك مع الإيراد. تلك فرصتى لأنفرد بقراءة الأهرام. أتابع أخبار الحرب وأتمنى أن يسحق الألمان الإنجليز. أعجب بهتلر وأحلم باليوم الذى يدمر فيه تشرشل، ويجهز على إنجلترا التى لا تغيب الشمس عن إمبراطوريتها.

أبى لا يحب الإنجليز، لكنه لا يحب الألمان أيضاً. أتمسك فى حوارى معه بفكرة أن عدو عدوى صديقى. وهو يؤكد أن عدو عدوى ليس بالضرورة صديقى، ربما كان عدواً آخر.

* * * *

القطارات تحمل قوات بيضاء وسمراء وسوداء وحمراء، بريطانيين وكنديين واستراليين ونيوزيلنديين وهنود ومن جنوب أفريقيا. هنالك معدات ذاهبة إلى الصعيد، ومعدات قادمة منه. ونحن نتفرج نحاول التعرف على جنسياتهم. تبدو عليهم حالة أقرب للـ «توهان»، كأنهم مسيرون لا خيار لهم فيما يفعلون، أو على الأصح فيما يفعل بهم. أحياناً يكون الخط مشغولاً فيساق قطار العساكر إلى «الخط الميت»، حتى «تسلك» السكة أمامه، وبذا تكون أمامنا فرصة ذهبية للذهاب إليهم والاختلاط بهم.

قطارات أخرى تجيء بلاجئين، هاربين من الغارات الجوية على الأسكندرية والقاهرة. الكثير منهم يتخذون من المحطة أو حديقة البلدية مأوى لهم. أولادهم يثيرون المشاكل والخناقات وينظرون إلينا باعتبارنا صعايدة لا نعرف ما يعرفون. كان علينا ضرورة تشكيل عصابة تتصدى لهم. وأصبحت تلك العصابة بمثابة قوة ردع تؤدب أى ولد من هؤلاء الأولاد يتطاول على أى أحد منا.

القطار يحمل أحياناً جثة رجل كان «مسطحاً» ممتطيًا سطح إحدى عرباته، ونتأ رأسه فأطاح بها الكوبرى الواقع «بحرى» المدينة. كان الجسد يوضع إلى جوار دورة المياه، المطلة على المنحدر المتجه من المحطة إلى الميدان، والذى تكسوه أشجار اللبخ والكافور، فيمتلؤ إن حل الظلام بأصوات غامضة غائرة، وأشكال شجية تلقيها الأضواء المتناثرة المتسللة عبر فروع الشجر.

وأصبحت المحطة كلها، وعشة الفرن، وحجرة الخزين فى بيتنا مرتعاً للعفاريت من كل نوع وصنف.

كان من سوء حظى أننى أكبر أخوتى، إذ كان إدوارد فى سوهاج. ولذا كان يقع علىّ عبء شراء الأشياء التى قد يحتاج إليها المنزل فى الليل. كنت أسير فى الظلام ولا أنظر إلى يسارى البتة. أتمتم «بسم الصليب وإشارة الصليب»، حتى أدفع «قرينى» الذى يسير إلى جوارى، بعيداً عنى، وتسرع خطاى شيئاً فشيئاً، حتى أبلغ مرحلة الجرى ثم الجرى السريع حتى أصل، وأنا ألهث، إلى ميدان المحطة المضاء. لا أستطيع أن أخبر أحداً أننى أخاف، لكننى سألت والدى ذات مرة أن يصحبنى

سمير. فشخط أبى فىّ:
-الرجالة ما يخافوش.
لقد انفضح أمرى. كان أهون علىّ أن أواجه العفاريت من أن أواجه أبى بخوفى. فالمفروض أننى رجل، ليس الآن فقط، ولكنى رجل منذ ولدت!
بدأ العام الدراسى. أنا فى السنة الأولى الثانوية، بمدرسة رزق الله مشرقى. عندما حصلت على شهادة الابتدائية لم يكن هنالك داعٍ لاغترابى طالما توجد فى جرجا مدرسة ثانوية، رغم أنها مدرسة حرة، خاضعة لتفتيش وزارة المعارف العمومية. الناس تنظر إلى المدارس الحرة باعتبارها أدنى من المدارس الأميرية. غير أن مدرستنا كانت مدرسة عظيمة حقاً. كانت بها مجموعة رائعة من مدرسى العلوم والآداب واللغات. كان ناظرها شديد الحزم، وحيد العين، يغلقها عندما يعاقب تلميذاً بالضرب بالخيرزانة، فلا يستطيع فراراً من رهبة ما هو فيه.
كان مدرسو اللغة العربية، والبعض منهم يرتدى «الكاكولة» قمة فى الوطنية. أنهم يحكون لنا عن ثورة 19 وقت أن كانوا طلبة فى الأزهر. كان أحدهم تعجبه موضوعات الإنشاء التى أكتبها فيطلب منى قراءتها فى الفصل، فأحظى بإعجاب زملائى. وشكل آخر جمعية للخطابة ألتحقت بها. كان يدربنا على حفظ وإلقاء خطب عرابى ومصطفى كامل وسعد زعلول، فيخطب الواحد منا وهو يتصور نفسه واحداً من هؤلاء. كان يحفزنا على حفظ الشعر والحكم والأمثال، حتى نرصع خطبنا ببعض منها.
عيننى المدرسون ألفة على الفصل، أحكم نظامه فيما بين الحصص. كان هنالك صبى يتعمد الإثارة والاستفزاز. شعرت أنه يود إثبات عجزى عن إدارة الفصل. كدنا نتشابك أكثر من مرة. حدث فى إحدى المرات، وأنا خارج من جمعية الخطابة، ومعى صديقىّ الطهطاوى والبارودى، وهما من أبناء الأسر الكبرى، أن أعترض هذا الصبى طريقى. كان معه أربعة صبية آخرون، تقدم نحوى مهدداً، وصبيته يحاولون الالتفاف حولى. منعهما الطهطاوى والبارودى، على أساس أنه المعتدى. طرحت الصبى على الأرض وقد أمسكته من رقبته. وأخرجت من «عبى»

خيرزانة قصيرة ذات رأس كبيرة «مكورة»، كنت أحملها دوماَ فى طيات ملابسى. وبركت فوقه وأنهلت على رأسه. وبدأ يستغيث. وقال الطهطاوى والباردوى:

-كفايه كده هو هيتأدب من دلوقت.

فقمت من فوقه، لينطلق صارخاً وهو يسب ويشتم، ولحق به أصدقاؤه وهم يتوعدون. وجدته، فى الصباح، أمام غرفة وكيل المدرسة. قيل أنه جاء مع أبيه لتقديم شكوى ضدى. لم يكن ناظر المدرسة موجوداً، كان فى إجازة، وقد حل وكيل المدرسة محله، وكان ذلك من حسن حظى. كان الوكيل رجلاً عاقلاً للغاية، غير أن منظر الصبى آثار فزع الجميع، بما فيهم فزعى، فقد امتلأ وجهه بالأورام والكدمات، والألوان، من البنفسجى إلى الأحمر إلى البنى إلى الأزرق، كما كانت هنالك خدوش فى رقبته. كان الولد قد «تبهدل».

استدعانى وكيل المدرسة، فقصصت الأمر عليه كما حدث بالضبط. فاستدعى الطهطاوى والبارودى، فشهدا بالحق وأن الولد هو المعتدى,. ولم يجد والد الصبى أمامه غير الانسحاب. وقد طلب من ابنه، كما أخبرنى الإبن فيما بعد، أن يستدرجنى إلى أطراف البلدة، و»يدقونى» علقة ثأرية، غير أن الود قال له:

-هو أنا قدرت عليه جوه البلد، عشان أقدر عليه بره البلد.

وأصبحنا صديقين.

وقد دفعتنى هذه الحادثة إلى تشكيل «عصابة» بالمدرسة، على شاكلة تلك التى فى المحطة. كان معى فى المدرسة عدد من صبية المحطة، أصبحوا هم نواة العصابة الجديدة. وسرعان ما انضم إلينا عدد من أصدقاء الدراسة. كان مجرد وجود العصابة، كافياً لإلزام الآخرين ألا يحتك أحد منهم أو يعتدى، على أى واحد منا.

كنت قد اخترعت آلة حادة كى تستخدم فى الصراعات إلى جوار الخيرزانة القصيرة ذات الرأس الكبيرة. «البوكس الرصاص» كان الرصاص وافراً على أرصفة البضائع فى المحطة، فهو الذى «تبرشم» به العربات، فتغلق رسمياً، وعندما تفتح، يلقى بهذا الرصاص فوق الأرصفة. جمعنا أكبر كمية منه، ثم صهرناها، وصببناها فى قالب

طينى، بحيث يمكن لبس الأداة فى أصابع اليد اليمنى مع وجود بروزات حادة عند كل أصبع. كانت أداة قاتلة، لم نستخدمها أبداً. لكن الجميع كانوا يعلمون أنها بحوزتنا.
طلب منا مدرس الدين أن نلتحق بمدارس الأحد, إنهم يدرسوننا الكتاب المقدس، ويوزعون علينا الأناجيل الصغيرة والصور الملونة الجميلة. ونتدرب على حفظ التراتيل وترديدها، ونحفظ قانون الإيمان. ويدرس الشماسة، وكنت واحداً منهم، الردود القبطية وراء القسيس، ووراء الأنبا بوساب مطران جرجا أن كان هو القائم بالصلاة. وكان من الضرورى أن نتناول الأسرار المقدسة من دم المسيح وجسده كل يوم أحد. ولعملية التناول طقوسها. إننا نذهب إلى الكنيسة بلا إفطار، ونظل كذلك حتى تبدأ عملية «التناول» قرب نهاية القداس. إننا نخلع أحذيتنا، ولابد أن يرتدى الواحد منا ملابس نظيفة وجورباً نظيفاً، فالتناول يجرى داخل الهيكل.
إن كل منا يحصل من الكنيسة على منديل صغير نظيف مكوى. ونقف فى صف وراء بعضنا البعض، وعندما يقترب الواحد منا من الكاهن يضع المنديل قرب فمه، ليضعه على فمه بعد تناول القربان (رمز جسد المسيح) والنمبيذ غير المختمر (رمز دم المسيح)، حتى لا يقع أو يتناثر منه أى شىء على الأرض. ويظل الواحد منا واضعاً المنديل على فمه حتى يبتلع كل ما فيه. ثم على الواحد منا أن يحافظ على نقاء فمه وطهارته، فلا يشتم ولا يسب ولا ينطق كذباً أو زوراً، ولا يحلف باسم الله، ولا يبصق، لأنه إن فعل ذلك أهدر التناول ووقع فى الخطيئة، كما أن عليه ألا يسير حافياً، فجسده أيضاً قد أصبح طاهراً، ويجب عليه ألا يدنسه. وكان المفروض أن تسبغ علينا تلك المراسيم، التى تجرى ممارستها كل يوم أحد، سلوكاً رائعاً، غير أننا كنا كثيراً ما نتشاجر كالديكة ما أن نغادر الكنيسة أو مدارس الأحد.
هنالك على الدوام صبية يميلون للمشاغبة والتحدى، وكأنهم يختبرون رجولتهم المبكرة، أو لشعورهم بالتفوق على غيرهم لثرائهم. كان ابن أحد الصياغ لا يكف عن التعالى والإساءة إلى الآخرين. وكان لديه عصابة من أصدقائه وزملائه. وقد احتك بنا أكثر من مرة مما جعل هذا الأمر غير محتمل. وكان احتكاكه دوماً فى اجتماعات مدارس الأحد.

وقررنا تأديبه هو وعصابته. وشكلنا عصابة من تلامذة مدارس الأحد، كانت نواتها من عصابة المحطة وعصابة المدرسة. واتفقنا مع البارودى والطهطاوى على أن تتعاون عصابتيهما معنا، لا بالتدخل فذلك يسىء إلينا، ولكن بإغلاق المنافذ الفرعية للشارع الذى يسير فيه دوما هذا الصبى وعصابته بعد مدارس الأحد، متجهين إلى الصاغة، بحيث لا نعطى لهم فرصة للتشتت والفرار. وكانت علقة كفوا بعدها عن التعالى أو الاحتكاك بالآخرين.

* * * *

اشتد الزحام فى ميدان المحطة. هنالك استعدادات هائلة. مات كبيرٍ عائلة أبو رجاب، أغنى أغنياء العسيرات. كان نائب البلدة. لم يكن وفدياً، غير أن الناس يتناسون، فى مثل تلك المناسبات العصبيات الحزبية. كل العائلات الكبيرة فى جرجا والعسيرات والبلينا تسير فى الجنازة الهائلة، التى تتقدمها موسيقى البلدية بأنغامها الحزينة البطيئة الكئيبة. علية القوم على رأس الموكب خلف النعش المحمول مباشرة. وخيول المتوفى العربية الأصيلة، يمسك بها السياس، تسير مشدودة متوترة، تبدو وكأنها تدرى ما حل بصاحبها. وقد غُطيت بأقمشة سوداء. والندابات يصرخن، وقد وضعن الطين على رؤوسهن وملابسهن، باصوات حادة ممطوطة، ويعددن مآثر الفقيد وهن يلطمن الخدود المصبوغة بالأزرق، وقد غدا منظرهن أقرب للساحرات أو العفريتات. وهنالك رجال يبكون، وآخرون يسندهم البعض وقد أوشكوا على الإنهيار.

قال العامل الذى يرعى صديقه منزلنا، وهو يتفرج معنا، ويتنهد، هازا رأسه:

-والله ما فيه كبير على الموت.

كان راغباً فى التفلسف. قلت استدرجه فى الحديث:

-الناس كلها زعلانة عليه.

مط شفتيه:

-لو كان مات فى البلد اللى جنبنا تحت الجبل. كانوا زعلو عليه أكثر. أصلهم بدو.

وقبل أن أسأل لماذا؟ أكمل:

-أصل اللى يموت حداهم كده موتة ربه بيغيظهم وبزعلهم قوى، ميت ما لوش ديه ولا تار ودهشت تماما لما يقول:
-إزاى الكلام دا؟
هز رأسه، وقد أوشك أن يلقى بقنبلته:
-دول بيعددو على الميت ويقولو
يا ريته مات قتيل كنا خدنا تاره
لكنه مات موتة ربه زى النعجه الهراره.
وكدت أضحك، فالذى يموت موتة ربه، ليس فقط مثل النعجة، لكنه مثل النعجة المريضة، النعجة المصابة بالإسهال، تعبيراً عن الجبن الشديد. فقد خذلهم المرحوم، ومات ميتة طبيعية، ميتة تثير الغيظ والزعل الشديد، لا على المرحوم، ولكن من المرحوم.
* * * *
بيوت كبار المحطة الثلاث، الناظر والمعاونين، غالباً ماتآكل لحما مشتركاً. العامل الذى يرعى حديقتنا يشترى لنا خروفاً، ويقوم بذبحه وسلخه وتقطيعه إلى أنصبة ثلاث. كان أكلنا فى الغالب، من اللحم الضانى. غير أن أبى كان يحب أحياناً شراء الكندوز. أذهب معه إلى الحزار، يشترى رطلين لحمة من «وش الفخذة» أو «بيت الكلاوى» أو «العكوة» بخمسة قروش، الرطل بقرشين ونصف. وهنالك منحة مجانية، للأفندى الصغير، قطعة محترمة من الكبدة، «فوق البيعة».
ونشترى ملوخية بنصف قرش، وبطيخة بقرش ونصف، فيكون المجموع سبعة قروش، غداء لأسرة من سبعة أشخاص، أى أن الفرد يكلف غداء طيباً قيمته قرش واحد، حيث أن الخبز والبصل والتوم والجاز موجودة فى حجرة الخزين.
ثمن زوج الحمام ثلاثة قروش، وكذلك رطل الزبدة ورطل اللحمة الضانى. أما المخ ورطل الكبدة فلا يزيد عن خمسة تعريفة. كنا جميعاً مغرمين بلحمة الراس والكوارع، والتى لا تأكلها أمى، لكنها تعد معها فتة فاخرة بالعيش الشمسى المحمص «وقدحة» الثوم والأرز. وغالباً ما تعد معها كبدة بالكمونية، ما ألذها، وأحيانا مخ مقلى بالبيض والدقيق.
والدى يشترى القصب بالـ «لبشة»، وأبو فروة «بالشوال» والسمك «بالمشنة».

المكسرات لا تنتهى. موسم الأعياد لدينا حافل بصناعات والدتى من الكحك والغريبة والبتى فور وأنواع البسكويتات والبانتسبانيا، والكريم كارمل فى المناسبات. وأحياناً نفطر فى صباح الجمعة «عصيدة» باللبن المحلى والسمن. أمى غاية فى الروعة والجمال، فى الطبيخ أو الحلوى. والدى سخى بلا حدود، مضح بلا حدود. لكنه حازم صارم. لسنا بالنسبة لوالدتى خمسة من الأبناء، إننا خمسة من الشياطين: ضجيج لا ينتهى، خناقات لا تتوقف، جرى ومطاردات فى البيت كأنه ساحة رياضية مفتوحة. «رزع» فى الأبواب، توسيخ للملابس، بل وتقطيعها أحياناً.
وعندما تضيق أمى بنا تشكونا إلى والدى. كنا نطمع فى حنانها وأن لا تصل شكواها منا إلى أبانا فالأمر هنا خطير. غير أننا كنا نتجاوز فى بعض الأحيان، كل الحدود، ولا نترك لها سبيلاً للتعامل معنا، غير اللجوء إلى السطوة الأبوية. إبى له طريقتين للتعامل معنا. تجرى الشكوى دوما فى حجرة مغلقة، ونحن نقبع خارج الغرفة فى انتظار الأحكام بعد المداولة. فنسمع أبى يقول لأمى:
-لأ يا إيلين فخرى ما يعملش كده فخرى عاقل.
وأحس أنا بالخجل الشديد. أبى يقدرنى، غير أننى لم أكن فى مستوى هذا التقدير. وأقرر بينى وبين نفسى ألا أقدم مرة أخرى على الفعلة التى اشتكتنى أمى بسببها.
أما إذا كان الخطأ كبيراً فهنالك الحل الآخر، عقوبة «تلبيط العينين» «بالششم»، فتشتعلان كالجحيم.
ساعة الظهيرة يدخل أبى للنوم، فنتسلل فى هدوء شديد إلى أسرتنا، للنوم أو لالتزام الصمت.
وكانت أمى تسخر منا وتقول:
-شوية عيال صحيح، تخاف ما تختشيش.
ونضحك مما تقول، فنحن نعرف كم تحبنا.
الششم علاج وعقاب. وزيت شربة الخروع الثقيل البشع الرائحة علاج، لكننا نعتبره عقاب أيضاً.
نحن نخاف أبى ونحترمه ونحبه. إنه يضحى من أجلنا بلا حدود، ويشقى من أجلنا بلا حدود أيضاً.

* * * *

انتخابات مجلس النواب، ومرشح الوفد فخرى بك عبد النور، الرجل الذى أسمانى أبى على اسمه. شاركت فى مظاهرات تهتف للوفد ولفخرى عبد النور. فأنا أعتبر نفسى وفدياً، مثل مثل أبى. بح صوتى من كثرة ما هتفت. كنت أحس بالفخر لما قمت به من عمل. غير أننى ما أن دخلت مكتب أبى فى المحطة، وهممت أن أروى ما حدث متباهياً، حتى سألنى: لماذا صوتى هكذا؟ فقلت معتزاً، من الهتاف فى المظاهرة. وتغير وجه أبى حتى أكفهر. وخشيت أن أكمل، لكنه هو الذى أكمل:

-امشى غور من وشى دلوقت.؟ وحسابك فى البيت.

أسرعت «انفد بجلدى» إلى حين. ما أن وصلت المنزل حتى أسرعت إلى غرفة النوم وأعلقتها لحق أبى بى، وسمعته يزعق فى الصالة:

-فين فخرى؟

وقالت أمى منزعجة:

-إيه فى إيه؟

ابنك يا ستى عامل زعيم. وبيهتف فى المظاهرات.

وشهقت أمى:

-هوه جالك المحطة؟

وواصل أبى زعيقه:

-أيوة يا ستى: جاللى وصوته رايح خالص. وبكره هيروح عمره كمان.

وصرخت أمى:

-لا يا لبيب، لا ما تقولش كده. دنت اللى دايماً تقول دا فخرى عاقل.

هدأت العاصفة قليلاً، لكننى لم أخرج، ظللت فى حجرتى غاضباً محتجاً، والدى علمنى الوطنية، لماذا كان ذلك إذا كان يخاف منها علينا. ولماذا أطلق على اسم فخرى إذا لم يُكن لهذا الرجل قدراً كبيراً من التقدير. يبدو أن أبى خائف أن أقتل كما قتل شباب 1919 و 1935. يبدو أن الوطنية عند أبى هى أن أكون وطنياً فى ذاتى دون أن أشارك فى أى عمل قد يجر المتاعب علىّ. ولم استطع أن أتقبل هذا المنطق الذى استخلصته لنفسى. وأحسست لأول مرة أننى وأبى قد نقف على شاطئين مختلفين.

* * * *

ماتت جدتى جئنا جميعاً إلى سوهاج لنشارك فى الجنازة والعزاء. رأيت

لأول مرة أهلها، أخوال أبى. كان البعض منهم يرتدى الملابس البلدية، كانوا عمداً وأثرياء فلاحين. ولن تأتى فرصة ثانية لأراهم مرة أخرى، إلا عند وفاة جدى.

وقد حزنا عليها حزنا شديداً. كانت سيدة رائعة لعبت دوراً رئيسياً فى تعليم أولادها. غير أن مشكلة نشبت بعد وفاتها. اتضح أنها ورثت البيت الذى كانت تمتلكه لأبنائها الذكور، بيعاً وشراء. وبذا حرمت الإناث من هذا الأرث، مما أغضبهن عليها غضباً شديداً. وخاف جدى أن ينقمن عليه إن فعل فعلتها، فلم يورث احداً على حساب أحد، وترك ذلك لقانون التوريث.

* * * *

انتهى العام الدراسى ونجحت. انتقلت إلى السنة الثالثة الثانوية. رّقى أبى من معاون محطة إلى ناظر محطة، ناظر محطة العدوة- فيوم، وذلك يعنى مغادرتنا لجرجا. وأحسست بحزن عميق. لن أرى بعد الآن كل هؤلاء الأصدقاء فى المحطة والمدرسة ومدارس الأحد. كل هؤلاء الأساتذة وكل تلك الأماكن وما تحمل من ذكريات: كشك البطاريات وفتاة التليفونات، سور حديقتنا يغطيه اللبلاب وفتاة التلغراف.

أننى أترك ورائى يوم أغادر جزءاً غالياً من حياتى.

* * * *

الفصل السادس

العدوة- فيوم

1942-1943

العدوة قرية تقع على الخط الحديدى الممتد من الفيوم إلى الواسطى ماراً بها ثم بسيلا والروس.

ناظر المحطة هو الموظف الشامل بها. إنه الناظر والمعاون ووكيل التلغراف والمخزنجى. هو المسئول عنها من ألف إلى ياء، أى مسئول عنها «من بابها».

بيت الناظر هو البيت الوحيد المقام بحرى المحطة. إنه مكون من دورين وسلم داخلى، أشبه بفيلا. الدور الأرضى مكون من حجرتين وصالة ومطبخ وحمام، والدور الذى يعلوه مكون من حجرة واحدة، وسطح واسع يحيط به سور. يوجد بحرى المنزل وإلى الشرق منه حديقة جرداء. تكاد تصل مساحتها إلى قرارايط ثلاث، تنتهى شرقاً بعشش الطيور. وتجرى بحرى أرض الحديقة تماماً، قناة مياه، أشبه بترعة صغيرة، على ضفتيها أشجار تتلاقى فى وسطها، وأنا أعبر تلك الترعة بتسلق شجرة من إحدى ضفتيها لأنزل على شجرة أخرى تتلاقى والأولى فى وسط الترعة، وأنزل على الضفة الأخرى.

وإلى جوار المنزل مباشرة هنالك جامع قصير المأذنة. وعندما يؤذن منها المؤذن يبدو وكأنه يفعل ذلك من داخل منزلنا. إننا نعيش دوى الصوت فى كل آذان.

عندما وصلنا العدوة، كان العفش قد وصل أيضاً، وكذا الطيور التى اهتمت والدتى بسرعة إطلاق سراحها فى العشش وتقديم الماء والغذاء لها.

قضينا اليوم بطوله، نفرش المنزل. وضعنا حجرة السفرة وحجرة الجلوس وحجرة نوم الوالدين ومدحت أسفل، وفرشنا الغرفة العلوية لنا نحن الباقين، إدوارد وأنا وسمير ورأفت.

استقرت الأوضاع، فبدأت أنا وإدوارد نتهامس، ندبر أمراً، لابد من سفرنا إلى بيت إخوالى فى القاهرة لنقضى جزءًا من الإجازة الصيفية هناك. لم يتحمس والدانا لذلك. كانت الأوضاع فى القاهرة سيئة. غير

أنهما وافقا، أمام الحاحنا، على سفرنا.
عندما وصلنا القاهرة، كانت المقابلة فاترة، ليست كتلك المعتادة. كان يعيش خال إخوالى معهم. هو رجل متجهم، لا يضحك، ولا يرغب فى أن يضحك، يبحث عن النكد بهمة. أعزب، لا يعرف الحياة الزوجية أو معنى الأبناء، يود أن يكون البيت فى حالة دائمة من الصمت والهدوء، أو ما نراه نحن مواتا. لذا كنا مصدر قلق لراحته. وهو مصدر إزعاج لنا. كانت نظراته تحمل بوضوح تساؤلات لا نهتم نحن بها، مثل «ما الذى جاء بهذين الولدين فى هذا الزمن الأغبر». لم تكن القاهرة مكاناً آمنا. كانت الغارات الجوية الألمانية لا تتوقف. كان الألمان يعلنون أنهم يضربون الأهداف العسكرية فقط. والناس تثق فى كلامهم فيخرجون إلى الشرفات ليتفرجون على حزم الضوء الكاشفة التى تتقاطع فى السماء تحاول محاصرة الطائرات المغيرة وإسقاطها. وكانت القذائف التى تطلق نحوها كثيراً ما تتفجر فى الفضاء قبل الوصول إليها، ثم ترتد شظايا إلى الأرض فتصيب الذين يغامرون بالفرجة، وقد تقتلهم. كنا نختبأ تحت السفرة، وكان خال إخوالى يقف دوماً عل عتبة أحد الأبواب، ربما كى يضمن حائطاً تحته، إن انهار المنزل.
حدث ذات ليلة انفجار مروع، هز الدنيا كلها هزاً عنيفاً، وأسرعنا نتكالب على الخروج إلى المخبأ فى «البدروم». علمنا أن صاروحاً قد سقط فى باب الشعرية. بدأ الناس يتناقشون. رأى البعض أن الإنجليز هم أس البلاء، ولولاهم ما ضرب الألمان مصر. أنهم يضربون فقط المواقع البريطانية، وقد يحدث خطأ فى بعض الأحيان، فيسقط صاروخ على غير الموقع الذى استهدفه. ورأى البعض الآخر، أن الألمان لا يخلتفون عن الإنجليز. وأن كل هؤلاء هم وغم على مصر. وأن الألمان لو جاءوا إلى بلدنا، فلن يكونوا أبداً أحبابنا كما يزعمون. وكاد الأمر يصل إلى احتداد واحتكاك، غير أن صفارة الأمان دوت مجلجلة متصلة، فأسرع كل إلى شقته.
وصلت أنا وإدوارد، فى مناقشة لم تستغرق وقتاً طويلاً، إلى قرار بضرورة العودة إلى العدوة. أبلغنا إخوالى وخالاتى بالقرار، فأحسسنا أن هذا القرار قد أراحهم. أزاح حرجاً ما قبلنا وقبل خالهم.

وصلنا العدوة، فوجىء أبى بنا نغادر القطار. نظر إلينا مستفسراً. قلنا معاً،
-كفايه إجازه كده، الدنيا غارات فى مصر.
وقال أبى مؤنباً:
-ما قلتلكم. هوه بش نشفان دماغ.
أحسسنا بالخجل. كان محقاً. كانت الزيارة «نكد فى نكد». هل يعقل أن يترك الناس القاهرة إلى الصعيد والأقاليم، خوفاً من الغارات الجوية، ونحن نشكل، فى المقابل، التيار المعاكس المتجه من الأقاليم إلى القاهرة، التيار المخالف لكل منطق.
عندما رآنا أخوتنا سمير ورأفت ومدحت هاصوا بشدة، وفرحنا لفرحتهم ولقياهم. ما أن رأتنا والدلتى حتى غشيت الدهشة وجهها:
-إيه يا ولاد، عملتوا إيه؟
كان لابد أن نكون قد فعلنا «فعلة» ما، مما أوجب مغادرتنا القاهرة بهذه السرعة.
قلنا فى كلمات مدغومة:
-الغارات، الغارات الجوية يا ماما.
قالت، وهى تنظر إلينا بإمعان، لعلها تستشف ما نخفى:
-حمد الله على السلامة. وإزاى اخوالكم وخالاتكم.
وقلنا فى نفس واحد
-كويسين الحمد لله، وبيسلمو عليكى.
وأسرعنا إلى الداخل نخلع ملابسنا، ونستعيد طبيعتنا بعد هذا الدرس اللاسع كالسوط. العدوة قرية كبيرة، يخترقها طريق رئيسى يمتد من المحطة حتى آخرها حيث دوار العمدة، وجرن كبير لدرس الغلال. وقد رصت البيوت على جانبى هذا الطريق، أغلبها طينى، وبعضها من طوب أحمر ونوافذ جيدة مطلية بالزيت الأخضر، وبوابات تحمل بعض دلائل الثراء، وتلك بيوت قليلة.
الترعة التى تنساب خلف منزلنا هى شريان حياة القرية والأراضى الزراعية التى تموج بالخضروات وأساساً الطماطم والحبوب والبطيخ. هنالك قرى أخرى تقع بحرى العدوة، فى عمق الأرض الخضراء مثل

مطرطارس.
وهنالك الخط الحديدى الأشبه بلعبة كبيرة، والذى يطلقون عليه «السكة الضيقة»، لضيق المسافة بين قضبانه، قياساً بقضبان القطارات الحقيقية.
وتربط كل تلك القرى «بالمدينة» التى هى الفيوم عاصمة المديرية شبكة من تلك القضبان الثعبانية.
ويوجد عند طرف الزراعية شرقاً، مقام ولى القرية «أبو قتلة»، وإلى جواره «دحديرة»، تتدحرج عليها النسوة العاجزات عن الإنجاب. انهن عندما يتدحرجن تتطاير ملابسهن يتعرين حتى خصورهن وأكثر، فتتوافر فرجة مجانبة يعيشها الشباب مختفياً فى الزراعات المحيطة، كالأذرة الشامية أو العويجة.
الليل ستار، والفلاحون، رجال ونساء وأطفال يقضون حاجتهم فى العراء. ليس فى الدور دورات مياه. وفي الصباح تمر مجموعات من الصبية، يحمل كا جاروفاً خشبياً صغيراً ومقطفاً ليلتقط إفرازات الأمس، يجمعها «رسمالاً» لتسميد التربة، وإنتاج بطيخ منفوخ كالطبل.
علاقتنا بأهل القرية محدودة، محصورة فى شراء بعض الأشياء من تلك الدكاكين المتناثرة على الطريق، كذا شراء اللحمة. اندفع حمار ذات يوم، إلى داخل السور المحيط بمنزلنا كانت جنبتاه ممتلئتان بالطيخ. أخذنا نفرغه من على الحمار، وندفع به إلى تحت السرير. عندما عاد والدى سألته والدتى مندهشة:
-حمار بطيخ بحاله!
قال والدى متباسطاً:
-خلى الولاد يكلو. دا كله بخمسين قرش.
هنالك، فى حديقة منزلنا، طلمبة، تأتى إليها فتيات القرية لأخذ المياه العذبة النقية منها. أنهن كثيراً ما لا يكتفين بذلك، فيقمن بغسل وجوههن، وأقدامهن، وأحياناً سيقانهن وقد تعلو البعض منهن إلى أفخاذهن يتباهين بامتلائها واستدارتها وبياضها ونعومتها، ليغظن الأخريات بما يمتلكن من إمكانيات. وكانت تلك فرصة لنا، ما مثلها فرصة، للفرجة ومتابعة تلك العروض الممتعة، من فرجة شباك يطل على الحديقة، وقد أمسكنا أنفاسنا اللاهثة خشية أن ينتبهن لوجودنا، فينفضح أمرنا. غير أننا

اكتشفنا فيما بعد، منهن، أنهن كن متنبهات متعمدات. وكانت البعض منهن يأتين فرادى مبكرات، لخلوة سريعة سعيدة فى عشة الأرانب إذ أن الأرانب، لا تصدر أصواتاً يمكن أن تنبه الوالدة، أو من بالمنزل، أصواتاً مثل تلك التى تصدرها الطيور المذعورة.
شكلنا فريق كرة شراب عائلى. لاحظنا أن بعض أبناء القرية يقفون يتفرجون علينا. تقدم أحدهم منا أثناء فترة الاستراحة وسأل: إن كان من الممكن أن يلعبوا معنا. كان يبدو قصيراً، كبير الرأس، إلى حد ما، فاتح الشعر «مفلفله» بعض الشىء. كنت قد رأيته من قبل، واثنين معه يصطادون العصافير واليمام بـ «النبلة». كان بارعاً للغاية، يستطيع إسقاط الطير من أول «حصوة»، وكان اسمه عبد الله محمود كامل. ورحبنا بالفكرة تماماً.
لعبنا معاً. كان «حريفاً» سريعاً، يجيد اللعب والمناورة. طلبت منه أن يعلمنى الصيد بالنبلة. كنت أجيد الصيد بالفخ، وأجيد الإعداد له حتى يدخل الصيد الفخ برجليه. لكننى لم أكن أجيد الصيد بالنبلة، ولم أستطيع البتة إجادته.
اكتشفنا أننا نحب القراءة، فشكلنا مجموعة للقراءة. كان الواحد منا يدفع اشتراكاً شهرياً يتراوح من خمسة مليمات إلى عشرة، لنشترى إحدى الروايات التى تصدر شهرياً عن مجموعة مسامرات الجيب أو روايات الجيب. قرأنا الكثير من روايات طرزان وأرسين لوبين. كانت الرواية الوحدة تمر علينا بالدور لنقرأها. قرأنا لجوجول، وجى دى موباسان، وفيكتور هيجو، والكسندر دوماس. وكنا نتناقش مع بعضنا البعض، ونجادل بعضنا البعض، تسحرنا تلك العوالم الغريبة.
لم يكن صيد الطيور، أو لعب الكورة الشراب، أو القراءة بكاف لملىء الوقت. وكان منظر الحديقة الجرداء السوداء حول المنزل، وقد انتشرت فيها الأعشاب الجافة اليابسة، منظراً لا يريح العين. فكرت فى ضرورة أن أحيل هذا الخراب إلى زرع أخضر.
بدأت للحال فى عزق الأرض. استغرقنى العمل حتى أننى نسيت كل شىء عداه. إننى أفعل بنفردى شيئاً سوف يجعل الدمار عماراً. كنت استيقظ مبكراً، وأظل أعمل وقد اشتدت حرارة الشمس ووالدتى تصرخ

أننى لا أحيى الحديقة، لكننى أقتل نفسى. وازداد غضبها عندما بدأت فى إعداد شادوف وتركيبه على الترعة الصغيرة وراءنا. كان هنالك مكان يناسبه تماماً. وعندما جربته وإنساب الماء إلى الحديقة شعرت وكإننى نابليون بعد أن فتح عكا. وكان إلى جوار هذا المكان فتحة سور الحديقة الخلفى. وكنت أضع أمام هذه الفتحة ايضاً «جوبيه» لصيد الأسماك.
وهى عبارة عن فخ سلك أسطوانى، مخروطى الفتحة، ورأس المخروط إلى داخل الاسطوانة وقاعدته ملتصقة بطرفها، فإن عبرت السمكة المخروط إلى داخل الأسطوانة عجزت عن الخروج. كنت كل صباح أرفع الجوبية من منحدر الترعة فأجد داخلها بعضاً من أسماك لذيذة.
بدأت أشعر بالتعب، ثم ارتفاع فى درجة الحرارة، ثم إرهاق شديد الزمنى الفراش. أعتقد والدىّ فى بادىء الأمر أنها ضربة شمس، بسبب «عنادى وفلاحتى للحديقة»، لكن الحالة استمرت وكذا درجة الحرارة.
وجاء الطبيب، وقرر، ويا لهول ما قرر، أننى مريض بالتيفود. ها أنذا أواجه مرة أخرى تلك المحنة التى واجهتها منذ أربع سنوات. كان علىّ ألا أتحرك، فقد أصبحت الأمعاء رقيقة رقة ورق الدخان. وأنا لا أتناول شيئاً غير ذلك الدواء المريع وشراب الليمون. ولا أحد يقترب منى، غير والدىّ، وهما يتعرضان بذلك للعدوى الخطرة، لكنهما لا يباليان البتة، ولا يكفان عن العناية الشديدة بى. أمى كثيراً مايغلبها النوم وهى قابعة إلى جوار قدمى لعلى احتاج شيئاً، تسقط نائمة من الإجهاد والسهر.
درجة حرارتى ترتفع، فتحل بى نوبة من الهلوسة. أصف بالتفصيل جنازتى، أو ما يجب أن تكون عليه: عربة بيضاء، بيضاء كما الحليب، وخيول أربعة بيضاء، بيضاء بلا شعرة واحدة سوداء أو رمادية.
التابوت الذى أرقد فيه مستريحاً بعد كل هذا العناء، تابون ذهبى، يغطيه صليب بارز عليه المسيح مصلوبًا. النواقيس تدق، تلك الدقات التى تميز الوداع، متقطعة، متأنية، حزينة، نائحة، والتراتيل والترانيم التى أحبها، كلمات وألحاناً، تزفنى إلى مثواى الأخير. البخور تملؤ المكان، فتشيع جواً ضبابياً من الغموض والإبهام. وروحى تصحب الموكب، تتيقن من أن كل شىء يجرى كما يجب أن يكون. لكننى أخاف أن يكون مرقدى، مرقداً مجهولاً، كما كان مرقد إقبال أختى، فلا يعرفه أحد، ولا يأتى أحد

لزيارتى. حقاَ لن أستطيع الكلام معهم، لكننى سأسعد، على أى حال، برؤياهم فى هذا المكان البعيد. حيث غدوت جسداً بلا روح. ستظل روحى بالمنزل ثلاثة أيام حتى أطمئن عليهم، ثم يجىء القسيس ليقيم صلاة صرف الروح، وقد وضع على منضدة صغيرة رغيف حبز وكوب ماء وبعض الخضروات كالجرجير مثلاً. وتجرى الصلاة والمراسيم فى هذه الحجرة التى أنا بها الآن، والتى سوف أموت فيها، ثم تنطلق روحى صاعدة إلى الجنة حيث الملائكة والقديسين، إذ لن يكون لى مكان فى الآخرة غير هذا المكان.

كانت أمى تبكى وهى تسمع «هلوستى»، وتعتبرها نذير شر، إذ كانت على قناعة بأن الإنسان عندما يقترب من نهايته، فإنه يراها رؤى العين، فقد رفع عنه الحجاب. وما دمت أصف جنازتى، فلابد أننى أراها بالفعل فى لحظات الشفافية تلك. وأخذت تصلى بحرارة باعتبار أن قرار السماء بموتى قرار حال لا محالة، وأن الرب قد آن له أن يسترد وديعته التى هى روحى. كانت أمى تبكى وتتوسل إلى السماء بصوت كل رجاء ولهفة:

-شحتهولى يا رب، شحتهولى يا رب.

وقبل الله توسلاتها، وبدأت حرارتى فى الانخفاض. وفرح الطبيب المعالج، وأمر لى، إثباتاً وتأكيداً لتحسنى، بطبق من أرز باللبن. غير أننى بدلاً من أن أتقدم انتكست. وعدنا مرة أخرى إلى البداية. كنت أستيقظ فى الفجر، على آذان الفجر، فأحس أننى فى أحسن أحوالٍ. كنت أحس أننى لست الوحيد اليقظ، فهنالك ذلك المؤذن، مما خلق حبلاً من المودة غير المرئية بيننا.

شفيت. كنت على يقين أن صلوات أمى هى التى سحبتنى من هلوسة المرض، وهوة الموت، وأننى لولاها ما كنت الآن حياً. أمى تؤكد دوماً أن طريقها مع الله طريق خالص، وليس هنالك من قوة تستطيع اعتراضه. إنها تؤمن بقوة بشفاعة القديسين، شفاعة ستنا مريم السيدة العذراء أم المخلص، ومارى جرجس الرومانى، الذى زارها بفرسه يوم مرضت بحمى «الحمرا»، فشفيت.

مضى أسبوعان على الدراسة. ذهبت إلى الفيوم لأنتظم فى مدرسة

الأقباط الثانوية. لقد أستأجر والدى لنا غرفة فوق سطح أحد المنازل فى حى «الجون»، وملحق بها دورة مياه، تفصلها عن حجرة الفرن ألواح خشبية بينها فراغات تسمح لمن هم فى الفرن من رؤية من هم بدورة المياه، والعكس صحيح.
كنت قد شفيت، غير أنى كنت فى حاجة إلى فترة نقاهة أسترد فيها عافيتى وطاقتى، غير أن المدرسة أخذت تحذر وتنذر مما أجبرنا على ذهابى والاتفاق مع عربة حنطور لتأخذنى كل يوم إلى المدرسة ذهاباً ثم إياباً إلى المنزل. كنت قادماً من مدرسة حرة فى جرجا لألتحق بمدرسة حرة فى الفيوم. نقلت محتويات غرفة السطح فى العدوة، لتملأ غرفة السطح فى الفيوم: السرير ومرتبة ووسائد وملاءات ومنضدة تستخدم كمكتب ووابور جاز وحلة وأطباق، سكينة ومعالق وأكواب، وكلوب بالجاز «والرتينة»، ولمبة عشرة شريط بالجاز أيضاً.
يمكن لنا أن نسافر يومياً من العدوة إلى الفيوم والعودة. كانت المسافة قصيرة، لكن «التنطيط» اليومى من العدوة إلى الفيوم والعكس آثار ذعر والدتى، خشيت علينا من حوادث القطارات المأساوية التى كان الناس يتناقلونها.
إدوارد كبيرنا فى التوجيهية، وهو المنوط به رعايتنا فى غربتنا، أنا فى الثالثة الثانوية، سمير فى الشهادة الإبتدائية، ورأفت فى الثانية الإبتدائية.
كنت فى مدرسة غير تلك التى يوجد بها عبد الله كامل وفريق العدوة.
كنا نلتقى أسبوعياً يومى الخميس والجمعة لنصطاد معاً أو لنلعب الكرة الشراب أو نتحدث فيما قرأنا.
انتهى العام الدراسى ونجحنا جميعاً. وأشاع ذلك فرحة غامرة فى الأسرة كلها، فقد كان اغترابنا مخيفاً ومجهول النتائج. أن أبى وأمى لا يكفان عن الكد والكدح، يحفزهما أمل وحيد أن يعلما أبناءهما وأن ينجح هؤلاء الأبناء.
العبء ثقيل، خمسة أبناء يلاحقون بعضهم البعض. وربان ماهر يدير الدفة، وأم كرست كل حياتها وجهدها لركاب قارب بدأت تدوى حوله نذر العواصف.
نجح ادوارد فى التوجيهية. كانت الفرحة عارمة. من القاهرة جاءت

رسائل من اخوالى وأخوال اخوالى، وكذا من سوهاج من عمى الأوسط، أن يعمل أخى إدوارد. هم يقدمون شكلاً كلاماً منطقياً، ادوارد فى القاهرة، فى الجامعة نفقات ومصاريف من اين لأبى بها؟ لماذا يضيف لأحماله ثقلاً جديداً؟ على أبى أن يبحث لأخى، شأن الكثيرين العاملين فى هذا المجال، عن عمل بالتوجيهية فى السكة الحديدية أو التلغراف أو البريد أو أى وظيفة أخرى. وبذا يصبح ادوارد إضافة للعائلة لا عبئاً مضافاً عليها، إنه بذلك يصبح مصدراً للدخل لا مصدراً للإنفاق. إن أحداً لن يلومه إن فعل ذلك. غير أن أبى صمد كالطود قال أننا لن نطلب من أحد عوناً، فتعليم أبنائى مسئوليتى الكاملة. حقاً إن أحداً لن يلومنى إن فعلت ما يطلبون، لكننى أنا الذى سوف ألوم نفسى لأنى تخليت عن مبدئى الأساسى، ألا وهو أننى لن أكون قد فعلت شيئاً إن لم أجعل أبنائي أفضل منى. كيف أحرم ابنى حقاً وأطالبه فى ذات الوقت أن يكون عوناً لى فى عبء تنفيذ هذا الحق لأخوته؟ إن حقوق أبنائى مسئوليتى، وهو أولهم، له ما لهم من حقوق.

كان فى قرية العدوة أستاذ جامعى بكلية تجارة فؤاد الأول. وقد أنتقل منها إلى معهد جديد كان اسمه «المعهد العالى للعلوم المالية والتجارية». كان يراه أفضل من كلية التجارة، معهداً دراسياً عملياً، وسوف يجد خريجوه فرصاً أفضل للعمل من خريجى كلية التجارة.

وتحمس أبى لفكرة التحاق إدوارد بهذا المعهد . وهنا جاء دور المشاكل العملية. المصروفات الدراسية للمعهد عشرين جنيهاً، وذلك مبلغ جسيم، فالمواطن المصرى العادى يعجز عن توفير عشرين جنيهاً هى قيمة «بدلية» التجنيد، أى المبلغ الذى يجب أن يدفعه لإعفائه من ذل التجنيد فى الجيش المصرى خمس سنوات. كانت تلك «البدلية» هى فدية العمر كله، وهى تدفع مرة واحدة، أما المصروفات الدراسية فهى تدفع كل عام. والآن الوارد قدر المنصرف، والمدخرات استنزفتها السرقات.

وكان المبلغ الذى يجب أن يدفع مباشرة هو عشرة جنيهات.

ووقفت أمى إلى جوار أبى تسانده وتعضده فادوارد أول أبنائها، أول فرحتها، باكورة أمومتها، هى التى يناديها الناس باسم: يم ادوار. وخلعت أمى «لبتها»، كل ما تبقى لها من ثروة، وقدمتها لأبى: هذا أثمن ما تبقى

عندى من حلى. خذها، إرهنها أو بعها إن لزم الأمر.
أبى لا يريد حرمانها من «لبتها». إنه يمتلك قطعة أرض فى أسيوط، اشتراها فى شبابه وتركها للزمن. وهنالك ميراثه من أمه وأبيه فى سوهاج، لكن البيع المتعجل يبخس سعر السلعة. وانتهى الأمر إلى رهن «اللبة»، والتحق إدوارد بالمعهد العالى للعلوم المالية والتجارية. ونفذ أبى شعار آخر له، «ان بناء الإنسان أثمن من أى بنيان»، إنه يبيع الأبنية ليبنى بها بشراً. كان فوزه وأمى فى هذه الجولة اعلانا بفتح الطريق إلى الجامعة والالتزام به لكل الأبناء.
ثم جاء حل مشكلة المعيشة. عثر أبى على غرفة فوق سطح منزل فى أرض حكر، أرض الحبشية، عند نهاية شارع البعثة، وراء سينما دولى فى شبرا. غرفة داخلية لها شباكان يطلان على منورين. وهى جزء من شقة، بها حجرتان أخريتان تطلان على الشارع. وصالة بلا سقف، هى والسماء. وسقف حجرتنا الواح خشب مرصوصة يغطيها صفيح صدأ ملىء بالثقوب تنثال منها مياه الأمطار. وهنالك دورة مياه ومطبخ مشتركين. ولكن رغم كل شىء، وأى شىء، أصبح لنا نحن قبيلة لبيب حنا موطأ قدم خاص بنا فى القاهرة. وذلك انتصار ما بعده انتصار، ولن يخشى أحد أن نصبح عالة أو عبئاً عليه.
أجر الحجرة جنيهان فى الشهر، وخمسين قرشاً مقابل وصلة كهرباء من صاحب المنزل. ومصروف إدوارد شاملاً الأكل والشرب والفسحة والنزهة جنيهين ونصف. ونصف جنيه آخر للمواصلات، فيكون المجموعة خمسة جنيهات ونصف، ترتفع على الأقل إلى عشرة جنيهات إن أضيفت لها مصاريف الكلية وثمن الكتب والكشاكيل والملابس التى يجب أن تتناسب وهذا الوضع الجديد. وهذا يعنى أن تقتطع القاهرة حوالى نصف دخل الأسرة مجتمعاً. لكن الجميع كانوا على استعداد تام لخوض هذه المعركة الباسلة.
وانتقل عفش غرفة الفيوم ليكون عفش غرفة القاهرة. وغدا لإدوارد، لأول مرة فى حياته، سكناً مستقلاً، وسريراً مستقلاً، وحجرة بحالها، وكان ذلك مؤشرًا لنا لما ينتظرنا فى المستقبل القريب.
أوشك العام الدراسى على البداية. انتقل إدوارد إلى القاهرة. ودعناه

وداع غازى منتصر يحمل رايتنا ليمهد الطريق لنا.
فوجئنا بنقل أبى إلى الصعيد، إلى قرية المحاميد إلى جوار إدفو. لم يبدو أن والدى قد فوجىء بهذا النقل، كما تقبله برحابة صدر. إنه ليس عقوبة.
ودعت أصدقائى فى العدوة، وعلى رأسهم عبد الله كامل مع وعد بالكتابة والتراسل، ووعد لقاء بالجامعة.
ودعنا العدوة ذاتها، وامتطينا قطار الفيوم إلى الواسطى، ومنها أخذنا قطار الصعيد. الرحلة طويلة. القطار ينفضنا، يرجرجنا، وتلك «التكات» الرتيبة فوق «الفلنكات» عند نقاط ارتباط القبضان. ويغلبنا الصمت والإجهاد فنسقط فى نوم عميق.

* * * *

الفصل السابع

المحاميد- أسوان

1940-1945

استيقظنا. القطار يندفع زاعقاً. الرحلة مرهقة، مرهقة. ذهبنا إلى دورة المياه وغسلنا وجوهنا ورؤوسنا. جلس أبى قبالتنا، قال، أننا اقتربنا تماماً من المحاميد. وأنه لن يستطيع الذهاب معنا إلى أسوان. ثم وجه الحديث إلىّ قائلاً، أنه قد حول أوراقنا إلى المدرسة الثانوية والإبتدائية. وأننى سوف اتحمل مسئولية أخوتى؛ وهو يثق فى قدرتى على ذلك. وأن هنالك، فى أسوان، معاون محطة صديق له، وما أن نصل إليه حتى يقوم الرجل بكل ما نريد.

كانت أمى تنظر إلينا فى إشفاقٍ. طلبت أن نبقى معهم حتى يستطيع أبى السفر إلى أسوان، فنذهب معاً.

قال والدى فى حسم:

-العام الدراسى ابتدا من أسبوع، وأنا قدامى أسبوعين على الأقل استلام عهده. ولسه ما أعرفش نظام الراحات ومعاونين البدل.

قلت لأمى مهوناً:

-دى مش أول مرة نتغرب فيها. ما تخافيش علينا.

وقف سمير ورأفت إلى جوارى إعلانا عن تضامنها معى. قالت أمى:

-استنو القطر كل يوم، وأنا هبعت لكم أكل طازه يكفيكو فطار وغدا وعشا.

ربتت علينا جميعاً فى حنان. رصت لنا ملابسنا نحن الثلاثة فى حقيبة واحدة. لفت لنا ما يكفى من الطعام.

دس أبى بعض النقود فى يدى. قال لأمى وهو يضع كفه على كتفى:

-ولادك رجاله، ميتخفش عليهم.

لقد عودنى أبى المشاركة فى هموم المنزل. إنه يطلعنى على راتبه وعلى احتياجات المنزل. ثم يناقش ما الذى يمكن تدبيره أو التخلى عنه حتى لا نستدين. إن ذلك يشعرنى بأننى رجل كبير يتحمل مسئولية مناقشة قرار خطير. لكنه أبداً لا يحرمنا من شىء. الحرمان دوماً من نصيبه هو، من احتياجاته هو. لذا لم أنظر فى النقود التى دسها فى يدى.

إننى على ثقة من أنه قد وضع أقصى ما يستطيع بل وفوق ما يستطيع.
قالت أمى والدمع يملؤ عينيها:
-مش هوصيك على أخواتك. وربنا معاكو، يحميكو فى غربتكو
* * * *
وصل القطار المحاميد والشمس إلى غروب. كان مبنى المحطة متآكلا، أغبراً، كالحا، وكذا منزل ناظر المحطة، وقد رقدت أمامه حديقة جرداء سوداء، جفت غصون ما فيها من نبت فغدت أشبه بوكر طائر خرافى مهجور. والجبل من وراء داكن لا تكاد تبين الدور الطينية تحت سفحه.
أمى تمسك بمدحت فى يد، وتمسح دموعها باليد الأخرى. وعدد محدود من بشر يرحبون بأبى (لابد أنهم موظفى المحطة) ويعاونون فى إنزال الحقائب. ونحن الثلاثة قد وقفنا فى نافذتى الديوان نودعهم. أمى لا تكف عن التلويح، وأبى يحادث الكمسارى لابد يوصية بنا. وصاح أبى والقطار يغادر:
-ما تنساش أول ما توصل تروح لصاحبى معاون المحطه.
فأكدت له، ألا يحمل هماً.
جلسنا نحن الثلاثة وقد غدونا بمفردنا. نظرت إلى سمير ورأفت فإذا بهما يركزان أبصارهما علىّ. حولت نظرى عنهما. أحسست، وقد فارقنا أبى، بالمسئولية ثقيلة، ثقيلة. أنا مقدم على تجربة، لم أمر بمثلها من قبل. كان فى السابق، معنا إدوارد. هو كبيرنا وعليه أن يتحمل المسئولية. الآن اختلف الوضع، وصرت أنا المسئول عن نفسى وعن غيرى.
أنا اليوم فى الخامسة عشر، وسمير فى الثانية عشر، ورأفت فى العاشرة، والعام 1943.
جلسنا صامتين، وقد أحاط الظلام بالقطار. أضأنا الديوان المزين بصور فرعونية جميلة. تشاغلت بالفرجة عليها، رغم أننى رأيتها عشرات المرات من قبل. فُتح الباب وأطل الكمسارى وقال:
-مساء الخير.
قلنا جميعاً:
-مساء النور.
-انتو ولاد لبيب أفندى؟
-أيوه احنا.

ـلما تنزلو فى أسوان، تستنوننى ع الرصيف، عشان أخدكو لمعاون المحطةه
هززنا رؤوسنا شاكرين فرحين. أحسست بكابوس ينزاح عن صدرى.
وقف القطار، محطة «إدفو»، ثم أكمل. القطار يندفع يتلوى كحية مضيئة فى عالم كثيف الظلام. بدأ النوم يداعبنا، نحن على سفر منذ الصباح.
وقف القطار، محطة «كوم إمبو» مر الكمسارى وقال، المحطة القادمة «دراو» وبعدها أسوان، استعدوا. قلت لسمير ورأفت، علينا أن نأكل. نحن لا نعرف ما الذى ينتظرنا فى أسوان. تعشينا، وبقيت «شمامة».
أخرجنا الحقيبة إلى الطرقة.
تأكدنا من أننا والعائلة لم ننسى شيئاً فى الديوان. غسلنا وجوهنا وسحبنا الحقيبة حتى باب العربة، ووقفنا متلاصقين ننظر من النافذة. بدأت تظهر أضواء متناثرة. هدأ القطار من سرعته. دخلنا المحطة ووقف القطار.
غادرنا إلى الرصيف، ومكثنا حيث نزلنا. أنوار المحطة شاحبة. بعد قليل خلت المحطة إلا منا. رأيت شبحاً قادماً نحونا، كان الكمسارى، قال:
ـتعالو معايا.
أسرعنا نسير خلفه. بعض الحجرات مضاءة. دخل إحداها. على بابها لافطة مكتوب عليها «معاون المحطة». قلت لنفسى، أحمد الله، ها قد وصلنا إلى صديق أبى. قدمنا الكمسارى إليه، وقدمه إلينا. لم يكن هو الذى ذكر أبى لى اسمه. تساءل لماذا نريده؟ أخبرته بالقصة، وأن والدى قد أوصانا بمقابلته ليجد لنا مسكناً. نظر إلىّ ملياً ثم قال، أنه قد غادر بالأمس فى إجازته السنوية.
أحسست أن العالم حولى ينهار. ماذا سأفعل الآن، فى هذا المكان؟ إلى أين سأخذ أخوى والدنيا ظلام فى مدينة لا أعرف فيها أحداً، ولا أعرف عنها شيئاً، غير أنها آخر مدن المملكة المصرية؟ وحتى إن عرفت فيها مكاناً حتى يشرق النهار، فمن أين آتى بأجر هذا المكان.
ولاحظ الكمسارى ما أصابنى من هلع، ففتح الله عليه بفكرة نيرة. قال للمعاون:
ـيبيتو الليلة فى استراحة المسافرين.
بدا المعاون متردداً. قال الكمسارى فى حسم:

-أصله ما فيش غير كده.
هز المعاون رأسه موافقاً على مضض. قال الكمسارى فى سرعة قبل أن يتراجع المعاون:
-يلا بينا.
دفعنا أمامه. شكرت المعاون، واندفعنا وراء الكمسارى. فتح الاستراحة وأضاء النور، قال:
-أنا هقول للغفر. والصباح رباح، تقولو لناظر المحطة على حكايتكو، وهوه راجل معقول، هيتصرف. وأنا راجع فى قطر الصبح هقول لبوكو فى سكتى ع اللى حصل.
ثم وضع يده على كتفى وكأنه أبى:
-خد بالك من أخواتك. لو عاوزين أى حاجة قبل ممشى قولو، انتو زى ولادى ما تتكسفوش.
شكرته شكراً جزيلاً، ماذا كنا سنفعل بدونه؟
الاستراحة يضيؤها نور أقرب إلى العتمة. تبدو مليئة بالأشباح. أنها استراجة ركاب الدرجة الأولى والثانية. المقاعد جلدية لا بأس بها، وهنالك كنبة من نفس النوع. الأرض مفروشة بسجادة مهترأة، لكنها نظيفة. إنها أقرب إلى ديوان كبير من دواوين القطار.
فُتح الباب علينا. أطل الخفير، قال:
-السلامو عليكو.
قلنا:
-وعليكو السلام.
-إنتو منين؟
-من المحاميد، أولاد ناظر المحطة.
هز رأسه متفهما- كان يتأكد مما لديه من معلومات أخبره بها الكمسارى، ويثبت وجوده. قال:
-هتباتو هنا؟
-أيوه.
هز رأسه مفكراً:
-مش عاوزين حاجة.

شكرناه، فغادر. طار النوم من عيوننا ففكرنا فى النزول إلى البلدة، نتعرف، نتفرج.
اقترح سمير أن نأخذ الشمامة معنا. أخذناها. قلت، نبحث عن الخفير نخبره بما سنفعل. عثرنا عليه منزوياً فى أحد الأركان. أخبرناه بما أنتوينا، فقال:
-روحو. الدنيا هنا أمان.
ثم تساءل كمن تذكر شيئاً:
-أنتو تعرفو البلد؟
-قلت:
-لا؟
اعتدل
-البلد سهلة، شارع ع البحر، وشارع يوصل للسوق. وأن تهتوا أسألو أى حد فين المحطه، وهو هيدلكو على طول.
أمسك رأفت بسمير. اتجهنا إلى شارع البحر. الجو مائل إلى الدفء. شممنا رائحة النيل قبل أن نصل إليه. سمعنا همساته الليلية. أسرعنا الخطا. ما أن بلغناه حتى وقفنا نستند إلى السور الحديدى الذى يفصل الشارع عن الشاطىء. النهر يربت بره الشرقى فى حنان، تنصب عليه أضواء باهتة تعكس قممٍ أمواجه الحابية نحو الشمال، فتلمع فى الظلمة. وقفنا صامتين نشد أنفاساً يعطرها أريج أزهار حدائق متناثرة. انداح عنا شعور الغربة. أحسسنا، بعثورنا على النيل، أننا قد عثرنا على موطننا هنا، على الأقل، شىء نعرفه، نألفه.
الشارع راقد أمامنا يغلفه السكون ولمبات خابية. أبنية ضخمة غارقة فى الظلام، رابضة، صامتة، تبدو خالية. لابد وأن تكون أبنية حكومية لا تسكنها بالليل غير الظلال وهسهسة الشجرٍ. نحن نسير على رصيف النهر نتبادل حمل «الشمامة»- سرنا طويلاً ولم نلق من البشر غير أعداد محدودة. قررنا أن الوقت قد حان لنبدأ العودة. سألنا عن شارع السوق، فدلنا أحدهم على شارع جانبى داكن ينتهى بنور مبهر. أحسسنا بالظمأ فقررنا أن نطفئه بالشمامة. جلسنا على الطرف النائى لسور مبنى كبير نستريح- خبطنا الشمامة فى السور فـ «تفشفشت». أعملنا فيها

أصابعنا حتى أجهزنا عليها. لم نخشى كلام الناس فلا أحد يعرفنا.
استرحنا، فقمنا. اتجهنا من شارع البحر إلى شارع السوق. بلغنا المكان المضاء. كان مليئاً بالدكاكين والناس ورائحة التوابل والسمك، وأغان تنطلق من مذياع فى مقهى جانبى. اشترينا جبنا وخبزاً لإفطارنا. بدأنا السير فى عكس الاتجاه الذى جئنا منه. كلما ابتعدنا عن السوق، قل الضوء والناس، حتى عدا الطريق صامتاً. رأينا عن بعد بقعة ضوء، كانت تزداد كلما اقتربنا منها. فوجئنا بوجود دار للسينما. أحسست بالفرحة. أخذنا نتفرج على الصور المعروضة. بعد قليل بلغنا ميدانا صغيراً، اتضح أنه ميدان المحطة، التى كانت هادئة ساكتة، والقطار ما يزال فى مكانه. وإن كانت القاطرة والعربات قد تغير وضعها، وأعيد ترتيبها لتتجه نحو الشمال. كنا مرهقين، فأسرعنا إلى الاستراحة. ما أن ولجناها حتى فؤجنا بالخفير نائماً فيها. استيقظ الرجل عندما أضأنا نورها. بدا وكأنه لا يعرفنا، ثم تذكرنا، فدعك عينيه، فأصابنا الارتباك والخجل قال:
-انتو رجعتو.
هززنا رؤسنا إيجابا. نظر إلينا وحوله، قال:
-هتنامو إزاى؟
ولم ينتظر منا جواباً قال:
-يلا بينا.
ضم كل مقعدين متواجهين معاً، ونحن نعاونه. نظر إلينا وعلى وجهه ابتسامة. أشار إلى الكنبة والمقاعد الأربعة، قال:
-دلوقت فيه تلات أماكن للنوم.
فكر قليلاً ثم أكمل:
-الفجرية بتبقا برد شويه، هتعملو إيه فى الغطا؟
كل تلك أشياء لم تكن فى الحسبان. قلت:
-هنتصرف.
-تصبحو على خير.
-وأنت من أهله.
فتحنا الحقيبة، وارتدينا كل ما لدينا من ملابس. غسلنا إيدينا من آثار

الشمامة فى دورة مياة الاستراحة، واستقليت على الكنبة فقد كنت أطولهم، غير أن النوم جافانى حتى انتظمت أنفساهما فوق المقاعد الأسرة. كانت الحيرة تمزقنى، ماذا سيحدث لنا فى الغد؟ أرهقتنى الأسئلة التى لا جواب عليها، فسقطت نائماً؛ إلا أنه كان نوما متقطعاً تتخلله الكوابيس، وخشية أن أسقط من فوق الكنبة.
قمت مع إطلالة الفجر. ظللت فى موضعى بين النوم واليقظة، لا أدرى ماذا أفعل. تحركت إلى دورة المياه فاستيقظ سمير ورأفت. جلسا ذاهلين. قلت، هيا واستعدا للذهاب إلى المدرسة. أضأت النور، فنهضا مسرعين يتلفتان حولهما. أعدنا ترتيب الاستراحة كما كانت.
وتناولنا إقطارنا
انفتح باب الاستراحة، أطل منه أحد الأشخاص قال:
-صباح الخير.
-قلنا:
-صباح النور.
أخذ ينظر فى الاستراحة يمينا ويساراً، ثم دخل إلى دورة المياه وعاد، وقد بدا عليه الأرتياح. كان يرتدى ملابس العاملين فى المحطة. يبدو أنه فراش الاستراحة. قال، أن حظنا طيب لأن مسافرى الصباح يركبون القطار على المحطة مباشرة. لكن الاستراحة سوف تزدحم باقى النهار.
قلت، أننى سوف أقابل ناظر المحطة بعد المدرسة. وأننا سوف نترك حقيبتنا هنا لحين عودتنا. قال، كلا، ربما يأخذها بعض الركاب على أنها حقيبتهم، فالحقائب متشابة. توجهت إلى مكتب معاون المحطة وأستأذنته أن نضع الحقيبة فى مكتبه. قبل على مضض. أسرعت إلى سمير ورأفت حتى نلحق بمدارسنا.
لقد غدونا مشكلة ثقيلة على المحطة. هم فى فرح أن تخلصوا منا، وهم فى مأزق إن أبقونا. كان علىّ أن أبعد هذه المشكلة عن ذهنى الآن. علىّ أن أركز على المدارس والالتحاق بها.
الشارع ملىء بالصبية. صمت الليل تحول إلى دبيب أقدام تهرول فى طريقها إلى مدارسها. سألنا عن المدرسة الابتدائية فدلنا الصبية عليها. كانوا فى طريقهم إليها. دخلت ورأفت إلى سكرتير المدرسة فى وجل.

استقبلنا الرجل مرحباَ، قلت أخى رأفت لبيب محول من الفيوم الابتدائية الأميرية. نظر فى أوراق أمامه، قال فى ترحاب:
-أهلاً وسهلاً، فصلك ثانية ثانى.
تساءلت إن كانت هنالك مصروفات، لم يكن ذلك كى أدفع. كان للعلم فقط، ابتسم الرجل، قال:
-انتم أغراب، من الفيوم؟
قلت:
-لا، من سوهاج.
قال، أن التعليم هنا بالمجان، فنحن الآن فى مديرية نائية، وقد أعفتنا الدولة من المصروفات. ثم طلب من رأفت أن يمر عليه فى الفسحة ليتسلم الكتب والكراريس. أكدت على رأفت أن ينتظرنى بعد المدرسة أمام بابها.
أخبرت سمير بمجانية التعليم، وأحسسنا بفرحة طاغية. أنها ميزة لا يستهان بها مع هذا الجيش الزاحف من الروضة إلى الجامعة. هل كان أبى يعلم بهذه الميزة فسعى من أجلها اختيارياً إلى هذا المنفى.
أسرعت وسمير إلى المدرسة الثانوية. عند وصلنا إليها وكنا نسير أمام سورها الأمامى، أشار سمير إلى أشلاء الشمامة التى أكلناها الليلة الماضية فأخذنا نضحك. كانت مجانية التعليم قد أمدتنا بطاقة هائلة.
قابلنا سكرتير المدرسة الثانوية بنفس الترحاب. قلت له إسمينا. قلب فى أوراق أمامه. تساءل من منكما سمير لبيب. قال سمير، أنا. قال له، فصلك أولى أول. قلب فى الأوراق أمامه مرة أخرى. نظر إلىّ معتذراً. قال، أوراقك لم تقبل يا فخرى فى المدرسة. لم أفهم تماماً ما يقصد.
تساءلت ما الذى يعنيه؟ كرر كلامه آسفاً. إنهار العالم كله حولى. تبخرت لحظات السعادة التى عشتها وسمير منذ قليل. نظر سمير إلىّ متسائلاً، طلبت منه أن يدخل ويسأل عن فصله الدراسى. وطلبت منه أن ينتظرنى أمام بوابة الخروج عند انتهاء المدرسة. فانصرف وهو يتلفت وراءه فى حيرة شديدة. تساءلت لماذا لم أقبل فى المدرسة، وقبل أخى؟ قال الرجل، أنه لا يدرى، فتلك سياسة ناظر المدرسة، وعلىّ انتظاره ومحاولة مقابلته بعد دخول الفصول. ثم أشار إلى مقعد كى أجلس وأنتظر.

دق الجرس فارتفع زياط تبعه صمت. كنت تائهاَ لا أكاد أحس بما حولى.
أفقت على سكرتير المدرسة وهو يخبرنى أن الفصول قد دخلت وأن ناظر المدرسة فى حجرته.
أستأذنت ودخلت. كنت لا أكاد أقوى على جر قدمى. إن مصيرى معلق بكلمة من فم هذا الرجل. الحجرة ليست فخيمة، لكنها نظيفة. تبينت الرجل هنالك خلف مكتبه، أسمر نحيل. أحسست بنظراته مثبتة علىّ.
قلت السلام عليكم. فرد السلام بلهجة نوبية واضحة. قلت اسمى فخرى لبيب. قبل أن أكمل قال:
-عارف حكايتك.
كان واضحاً أنه لا يبغى منى كلاماً لكننى، قلت:
-الأستاذ سكرتير المدرسة..
قاطعنى:
-أنا قلت ليك عارف حكايتك.
انتابنى غضب شديد. يجب أن يسمعنى ويجيب على أسئلتى. ليس من حقه أن يلقى بى إلى الشارع وكأنى لا شىء، قلت وصوتى مشحون بالإصرار:
-انتو قبلتو أخويا ، وما قبلتونيش..
تنهد كمن ضاق بى، قال:
-أخوك محول من مدرسة أميريه. أنت محول من مدرسه حره.
عجبت للإجابة. قلت إن منهج الوزارة واحد، كما أنها تحت إشراف المعارف العمومية. إتكأ إلى الخلف، قال:
-حتى لو كان أخوك من مدرسة حرة كنا هنقبله لأنه لسة فى سنة أولى، لكن أنت لا. ازداد غضبى وعجبى. أنا لا أعرف هذا الرجل من قبل، لماذا يتخذ منى هذا الموقف، وكأنه موقف شخصى؟ قلت محتداً بعض الشىء:
-وليه أنا بالذات!
قال فى هدوء:
-المسأله ما هياش مسأله شخصيه. أنت محول للسنه الرابعه الثانويه، ودى سنه شهاده، شهاده الثقافه. ونتيجه مدرستى كل سنه مائه فى المائه.

أنا لا أضمن طالب محول من مدرسه حره. العدد هنا محدود، وسقوط واحد فقط يؤثر بشده على النتيجه.
أعتقد أنه قدم هذا الشرح التفصيلى بسبب إصرارى وإلحاحى. وجدت أننى الآن قادر على الهجوم. قلت أننى كنت من أوائل فصلى، وأننى حصلت، فى نهاية العام الدراسى، على درجات نهائية فى بعض المواد. هز رأسه بعنف كإنما يطرد كلامى هذا بعيداً عن أذنيه. قال، أن هذه الدرجات لا تهمه، حتى وإن كنت أول الفصل. الذى يهمه هو المبدأ، وهو أنه لا يقبل أى محولٍ من مدرسة حرة إلى سنتى الشهادات، الثقافة والتوجيهية، كان حاسماً قاطعاً. قلت له، إلى أين أذهب وليس هنالك مدرسة ثانوية غير تلك فى المديرية كلها؟ قال أن تلك ليست مسئوليته. وتساءل لماذا لا أكمل دراستى فى بلدنا، فى المدرسة التى كنت فيها؟ قلت أن البلد التى كنا فيها ليست بلدنا، وليس لنا بها أهل حتى أبقى بها، وأبى موظف نقل إلى إحدى قرى مديرية أسوان. وليس لى غير هذا المكان. بدا أنه يمعن التفكير فيما قلت، غير أنه عاد يهز رأسه مرة أخرى. وقالٍ فى حسم أنه قد أوضح لى بما يكفيٍ، وكفى. وكان ذلك انهاء صارماً للمقابلة. فغادرت وأنا أترنح مختنقاً.
خرجت إلى الشارع وقد تاهت معالم كل الأشياء أمامى. أخذت طريق البحر حتى نهايته هنالك فندق فاخر على مرتفع يتدرج حتى الشاطىء قرب المياه، التى تعترض صخور الجندل مجراها فتزمجر حولها، تسعى إلى إزاحتها. جلست أسمع لعل صخب المياه يطغى على صخب ما يعتمل فى نفسى. هل يمكن أن أعود إلى الفيوم مرة أخرى؟ هل يمكن لأبى أن ينفق على أربعة بيوت فى القاهرة وأسوان والفيوم والمحاميد؟ هل يمكن لسمير ورأفت أن يغتربا بمفردهما فى هذه السن؟ هل يمكن أن يقبل أبى بهذا الظلم الفادح؟ كلاً، كلا لن يقبل أبداً. سيأتى ويناقش الناظر ويقنعه، وإن رفض سيقابل مدير المديرية. كم أزاح أبى عقبات اعترضت مجرى حياتنا بكل عناد وإصرار. وأحسست ببعض الراحة. سوف أرسل له الآن رسالة بكل ذلك الذى جرى. ووجدت نفسى أسرع الخطى إلى المحطة.

* * * *

المحطة هادئة إلا من قطار يقوم بمناورة تحويل قاطرته وعرباته من

اتجاه الجنوب إلى اتجاه الشمال. لا أعرف أحداً من العاملين على القطار حتى أعطيه الرسالة لوالدى. ولا أعرف أحداً من العاملين بالمحطة فقد انتهت وردية الليل ومعها من قابلناهم بالأمس. بل أننى حتى لا أعرف إن كانِ هذا القطار سوف يقف أصلاً فى المحاميد، أم سوف يجتازها مسرعاً دون أن يعيرها أى التفات.

توجهت إلى حجرة ناظر المحطة. كانت خالية. رأيته واقفاً على الرصيف. عرفته من تلك العلامات المميزة على طرفِى كُميه، والمشغولة «بالقصب» الفضى اللامع. كان يبدو أنيقاً، مهندماً، باسم الوجه، فتفاءلت. قامِ القطار فعاد إلى حجرته. استأذنت فى الدخول محيياً، فأذن لى راداً التحية. تقدمت إليه متهيباً، لا أدرى كيف أبدأ. فوجئت بحقيبتنا فى حجرته، فأمسكت عينىّ بها. يبدو أنه لاحظ ذلك، فقال بطريقة أبوية مشجعة:

-شنطتك دى؟

قلت وأنا أحول نظرى من الحقيبة إليه:

-أيوه

هز رأسه وابتسم. طلب منى أن أجلس، فجلست على طرف المقعد. سألنى إن كنت أكبر أخوتِى، قلت، نعم. يبدو أنه عرف قصة الأمس كلها. بدا كمن تذكر شيئاً، سألنى، لماذا لم أذهب إلى المدرسة؟ فتح السؤال الباب أمامى فاندفعت أحكى كل ما حدث. هز رأسه وقال، صلاحِ الباقر. يبدو أن ذلك هو اسم ناظر المدرسة. قال، أنه لا يعرفه شخصياً، لكنه سمع الكثير عنه، عن تشدده وطيبته. قلت له، أننى أود إرسال خطاب إلى أبى فى أول قطار يقف على محطة المحاميد. قال أن ذلك بلا جدوى، فأبى مشغول تماماً فى الاستلام والتسلم. وخطابى سوف يزيده قلقاً دون فائدة. خلع نظارته، بدا أنه مهموم بحق بهمى. قال، أنه سيبحث عن أصدقاء مشتركين حتى يشرحوا للباقر الأمر وظروفنا. كما يجب علىّ ألا أكف عن المحاولة. أحسست بحمل ثقيل ينزاح عن كاهلى. نظر إلى الحقيبة وإلىّ بدت عليه لمحة ضيق وحرج. قال:

-بخصوص استراحة الركاب، فإقامتكو فيها صعبه، صعبه على الاستراحه، لأنها دايماً مشغوله وخاصة بالنهار بالركاب، وصعبه

عليكو، زيطة القطارات والمسافرين.
كل ما قاله صحيح، لكننى لا أستطيع أن أقدم حلاً. انقذنى استمراره فى حديثه:
-فكرت أنكو تقعدو مؤقتاً فى استراحه السواقين والعطشجيه. استراحه فيها سراير وإضاءه. لغاية ما ييجى المعاون صديق والدك، أو ييجى والدك نفسه. هوه مكان مش بطال.
نهضت واقفاً وأنا ألهج بشكره. هذا إنسان أراه لأول مرة، لكنه تحمل معى كل همومى وكأنه أبى. إنه إنسان حقيقى. عدت أشكره من جديد وأنا أغادر حجرته إلى المحطة، إلى الشارع الرئيسى مرة أخرى.
تكاتف الجهد والإجهاد، وما أعانيه من قلق نفسى، على جسدى، فثقلت أقدامى وأنا أجرجرها إلى مدرسة رأفت فى منتصف شارع السوق.
انتظرته حتى خرج، ما أن رآنى حتى اندفع نحوى. كان يحمل سعيداً كتبه وكراريسه. أسرعت أعاونه، كان الحمل ثقيلاً. سار إلى جوارى يضرب طوب الشارع بحذائه. أخذ يحجل فسقط هو والكتب التى تناثرت. اشتطت غضباً وأنا أجمعها معه. أحمر وجهه حتى غدا كالجزرة. نظر إلىّ معاتباً فهدأت. إنه ما زال طفلاً، يكفيه ما هو فيه من اغتراب.
ولجنا الشارع الجانبى الذى يوجد به الباب الخلفى للمدرسة الثانوية، باب التلاميذ، رأينا سمير. كان فى انتظارنا محملاً بكتبه وكراريسه. تعاوناً نحن الثلاث على حمل كل تلك الأثقال. سألنى سمير:
-عملت إيه؟
-معملتش حاجة، ما دخلتش المدرسة.
صاح رأفت:
-يعنى زوغت.
-لا يا سى رأفت، الناظر هو اللي مدخلنيش المدرسه.
كان من الواضح أنه لم يفهم شيئاً. قال سمير وقد غطت الحيرة ملامحه:
-ليه؟
شرحت له ما حدث فغرق معى مكتئباً:
-وبعدين؟

-ولا قبلين، ركزو انتو فى مذكريتكو، وربنا يسهل

* * * *

اقتربنا من المحطة فأخبرتهما فى سرعة بمقابلتى لناظر المحطة، وما دار فيها وخاصة انتقالنا إلى استراحة السواقين التى لم نكن نعرف عنها شيئاً.

ابتسم الناظر ساعة أن رآنا. قدمت أخوتى إليه، وقدمته إليهم. قال الرجل:

-أهلاً وسهلا.

وقبل أن يضيف شيئاً صاح رأفت:

-شنطتنا.

ضحك الناظر وقال لرأفت:

-مش بس دى شنطتكو، كمان اللفه الكبيره دى، بعتها الوالد ليكو.

ثم نظر إلىّ وقال:

-أنا بلغت الاستراحه عن إقامتكو فيها.

وتأمل ما نحمل، فأكمل:

-انتو تحتاجو شيال يساعدكو ويوريكو السكه.

واستدعى أحد الشيالين:

-خد بالك، دول ولاد زميلنا ناظر المحاميد.

شكرنا الناظر كثيراً. قال ونحن نغادر:

-أى مشاكل تجولى على طول، أنا هنا زى والدكو بالظبط.

تقدمنا الشيال ونحن وراءه. انتهينا من رصيف المحطة، وبدأنا نخوض فى الحصى بين القضبان. قال رأفت فى فرح صبيانى:

-الزلط هنا كتير قوى.

إن كل واحد من تلك الحصى كرة صخرية يلعب بها، يركلها.

إبطأ الشيال الخطى، وقد بدأنا نلهث. قال، أننا قد وصلنا، وهو يومىء برأسه إلى مبنى مستطيل أمامنا، تحف به الأشجار من كل جانب، حتى لا يكاد يبين عن بعد، يبدو كأجمة رابضة هناك عند سفح الجبل. أخذ الشيال ينادى:

-عم محمود، عم محمود.

ظهر رجل يرتدى جلبابا. كان نحيلاً ممصوصاً، مثل عود قصب يابس.

كان لونه داكناَ أقرب إلى السواد. نظر إلينا بعينين حمراوين. قال الشيال:

-عم محمود المسئول عن الاستراحة.

كان يقصد فراش الاستراحة. قال عم محمود فى كلمات متكسرة تخرج كالتأتأة من فمه الأهتم:

-ولاد ناظر المحاميد؟

قلت:

-أيوه:

قال:

-تفضلو

دخلنا عنبرًا طويلاً، يفوح برائحة العرق والأقدام. الأسّرة السفرى على الجانبين، بعضها خال، والبعض الآخر عليه نيام، وشخير يتردد فى الجنبات.

قادنا عم محمود إلى آخر العنبر. أشار إلى سريرين متجاورين فى الركن، وقال بلهجة أبوية:

-معلش يا ولادى، فيه أيام هيبقى فيها تلات سراير، وايام سرير واحد بس. وربنا يستر ما تتزحمش الاستراحة وميبقاش فيها حتى السرير الواحد.

وضع الشيال الحاجيات ما بين السريرين. شكرته محاولاً إعطائه شيئاً من النقود، فغضب:

-أنتو مننا وعلينا، انتو ضيوفنا، عيب. السلام عليكو.

وانطلق يغادر الاستراحة. جلسنا نلتقط أنفاسنا. أخذ رأفت يلكزنى، ينبهنى، يحرك أنفه مشمئظاً. أشرت له أن يصمت، فأشار إلى اذنيه.

قطع سمير هذا الحديث الصامت متسائلاً كيف سننام؟ وأين يضع هو ورأفت كتبهما وكراريسهما. قلت، نضم السريرين معاً، وننام بالعرض، أما الكتب والكراريس فسوف نرصها على الحقيبة فى الركن وراءنا.

أخذ رأفت يتشمم الرائحة. قال فى سعادة:

-ريحة أكل.

أسرعنا نفتحها وجدنا بها ملاءتين، ولفافتين صغيرتين، كل منهما مكونة

من طبق يغطيه طبق. لفافة بها لحم مسلوق، والأخرى بها أرز مفلفل، ومعالق ثلاث. قال سمير أنه قد تغدى فى المدرسة، وكذلك رأفت. قلت أننى لم آكل شيئاً، لكننى لا أحس برغبة فى الأكل.

صمت رأفت ممتعضاً.

ضممنا السريرين، وفرشنا عليهما إحدى الملاءتين النظيفتين، فبديا كسرير واحد. أثناء فرد الملاءة سقطت ورقة. كانت خطاباً من الوالدة.

«أعزائى فخرى وسمير ورأفت. بابا مشغول جداً، فكتبت أنا إليكم. عرفنا من الكمسارى بمسألة الاستراحة. خدو بالكم من نفسكو، وربنا معاكو أنا دايماً بصلى ليكو أوعو تنسو أنتو تصلو عشان الرب يحفظكو فى غربتكو».

حل بنا الصمت لحظات. أثارت تلك الرسالة البسيطة الموجزة والمتعجلة، كما تبدو، أحاسيس فياضة.

الراحة التى بعثتها الرسالة، والجهد منذ الصباح حتى الآن، أرسل بالخدر فى أجسادنا. استلقينا فوق السرير المزودج، وتغطينا بالملاءة الأخرى.

* * * *

صباح كل يوم آخذ سمير ورأفت إلى مدرستيهما. ثم أجلس فوق السور أمام البوابة الرئيسية للمدرسة الثانوية، أنتظر ناظر المدرسة. استجمع شجاعتى كى أقتحم المدرسة وحجرته وصولاً إلى الفصل لكننى ما أن أراه داخلاً، لا ينظر ناحيتى، رغم ثقتى أنه يرانى، حتى تتطاير كل قشور شجاعتى، وأقبع فى مكانى، ساعة، نصف ساعة، لا أدرى. ثم أغادر المكان اتسكع فى شارع البحر حتى نهايته، حيث صديقة فريال الوارفة الظليلة، العامرة بالأزهار. أجلس أتأمل النيل الهادر. قد أغفو أو لا أغفو، أعيش يقظة ناعسة أو نوماً قلقاً.

حين تعبر الشمس وسط السماء، آخذ طريقى نحو السوق. أتفرج على نفس الحوانيت التى كنت أحفظ عن ظهر قلب أسعار بضائعها. عندما تقترب الساعة من الثالثة أتوجه إلى مدرسة رأفت ثم سمير.

فى اليوم الرابع لجلوسى على باب المدرسة، توقف ناظر المدرسة لحظة، بدا أنه نظر ناحيتى فى التفاتة عاجلة عابرة. قفز قلبى بين ضلوعى، لكنه استمر وكأن شىء لا وجود له.

كان الإحباط قد هدنى. الحسرة تمزقنى والخوف ينهشنى. وبينما أنا غارق فى هذه اللجة سمعت صوت يقول:
-أنت الطالب فخرى لبيب.
كان أحد الفراشين. قلت فى لهفة:
-أيوه.
أشار بيده نحو الداخل وقال:
-حضرة الناظر عاوزك.
أسرعت أسبقه إلى غرفة الناظر. طرقت الباب ودخلت. كنت ألهث، وركبتاى تنتفضان قلت، صباح الخير، فقال، صباح النور، وقد ثبت عينيه فى وجهى، أنتظر لحظات خلتها دهراً، ثم قال:
-أنت ما ليكش بيت ولا شغله، كل يوم قاعد قدام المدرسه.
أكاد انهار. يبدو أنه يطردنى أيضاً من أمام المدرسة.
-أنا مسئول عن أخواتى. أودى الصغير للابتدائيه. وأجيب التانى هنا، واستنى.
-وتستنى ليه؟
-عشان أنا طالب، ودى مدرستى، ومليش مكان تانى أروح فيه. أنا باستنى هنا عشان أقابل حضرتك، وأروح أخواتى آخر النهار.
تجاهل الجزء الخاص به وتساءل:
-ووالدك فين وأسرتك؟
-والدى ناظر محطة المحاميد، ومعاه الأسره. وهوه منقول جديد هنا
اتسعت حدقتا عينيه:
-وانتو عايشين فين دلوقت؟
-فى استراحة السواقين فى المحطه.
كرر فيما يشبه الذهول والاستنكار:
-استراحة سواقين السكة الحديد!
-أيوه.
تغيرت للحال لهجته، غذت أقرب للهجة أبوية:
-وأخواتك عارفين يذاكرو؟
-طبعاً بيذاكرو

أخذ ينقر بقلم فى يده فوق المكتب. قال بعد أن فكر ملياَ.
-روح للسكرتير، وهو هيقولك ع الفصل بتاعك
لم أصدق أذنىّ تساءلت كى اتأكد:
-حضرتك وافقت أخش المدرسة؟
قال فى إيجاز
-أيوه.
صحت دون أن أدرى:
-أشكرك يا أستاذ، أشكرك.
قال وقد استعاد طريقته القديمة:
-خلاص، روح بس المهم تذاكر. دى شهادة فاهم يعنى إيه شهاده؟
قلت مؤكداً:
-طبعاً فاهم. طبعاً فاهم.
وأسرعت إلى سكرتير المدرسة طائراً.
* * * *
جاء الخميس، فحزمنا ملابسنا، وامتطينا القطار إلى المحاميد. استقبلنا والدى مرحباً. كانت أمى فى مدخل الباب وقد أمسكت بمدحت بشدة. كان يقاوم ويصرخ يود أن يلتقى بنا وخاصة رأفت. ما أن اقتربنا من المنزل حتى انطلق رأفت ليمسك بمدحت ويحتضنه. الفرحة تملؤ وجه أمى وهى تلهج:
-حمد لله على سلامتكو. حمد لله على سلامتكو. إزيكو؟ عاملين إيه؟
ونحن نرد عليها نطمئنها:
-احنا كويسين، كويسين قوى، الحمد لله.
ورأفت يصيح:
-أكلك كان حلو قوى يا ماما.
أخذت أمى تقبلنا فى لهفة. تتحسسنا وكأنها تبغى التأكد من حقيقة وجودنا. أحسست باطمئنان عميق وأنا داخل المنزل. كل أثاث المنزل وصل، وكل الحجرات فرشت. والعشش تحيط بخلفية الدار تمور بالطيور. قلت لأمى:
-كل حاجاتك وصلت؟
ابتسمت وقالت تنبهنا:

-خدو بالكو، العشش مليانه عقارب، ويمكن تعابين.
أحسست بالفزع، استمرت:
-أبوكو، وهو راجع بالليل لازم يكون معاه الكلوب.
العقارب هنا وافرة. أبى يحمل معه سيخاً يغرسه فى كل عقرب يراه، وكأنه يبيد عدواً. أنهم دائماً متتبهين، حذرين ينفضصون كل ملابسهم قبل ارتدائها. ينظرون تحتهم فى كل خطوة يخطونها. يفتشون أى شىء يضعون فيه أقدامهم. أمى تخشى على مدحت الصغير فهو طفل لا يعرف ما الحكاية.
نظر مدحت إليها عندما ذكرت اسمه. قال فى حماس كإنما يدفع عن نفسه تهمة:
-أنا عارف يا ماما، أنا عارف.
أخذنا نتلفت حولنا، كأنما العقارب قد أحاطت بنا. خلعنا ملابسنا وارتدينا الجلاليب. قالت أمى:
-أنا محضره ليكو الميه السخنه. يله على طول الحمام بالدور واحد ورا الثانى. عشان تقعدو رايقين.
لم يمض كثير وقت حتى جاء أبى. نظرنا إليه جميعاً لعلنا نرى فى يده ذلك السيخ الملىء بالعقارب. ضحك وهو ينظر إلى أمى:
-أنت قلتيلهم؟
-أيوه عشان يخدو بالهم.
-عموماً مع دخول الشتا هتقل العقارب. ربنا يستر فى الصيف.
خلع أبى ملابسه. تربع فى وسطنا وتساءل:
-أخباركو إيه بقه؟
وأخذنا نروى له ما مر بنا تفصيلاً طوال الأسبوع الماضى. كانا يعرفان من خطاباتنا التى أرسلناها لهما، حالتنا عامة، لكن كانت هنالك أشياء لا يعرفانها كقصة دخولى المدرسة. كانت أمى تستمع إلينا وقد اتسعت حدقتاها، أما أبى فبدا غارقاً فى التفكير، وإن كان سعيداً أننا استطعنا بمفردنا اجتياز هذه الفترة الصعبة. قال لوالدتى:
-هاتلنا العشا.
عندما رصت أمى أطباق الطعام فوق المنضدة، وغمرت رائحتها

المكان، استعدنا كل أحساسينا المنزلية. إن طعام أمى لا يضاهيه طعام فى العالم كله. تصدرت المائدة بطة سمينة، لابد قد أخذت نصيبها فى «التزغيط»، وأبى يوزع علينا أنصبتنا، وهو العارف بما يحبه كل منا من أجزاء البطة. وهجمنا بطريقة تلقائية ننهش ما قدم إلينا. ومصمصت أمى شفتيها:

-مساكين يا ولادى.

وقال أبى حتى لا تهيمن الدراما علينا:

-مساكين ليه، أهم زى الفل.

وحاولت أمى أن توزع نصيبها علينا، غير أن الشهامة أصابتنا فرفضنا أخذ أى جزء منها وقال أبى:

-أهم عنك بِكره، إعلفيهم طول النهار.

صمت قليلاً ثم قال:

-هجيلكو يوم السبت. معاون البدل جاى بعد بكره. وإنشاء الله أجيلكو على طول. وربنا يسهل فى موضوع السكن.

أحسست براحة شديدة. كنت فزعاً من العودة إلى استراحة السائقين والعطشجية. أنهم حقاً غاية فى الكرم وحسن التصرف معنا، لكننا لا ننام أو نذاكر كما يجب.

قضينا يوم الجمعة نستكشف المكان حولنا. كان المنزل يقع على ذات مرتفع المحطة وقضبان السكة الحديدية، ومن ورائه منخفض ينحدر إلى القرية التى كانت ترقد فى حصن الجبل. إنها مجموعة من البيوت الطينية والأزقة والحوارى الضيقة، والجبل شاهق كحائط لا يبين ما وراءه. قال سمير:

-تيجى نطلع الجبل؟

كانت نفس الفكرة قد واتتنى، فكلينا يجب ارتياد الأماكن الوعرة. كما أن الجلوس على قمة الجبل متعة ما بعدها متعة، حيث يمكن للواحد منا أن يستكشف المكان كله بنظرة واحدة. قلت له:

-معلهش المرة دى. خليها الجمعه الجايه.

كان أغرب ما رأينا ونحن على أطراف القرية، النسوة وقد ارتدين «البردة» فاختفت الواحدة منهن داخلها، من رأسها إلى أخمص قدمها،

فلا يبين منها شيء. وهى، عندما تسير، يزحف طرف البردة خلفها، كالذيل، مخلفاً آثاره فوق الأرض، وحوله غلالة من غبار.
كان الصبية فى مثل أعمارنا ينظرون إلينا فى دهشة. اقترب أحدهم منا متردداً، وتساءل:
-أنتو ولد مين؟
-ولد ناظر المحطه.
هز رأسه وابتعد. يبدو أنه اعتبرنا صنف آخر من البشر يسكن من حجارة تحيط بها العشش وحديقة جرداء. تبادلت وسمير النظرات وأخذنا طريقنا عودة إلى المحطة حيث كان والدى يجلس فى مكتبه.
المحطة مبنى يكاد يكون مربعاً. جزء منه مكتب ناظر المحطة، وبه نافذة صغيرة تقطعها قبضان حديدية، هى شباك التذاكر، الذى تقبع خلفه ختامة التذاكر، وخلف والدى رصت التذاكر إلى مختلف جهات القطر المصرى، وعلى كل ثمنها. كان والدى يختم عليها بالختامة رقم القطار والتاريخ، وهنالك خزينة يُوضع فيها الإيراد، الذى هو ثمن التذاكر، وتلك هى أثمن العهد فى المحطة كلها. والجزء الآخر من المبنى هو حجرة المخزن، حيث توضع فيها الطرود الصادرة لحين شحنها، أو الواردة لحين تسليمها لأصحابها.
وإلى جانب منزل ناظر المحطة، وعلى مسافة منه، على امتداده فى محازاة قضيب السكة الحديدية، توجد منازل العاملين فى المحطة، المساعدين أو الخفراء، كذا عمال الدريسة المنوط بهم صيانة الخط الحديدى لمسافات محددة إلى الشمال والجنوب.
استقبلنا والدى هاشاً باشاً. كان يجلس معه أحد العاملين فى المحطة فغادر بعد أن رحب بنا. جلسنا على المقعدين الوحيدين فى حجرة المكتب. كان أحد القطارات قد غادر، وأبى يقوم بحساب التذاكر التى باعها ويحصى ثمنها، ثم يقارنه بالحصيلة الفعلية، لتيأكد من صحة المطابقة.
قال أبى، أن العمل هنا ليس عسيراً. إنه وردية واحدة، هى وردية النهار، حيث لا تقف القطارات التى تمر ليلاً على المحطة. ناظر المحطة هنا يقوم بكل الأعمال. إنه الناظر والمعاون ووكيل التلغراف

-أنا شبعت خالص.
قال أبى:
-الحمد لله.
قالت أمى فى لهفة:
-والكريمه؟
قلت لها مطمئناً:
-ولا يهمك هنكلها برضه. هنظلطها.
والكريمة (الكريم كارميل) صناعة والدتى، أحلى حلوى فى الدنيا، من الذى يستطيع مقاومتها، مهما كان حشوه لمعدته.
كانت وليمة ختامها شهد. أعقبها شعور بالاسترخاء، ورغبة ملحة فى غفوة. غير أن الوقت كان يجرى سريعاً. وكان علينا أن نبدأ الاستعداد للرحيل، عودة إلى أسوان.

* * * *

الفصل الثامن

رسائل متبادلة

عندما غادرت العدوة- فيوم، وعدت صديقى عبد الله أن أراسله. أن أكتب له عن كل ما يحدث لى، وكل ما أراه. كنت ذاهبا إلى أسوان، «آخر بلاد المسلمين»، المنفى الذى لن يذهب إليه أبدا. لقد منحتنى طبيعة عمل أبى فرصة لن تتاح لأقرانى وأصدقائى الذى غادرتهم وقد التزمت أن أراسلهم، فالمكاتبة نصف المشاهدة. كنا مجموعة قراءة الروايات وكان عبد الله أقربهم إلى نفسى. وكان على أن أقرأ لهم ذلك العالم العجيب الذى أنا ذاهب إليه.

الرسالة الأولى

عزيزى عبد الله

أهديك أزكى تحية وأطيب أمنية راجيا لك وللأسرة والأصدقاء كل الصحة والسعادة. وصلنا أسوان فى ذات اليوم تركناكم فيه. أسوان بلد هادئة جميلة، تقع على النيل مباشرة. الناس هنا طيبين للغاية، لا تحس بينهم بالغربة، ربما لأن غالبيتهم موظفين أغراب، أو سكان من بلدان أخرى.

لقد حدثت لنا مغامرات عجيبة، إذ ظللنا حوالى أسبوع بلا مسكن، حتى جاء أبى وعثر لنا، بمعرفة صديق له معاون للمحطة، كان فى أجازة ثم عاد، على حجرة ظريفة للغاية، فى دور أرضى. وأثث أبى لنا الغرفة فى ذات اليوم، سريرين ومنضدة وثلاثة كراسى «عنجريب» طبعا لا تعرف معنى عنجريب. إنه جريد النخيل. انهم يصنعون منه هنا أشياء عديدة. ويقولون أن العقارب لا تتسلقه. قضينا الليلة الأولى كيفما كان. أعارنا جارلنا لحافين نمنا على أحدهما وتغطينا بالآخر. وأرسل والدى لنا فى اليوم التالى مراتب ووسائد وملاءات ولحافين. وهكذا أصبحنا مثل باقى البشر.

وقد خضت مع ناظر المدرسة مغامرة خطرة. رفض قبولى فى البداية باعتبار أنى قادم من مدرسة حرة، ثم قبلنى فى النهاية. وجاءت امتحانات الفترة الأولى، وكان ترتيبى الثانى على الفصل. وقد جاء إلينا أثناء إحدى الحصص، وروى حكايتى معه، وكيف لاحظ جلوسى أمام

الرد على الرسالة الثانية

الأخ العزيز فخرى

استلمت خطابك، وأحسست، بعد أن قرأته، بحيرة أشد من حيرتك، فقرأته للأصدقاء جميعا، فوقعنا فى «حيص بيص». ما هذا الذى يحدث فى مدرستكم وكأنكم فى بلد آخر! الثورة الفرنسية، وثورة فى مصر، ومصطفى كامل وسعد زغلول، وهتلر والملك؟ من نحن فى العدوة-فيوم، حتى نرد على سؤالك الذى لم يخطر على بالنا أبدا. وعموما فقد تناقشنا، ووجدنا أنكم تتعبون أنفسكم فى أشياء لها إجاباتها بالفعل.

المشكلة أنكم تناقشون مسائل محسومة، ولذا تصيبكم «اللخبطة» و «البلبلة». لقد خلق الله كل الناس، الأمير والغفير، الفقير والغنى، الإنجليز والألمان. الناس طبقات، وهذا الكلام الذى تتحدثون عنه هو اعتراض على المشيئة الإلهية. من الذى يجرؤ على ذلك؟ نحن البشر! نحن الذى خلقنا الله، كما خلق باقى مخلوقاته! لماذا ترضى كل المخلوقات بما قسمه الله لها، ما عدا الإنسان، الجحود الذى يرفض؟

هل ترى فى كلامنا هذا إجابة على أسئلتك؟ آمل ذلك.

والسلام ختام

المخلص

عبد الله كامل

الرسالة الثالثة

أخى العزيز عبد الله

تحياتى لك ولكل الأصدقاء

دهشت حقا لخطابكم السابق، ولما تعتقدونه ردا على سؤالى. لكننى أود القول أن الله قد ميزنا عن باقى مخلوقاته بالعقل، أى بالقدرة على التفكير. والتفكير فى أمور الدنيا يعنى القبول بها أو رفضها، إذ أنها من فعل الإنسان. ولقد قال على ابن أبى طالب «لو كان الفقر رجلا لقتلته». فإن كنت تعتبر كل أمور البشر إرادة سماوية، فكيف لعلى ابن أبى طالب خليفة المسلمين والصحابى الجليل أن يقول مثل هذا القول، ويعترض على الإرادة السماوية!

على أى حال، سوف أتحدث اليوم عن موضوع آخر. لقد أصبح لى هنا

أصدقاء كثيرين. نحن نسافر معا فى القطار كل يوم خميس إلى أهلنا فى مدن وقرى المديرية، ثم نعود معاً أيضا يوم الجمعة إلى أسوان. أنهم أبناء نظار ومعاونى المحطات، ووكلاء مكاتب التلغراف والتليفون والبريد، وبعض أبناء العاملين بشركة وادى كوم أمبو.

إننا ما أن نصل إلى محطة الرديسية، حتى يبدأ الزياط والاستعداد، إذا أننا سوف نمر إلى جوار قطار البضاعة المحمل بعيدان قصب السكر. فيدلى كل منا بنصفه من نافذة القطار، عندما يبدأ السير، حتى ينزع عيدان القصب من القطار الآخر الواقف. إنها مباراة. إذ بعد عبورنا قطار القصب، يعد كل منا العيدان التى حصل عليها، ونعلن أكثرنا عددا فائزا بقصب السبق. وهكذا تصبح معنا أيضا، فاكهة طوال الأسبوع.

عندما نصل أسوان نستأجر عربة كارو، نحملها بما معنا من حقائب ومقاطف وأسبتة، فيها العيش الشمسى طازجا ومحمصا، والجبنة والعسل، اللذين يكفيان إفطارا وعشاء طوال الأسبوع (أما الغداء فنحن نتناوله فى المدرسة، فى ظل تندة كبيرة فى الحوش، تحتها مناضد مرصوصة، يوضع عليها ما يقدم لنا من أكل) ونسير جميعا حول العربة وخلفها، فى حالة من الهياص الشديد، والضجيج الذى يخفت شيئا فشيئا، كلما انفصل منا فريق إلى منزله. إننا نتلقى من أسرتنا، كل يوم اثنين أيضا، وفى نفس هذا القطار، «عامودا» به ثلاث طاسات، واحدة للخضار، وأخرى للأرز واللحوم، وثالثة للحلوى. وأحيانا تكون الأكلة فريكا وسمكا طازجا محترما واردا من النيل مباشرة.

تقوم المدرسة هنا ما، بين الحين والأخر، برحلات لزيارة معالم المديرية. لقد زرنا جزيرة الملك (جزيرة النباتات)، والتى توجد بها نباتات رائعة وجميلة من بلدان أخرى كثيرة. كما زرنا جزيرة فيلة، والتى يوجد بها المتحف ومقابر النبلاء فى البر الغربى، كذا قبة الهواء، والتى كانت فى الأصل برجا للمراقبة أيام محمد على. كذلك زرنا أحد الأماكن لنرى صناعة الفخار على الطبيعة. وسوف نزور فى القريب معبد ادفو ومعبد كوم امبو وشركة السكر. إنها زيارات جميلة جدا، ومفيدة جدا، حيث يشرح لنا مدرس التاريخ ما يسميه بمجد مصر الغابر وعموما، الحياة هنا مقبولة معقولة.

وآمل أن تعجبكم هذه الرسالة.

سلامى للجميع

ودمت،،

للمخلص

فخرى لبيب

الرد على الرسالة الثالثة

الأخ العزيز فخرى

تحياتى لكم جميعا،

خطابك الأخير كان مسليا للغاية. أكل ورحلات وأصدقاء، ومغامرات، وكأنك سندباد يا سيدى. من الواضح أنك تحب مدرس التاريخ، لماذا لا تكتب المزيد عنه.

يبدو أن أسوان، كما تصفها، ليست بالمنفى، لكنها مكان جميل هادئ يريح النفس والأعصاب، وبه الكثير من الآثار القديمة منذ الفراعنة حتى زمن محمد على. ألا يعنى ذلك أنها كانت مكانًا هاما، أو موقعا متميزا عند القدماء؟ ننتظر منك المزيد عن أسوان أيضا.

لقد أثار خطابك السابق على هذا، نقاشا فيما بيننا. هل الإنسان مسير أم مخير؟ إنها مناقشة قديمة، لكنها أبدا لم تتوقف.

حالنا نحن كما هو لا شئ تغير. اليوم والأمس والغد، كلها أيام واحدة، نفس الوجوه نفس الأماكن. فى الصباح نذهب إلى المحطة كالمعتاد، نزاحم بعضنا البعض فى قطار الفيوم. ثم السير فى سرعة، إلى حد الجرى، إلى المدرسة. وربما يكبو البعض منا فتتأثر كتبه، لنصل إليها وقد تقطعت أنفاسنا. نقضى اليوم الدراسى لتبدأ رحلة العودة إيابا لنصل العدوة وقد بدأ الظلام. أحيانا أحس كأنى ثور معلق فى ساقية، غير أن الثور مغمض العينين، وأنا مفتوحهما أعيش الدوار والإرهاق.

نحن فى انتظار خطاباتك فلا تتأخر علينا.

والسلام ختام،

المخلص

عبد الله كامل

الرسالة الرابعة

أخى العزيز عبد الله

الرجل. فنحن عائلة وفدية. لكننى أصبحت أكرهه منذ جاء إلى الحكم بالدبابات الإنجليزية. ولذا عمدت وبعض الزملاء إلى التعلق فى «كبوت» سيارته المكشوفة أثناء موكبه حتى يسمعنا جيدا، ونحن نهتف بسقوطه. ظلنا نهتف ضده، وهو لا ينظر إلينا، حتى أنخلع «الكبوت» من السيارة، ووقع بنا وسط الشارع، وكادت السيارات الأخرى أن تهرسنا.

الآن، انقلب كل شئ فى رأسى. لم يعد الملك بطلا. سألته عن رأيه فى النحاس وقد جاء بدبابات الأعداء؟ قال أن الإنجليز فى حرب ضد الألمان والإيطاليين. وهنالك شبهات أن الملك على علاقة بالإيطاليين. وأن الإنجليز وهم يحاربون فى الصحراء الغربية، يودون حكومة لها شعبية، يضمنون عداءها للألمان والإيطاليين، خاصة وأن هنالك مظاهرات تهتف، «إلى الأمام يا روميل». إن المسألة تبدو معقدة. لكن الإنجليز الذين يتحالفون مع الاتحاد السوفيتي وهو عدوهم، لضرب الألمان، وهو عدو مشترك، مستعدين للتعاون مع الوفد، وهو عدوهم لمواجهة عدد مشترك أكثر خطرا.

ازددت ارتباكا. أنا أؤمن أن عدو عدوى صديقى، الألمان أعداء الإنجليز، هم إذن أصدقاؤنا. الآن تشقلب كل شئ. قلت له ذلك. صمت قليلا، ثم قال: لقد تصورت أنت أن الملك عدو الإنجليز وبالتالى يكون صديقا لك. وهذا ليس صحيحا، فكلاهما عدو، وكلاهما أجنبى.

وتصورت بنفس الأسلوب، أن الألمان أعداء الإنجليز، ومن هنا أصبح هتلر صديقا لك. وهذا ليس صحيحا، فكلاهما عدو، وكلاهما أجنبى. كل أجنبى يدخل بلدنا إنما يسعى لصالحه على حسابنا. هل تعرف أن هتلر ينظر إلينا باعتبارنا أقرب للقردة لا للبشر! إنه يقول أن ألمانيا فوق الجميع. إنه تماما مثل تشرشل، وإن كان أكثر بشاعة. والخناقة بينهما خناقة لصين على نصيب كل منهما من الغنيمة. يجب أن تكون مصر للمصريين.

سبحان الله. أعتقد أننى قد بدأت أفهم. هل فهمت أنت شيئا.

لكن بقى السؤال الهام. ماذا عن ميرابو ودانتون ومارا وروبسبير؟ كيف يمكن أن يظهر أمثالهم فى مصر؟ هنا ابتسم لأول مرة فانفتحت شفتاة

لقد حفظت النيابة التحقيق، وقيدت الجريمة ضد مجهول. من الذى يهتم بمقتل فتاة لا يعرف أحد عنها شيئا غير أنها غجرية تضاجع الصبية، إننا نحاول تطبيق روايات شرلوك هولمز على قتلها. لقد رأينا خدوشا فى أوجه ورقاب بعض هؤلاء الصبية، وقد تمزقت ملابسهم، مما يعنى أنها قد قاومتهم بشدة. غير أن الصبية قالوا أنهم تشاجروا معا. كان أحدهم، ويبدو أنه لم يشاركهم فعلتهم، بدأ يثرثر بغير ذلك. فضربه الصبية علقة ساخنة وهددوه فصمت. إلا أن الإشاعة التى سرت بقوة فى القرية، ويميل الناس جميعا إلى تصديقها، لأنها صدرت عن الأتقياء والأثرياء وخليفة الشيخ الولى، أن الشيخ هو الذى قتلها لأنها ارتكبت المعصية فى حرمته. لقد تحول مقتلها إلى معجزة. وأوقفنا نحن من جانبنا تحرياتنا، وطرحنا سؤال فى مواجهة هذه الشائعة، لماذا لم يقتل الشيخ من ارتكب المعصية معها؟ فقيل أن المرأة هى أس الفساد والغواية، وهى المسئولة عن دفع الرجال إلى الإثم والخطيئة، وبالتالى فإن قتلها يمثل تحذيرا لهم وعبرة يعتبرون بها.
جاءنا خطابك فى قلب هذه الضجة التى نامت، فأيقظ فيما بيننا ضجة أخرى. كنت أود أن تكتب لنا بالتفضيل وصف الرحلات التى تقوم بها.

ختاما سلامى للجميع ودمتم،

للمخلص

عبد الله كامل

الرسالة الخامسة

عزيزى عبد الله

تحياتى وأشواقى لك ولكل الأصدقاء

لقد أثارت رسالتك الأخيرة حيرتى. هل حقا أعيش فى بلد آخر غير مصر، أم أنك أنت تعيش فى عالم العدوة تخاف أن تغادره؟ تود منى أن أصف لك رحلاتى. هل تريد منى أن أقول لك، عبرنا النيل السلسبيل الذى ليس له مثيل إلى جزيرة خضراء فيحاء، زاهرة مبهرة. لن أكتب مثل هذا اللغو. إن ما رايته يجعله هراء. زرنا شركة السكر بكوم أمبو. هل تعرف من يمتلك هذه الشركة؟ إنه عبود باشا، صديق الإنجليز. هل تسمع عن نجع حمادى؟ إنها ملك لفرد واحد من الأسرة المالكة. هل سمعت عن القرية التى يعمل بها أبى؟ إنها ملك لامرأة واحدة. إنها نادرا

أسفت جدا لمرضك وأخوتك. لابد أنكم تمرون بأيام صعبة، حتى تقول أنكم تعيشون فى رحاب الموت. أطلب من الله أن يمن عليكم جميعا بالشفاء.
وفى انتظار خطاب سريع منكم للاطمئنان
الأصدقاء جميعا هنا قلقون عليكم، ودمت

للمخلص

عبد الله كامل

الرسالة السادسة

أخى العزيز عبد الله
سوف أحكى لك فى هذه الرسالة عما حدث فى ذلك اليوم المشئوم. تناثر كلام حول أن الحكومة سوف ترسل معونات تنقذ المرضى من الوباء.
ظل بعض الأهالى ينتظر قطار البضاعة كل يوم، وكأنه رسول الشفاء.
قيل أن القطار قد وصل إلى أسنا، وأنه سوف يصل المحاميد قريبا.
ظهر فى الصباح الباكر لأحد الأيام بعض الأفندية قادمين فى أول قطار للركاب. قيل أنهم اللجنة المسئولة عن صرف المعونات. كانوا خمسة يتمتعون بكامل الصحة والعافية. كان اليوم جمعة، وطلبوا من أبى إخلاء مخزن المحطة مؤقتا، وتحويل ما فيه إلى مكتبه.
جاء أبى إلى المنزل ليتناول إفطاره. قال أنه غير مستريح لهؤلاء الناس. أنهم يتحدثون عن الفلاحين فى ازدراء شديد. إنهم يرونهم موتى، فما جدوى المعونة؟ طلبوا منه الاشتراك معهم، مجاملة كما يبدو، غير أنه رفض. قال، أن تلك ليست وظيفته. رأى أنهم قد بدأوا ملأ كشوف التوزيع، وكتابة أسماء كان يمليها عليهم فراش المحطة، وتسديد الخانات قبل توزيع المعونة، بل قبل وصولها. انتشرت الأخبار فى القرية، فبدأ زحف القادرين رجالا ونساء وأطفالا، نحو المحطة. الغالبية منهم مرضى يحلمون بالفرار من الموت بمعونة الإنقاذ. الزياط الشديد، والخمسة «الأفاضل» يعيشون لحظات قلق حاد، يسبون الفلاحين والقطار الذى تأخر. أخيرا ظهر القطار، فازداد الضجيج، وعلا نحيب الأطفال، إذ كان الجميع يتدافعون نحو القضبان.
وصل القطار وظل السائق يضبط وضع عربة بذاتها حتى استقرت أمام المخزن. قفز عدد من الجنود المسلحين من القطار، ووقفوا أمام المخزن

ومعهم أحد الصولات يقودهم. شكلوا ممرا مسلحا بين العربة والمخزن، وهجم آخرون على الفلاحين يدفعونهم بعيدا، بل ويضربونهم بالعصى أيضا. الفلاحون الذين مازالت لديهم بقية من عافية يحملون البطاطين والزيت والخبز الذى تفوح عطانته إلى المخزن. الناس أصيبت بما يشبه الجنون. أغلق الفرملجى العربة ووضع عليها تلك الصفيحة الرقيقة والتى تثبت فيها قطعتان من الرصاص (دكرونتاية) ليختمها معا بتلك الآلة اليدوية التى تشبه المقص، فيتلاحمان تمامًا، وبذا تكون العربة قد «برشمت» رسميًا. أسرع الفرملجى يقف بعيداً. تحول الجنود المسلحون ليسدوا مدخل المخزن. قال لى أبى، عد إلى المنزل، فأنت مريض. قلت، وأنت. قال، سأظل فى مكتبى ففيه كل العهدة والخزينة. كان قد أغلق النوافذ. استمر قائلا، إننى لا أتوقع خيرا، ولا يخرج منكم أحد خارج المنزل. أسرعت اجتاز الحديقة الجرداء. دفعت الباب الخارجى، الذى يفتح على باحة تطل عليها كل عشش الطيور، والتى كانت تصرخ فى فزع شديد. وأخذ كلبنا فى العواء، وهو يشد السلسلة المربوط فيها، فبدا وكأنه إما أن يخلعها أو يخلع رقبته. طرقت باب المنزل، وأنا أقول، فخرى. فتحت أمى فى لهفة. سألتنى عن أبى، فقلت وأنا الهث، قفل عليه باب مكتبه. كانت خائفة للغاية. جمعتنا حولها وقالت:

-يلا نصلى لبابا فى وحدته فى المحطة، واحنا فى غربتنا هنا.

كان مدحت يبكى وقد أمسك بطرف ثوبها لا يتركه. ركعنا حولها، لكن الأصوات فى الخارج بدأت ترتفع صاخبة. الطيور تزعق والكلاب تعوى، وحتى الحمير بدأت تنهق فى شهقات متتالية. القلق ينهشنى. كيف أبى وحده فى مكتبه. ذلك الصراخ والعويل واللعن والسباب، يعنى أن شيئا ينذر بالخطر يجرى فى الخارج. أسرعت إلى خارج المنزل مرة أخرى، وصراخ أمى يلاحقنى، رأيت فراش المحطة يجرى مسرعا نحو منزلنا يحمل بطانية وعلبه زيت. صاح ألا أتقدم. توقفت. قال فى عجلة:

-دس دول حداكو.

كانت أمى وأخوتى قد لحقوا بى عند الباب الخارجى. سألته أمى فى لهفة عن أبى، قال:

-بخير. بس الناس هتاكل بعض.

قلت، أذهب إلى أبى. قال، لا تخافوا أنا أقف على باب مكتبه،
-ناس القرية يعرفونى، وكمان العسكر.. أنا كنت بساعدهم فى توزيع المعونه.
قلت لأمى، لابد وأن أرى ما يجرى. كان الصراخ على أشده، والناس تقتتل فى شراسة ووحشية. أسرع الفراش ليقف إلى جوارى. الدحديرة خلف المحطة تموج بالبشر. كانوا يتخطفون أشياء، وينهشون بعضهم البعض. قال الفراش وكأنه يخاطب نفسه، المعونة قليلة، قليلة للغاية. ولا يمكن للحكومة أن ترسل هذه الكمية فقط. لقد كتب الأفندية كشوفا بها أسماء تعادل عشرين ضعفا لما صرفوه. إنهم لصوص. إن بقية المعونة لابد أن تكون فى العربة لكن العربة «اتبرشمت» رسميا، ومن يقترب منها «يذهب فى حديد». الناس الذين لم يأخذوا يخطفون من الذين أخذوا.
فجأة بدأت تدخل الساحة أصوات جديدة. كان البعض قد بدا إلقاء الطوب والحجارة على بناء المخزن والقطار والجنود. أصوات الأحجار مكتومة وداوية. أغلق الأفندية باب المخزن عليهم وتحصنوا خلفه. أرتفع صوت الصول فوق أصوات الجميع، آمرا بضرب النار. انطلق الرصاص يئز فى الهواء فى صفير حاد. ساد الصمت لحظة. كل شئ توقف، وكأن الناس قد أخذتهم المفاجأة، ثم إندفعوا مرة واحدة، وقد أدركوا ماذا حدث، يهربون من الرصاص ناحية القرية. الصراخ والعويل انهمر كزوبعة تجتاح المكان. والناس رجال ونساء وأطفال يتدافعون على الدحديرة، يدهسون بعضهم البعض. زخات أخرى من الرصاص تسرع بإيقاع الفرار. أرتفع الصراخ والعويل من القرية. بدا المكان مخيفا وقد ركبه الجنون. انفتح باب المخزن لينطلق الأفندية الخمس يحيط الجند بهم.
أسرعوا نحو القطار الذى ارتفع صفيره فى مقاطع زاعقة. نفث أنفاسا حارة مليئة بالشرر والسواد. كان الجنود، حاملى البنادق يتراجعون، ظهورهم إلى القطار ووجوههم إلى الهاربين الفارين من الموت. وفجأة استداروا، استجابة لنداء رئيسهم، ليمتطوا القطار وينطلق بهم، كأن عفريتا يطارده.
أسرعت والفراش إلى المحطة. كان والدى يقف أمام الباب مذهولا،

يردد، لصوص وقتلة. أمر الفراش أن يغلق المخزن. اتجهنا إلى الدحديرة خلف المحطة. كان المنظر رهيبا. البطاطين تحولت إلى مزق، والزيت سال فارتشفته الأرض، والخبز العفن تناثر فتاتا. وهنا وهناك كهل أو طفل أو امرأة دهستهم الأقدام الهاربة.

وظهر، من بعيد، رجل بدين قصير، يتجه مسرعا نحو المحطة. قال الفراش، العمدة. عدنا إلى المكتب وقد نخرنا الاكتئاب حتى النخاع. دفن أبى وجهه بين كفيه وقد اسند كوعيه إلى المكتب. رفع رأسه فى بطء شديد، فى الوقت الذى طرق العمدة الباب. كان يبدو مذعورا حيا أبى فدعاه إلى الجلوس. طلب من الفراش أن يحضر له قهوة.

قال العمدة، أن خمسة من الأهالى قد أصابهم الرصاص. هم مرضى عجزوا عن الحضور إلى المحطة فجلسوا فوق أسطح منازلهم يراقبون ما يجرى. لم يحسوا بشئ إلا والدماء تسيل منهم. أن بعضهم فى حالة خطرة.

سأله أبى، لماذا لم بات إلى المحطة، ويحضر عملية التوزيع؟ قال، أن أحدا لم يستدعه أو يخبره بضرورة وجوده. كان ينظر إلى الأرض. رفع رأسه فى بطء. يرقت عيناه المستديرتان الدامعتان. قال، أنه يدرى بأن ما حدث كان لابد وأن يحدث. لقد فعلوا ذلك فى كل قرية وبلد وزعوا فيها المعونة.

-نهب وسريقه. والناس غلابه. بلاد سكتت، وبلاد ما سكتتش.

قال أبى:

-والعمل يا عمده. الناس متمدده على الدحديرة. الله أعلم إن كانوا لسه عايشين ولا ماتو.

ارتفع عويل ثاقب، فاندفعنا خارج المكتب، والعمدة آخرنا. لابد أنه كان يتوقع ما يجرى. كانت الدحديرة قد امتلأت بالناس مرة أخرى، وقد أحاطوا بالأبدان الممدة أو الملتوية، والتى ظلت على حالها لحظة هرستها الأقدام. والصراخ نداء واحد زاعق يحوم فوق القرية كلها.

همس العمدة:

-نهار أغبر.

-عدنا إلى المكتب. وكان الفراش قد أحضر القهوة.

قال كأنما يرد على سؤال أبى:
-أنا بلغت المركز بالتليفون، وطلبت النيابه للتحقيق.
قال أبى:
-ما تبعت تلغراف للمديريه.
أنتفض مذعورا. زاغت عيناه الدائرتين. بدا كحيوان حبيس يبحث عن مخرج. خرج صوت من حلقه بصعوبة:
-لا يا بيه. كل واحد وله حدوده. وأنا حدودى المركز. لو حد من الأهالى عاوز، يبعت. إنما أنا، لا.
هز والدى رأسه وصمت.
عزيزى عبد الله
أقف عند هذه النقطة لأحكى لك باقى القصة فى رسالة قادمة.

ودمت

للمخلص

فخرى لبيب

الرسالة السابعة

عزيزى عبد الله
تحياتى لك وللأسرة ولكل الأصدقاء. وقفت فى رسالتى السابقة عند العمدة وهو فى انتظار رد فعل بلاغه التليفونى إلى مأمور مركز إدفو. لم يمضى وقت طويل حتى جاءت عربة إسعاف وسيارة مليئة برجال البوليس، وأخرى بها ضابط قيل أنه مأمور المركز، ومعه معاون الإدارة والطبيب. فوجئ العمدة بكل هذا فتقدم نحو المأمور متذللا مرحبا، لكنه أشاح عنه فأربكه. قال العمدة.
-أنا بعت لسعادتك بلاغ.
قاطعه المأمور فى صرامه:
-تفتكر كل البهوات دول جايين للتحقيق فى بلاغك. إحنا عندنا بلاغ من لجنة توزيع المعونة عن اعتداء الأهالى عليهم وعلى رجال البوليس أثناء تأديتهم لعملهم، ونهب ناسك للمعونة.
وأسقط فى يد العمدة حتى أنه كاد ينهار. أصبح هو و»ناسه« متهمين بالاعتداء والنهب. واستخدمت، مرة أخرى، غرفة المخزن مقرا لعمليات جديدة. توجه الجنود إلى الأهالى لإزاحتهم عن الدحديرة. استرد ثلاثة

أنت قضيتك جاهزه. وأقل ما هصيبك شلحك من العموديه.
كان هجوم المأمور على العمدة عاصفا ومهينا. ولم أستطع تبين الغرض من ذلك. فكرت أنه ربما يلومه لعدم قيامه بواجبه، إلا أن الأمر تكشف عن أن أفندية المعونة لم يكونوا بحاجة إليه أو لرجاله حتى لا يصبح من حقهم نصيب فى غنيمة المعونة. وهو قد أحس بذلك منذ البداية فابتعد، غير أن الكارثة حلت لتنصب على رؤوسهم جميعا.
وجاء صوت العمدة خافتا واهنا:
-لكن يا بيه، دا كده يبقه موت وخراب ديار.
وجاء صوت آخر منفعل بعض الشئ:
-وكمان يا عمدة أنا هضطر أشرح جثث الولد والبنت لمعرفة سبب الوفاه.
أعتقد أنه الطبيب.
وعاد صوت العمدة منهنها مستجديا:
-موت وخراب ديار وبهدلة كمان.
ساد الصمت لحظة. وجاء صوت المأمور مرة أخرى. كان أكثر هدوءا. فقد أمسكت الحكومة بزمام الموقف:
-فيه حل تانى.
وتصورت العمدة وقد أنتفض، فقد ألقى إليه بحبل الإنقاذ. قال فى لهفة واستجداء.
-قول يا سعادة البيه. ما أنا راجل الحكومه برضه.
وجاء صوت المأمور على مهل، كلمة ، كلمة:
-من ناحيتكم لا ميتين ولا مصابين. أعيره نارية فقط، وإصابات سطحية طفيفه، تم علاجها فورا بمعرفة البيه الدكتور. مشاجره بين الأهالى، طمع بعضهم فى بعض، وكل واحد عايز ياخد أكثر من حقه. المعونه تم توزيعها بالعدل طبقا للقواعد المقرره، وعليك أن تشكر الحكومه لجهودها وهمتها، إنقاذًا لضحايا الوباء. ومن ناحيتنا نأجل المره دى موضوع الاعتداء على الموظفين الرسميين أثناء تأديتهم عملهم، وبلاش نقبض على حد، وكمان بلاش نشرح حد.
ويبدو أن العمدة قال شيئا ضد لجنة المعونة، إذ عاد المأمور للشخط:

-إلا دى. لازم نكتب على لسانك فى المحضر، إن اللجنه قامت مشكوره بتوزيع المعونات طبقا للقواعد المقرره، ولا تحب الأفندية بتوع اللجنة يتمسكو ببلاغهم ونرجع تانى للقبض على اللى اعتدو عليهم، وتشريح الجثث. وتبقه أنت السبب فى كل المصايب دى.
تمنيت أن يرفض العمدة، لكن الخيار أمامه كان محسوما فى اتجاه واحد، فسكت والسكوت علامة الرضا.
كانت كل علاقة هؤلاء البهوات بالمحطة، هى تقديم منزلنا لهم الشاى والقهوة والمياه. ترك والدى المحطة كلها وأوى إلى المنزل. كان يذهب إلى المحطة قبل وصول القطارات، وهى قليلة للغاية، ويعود بعد مغادرتها المحطة. ولم يظهر طوال هذا الوقت مسافرون ذاهبون أو قادمون. كانت القرية تبدو كشئ عزل تماما عن باقى الكون. قال العمدة مستسلما:
-اللى تقولو عليه ماشى يا بهوات. بس نقول إيه فى الاثنين اللى ماتو.
نجحت خطة المأمور تماما، فزال عنه التوتر الذى كان يضغط عليه، قال فى هدوء:
-دى أبسط حاجة يا عمدة (عاد هنا مرة أخرى يستخدم كلمة يا عمدة) ماتو بالملاريا ما همه ميتين ميتين. إن ما كانش النهارده يبقه بكرة.
-وفيه مصابين حالتهم وحشة.
هنا تدخل صوت الطبيب:
-إحنا اللى نقول حالتهم الصحيه إيه يا عمده. الإصابات سطحيه، وإحنا قمنا باللازم.
وطمأنه المأمور:
-أنت خايف حد منهم يموت. إحنا فى حالة وبا يا عمده. وإحنا اللى بنصرح بالدفن، وإحنا اللى بنحدد سبب الوفاة. ودى كلها أعمار بيد الله. ومحدش بياخد أكثر من المكتوب له.
صمت قليلا، ثم أكمل:
- هيه. نكتب المحضر؟
قال العمدة مترددا:
-بس أروح للناس وأكلمهم.

وعاد المأمور إلى الشخط:
-ناس إيه يا عمدة. إحنا اتفقنا وخلاص.
غير أن صوتا جديدا تدخل. أعتقد أنه صوت معاون الإدارة:
-معلش يا سعادة البيه. خليه برضه يريح الناس ويطمنهم.
وجاء صوت المأمور بعد قليل:
-اللى تشوفه سعادتك.
ثم إلى العمدة:
-بس أوعى تتأخر.
اختتم هذا الخطاب هنا. إلا أن اليوم المشئوم له بقية.
فإلى رسالة قادمة،

للمخلص

فخرى لبيب

الرسالة الثامنة

عزيزى عبد الله
بعد التحية والسلامات
أكمل لك ما بدأت، غير أننى أود لو تقرأون، مرة أخرى، الرسائل الثلاث معا. وقفت فى الرسالة السابقة عند العمده، وقد سمحوا له بالذهاب إلى الأهالى. فغادر الغرفة مهرولا، كما بدا من وقع أقدامه، ولحق به شيخ الخفراء وفراش المحطة، وأتجه مباشرة إلى القرية. كنت أتابعه من شباك حجرة المكتب، عندما شدتنى أصوات قادمة من حجرة المخزن كان الصوت، صوت وكيل النيابة. يبدو أنه يتوجه بحديثه إلى المأمور:
-سعادتك مش شايف برضه، أن بتوع المعونه دول، همه السبب فى المصيبه دى؟
أجاب المأمور بصوت قاطع:
-تمام. دول عصابة حراميه. لكن إحنا قدام وضع خطير. جلالة الملك جاى بعد بكره لزيارة المديرية ومواساة ضحايا الوباء، مش ممكن نسجل فى محضر رسمى ضرب نار وقتلى ومصابين وسرقة المعونة، مستحيل. فيه صحف ما تصدق نسجل الكلام رسمى، وتغطى على

زيارة الملك بالبلاوى دى. إحنا عندنا تعليمات واضحة من المديريه ومحدده. كل شئ على ما يرام، وتمام التمام، وحكومة جلالة الملك وموظفيها شرفا، آخر شرف، ليس لهم من مهمه غير راحة الموطنين والعناية بهم.
وتساءل الطبيب، يبدو خشية ما يمكن أن يحدث فيما بعد، فالأهالى قد اعتادوا إرسال شكاوى غفل من التوقيعات:
-تفتكر العمدة مش ممكن يلعب بديله بعد كده؟
ومرة أخرى جاءت كلمات المأمور قاطعة:
-العمدة دا أنا أعرفه كويس قوى. يخاف ما يختشيش. كل اللى مزعله أنه مخدش نصيبه من سرقة المعونات. هو عاوز يثبت إن هو بس مدخلنا للقريه، وإن اللى بيدخل من بره بيسبب القلق والتذمر. دا شيخ منسر، ورقبته فى أيدينا، وإن لعب بديله اقطعوله، واقطم له رقبته كمان. ألبسه قضية تحريض وأطيره من العمودية. مفيش شكاوى بإذن الله لأن أى حاجة بتحصل لازم تكون بإسه. وهو فهم كويس قوى دلوقت إن عمديته على كف عفريت.
جاء صراخ ثاقب من الدحديرة فأسرعت أطل عليها. كان المنظر هنالك شبحيا، الشمس تميل إلى الغرب، وظلال الناس امتدادات غامضة تلاحقهم. أهل الصبى والصبية يحملونهما والصوات الحزين يتجاوز عنان السماء. عاد العمدة إلى المخزن، وصاح المأمور فيه:
-وقف الصراخ دا.
إلا أن صوت معاون الإدارة جاء عميقا:
-أبدا، أبدا، سيبهم يصوتو.
ويبدو أن هذا التدخل هدأ من ثورة المأمور فقال:
-على رأى سعادتك، داحنا فى جبل.
وسرعان ما وقف كل العسكر يحتلون قمة الدحديرة فى وضع الاستعداد، وكذلك كل الخفراء، إعلانا عن موقف موحد للعمدة واللجنة القادمة من المركز.
وخرجت اللجنة كلها من المخزن تتابع. وأمام باب منزلنا، كان هنالك أبى وأخوتى، وبالقطع أمى خلف الباب. ولحق الفراش بى فى غرفة

المكتب، ينظر معى من الناقدة. كانت عيناه دامعتان:
-إحنا غلابة والله.
بدا وكأنه يحدث نفسه. سألته، ما الذى فعله العمدة، قال:
-هدد الأهالى، والتهمه اعتداء ونهب، وقال لهم أن الحكومة مش مسئولة عن هرسهم لبعض. والضابط والنيابةه، والكل كليله جاهزين، يا إما الأهالى تروح بيوتها وتتلم، يا إما والكلبشات جاهزهة. والميتين هيتشرحو، والدكتور هيثبت إنهم ماتو بفعل بعضهم البعض مش بسبب الحكومة. والمأمور، الله يكرمه، قيل يعفو عنهم وبلاش بهدلة المصابين والميتين، بشرط أن كل واحد يلحق نفسه ويدفن الميت بتاعه.
وأدار الفراش وجهه ليسمح دموعه، أما أنا فلم أذرف دمعة واحدة. أحسست أن كل شئ قد جف فى أعماقى. وأن كل ما جرى أمامى، أو سمعته، قد امتص كل ما فىّ من رغبات. اختزلها فى رغبة واحدة، إن أصرخ فى وجه المأمور والعمدة وكل هؤلاء الناس. لكن ما الفائدة، ونحن فى جبل، لا يسمع المرء فيه إلا صداه. إنهم يعرفون أضعاف ما أعرفه. أبى أيضا كان يعرف، لكنه لا يتكلم. كان يعرف أن كل شئ سيسوى حسب ما تشاء المديرية. إنه يعرف أشيا، كثيرة، لكن نادرا ما تفلت منه بعض تلك المعارف. إنه يخاف منى وعلىّ. يخاف منى أن أندفع، وأن يقودنى إندفاعى إلى ما يخشاه مؤثرا على مستقبلى. كان قد وصل من خبرته إلى أن مستقبل أولاده هو مستقبله الحقيقى. إنحسر عالمه إلى تلك الحدود، وانحصرت فيها آماله. كانت المشكلة أننى أعرف لأول مرة.
خلت الدحديرة من الناس، وابتعد الصراخ إلى تجاويف القرية. عادت اللجنة والعمدة إلى حجرة المخزن. وساد الصمت الذى قطعه معاون الإدارة:
-نكتب المحضر يا عمده.
وجاء صوت العمدة ذليلا خاضعا.
-اللى تشوفه سعادتك.
وأخذ معاون الإدارة يكتب، وهو يتلو فى صوت مرتفع:
إنه فى يوم الجمعة... الساعة الرابعة بعد الظهر قمنا أنا... معاون إدارة

مركز إدفو والصاغ ... المأمور... والدكتور... طبيب المركز بمعاينة المكان الذى جرى فيه توزيع المعونة، بناء على بلاغ العمدة الوارد إلينا فى الساعة الحادية عشر من صباح اليوم، حيث لاحظنا تناثر أشياء، البعض منها زيتا والبعض خبزا، ومزقا من بطاطين، مما يدل على حدوث شجار بين الأهالى، نتج عنه إصابة البعض إصابات طفيفة وسطحية. وقد تم إجراء الإسعافات الأولية اللازمة. وقد أوضح العمدة أن لجنة المعونة قد قامت بعملها خير قيام. وقد أمكن للجنة بمعاونة العمدة فض الشجار الذى نشب بين الأهالى وتصفية الأمور وعودتها إلى نصابها.

وتوقع

ووقع الجميع. وبدأت اللجنة تجمع شتاتها. وأسرع الفراش إلى والدى، فعاد إلى مكتبه لوداع اللجنة، حيث أنهم ضيوفه على أى حال. وأسرع الكل إلى السيارات. وبدأ الموكب تحركه صوب الجنوب إلى إدفو.

فى ذات الوقت، كان موكب آخر ينطلق من القرية نحو شمالها، إلى المدافن. كانت هنالك محفتان لا تكادا تبينان من الزحام حولهما. خرجت كل القرية تودعهما. سارت ككتلة داكنة تتحرك فى غبشة المساء، وصرخات واهنة تنطلق ما بين الحين والحين.

ثم خيم الصمت وعادت الأمور إلى ما كانت عليه.

لكن الأمر بالنسبة لى، لم يعد كما كان. لم أعد أنا اليوم، من كان بالأمس. لقد هزنى زلزال من الأعماق، نفض أشياء وأشياء. ولكن ماذا فى وسعى أن أفعل؟ أو تحديدا ماذا على أن أفعل؟ وهل يوجد مكان فى بلدانا يمكن أن أصرخ فيه بكل ما حدث، وأن يكون لصراخى صدى فعال، لا مجرد صمت أجوف.

سلامى للجميع طرفكم،

ودمت،

للمخلص

فخرى لبيب

الرد على الرسالة الثامنة

الأخ العزيز فخرى

تحياتى لكم جميعا.

كنت انتظر منك خطابا يطمئننى على حالكم، فإذا بك ترسل إلى سيلا من المصائب والنوائب، سيلا جرف فى طريقه كل شئ. تصورت قريتى وقد حل بها ما حل بكم، فزلزلنى هذا اليوم المشئوم كما زلزلك. أحس أن كل شئ حولى ينهار. العالم الهادئ الساكن الذى أعتدته يتمزق، يتناثر كفتات الخبز العطن الذى تحدثت عنه. –من- من البشر يقف مع هؤلاء الناس؟ العمدة والمأمور ومعاون الإدارة والطبيب وأفندية المعونة والصول وعساكره، كلهم ضدهم، وكذلك الملاريا. وهم هنالك معزولون عن العالم، وكأنهم هم الوباء. لقد قرأت خطاباتك الثلاثة مرة واحدة، فضاعت منى معالم الدنيا. إننى احتاج إلى وقت حتى استجمع نفسى مرة أخرى.

إن أعجب ما قابلته، هو أن أحدا لا يصدقنى عندما أروى له عما يجرى عندكم. قالوا أن ذلك أمر مستحيل، فالصحف كانت تتحدث، عندما وصلنا خطابك، عن زيارة الملك للمناطق المنكوبة بالوباء. هل يهتم الملك شخصيا برعيته، ولا يهتم بها هؤلاء الناس جميعا، وهم موظفون عند جلالته؟ حقيقة، الأمر صعب التصديق، لكننى أصدقك تماما. يبدو أن المشكلة أكبر بكثير من أن تستوعبها العقول التى اعتادت حياة روتينية طبيعية إلى حد ما. كما يبدو أنك ذهبت إلى مكان غير طبيعى، زاخر بأمور لا يمكن هضمها جرعة واحدة.

أرجو أن تطمئننى عل حالكم أنتم. وفى انتظار خطابك القادم،

للمخلص

عبد الله كامل

الرسالة التاسعة

عزيزى عبد الله

تحياتى وأطيب أمنياتى

أخيرا من الله علينا بالشفاء. أحس بهزال شديد. الناس، أو من تبقى منهم، فى قرية المحاميد لا يسمع لهم حسا ولا صوتا، لا نواحا ولا أفراحا. مات الكثيرون. غدا الموت بالجملة أمرا طبيعيا، كأنما هو زائر ثقيل طاب له المقام، ولم يكن أمام الأهالى غير إفساح أوسع مكان له. إنهم يتحدثون باعتبار أن تلك هى النهاية، وأن قضاء الله قد حل ولا مهرب. بعض القادرين منهم يحضرون الأطباء فى محاولة أخيرة للنجاة،

المدرسة فىّ، وأن أكون من المتفوقين.

ودمت،

للمخلص

فخرى لبيب

الرد على الرسالة التاسعة

الأخ العزيز فخرى

وصلتنا رسالتك الأخيرة، وأسعدنا عودتك إلى لهجتك السابقة، فقد كانت الخطابات الثلاثة الأخيرة رسائل فواجع رهيبة. إنها رغم هدوئها الظاهرى، مشحونة بالبراكين. الإنسان إبن بيئته، الإنسان سيد مصيره، الإنسان مخير لام مسير، كيف نعرف أمراض البيئة ونعالجها؟ ما هو الأفضل للمستقبل وكيف يتحقق؟ وكلها مسائل تجعل الرأس يدوى. ماذا ترانا هنا فى العدوة؟ فلاسفة، قادرين على تناول تلك المعضلات التى فتحت نيرانها علينا؟ لقد قلت أنك تحتاج إلى فترة تركز فيها على المذاكرة، وأعتقد أننا جميعا نعيش هذه الفترة.

أنا أعلم، منذ كنت معنا فى العدوة، أنكم تذهبون فى الصيف إلى منزل أخوالك فى القاهرة. وأعتقد أن الخطابات لم تعد تكفى، فقد تعقدت المسائل. لماذا لا ترسل لى عنوانكم فى القاهرة، وموعد ذهابكم إليها، وآتى أنا لزيارتكم. وتكون تلك فرصة رائعة للقاء والحديث.

سلامى للجميع، ودمتم

للمخلص

عبد الله كامل

*** * * ***

الفصل التاسع

الإجازة الصيفية

انتهى العام الدراسى، وقد نجحنا جميعاً. الفرحة فى المنزل عارمة. ما أن تبدأ الإجازة الصيفية حتى تثور قضية كل عام. أين سنمضى هذه الإجازة. ليس، بالطبع، كل الإجازة، لكن بعضاً منها على الأقل، أسبوع أو أسبوعان.

وكان هنالك على الدوام بيت اخوالى. كانوا يسكنون الآن فى شارع ذهنى، قرب الشارع الرئيسى، شارع الملكة نازلى. غالبية سكان الشارع والعمارة من الشوام. أنت فى كل مكان، فى الشارع، وعند الباعة، وفى السينما، تحاصرك اللهجة الشامية. أحس أنهم متعالون بعض الشىء. شبابهم، بنات وأولاد، يعملون فى المحلات التجارية. يبدون أقرب إلى «الخواجات». الكثيرون منهم يتحدثون الفرنسية، ويتباهون بالكلام بها. صاحب العمارة التى يسكنها أخوالى منهم. تشابكت مع أحد أبنائه لأنه أبدى شماتة فى الفلاحين المصريين، عندما غمرهم الفيضان وأغرق أرضهم ودورهم. ألقيت به أرضًا وبركت عليه، بعد أن أشبعته ضرباً. إنتزعتنى خالاتى من فوقه اكتشفت أن منامى قد «نخلت» عند الركبتين اللتين كنت أرتكز عليهما. حزنت حزناً شديداً. المنامة جديدة، وقد تم شراؤها خصيصاً للزيارة، وها هى الآن واهنة بالية فى بعض أجزائها. خالى يسى، خال والدتى واخوالى وخالاتى كان قد توفى. لم نكن نكرهه، لكننا لم نكن نحبه. هو لم يكن يحب الأطفال أبداً. الأطفال والصبية عصاة بطبعهم، لا يبالون بما يبالى به الكبار، أو يلتزمون بما يلتزم به الكبار. لذا كنا نحس أنه لا يرتاح البتة إلى وجودنا. وربما كان يكره الإجازة الصيفية بسببنا. فقد كان قدومنا إلى القاهرة، قلبا لكل نمط حياته.

وكان خالى وليم قد تخرج من كلية التجارة، وعمل محاسباً فى شركة المياه بالقاهرة. كما تخرج خالى فريد وعمل مدرسًا للعلوم فى مدرسة ثانوية بمديرية البحيرة. أما خالى منير، وهو الأصغر والأقرب إلينا فقد التحق بكلية العلوم.

وكان أخى إدوارد قد نجح وانتقل إلى السنة الثانية بالمعهد العالى للعلوم

المالية والتجارية. وكنت أنا قد حصلت على «الثقافة» وأصبح بينى وبين الجامعة «فركة كعب».
كان خالى منير هو مرشدنا وقائدنا عندما نكون فى القاهرة. أخذنا لزيارة منزل خاله جورج، وهو موظف كبير للغاية فى مصلحة السكة الحديدية. عندما ولجنا الشقة التى يسكنها، بدت معتمة ساكنة سكوناً منفراً. وبدا أبناؤه وهم يسيرون فيها كالأشباح، يهمسون لبعضهم البعض بالإنجليزية فيزداد المكان وحشة، ويزداد احساسى بالغربة فى داخله. وكان خالى جورج (كما كنا ندعوه أيضاً) ينظر إلينا، عندما ندخل إلى حجرته لنسلم عليه، كجزء من طقوس الزيارة، وكأنه لا يرانا، فنخرج سريعاً. كنا نراه وهو خارج، والشقة معتمة ساكنة، منتصب القامة، أنيقاً دقيقاً فى ملابسه، كشىء أسطورى، فنهابه وننزوى. ويهمس خالى منير، إنه يتشبه بالإنجليز. أنظرا حذاءه والغطاء الذى يعلوه. لكنه يكون قد عبرنا، دون أن ينظر إلينا، ودون أن نرى الحذاء، مجتازاً الصالة إلى الخارج. كانت زوجته، وهى عمة أمى أيضاً، سيدة طيبة للغاية، ضعيفة البصر. ما أن تعرف بقدومنا حتى تهرع إلينا تحتضننا وتقبلنا، وهى تهمس، ولاد إلين. وكأننا أحفاد لها.
ما أن يغادر خالى جورج المنزل حتى يتنفس المكان شيئاً من حريته. وتصر عمتى (كما كنا ندعوها أيضاً) على أن نتعشى. ونقبل نحن أمام إصرارها. العتمة ما زالت سائدة، وأتعرف على ما أكل بحاسة التذوق، لا بحاسة البصر. إنه طعام ليس باللحم ولا بالطير ولا بالأسماك. خمنت إنه «كبدة بالدمعة أو الكمونية»، واقنعت نفسى بذلك وأنا آكل، وإن كان الطعم غريباً.
عندما غادرت تساءلت:
-منير، هو إيه اللى احنا كلناه ده؟
ضحك منير:
-هو انت بتاكل حاجة وأنت مش عارفها!
ضحك عاليا.
-لا مش كبده. دى حاجة اسمها خرشوف.
ونظرت إلى إدوارد لعله ينقذنى من هذه الورطة، حيث أنه قد أمضى

عاماَ بالقاهرة، ويعرف ما لا نعرف. غير أنه بدا أكثر جهلاَ منى.
تساءلت فى ضيق:
-وهو يطلع إيه يعنى الخرشوف بتاعك دا؟
قال منير فى نبرة من يعرف أشياء لا يعرفها الآخرون:
-خضار، نوع من الخضار
وأحسست كأن دلو ماء قد اندلق فوق راسى. وعندما عدنا إلى بيت اخوالى وخالاتى، وهنالك كانت، أيضاً، أمى وأخوتى، خشيت أن يخبرهم منير. وقبل أن أنبهه ألا يفعل ذلك، كان قد أعلن فضيحتى على رؤوس الأشهاد. وقالت أمى، فى محاولة للدفاع عنى وعن نفسها (فهى التى قصرت فى تعريفنا بهذا الخرشوف بينما أخوتها يعرفون به).
-أصل احنا فى الصعيد منعرفش من الخضار غير البامية والملوخية والكوسة والبطاطس، زى ما كنتو أنتو زمان.
ومن يومها لم أذهب إلى بيت الخال جورج أبداً.
وأخذنا منير إلى بيت خاله سعيد، وهو يختلف كل الاختلاف عن بيت خالى جورج. كان خالى سعيد بديناً، مستدير الوجه، مرحاً، منطلقاً، يرحب بنا غاية الترحيب، وكأنه مشتاق إلينا بحق. وكانت زوجته رقيقة، دقيقة، جميلة. لم تكن من العائلة. وكان أولاد سعيد يشكلون قبيلة فيها مأمور الضرائب والمهندس والضابط والمحاسب وبطل السباحة... الخ. وكانت أعمار هؤلاء وغيرهم تتراوح حتى تصل إلى من يقاربوننا سنناً، ونرتبط معهم بما يشبه الصداقة.
كنا نحب بيت خالى سعيد، ونحس أننا لا نبتعد عن أنفسنا كثيراً عندما نذهب إليه.

* * * *

تحدثت مع منير عما رأيته يوم مجزرة الفلاحين فى المحاميد، يوم الفتات العطن وزيت الملاريا. بدا عليه الغضب. قال أن هذه الواقعة لم تذكرها أى صحيفة من الصحف، وأن الجرائد والمجلات تتجاهل تماماً هذه الأحداث. ثم هز رأسه فى جدية وتمتم:
-البلد دى عاوزة ثورة.
وتنبهت إلى كلمته الأخيرة. يبدو أنه يتفق وميرابو مدرس التاريخ. قلت له أنه يقول نفس ما قال، إن مصر فى حاجة إلى ثورة مثل الثورة

الفرنسية، تطيح بالملكية والإقطاع، وتقيم نظاماً جمهورياً. غير أن منير كان له رأى آخر. الثورة الفرنسية جاءت بجمهورية بورجوازية، لكن فى مصر يجب ضرب أجزاء من هذه البورجوازية وإقامة جمهورية اشتراكية. فقد اختلف الزمان والمكان.

وأحسست أن مسالك الدنيا كلها قد تداخلت. وأن ما كان واضحاً لى، قد غدا بلا معالم. وما تشكل عندى من تصورات، قامت على أفكار مدرسى التاريخ واللغة العربية يتهاوى، لأسمع كلمات جديدة لم تطرق أذنى من قبل.

وسألته بطريقة عابرة، حتى لا يتخذ مرة أخرى سمت من يعرف ما لا يعرفه الآخرون:

-يعنى إيه بورجوازية واشتراكية؟

ونظر إلىّ مليا كأنما يحاول استكشافى. ثم قال فى بساطة وإيجاز:

-بورجوزازية يعنى رأسمالية يعنى الأغنياء بتوع المصانع اللى بيستغلو العمال، وجمهورية اشتراكية يعنى جمهورية العال والفلاحين.

-واحنا ضد الأغنيا، أى غنى يعنى؟

-لا، الأغنيا اللى شغالين مع الأجانب.

-طب واحنا لما نعمل جمهورية عمال وفلاحين، بدل جمهورية البورجوازية دى، يبقه إحنا بنسقط ملكية مش بتاعتنا، عشان نجيب جمهورية مش بتاعتنا برضه.

وبدا أن الحيرة قد أصابته بصورة ما، فتساءل:

-تقصد إيه بإحنا دى؟

-أحنا المتعلمين يعنى.

وقهقه منير ضاحكاً:

-يا راجل، ما هية الجمهورية الاشتراكية هى العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين. ودول همه المتعلمين اللى بيدافعو عن بلدهم.

-يعنى احنا فيها؟

قال مؤكداً:

-طبعاً.

وأحسست بالراحة، وإن لم يستقر الكلام فى وجدانى. كان كتيار يدفع

قال فى حسم:
-أنا هستناك هنا.
كان الوضع محرجاً للغاية، فأسرعت إلى الداخل، وأرتديت ملابس الخروج. عندما عدت إلى الباب، الذى تركته بالطبع مفتوحاً، لم أجد عبد الله هنالك. أغلقت الباب وهبطت السلم قفزاً. وجدته واقفاً أمام باب المنزل، وقد عاد إلى سجيته.
أخذنا نتبادل التحيات والسلامات فى شوق وحماس. أخذت أربت على كتفه:
-حمد الله ع السلامة. دنت وحشنى جدا يا راجل.
فأخذ يضحك ضحكته المكتومة.
-وأنت كمان وحشنى، وكل أصحابنا فى البلد بيسلمو عليك.
كنا قد أخذنا نسير فى شارع الملكة نازلى متجهين إلى باب الحديد، وتساءل عبد الله:
-احنا كدة رايحين ناحية المحطة؟
-مضبوط، ليه؟
قال فى اندهاش:
-عشان أنا مروح دلوقت. هاخد قطر الواسطى. وبكده نخش فى الجد على طول. أحنا مش هنتقابل غير بعد سنه، لما أنت تخش الجامعه.
عندما وصلنا المحطة كان قد عرف آخر أخبار أخوتى وأسرتى. وكنت قد عرفت آخر أخبار العدوة، وكل من نعرف فيها. انتحينا كنبة هادئة فى المحطة. وقال عبد الله فى حماس:
-قول بقه يا سيدى.
عجبت:
-اقول إيه؟
-أنا جاى أسمع وأفهم إيه الحكاية؟
-حكاية إيه يا عبد الله؟
وخفض صوته بعض الشىء:
-الله، حكاية الثوره، والكلام الكبير اللى انت بعته لينا فى الجوابات. أنت نسيت وألا إيه؟

-يعنى احنا لينا سنه ما شفناش بعض، وأنت تيجى تنزلى من بيت أخوالى، من غير ما تدخل وتشرب أى حاجه، ولا حتى كباية لمون، عشان تناقشنى فى الثوره!!
قال مؤكداً:
-أنا جاى مخصوص، عشان الحكاية دى.
-يعنى جاى حمرى جمرى.
-يعنى إيه حمرى جمرى؟
-يعنى سخن وحامى.
أخذ يضحك من جديد.
-أيوه يا سيدى، أنا كده بالضبط، والولاد فى البلد مستنين المقابله دى.
أنتابنى شعور بالاعتزاز بنفسى. غير أن عبد الله فاجأنى فلم يرد إلى خاطرى غير آخر ما سمعت من أنيس. وأحسست أننى لو حدثته عن الثورة الاشتراكية وديكتاتورية البروليتاريا، وهى أشياء ما زالت بعيدة عن مداركى، فإن النتيجة سوف تكون كارثة. غير أن عبد الله انقذنى من هذا المطب وقال:
-أنا كنت سألتك فى آخر جواب عن شوية حاجات كدة، زى الإنسان إبن بيئته، والإنسان مسير ولا مخير، والإنسان سيد مصيره. وأنا شايف إن أحنا نسيب دا دلوقت. المشكله اللى شغلتنى ورعبتنى هيه ثوره زى الثوره الفرنسيه. وأنا قعدت أقرأ الثوره الفرنسية تانى، ولقيت الحكاية رهيبة جيلوتين واعدامات بالجملة، وقتل الملك والإقطاعيين. المشكلة اللى تعبانى دلوقت، وأنا جاى مخصوص عشان أفهمها هيه، أنت عاوز تعمل كده فى بلدنا؟ تنصب جيلوتين، وهاتك يا دبح فى الناس؟
صحت فيه أقاطعه:
-بس بس يا عبد الله. أنت رحت فين يا بنى؟ وأنا مين اللى هيعمل كده؟ وأنت ليه شايف الإقطاعيين واللى جرالهم، ومش شايف الفلاحين واللى جرالهم؟ وليه خدت بالك من الملك واللى جراله، وما شفتش اللى جرا للى كانوا فى سجن الباستيل؟ الإنسان لما يشوف، لازم يشوف بعنيه الاتنين، ولا أنت يعنى عشان عندكو فدان فاكر نفسك اقطاعى والجيلوتين مستنيك؟

ضحك عبد الله
-يا سيدى الموضوع مش شخصى. أنا شايف أن دبح الإقطاعيين دا مش عدل.
-ودبح الإقطاعيين للفلاحين كان عدل؟
-لا برضه مكنش عدل.
-الإقطاعى كان ظالم لأنه وهوه فى مركز القادر نهب الفلاحين وانتهك أعراضهم وعاملهم زى الحيوانات، عبيد يتصرف فيهم زى ما هو عايز. هوه مش العين بالعين والسن بالسن والبادى أظلم. ومش لكل فعل رد فعل؟
قال عبد الله شبه مقتنع:
-كلامك يعنى معقول شويه، نفكر فيه.
أكملت:
-وعموماً سيبك من الثوره الفرنسيه، وسيبك من رواياتها، لأن كتاب بعض الرويات كانو معاديين للثوره. خلينا إحنا فى بلدنا، فى مصر، فيها ظلم ولا مفيهاش ظلم؟
أجاب مؤكداً:
-فيها طبعاً، وظلم رهيب كمان.
-عظيم. وما دام فيه ظلم يبقه فيه ظالم ومظلوم. واحنا طبعاً مع ....
وأكمل عبد الله
-مع المظلوم..
وأكملت:
-وضد الظالم.
واستدرك عبد الله:
-بعد استنفاد الوسائل التى يمكن استنفادها.
-ماشى، المهم نشوف الظالم والمظلوم فى بلدنا.
-بس خد بالك، فاضل ساعة والقطر يقوم ع الفيوم.
-ماشى، أول ظلمه فى بلدنا همه الإنجليز، أجانب واحتلو بلدنا.
-مظبوط، ونقف ضدهم على طول.
-اشمعنى دول تقف ضدهم على طول من غير استنفاد؟

حتى وإن كان معى منير وإدوارد، حتى وإن كانت تجلس إلى جوارى صبية جميلة ناعمة دافئة من بنات الشوام أو اليهود من الظاهر أو السكاكينى وغمره. أنا أخشىٍ أن تفوتنى حركة أو لفظة فينقطع تواصل الحكاية. أنا أجلس مستغرقاً وكأنى فى مهمة مقدسة.
السينما صيفية مكشوفة واسعة، ونحن نجلس فى كراسى الصالة نكاد نتلاصق. الزياط قبل الفيلم شديد، فهنا أسر بكاملها من الأجداد حتى الأحفاد، وأنا أنظر أتأمل فى حذر وتوجس. أنا قادم من آخر الصعيد، وما أراه أمامى يدخل فى باب الفجور، وهو ليس بفجور، لكنها المسافة من أسوان إلى القاهرة، واختلاف السلوك، فغالبية الحضور ليسوا بمصريين، تعرف ذلك من لهجاتهم، ومن حديث أكثريتهم بالفرنسية، ربما كنوع من التمايز. الغريب يفعل ما يشاء، ربما لأنه لا يحس بالتزام قبل النسيج الذى يعيش فيه. إنه يتصرف وكأنه مجتمع، خارج المجتمع المحلى، إنه يتصرف بتعالٍ.
متعة الذهاب إلى السينما لا تقف عند حد الفيلم. هنالك فى الشارع نسوة يشوين الأذرة على الرصيف، عربات محملة بالتين الشوكى المثلج، ومطواة تعمل فى قشرته اللحمية العامرة بالأشواك الدقيقة المنتصبة متنمرة فى مجموعات. وهنالك محل المثلجات الذى يتزاحم حوله الصغار فيما يشبه الشجار.
عندما يبدأ العرض، وقد ساد الظلام، تظل بقايا الكلمات تتلاشى على مهل حتى يمسك الصمت بنا، ثم رويداً رويدا ترتفع زقزقات شفاه وأسنان، تبدأ قزقزة اللب، تكتكات هامسة تنز فى المكان.
يبدأ العرض بأفلام الكرتون. الفأر ميكى، وينفلت الصغار، وأنا معهم، ضحكا وقهقهة. ما أجمل أن يهزم هذا الفأر الضئيل ذلك القط الضخم العاتى. تذهلنى تلك الرسوم المتحركة، والتى ما أن تنتهى حتى تدوى السينما بتصفيق الصغار وزياطهم.
ثم يجىء الإعلان عن العرض القادم، وما أن تنتهى لقطاته، حتى يغمر الضوء الصالة وتبدأ الاستراحة، فأوصى من يجلس إلى جوارى أن يحافظ لى على مقعدى حتى لا يحتله أحد. أمام السينما أتصفح وجوه روادها. أحس بالمصريين مثلى أغراباً يتسللون. الشىء الوحيد الذى له

علاقة تبادلية بى هو شاشة السينما. ذلك المستطيل المعلق المضىء الذى
تترى عليه الصور. أسرع إلى مقعدى أقبع فيه لتظلم القاعة ويبدأ
العرض. كانت الصور المعلقة فى الخارج كلقطات من الفيلم تتبىء أن
ليلتنا، بإذن الله، ليلة ليلاء. كان اسم الفيلم «الرجل الذئب».
الصمت كثيف. خمدت قزقزة اللب لم يعد هنالك مكان لغير أصوات
الذعر وصرخات الرعب المكتومة، التى بدت وكأنها خلفية تكمل ما
يجرى على الشاشة، وتؤكد التأثير الساحق للرجل الذئب. كان البطل
يتحول من آدمى إلى وحش. ينبت له شعر ينمو فى سرعة مذهلة، ثم
تظهر الأنياب والمخالب، وتعوى تلك السحنة البشعة فى ضوء القمر.
انتهى الفيلم الكابوس وأضىء النور ليعلن أننا عشنا الوهم حقيقة،
والخرافة واقعاً حياً. هل الذئب هو الشر الكامن فى أعماق كل منا ينتهز
الفرصة لينقض علينا؟ الساعة والنصف اللعينة، انتهت من الشاشة
لتعشعس فى داخلى.
كنت دوماً، إن ذهبت إلى السينما أعود إلى خالاتى الثلاث ووالدتى
لأقص عليهن الفيلم الذى رأيت. حكاية الليلة فزع وهلع. كنت أروى
بالتفصيل وأنا أتابع على وجوههن ما كان بالضرورة يرتسم على وجهى
وأنا أتفرج. والدتى فقط كانت تنظر إلىّ باندهاش، ربما معجبة بقدرتى
على السرد والتمثيل. عندما انتهيت، أحسست أننى قد ارتحت، قد ألقيت
بعبىء ما أحمل عليهن جميعاً. قالت خالاتى فى انفعال:
-لازم تاخدنا معاك السينما المره الجايه.
أما والدتى فقد قالت فى امتعاض:
-إيه يا بنى الهجص اللى بتتفرج عليه ده، وبفلوس كمان!

* * * *

حان موعد العودة إلى المحاميد. أسرعت أحضر عربة حنطور من
الجوار. انحشرنا فيها جميعاً ومعنا خالىّ فريد ومنير. لوحنا لخالاتى
اللواتى كن واقفات فى الشرفة لتحية الوداع. ساعدنا خالىّ فى حمل
حقائبنا واحتلال ديوان محترم من دواوين الدرجة الثانية.
ضرب الجرس. وتعالت السلامات. عاد إدوارد معنا ليتقضى بقية
الإجازة فى المحاميد.
عندما جاء الكمسارى لفحص التذاكر، بدا متردداً. ينظر إلينا حيناً، وإلى

تمتد كشريط يغمره الفيضان، ثم يجيء النيل موازياً لكل ذلك.
قررت أنا وسمير أن نضع برنامجاً نقسم فيه وقتنا بين القراءة والجبل والنهر، وزيارة أى أشياء تبدو غريبة فى الجوار. إدوارد منعزل عنا بعض الشىء، هو الآن طالب جامعى، أما نحن فما زلنا صبية فى المدارس الإبتدائية والثانوية.
قلت أنا وسمير لأمنا أننا خارجان لامتطاء الجبل. دقت أمى صدرها فزعاً.
-جبل إيه يا بنى اللى أنت وهوه هتطلعوه دا!
-الجبل اللى هناك، اللى وراء البلد.
أسرعت أمى إلى أبى تشركه فى مخاوفها لعله يستخدم سلطته الأبوية، لكنه فاجأها بقوله:
-يا ستى ما يطلعو الجبل، يعنى هيحصل إيه؟
ثم قال هامساً حتى لا تسمعه أمى:
-بس خدو بالكو الجبل مليان بلاوى، عقارب، تعابين، كمان ديابه وضبوعه، وضرورى فيه تعالب.
ويبدو أن أبى، عندما عدد المخاطر المحتملة، أصابه الخوف علينا والتردد إذ توقف وقال:
-سمير، اندهلى ع الغفير.
رحب الخفير ترحيباً شديداً باصطحابنا. لم يبال إدوارد بمغامرتنا.
اصطحبنا رأفت ومدحت حتى حافة المنحدر.
بينما نخترق القرية قال الخفير:
-أحود بس أجيب الزقله. ما تتفضلو شويه.
شكرناه. ذهب وعاد يحمل شومة غليظة. لاحظت وجود حلقة حديدية عند طرفها السفلى. هزها فى يده بقوة وهو يتجه نحونا.
-كده مفيش حاجه تقدر تهوب جهتنا.
قلت متسائلاً:
-قصدك إيه؟
بدا متردداً.
-أصل الجبل فيه سكانه، وكترتهم نايمين دلوقت. بس يعنى ممكن حد

منهم يشاغبنا.
تساءل سمير فى انفعال:
-وهمه مين سكان الجبل دول؟
تردد الخفير مرة أخرى.
-كثير والله. تعالب وديابه وضبوعه وحنشه وحيايى وعقارب وصلالى.
وصاح سمير:
-ياه، كل دول. طيب واحنا هنعمل إيه معاهم؟
قال الخفير مهدئاً:
-ولا حاجة، احنا فى حالنا وهمه فى حالهم. واللى يهوب ناحيتنا، الزقله جاهزه ما تخافوش، أنا معاكم، والزقله معايا، وربنا معانا كلنا. كمان معانا بركه سيدنا الشيخ.
كانت كلمة صلالى جديدة علىّ لم أدعها تمر دون استفسار:
-إيه الصلالى دى يا عم محمود؟
وبدا أنه قد تفوه بشىء ما كان يجب أن يتفوه به.
-الصُل دا عفريت. بس مش أى عفريت. هوه عفريت الناس اللى ماتو مقتولين. هوه بيتقتل كل يوم زى صاحبه، لغاية ما ياخد حقه من اللى قتله.
وأمسك سمير بيدى فضغطت عليها حتى يشجع الواحد منا الآخر.
بيوت الفلاحين فى القرية مبنية من أحجار الجبل وطينه. قال الخفير:
-بيوتنا هاويه وطراوه، زيها زى بطن الجبل.
عندما بدأنا الصعود، قال محمود:
-خدو بالكو ما تمشوش ع الحجر، خليكو ماشين ع المدق.
تساءلت:
-اشمعنى؟
-المدق يا بيه سكة باينه قدامنا، لكن الحجر محدش يعرف تحته إيه.
ثم بدأ يشرح لنا الآثار التى على المدق. هذا أثر ذئب وذاك أثر ثعلب، وكلانا يمعن النظر لعله يتعرف على الفرق. وقال سمير:
-ودا أتر بنى آدمين؟
فقال الخفير:

-طبعاَ. ما هو المدق بيودى لراس الجبل، ولمقام الولى. وناس كتير بتطلع تزور الولى، والنسوان بالخصوص، وياخدو عيالهم معاهم عشان يتباركو بالولى.
نظرنا إلى أعلى وإلى أسفل. لم يكن هنالك بشر غيرنا. وأدرك الخفير تساؤلنا فقال وهو يضحك:
-اصلهم بيطلعو بعد ما يرجعو من الغيطان. بس ممكن ناس بسيطة تطلع تزور دلوقت. وعاد سمير يتساءل:
-لكن مين، يا عم محمود، اللى عمل المدق ده؟
وتوقف الخفير. كان السؤال مفاجأة له.
-والله محدش يعرف. احنا اتولدنا، ومن قبلنا جدودنا، والمدق ده فى مكانه بالتمام. زى ما يكون حته من الجبل خلقة ربنا. يمكن عمله الأهالى والحيوانات ساكنه الجبل. يمكن عملناه كلنا، الله أعلم.
بلغنا منتصف الجبل وبدأنا نلهث. لم نكن ننظر خلفنا خشية أن يصيبنا الدوار. جلسنا نلتقط أنفاسنا.
قال الخفير:
-خدو بالكو الحجر هنا مشمش وبيهيل.
تساءلت:
-يعنى إيه الكلام دا؟
-يعنى الشمش ضارباه ومفلقاه، وبيتكسر ويقع.
عاد سمير يتساءل:
-أمال هنشوف الحيوانات إمته؟
فوجىء الخفير:
-حيوانات إيه؟
-الديابه والتعالب والضبوعه.
واندهش الخفير.
-ربنا يكفينا شرها. دى وحوش.
-يعنى نشوفها من بعيد لبعيد.
-ما تشوفهاش أحسن لا من قريب ولا من بعيد.
-طيب هيه فين دلوقت؟

-فى بيوتها، فى جحورها، فى كهوف الجبل.
استرددنا أنفاسنا فأكملنا الصعود. بلغنا القمة. يا للعظمة يا للأبهة. نحن الآن نركب الهواء. فوق قمة الجبل لا شىء يعلونا غير السماء. الفراغ اللانهائى بلا حدود. كل الأشياء من أعلى صغيرة، ضئيلة، حتى المحطة وبيتنا وبيوت عمال الدريسة، وشريط السكة الحديدية، تبدو ككلمة مفككة تحتها خط. بيوت الفلاحين عند السفح سوف تتناثر أشلاء أن تثاءب الجبل أو تمطى. والنيل من بعيد يبدو كسيفٍ مسلولٍ على بساط من سندس أخضر. نحن هنا نشم هواء جميلاً نرى آماداً بعيدة لا تخدها عوائق. إننا نستطيع أن نزعق هنا ونسمع أصداء أصواتنا داوية فى هذا الخلاء الفسيح.
أخبرنا الخفير أن الشيخ الولى كان يحب الجلوس هنا منفرداً، قريباً من الله. كان يحب العزلة. وكان الناس هم الذين يأتون إليه، يحضرون له الطعام والماء. كانت الوحوشٍ تصادقه وتطيعه. وكان له كرامات حتى قبل أن يموت. الأهالى جميعاً يحبونه ويثقون فيه شفيعاً. كانوا يقصدونه أيام الملاريا، فليرفع عنهم البلاء.
ونظرنا إلي مقام الولى باحترام وخشية، فالذى يملك أن يفيد يملك أن يضر أيضاً. وسألنا الخفير أن يقرأ له الفاتحة.
كان الهبوط أيسر كثيراً من الصعود. وكلما اقتربنا من الأرض، اقتربت الأشياء والناس والحيوانات من أحجامها، حتى إذا بلغنا السفح، عادت كل الأشياء إلى ما كانت عليه، ما عداى أنا وسميرٍ. لم تكن الرحلة بالنسبة لنا مجرد صعود جبل، لكنها كانت اقتحاماً للمجهول. لهذا الجدار الأصم الخرافى الذى نقبع جميعاً فى أسفله.
عندما وصلنا المنزل استقبلنا رأفت ومدحت بالتهليل، كأننا عدنا من غزوة. وكان أسعد الناس هو الخفير الذى عاد بنا سالمين، وسلمنا كما استلمنا دون نقص أو إصابة.
قال رأفت:
-احنا شفناكم وانتو طالعين الجبل، كنتو صغيرين خالص.
وأضاف مدحت فى براءة:
-كنتو عاملين زى الفيران.

ونظرنا إليه نستغرب هذا التشبيه. وقال سمير:
-واحنا كمان شفناكو من فوق.
وتساءل رأفت فى حماس:
-وكان شكلنا إيه؟
وقال سمير مشاغباً:
-كنتو زى الفيران طبعاً.
وكانت المعادلة صحيحة.

* * * *

عمال الدريسة الذى يسكنون فى بلوك المساكن الضئيلة بحرى منزلنا يقومون بأعمال غريبة.
عناما يجيء كبيرهم، وهو كما أخبرنى والدى «مهندس» يشرف على صيانة قضبان القطار الحديدية، يتأكد من سلامتها وسلامة الفلنكات الخشبية المتينة، والمسامير القلاووظ الضخمة التى تثبت القضبان إليها، فإنه يركب الترووللى الذى يتكون من قاعدة خشبية محمولة على أربع عجلات، يركب المهندس ومن معه فى مقدمتها. ويقوم إثنان من عمال الدريسة بدفعها من الخلف، وهما يجريان فوق القضبان، وكلما اندفع الترووللى مسرعاً، قفزا إلى المؤخرة يستريحان بعض الوقت، فإن أبطأهبطا على القضبان مرة أخرى ودفعاه من جديد. والمهندس المفتش، يتفحص القضبان وملحقاتها، فإن لاحظ ما يستحق المتابعة أمر بإيقاف الترووللى. وهنالك فرملة يد تمسك بالعجلات تؤدى المهمة على الفور.
والترووللى نفسه يمكن تفكيكه وتخزينه إلى جوار بلوك سكنهم.
كان رئيسهم، وأصله عامل مثلهم، يجيء عند أبى أحياناً. سألنى ذات يوم:
-ما تحبوش تتفرجو ع الكاب؟
-إيه الكاب دا؟
-هنا قُبيلنا يجى بعِشره كيلو. مخازن غلال سيدنا يوسف زمن المجاعه.
وبدا الأمر غريباً بعض الشيء.
-هوه سيدنا يوسف كان عايش هنا؟
وتدخل أبى:
-هوه قصده مخازن سيدنا يوسف مش سيدنا يوسف نفسه.

وأكتفيت مؤقتًا بهذا التفسير إذ لا يعقل أن عزيز مصر وزوجته الفاتنة وجواريها الجميلات عشن فى هذا المكان الموحش.
استأذنت أبى فى الذهاب أنا وسمير ورأفت فوافق.. نظر رئيس عمال الدريسة إلى محمود الخفير وقال:
-بكرة تجيب حمارك، وأنا هجيب حمارى، وهخلى عامل دريسة يطلع معاهم بحماره. وحمارى وحمارك هيركبوهم البهوات.
وأسرعت أخبر البهوات سمير ورأفت أن يستعدا.
فى الصباح الباكر كان عامل الدريسة يطرق الباب، ومعه صف من ثلاثة خمير فى الحديقة الخربة. عاونا الرجال على ركوب الحمير. كنت فى المقدمة وخلفى سمير ورأفت معاً على حمار آخر. وأخذ مدحت يودعنا بالبكاء. أما إدوارد فقد نظر إلينا كالمعتاد بتعال، وكأنه يقول موكب حمير. قال عامل الدريسة وهو يتقدمنا ويستحثنا:
-يلله بينا قبل الدنيا ما تحرر علينا.
وانطلقنا فوق مدق يسير إلى جوار شريط السكة الحديدية وفى محاذاته. أمسك الخوف بثلاثتنا. تلك أول مرة نمتطى فيها حميرا، تشبثت بالجزء الأمامى من البردعة، وكذا فعل سمير وقد أحاطه رأفت بذارعيه قدر استطاعته. تنبه عامل الدريسة لحالنا فابطأ سير الحمير فهدأت الاهتزازات وعوامل النطر من فوق البرادع.
وصلنا وقد انهد منا الجبل، وقد أطبق علينا شعور بالغثيان. غير أن ما رأيناه بهرنا بحق.. سور هائل ضخم من الطوب اللبن عرضه حوالى ثلاثة أمتار. غربى الشريط الحديدى ممتداً حتى قرب النيل، وداخل السور كانت هنالك معابد.
قال عامل الدريسة:
-دى أثارات كفرى من أيام الفراعنه.
لم أفهم معنى كفرى، أعتقدت فى بادىء الأمر أنه اسم أحد الفراعنة، فرعون يعرفه هذا الرجل ولا نعرفه نحن. وربما كان كفرى هذا فرعون يوسف مثل فرعون موسى، غير أن عامل الدريسة أوضح:
-كفرى يبقو الكفار، ما الفراعنة كانو كفره.
ثم رفس بقدمه حجر معبد كان ملقى على الأرض. كانت هنالك قواعد

مبان قديمة بها تقسيمات واضحة لحجرات وقاعات وموضع أعمدة.
وقررت بينى وبين نفسى أن أسأل مدرس التاريخ عن حقيقة هذا المكان.
ويمر أسبوع وأكتب إلى عبد الله كامل

الرسالة العاشرة

عزيزى عبد الله
ألف تحية وسلام. كيف حالكِ والأسرة والأصدقاء جميعاً.
كان لقاءونا فى القاهرة رائعاً. وعلى العموم سوف يمر هذا العام سريعاً لنلتقى مرة أخرى فى القاهرة، لأعوام فى الجامعة.
ذهبنا الأسبوع الماضى فى رحلة راكبين الحمير. ووصلنا إلى مكان خرافى يقع جنوب المحاميد التى ربما لا يعرف بها الآن غير سكانها، وسكان بعض القرى المجاورة. إنها قرية تمسك بقدم الجبل كأنها تتوسل إليه أن يبقى عليها.
زرنا مدينة قديمة اسمها الآن «الكاب». اخترقنا سوراً هائلاً ما زال شامخاً لنجد فى داخله بقايا أبنية قديمة، ربما كانت معابد أثرية. وهنالك شرقى النيل مقابر قديمة منحوتة فى الجبل أخبرنا رئيس عمال الدريسة أن تلك هى مخازن غلال سيدنا يوسف وقت المجاعة، وأخبرنا عامل الدريسة الذى رافقنا أنها بقايا آثار الكفار، الذين هم الفراعنة.
لكنني حملت كل ما رأيت إلى أستاذ التاريخ فأخبرنى بأشياء مختلفة تماماً. هذا المكان الذى يدعى الآن الكاب، والذى هو خرائب، كان يوماً ما عاصمة مصر الجنوبية. تصور عاصمة مصرية، العاصمة السياسية شرقى النيل وأسمها «نخب»، وأمامها العاصمة الدينية غربى النيل وكان اسمها «نخن». هذا المكان عمره حوالى أربعة آلاف عام قبل الميلاد. وهنالك فى الجبل رسوم جرافيتية مبهرة لغزلان وحيوانات كانت تعيش فى تلك المنطقة، فى فترة ما قبل التاريخ، فى مرحلة الصيد والرعى.
والمقابر التى توجد فى الجبل على ارتفاع حوالى مائتى متراً من الأرض، تعود إلى الأسرة الثامنة عشر (حوالى 1800 عاماً قبل الميلاد) وبها مقبرة أحمس ابن «أبانا» قائد الأسطول البحرى أيام أحمس، طارد الهكسوس، والمسجلة قصة انتصاره فوق جدران المقبرة.

أما المعابد الموجودة داخل السور فبعضها مصرى قديم، والبعض الآخر بطلمى أى أيام حكم اليونان (البطالسة).
وكانت منطقة الكاب تلك إحدى منطقتين يستخرج منهما النطرون الذى يستخدم فى عمليات التحنيط. كما كان لها أهمية خاصة إذ هى مدخل بعثات الذهب إلى مناجم البرامية من أقاليم الجنوب. لكن المكان لم يكن بأى حال من الأحوال مخازن يوسف. هذا المكان القفر الفقر الموحش الذى يقتتل سكانه الآن من أجل الحصول على كسرة عطنة أو ثمالة زيت أو قطعة بطانية، كان يوماً عاصمة مصرية وبوابة للذهب.
هل تتصور يا عبد الله كيف يدور الزمان ليصبح المكان غير المكان والإنسان غير الإنسان. ما كان من مجد غدا آثاراً. أجدادنا العظام بنوا حضارة عظيمة فى زمن كان فيه من يتسيدوننا الان سكان جبال وكهوف. إن هؤلاء الذين جاءوا إلينا غزاة بعد زمن مصر الفرعونية قد عملوا، على التوالى، ألا تقوم لمصر قائمة. كانت مصر أعظم دولة فى زمانها، وهى اليوم واحدة من أتعس بلدان العالم. لقد ترك لنا أجدادانا مجداً فأهدرناه، وتفوقا فأضعناه، وحضارة فلم نكمل خطاها رقياً وازدهاراً. هل يمكن أن نعيد تلك الأمجاد مرة أخرى؟ إن مدرس التاريخ يقول إن ما حدث فى الماضى قد مضى.التاريخ لا يعود إلى الوراء أبداً. إنه أشبه بماء النهر جارى على الدوام. وما يمر الآن أمامك لن تراه على ذات الصورة مرة أخرى.. وكذا التاريخ متصل متلاحق، لكنه متغير مع متغيرات الظروف والأحوال. إننا لن نستعيد الماضى، لكن علينا أن نعمل لنغير الحاضر تمهيداً لبناء مستقبل أفضل.

سلامى لكل الأصدقاء ودمت,,

المخلص

فخرى لبيب

* * * *

الرد على الرسالة العاشرة

الأخ العزيز فخرى

تحياتى إليك وإلى الأسرة الكريمة.

كان لقاؤنا فى القاهرة هاماً وحاسماً بالنسبة لى، لكنه فجر مع أصدقائنا حوارات عنيفة. أنت تعرف أن الناس هنا لا يميلون إلى العنف. إنهم

يبحثون عن الستر ويؤمنوا إيماناً بلا حدود بالقضاء والقدر وأن كل شيء مرسومٍ ومقسوم. المسألة أصعب بكثير مما كنت أتصوره. أن نقرأ روايات معاً، فهذا شيء طيب، لكن أن نقوم معاً بتغيير العالم فإنهم يرون أن لهذا الكون صاحب هو الأمر الناهى فيه. لكنهم جميعاً ضد الإنجليز. إنهم يرون أننا قد ذهبنا إلى البحر الغميق، وهم يخشون الغرق. غير أنى سأحاول معهم مرات ومرات فقد كنت مثلهم منذ شهور قليلة مضت.

زيارتكم لنخب ونخن مذهلة. بلد وجد قبل أربعة آلاف عام. مسألة تشعر الإنسان بالدوار. كيف تحولنا فعلاً من أعظم دولة إلى ما نحن فيه الآن؟ إنك تستثيرنى كى أقوم بدراسة عميقة متأنية لتاريخنا. لابد أن نفهم الأسباب التى قادتنا من ذلك الماضى إلى هذا الحاضر.

سلام للجميع

المخلص

عبد الله كامل

* * * *

الرسالة الحادية عشر

عزيزى عبد الله

تحياتى لك وللأسرة الكريمة ولكل الأصدقاء.

وصلتنى رسالتك ولم أندهش كثيراً لموقف الأصدقاء، فالإنسان أبن بيئته بحق كيف نود من هؤلاء أن يغيروا ما حولهم إذا كانوا عاجزين عن تغيير أنفسهم؟ الزمن فى الريف بطىء ممتهل، الزرع فى الغيط والغيط فى مكانه. البهيمة فى الزريبة، والزريبة فى مكانها، الحرمة وأولادها فى العشة. والعشة فى مكانها. والعمدة فى الدوار، والدوار فى مكانه. هو عالم أقرب للثوابت. وتلك مشكلة حقيقية. والمتعلمون فى القرية أبناء الناس القادرين، أفندية المستقبل. يعاملون باحترام وتوفير، وهم سوف يرثون أرض آبائهم ويفجرون ببنات الفلاحين، وكل شىء قسمة ونصيب. وهذا النهج لهم لا عليهم، فلماذا يخوضون فى العميق أو ضد التيار؟ آمل أن تجد من يمتلك فى الأساس مشاعر إنسانية ويحس بآلام الغير.

سأحدثك فى هذا الخطاب عن رحلة أخرى ذهبت فيها أنا وسمير ورأفت

إلى غربى النيل. ركبنا نفس الحمير، ومعنا نفس عامل الدريسة إلى قبالة الكاب على الضفة الشرقية. كانت مياه النهر تتدفع وكأنها فى عجلة من أمرها. الصيادون الذين كانوا قابعين فى مراكبهم ضحكوا منا:
-إيه يا بهوات خايفين من الميه؟
يبدو أن الخوف كان بادياً علينا.
وكان لابد لنا وأن نرد الإهانة، فالمفروض ألا نخاف. نحن ذكور ولذا نحن رجال. نحن من الصعيد. وليس منتظراً أن يخاف الذكر الصعيدى.
قلت فى تحدى:
-لأ، احنا ما بنخافش.
تدخل عامل الدريسة غاضباً:
-إيه يا محمدين، دول ولاد البيه ناظر المحطه.
ورد محمدين منفعلا:
-يا سيدى وناقلت حاجه، أنا عايز أطمنهم بس، وعشان ما تكنوش زعلانين أنا اللى هوديكم. يله على بركة الله.
ونظرنا إلى عامل الدريسة فشجعنا على أن نتقدم إلى القارب. كان يتمايل وهو على الشاطىء. قلت لنفسى، كيف سيكون الحال إذن فى وسط البحرخطوت إلى القارب وأنا اتظاهر بالتماسك، وللحق فإننى كنت خائفاً. التظاهر بالشجاعة أشد إرهاقاً من الخوف. نظرت إلى سمير ورأفت، كان رأفت يمسك بسمير، وسمير يمسك بالقارب.. وبدأ القارب سباحته فى يسر وسهولة. كان يتهادى وكأنه يعرف طريقه. وكأن بينه وبين موج الماء لغة هامسة حانية فيها الإنسياب والمداعبة.
كان الهواء فى وسط النهر جميلاً. بدأ الخوف ينقشع بطيئاً حتى تلاشى. رسا القارب على الضفة الغربية فسندنا عامل الدريسة حتى تقفز إلى البر. شكرنا صاحب القارب فابتسم وكأنه يعتذر:
-أوعو تكونو زعلتو منى. أنا كنت بضحك معاكو.
أكدنا شكرنا وعدم «زعلنا» البتة. توجه إلى عامل الدريسة مستفسراً:
-هتعوجو فى الزيارة دى؟
قال عامل الدريسة مؤكداً:
-ساعه، ساعه ونص بالكتير جوى.

قال المراكبى مبتسماَ:
-بالسلامه، أنا هستناكو. هاخد تعسيله كده لغايه ما تاجو.
انطلقنا نجتاز الجزء الطينى من الشاطىء، إلى حيث الطريق الترابى الملىء بآثار أقدام البشر وحيواناتهم. كنا نتجه إلى قرية المواساة.
بلغنا حديقة العنب. إنها تكاد تكون غيطاً من الكروم. رحب بنا الخفراء ترحيباً حاراً كانوا يعرفون عامل الدريسة. دخلنا أسفل تكعيبة عنب غطتنا كسقف من فروع متشابكة وأوراقٍ خضراء زاهية أو صفراء فى طريقها للذبول والسقوط لتشكل بساطاً هينا لينا تحت أقدامنا عناقيد العنب تتدلى يتخللها الضوءِ المتسلل أو ينعكس عليها فبتدو مضيئة براقة سمينة، تزيح بعضاً من عتمة ما تحت التكعيبة.
اقتربنا من «مشنات» العنب وأقفاصه، وأعداد من الصبية والصبايا، قادمين من أطراف الحديقة، ورجال يرصدون العناقيد فى عناية شديدة وحنان وحدب.
قال عامل الدريسة:
-سلامو عليكو.
ورد الجميع مثل عاصفة:
-وعليكو السلام ورحمة الله وبركاته. اتفضلو.
جلسنا ووضعوا أمام كل منا كومة عنب. أخذنا نأكل، لكننا لم نأكل كثيراً. حلاوة العنب «كالشهد المصفى».
قال رأفت:
-ياه دا عنب حلو قوى.
وضحك الفلاحون، وضحكت الصبايا فى عبهن وقال الجميع فى نفس واحد:
-أصله شارب من مية الفيضان.
شبعنا سريعاً. وقررت أن نشترى عنباً لباقى العائلة. همست بذلك لعامل الدريسة وسألته عن الثمن. قال:
-مش هيرضو ياخدو فلوس.
قلت فى حسم:
-لو مخدوش فلوس مش هشترى عنب.

صمت قليلاَ ثم سأل:
-أنت عاوز قد إيه؟
قلت:
-تلات وقات.
-هنا مش بيبيعو بالوقه، بيبيعوا بالجله.
-والجله دى قد إيه؟
-الواحده سبع ترطال.
-ماشى نشترى جلة
ذهب عامل الدريسة إلى الخفراء وعادوا معاً وهو يحمل قفصاً من العنب.
قلت للخفير قبل أن تتحرك:
-والفلوس؟
قال هامساً:
-دفعتها. بعدين نتحاسب.
شكرنا الجميع كثيراً وقلنا ونحن نغادر:
-سلامو عليكو.
ورد الجميع مثل عاصفة:
-وعليكو السلام ورحمة الله وبركاته. مع السلامه.
انطلقنا إلى القارب. ايقظنا المراكبى الذى كان ما يزال نائماً. قال:
-إنشا الله تكونوا انبسطتم؟
قلنا:
-الحمد لله. كانت فسحه هايله.
وقال رأفت فى حماس شديد:
-والعنب كان زى العسل.
قدمنا له قطف عنب فرفض شاكراً. قال أنه يأكل منه طوال اليوم.
تهادى القارب. كان الوقت ظهراً. طرأ فى رأسى سؤال، هل ينام النهر ساعة القيلولة؟ حاولت أن أشرب جرعة ماء، فمن يشرب من النهر وهو نائم، يصبح ممسوساً فى قوة شمشون. ملأت كفى وشربت ماء زلالا عذباً شهياً، ذلك الطعم الذى أكسب العنب حلاوته. غير أن شيئاً لم

يحدث. لم أصبح ممسوساً ولا شمشونا. ما زلت كما أنا. ربما لم يكن النهر نائماً، وكنت أنا ذلك النائم أو الحالم أو المتخيل أو المتوهم.
بلغنا البر الشرقى وشكرنا المراكبى جزيل الشكر. وصلنا المحاميد فسألت عامل الدريسة عما دفعه من نقود ثمناً للعنب فضحك وقال:
-ما أنا قلت لك مش هيرضو ياخدو فلوس.
غضبت بشدة. فسمع والدى فتساءل ما الأمر، فقال عامل الدريسة:
-يا بيه معقول حد يجى يزورك، قوم يقدم لك هديه فتدفع له ثمنها. يا بيه دول فصين عنب. دا حق الزيارة يا بيه.
وهز أبى رأسه تفهما فلزمت الصمت. شكرنا الرجل وأسرعنا بقفص العنب إلى المنزل.
إيه رأيك فى الحكاية دى؟

ودمت.
للمخلص
فخرى لبيب
*** * * ***

الرد على الرسالة الحادية عشر

الأخ العزيز فخرى
سلامى لك وللأسرة. آمل أن تكونوا جميعاً بخير.
خطاباك الأخيران كانا عجيبين. أنت الآن عاشق للطبيعة والتاريخ،الجبل والنهر، والأرض والآثار القديمة، المعابد والمقابر والرسوم على جدران الكهوف.
قرأت خطابك الأخير على الأصدقاء، فغضب البعض منهم لأنك تراهم عاجزين عن تغيير أنفسهم أو فعل أى شىء غير وراثة أهلهم والفجر ببنات الفلاحين. لكننى قلت لهم أنهم يستحقون ذلك.
إيه حكاية العنب اللى عندكوا دا، وعاملى بيه حكايه، ما احنا عندنا أجدع عنب. العنب الفيومى وبيشرب من مية الفيضان بتاعة بحر يوسف برضه. وبعدين حكاية العنب أبو بلاش، ما أنت ياما أكلت بطيخ ببلاش فى الغيطان عندنا، ولو رحت جنينة عنب عندنا كنت هتاكل ببلاش برضه، ويدولك شويه وأنت ماشى. انتو أصلكو أفندية وعاملينلى مغامرات بركوب الحمير. الفلاحين يا أبو لبيب فقرًا وكرمًا ودى بقة

الفصل العاشر

التوجيهية

الإجازة الصيفية أوشكت على الانتهاء. نحن نقضى الأيام الباقية فى القراءة أو الذهاب إلى شاطىء النهر نجلس قربه، نرقبه، أو نغمس فيه أقدامنا، نغسلها، نرطبها. هنالك صيادون يلقون بشباكهم وهم واقفون فى قلب الماء. إلقاء الشبكة فى النهر عملية فنية جميلة. يبدو الصياد وكأنه يهم بالرقص، يطوح بالشبكة وقد أمسك بطرفها بقوة، فتنفرد فى دائرة تهبط فى رشاقة فوق سطح الماء الذى يتناثر رذاذه، فيتحلل فى ضوء الشمس إلى ألف لون ولون. وعندما يتيقن أنها قد أدت مهمتها يبدأ فى سحبها تدريجياً متوخياً الحذر إذ قد تمسك بعض خيوطها بشىء أو آخر يمزقها، وهو ينطرها ما بين الحين والحين حتى لا يعلق بها شىء. ثم يخرجها ويحملها إلى الشاطىء، يفرز ما أمسكت، أحجاراً، نباتات يلقى بها بعيداً. وأسماكاً يضعها فى «مشنة» مغطاة بغطاء يتموج برعشات الأسماك الأخيرة. ربما تكون مشنة أحد هؤلاء من نصيبينا، إذ أن أبى، ونحن وراثة عنه، نحب أكل السمك حبا لا حد له. الصياد الذى إلى جوارنا رزقه الله بكمية كبيرة من أسماك الشلبة، وقليلة من الشيلان. إنه يضع الأسماك فى «الخوصة»، نبات أشبه «بالحلفا»، يفركه الصياد ليكون أقل حدة، ثم يمرره من «النخشوش» إلى فتحة الفم ويعقده، وبذا تأخذ الأسماك الجديدة موضعها فى «الرصة» إلى جوار سابقاتها فى «المشنة». الشلبة جميلة، جميلة، وهى مقلية ذهبية «تشر» دسماً، أما الشيلان فالأفضل أن تكون براماً «بالدمعة» أو الفريك. «الصنمة» التى تقبع فوذ ذيل السمكة سمينة حلوة «مثل «ليّة» الخروف.

عدنا إلى البيت لتستقبلنا رائحة السمك وتهليل مدحت. يبدو أن أبى قد اصطاد صياداً «بمشنته». كان السمك من نوع «البساريا»، وقد تشابكت كل خمس منها، من ذيولها، فغدت أشبه بكف اليد. وصحنا جميعاً «بساريا»، وأخذنا نتخاطف البعض منها، وأمنا تصرخ فينا أن ننتظر حتى نتغدى جميعاً معاً. لكن من منا يستطيع رؤية تلك الكومة من الأسماك المقلية الساخنة ويكتفى «بالشمشمة» مثل الكلاب أو القطط. كانت البساريا «الصوابع» طرية فى الوسط مقددة «مقرمشة» فى

الرأس والذيل، والكل غاية فى اللذة. يبدو أن كل ما يجىء من النهر أو يرتوى منه، ماء، سمكاً، عنبًا يكون لذيذاً، فى طعم الشهد.
بعد الغداء ذكرنا أبى باقتراب دخول المدارس، وأهمية أن نعثر على سكن مناسب. كان لنا بعض زملائنا يقيمون فى منزل كبير إلى جوار المدرسة. وكنا قد تركنا عفشنا، السرسر والمنضدة والكراسى العنجريب والمرتبة، عند صاحب البيت الذى كنا نسكنه، فى مقابل إيجار زهيد.
وكان كل ما أحضرناه معنا إلى المحاميد، وعلينا أن نعيد أخذه، هو وابور الجاز واللمبة نمرة عشرة وحلة وطاسة وأطباق ومعالق أربعة، وسكينة لزوم التقطيع.
أخذت، أنا وسمير، أول قطار إلى أسوان، فى صباح اليوم التالى، وقد زودنا أبى ببعض المال. توجهنا مباشرة إلى هذا المنزل الكبير الذى كان يسكن فيه بعضاً من زملائنا فى العام الماضى. وجدنا الحجرة التى على «رأس السلم»، فى أول دور فوق الأرضى، خالية، فاستجرناها.
قمت أنا وسمير على الفور بكنسها ومسحها. أخذنا من الجيران مكنسة و»خيشة» وجردل ماء، وأدينا اللازم. كانت الحجرة واسعة ودورة المياه مشتركة. هنالك صف من الحجرات يدور حول فراغ فى قلب الدار، له درابزين كمنور هائل. حجرتنا لا تطل على طرقة هذا المنور، لكنها تطل من الداخل على السلم، ومن الخارج على الشارع عن طريق نافذة واحدة. تساءلت السيدة التى أعطتنا المكنسة والخيشة والجردل، إن كنا سوف نسكن هنا، وعندما أجبنا بالإيجاب مصمصت شفتيها وهى تبتسم قائلة:
-والله ناصحين.
كنت قد فتحت النافذة حتى نستطيع إنارة الحجرة ونحن نقوم بتنظيفها. وبينما أغلقها كى نغادر، رأيت فى المنزل الذى أمامنا، فى الدور الذى يوازينا، فى النافذة التى تواجهنا مباشرة، فتاة لها عينان، لا أدرى ما بهما. شدانى أبحلق فيهما. تصلبت يداى فتوقفت ضرفة الشباك على مصراعيهما. أغلقت الفتاة التى أمامى نافذتها فى هدوء. أختفت من أمامى وغدت نافذتها جزءًا من الجدار. يبدو أن سمير لاحظ شيئاً فستاءل:

-فيه إيه يا فخرى؟
قلت وأنا أغلق نافذتنا:
-فيه إيه فى إيه؟
بدا سمير مندهشاً، وغادرنا الحجرة.
ذهبنا إلى حيث «نخزن «عفشنا». أحضرنا عربة كارو حملناها بأمتعتنا بعد أن شكرنا من كانت لديهم. ركبنا إلى جوار العربجى لندله على الطريق ونفلت من الجرى وراء العربة. ما أن وصلنا حتى أسرعت إلى أعلى أفتح الباب والشباك. كانت تقف فى نافذتها. ما أن رأتنى حتى أغلقتها. يبدو أن هذا سوف يكون بروتوكول التعامل فيما بيننا، تفتح هى فنغلق نحن، ونفتح نحن فتغلق هى.
أفقت على العربجى داخل الحجرة حاملاً السرير، وخلفه سمير يحمل كرسياً. أشرت إلى حيث يجب أن يضعه. هبطت السلالم لنحمل معاً ما تبقى من عفش، والذى لم يعد يكفينا الآن. كنا فى حاجة إلى سرير آخر صغير ومرتبة أخرى صغيرة وملاءات ووسائد، وبالضرورة بطاطين أو لحاف.
أتخذنا سمتنا إلى المحطة عودة إلى المحاميد. أحسسنا بالراحة تماماً ونحن فى القطار. قال سمير وهو يتنهد:
-الحمد لله. ربنا كان معانا ع الآخر السنه دى.
قلت وأنا أتذكر أوائل العام الذى انقضى.
- آى والله، ربنا ما يعودها أيام. من استراحة المسافرين لاستراحة العطشجية والسواقين.
وعلق سمير:
-بس الناس كانو طيبين.
-صحيح الناس كانو طيبين، بس أحنا اللى وضعنا ما كنش طيب.
وصلنا المحاميد. كانوا فى انتظارنا على أحر من الجمر. أخبرناهم بما حدث، فعم الجميع ارتياح شديد، صاح أبى سعيداً:
-برافو يا ولاد جدعان بصحيح.
-جدعان عشان ولادك. عشان تقول إنك خلفت بحق وحقيق.
وتساءلت أمى فى عتاب:

-ويعنى أنا ماليش حاجة.
وصاح سمير:
-دنت الخير والبركة يا ماما.
وأكملت أشاغبها:
-يعنى يا أمى هوه كان هيخلف لوحده، البركة فيكو أنتو الاثنين.
وافق أبى أن نأخذ معنا الكنبة التى أنام عليها هنا بمرتبتها ووسادتيها الصغيرتين. سوف تسافر كل تلك الأشياء معنا فى ذات القطار الذى نسافر فيه إلى أسوان، حتى نتسلمها فور وصولنا.
اليوم الجمعة، وغدا السبت تفتح المدارس أبوابها. إدوارد سيتوجه إلى القاهرة، وأنا وسمير ورأفت ومدحت إلى أسوان. كانت أمى تبدو حائرة. تعد لنا أشياءنا فى حنان بالغ والدموع تنثال من عينيها. ألتففنا حولها.
-إيه يا ماما، فيه إيه؟
نظرت إلينا تتأملنا وكأننا ذاهبين إلى ميادين القتال. مسحت دموعها ولملمت صوتها المتهدج
-البيت هيفضه عليّا، هتسيبونى لوحديا.
وقلت لها أمازحها:
-أولاً احنا هنيجى الخميس الجاى، وإدوارد هيجيلك كل شهر. وثانياً، احنا مش سايبينك لوحدك. احنا سايبينك ومعاكى أخونا اللى فى بطنك. وثالثاً، معاكى بابا اللى هوه الكل فى الكل.
ولم تجب. أخذت تربت على رؤوسنا وكأنها تتيقن من وجودنا. دق الباب بشدة، أسرع مدحت إليه وعاد.
-الغفير والفراش عاوزين الحاجات اللى مسافرة معانا.
وأخذت أمى فى احتضاننا وتوصيتنا على بعضنا البعض وعلى المذاكرة، وخاصة أنا من أجل مجموع يدخلنى كلية محترمة.
-أنتو شايفين أد إيه احنا شاقيانين عشان تتعلمو.
ونحن نؤكد لها أننا سوف نذاكر ونجتهد ونصبح «أجدع ولاد».
حمل الخفير والفراش الكنبة ومحلقاتها، وسبت به عدة المطبخ، وسبت أخر صغير به أكل يكفينا اليوم وغداً. و»قفة» «فومتها» أمى بعناية حتى لا يسقط شىء منها، بها مؤونتنا الأسبوعية من الخبز الشمسى

الطرى والمحمص «وقراقيش الفايش».
خرجنا من المنزل ومعنا إدوارد. وقفت أمى وحيدة تلوح لنا على عتبة الباب. وامتد بيننا وبينها ذلك الفراغ المهجور حول المنزل. وارتفع نباح كلب يلاحقنا حتى جاء القطار. ربت أبى على مدحت وهو يحمله ليضعه فى عربة القطار، وهو يوصى أخوتى أن يسمعوا كلامى، ويوصى الكمسارى أن يأخذ باله منا.
وقفنا فى شباكى الديوان نلوح للجميع حتى تلاشت محطة المحاميد فجلسنا صامتين.
بدأ الدموع «تسح» من عينى مدحت. كان صغيراً للغاية على تلك الغربة. كان يقف وقد ضغط وجهه إلى زجاج النافذة يطل على الفراغ الأصفر الممتد أمامه. أشرت لرأفت أن يهتمٍ به، فأجلسه وجلس إلى جواره، وتظاهرات وسمير أننا لا نرى شيئاً. قال له رأفت:
-احنا هنعيط من أولها.
فرد فى غضب طفولى:
-أنا مش بعيط.
-احنا مش اتفقنا إنك راجل.
-أيوه راجل.
أخرج رأفت منديله وأعطاه له.
-طيب خد أمسح اللى فى وشك دا. أحسن أحنا وصلنا إدفو، وهيركب معانا ناس دلوقت هيضحكو علينا.
وأسرع مدحت يمسح عينيه.
من إدفو وكوم امبو ودراو تقاطر أبناء موظفى السكة الحديدية والتليفونات والتلغراف والبريد وأمناء المخازن، وأبناء العاملين بشركة السكر والعاملين بمراكز البوليس. وامتلأت طرقة العربة بالمقاطف والأسبتة واللفات المربوطة بالحبال والوجوه التى نعرفها ووجوه جديدة لا نعرفها. وعندما عبر القطار أبو الريش بحرى وأبو الريش قبلى، وأصبحنا على بعد دقائق من أسوان هاص القطار وزاط. واقترح الأولاد الذين يسكنون معنا فى ذات البيت أن نأخذ عربة مشتركة، فأخبرناهم أن معنا عفشاً وأشياء أخرى، ولذا ربما نتأخر فى المحطة، وقد نحتاج إلى

عربة بمفردنا.
عندما رأى الكمسارى الأولاد يقفزون كالقردة صاح يحذرهم من فتح الباب قبل وقوف القطار، الذى ما أن هدأ من سرعته حتى بدأ القفز من الشبابيك. قلت لأخوتى أننا لسنا فى عجلة من أمرنا. وأمامنا وقت لاستلام امتعتنا.
أحضرنا عربة وقام العربجى برص حاجياتنا بعناية، وأعد لنا مكاناً نجلس فيه نحن الأربعة داخل الكنبة مقلوبة، فبدونا وكأننا جزء من العفش. عندما دخلنا أول الشارع الذى به منزلنا نزلت أنا وسمير إذ لا يليق بطالبى ثانوى وأحدهما على «وش جامعة» أن يمتطيا عربة كارو خاصة إذا كانت جارتنا فى النافذة، وقد كانت هنالك بالفعل عشرات الأعين تتفرج علينا. أسرعت اتسلق السلم لأفتح الباب. لحق بى سمير ورأفت ومدحت، وكل منهم يحمل ما استطاع. ما أن دخل رأفت الحجرة حتى صاح مندهشاً:
-عفشنا!
وقهقهنا جميعاً ضاحكين. فتحت النافذة ليدخل النور، فأغلقت النافذة التى أمامنا. كان العربجى يحمل الكنبة ويقف بالباب يقول:
-يا ساتر.
قلت له:
-ادخل يا عم مفيش حد.
فرشنا الحجرة وقد قسمناها إلى جزء للنوم وجزء للمذاكرة ومطبخ. بدت رائعة. بدا أننا فى حاجة إلى منضدة جريد نستخدمها سفرة أكل ومكتب إضافى. نزل سمير ورأفت لشراء الجاز لوابور الجاز ولمبة الجاز وشراء «سبرتو أحمر» والمنضدة العنجريب. بقيت أنا ومدحت.
بدا ساهماً سارحاً سألته:
-أنت جعان؟
قال فى خجل:
-أيوه جعان.
قلت أطمئنه:
-أول ما يجى سمير ورأفت هنتغدى. وعلى فكره هانزل بعد الضهر

بالزراير. وبدا مدحت «مكلبظاَ» سعيداً فى ردائه العجيب هذا، الأقرب إلى رداء المهرج.
كان الطقس خريفياً أميل إلى الدفء. الأقدام تهرول خارج باب غرفتنا. سرنا جميعاً إلى مدرسة مدحت حيث سلمناه على البوابة، وأوصيناه ألا يغادر حتى يجيئه رأفت ليأخذه ثم افترقنا رأفت إلى مدرسته الابتدائية، وأنا وسمير إلى المدرسة الثانوية.
التلاميذ والتلميذات وهم يملأون الشوارع يضفون عليها حيوية فائقة وحياة زاخرة، يتنادون، يتسابقومن ويمسكون فى خناق بعضهم البعض. الجميع فى المدرسة يلتقون بالأحضان والأشواق الحميمة. والجو يعبق بالأسئلة عما فعل كل منا فى تلك الإجازة الطويلة.
دخلت شعبة العلوم رغم ميولى الأدبية. كانت فرصة طلبة شعبة العلوم أوسع فى الالتحاق بكليات متعددة من طلبة شعبة الآداب.
التقيت بألفونس عزيز. هو أكثر من ارتبطت بهم العام الماضى. كنا نتناقش دوماً فيزداد اقترابنا من بعضنا البعض. قلت له يجب أن نلتقى فى منزله أو فى حجرتنا، إذ لدى الكثير أود أن أقضى به إليه عن زيارتى للقاهرة ولقاءاتى بأناس من الجامعة، وبعبد الله كامل. وكان يعرف مدى صداقتى به.

* * * *

ألفونس عزيز يكره الاستعمار. يفيض حماساً وهو يتحدث عن ضرورة طرده وتحقيق الاستقلال. جاء إلى حجرتى كما اتفقنا أخبرته بما دار من حوار بينى وبين خالى الأصغر وزملائه أثناء وجودى فى القاهرة. هز رأسه بعاطفته الجياشة.
-يعنى فيه ناس زينا كده، فى حتت كثيره من البلد.
أكدت:
-بالطبع
ثم تداركت:
-بس مش فى كل حته.
أخبرته بحديثى مع عبد الله كامل عندما جاء لزيارتى فى القاهرة، وخطابه إلىّ بعد عودتى، ورد فعل الأصدقاء فى العدوة.
امتعض بعض الشىء، غير أن تفاؤله طغى عليه.

هز رأسه مشجعاَ:
-عظيم، عاوزين إيه يعنى؟
قلت فى سرعة شديدة:
-عاوزين ثوره اشتراكيه.
بدا وكأنه لم يسمعنى جيداً.
-بنقول ثورة إيه؟
قلت فى سرعة ابطأ من السابقة:
-ثوره اشتراكية.
برقت عيناه.
-ثوره اشتراكيه حته واحده!
أكملت وقد بدأت امتلك زمام نفسى:
-وهمه بيقولوٍ ع الثوره الفرنسيه، ثوره بورجوازيه.
قهقهة ضاحكاً.
-الله أكبر. وبتوع مصر دول من أنهى كليه؟
قلت مؤكداً:
-كلية العلوم
هز رأسه كمن أدرك.
-الكليه الحمرا.
وفوجئت بالكلمة:
-حمرا يعنى إيه يا أستاذ؟
-يعنى شيوعيه.
-وشيوعيه دى يعنى إيه يا أستاذ؟
بدا كمن غاص فى شىء وأفاق.
-كفياكم الاشتراكيه دلوقت. بلاش الشيوعيه دى.
تساءلت وأنا أتفادى المزيد من الارتباك:
-يعنى فيه ثوره حصلت، اسمها الثوره الاشتراكيه؟
-أيوه حصلت فى أوائل القرن دا اللى احنا فيه، حصلت فى روسيا اللى اسمها دلوقت الاتحاد السوفيتى.
ووجدت نفسى أصعد أكثر بالمناقشة لعلى أفهم أكثر.

-ودى اللى فيها بقه ديكتاتورية البروليتاريا؟
وعبرت وجهه، فى سرعة فائقة، لمحة، لم أدرى كنهها. قال فيما يشبه الهمس:
-وهمه بتوع مصر وصلو معاك لغاية ديكتاتورية البروليتاريا دى؟
-همه قالو إنها حكم العمال والفلاحين.
-ولما انت عرفت دا كله بتسألنى ليه؟
-أنا سمعت، لكن ما فهمتش. واحنا قلنا حضرتك تقدر تفهمو لنا.
وأسرع ألفونس يدعم موقفى:
-وأنا كمان سمعت من فخرى ومش فاهم.
ابتسم وهو يهز رأسه.
-عاوزين تفهموا إيه؟
-يعنى إيه اشتراكيه؟
اعتدل فى جلسته.
-الاشتراكيه معناها أن كل اللى شقيانين زى العمال والفلاحين ياخدو حقهم. تكون فيه عداله اجتماعية. مالكين الأرض والمصانع همه أصحاب السلطه وعشان كده همه بيستفردو بخيرات البلد. لكن العمال والفلاحين مش هياخدو حقوقهم غير لوخدو السلطه منهم، ودى اللى اسمها ديكتاتورية البروليتاريا، يعنى حكومة الفقرا.
وقلت فى حماس شديد:
-يعنى دا نظام ضد الظلم؟
قال مؤكداً:
-طبعاً ضد الظلم والظلمه، ضد الاستغلال والاحتلال.
سألته متردداً:
-طيب ليه حضرتك مدرستناش الحاجات دى؟
قال مباشرة:
-لأنها مش مقرره عليكو. وأنا مش عاوز أثقل عليكو، وأديكو الحمد لله وصلتو لوحديكو.
ثم توقف ينظر إلينا بإشفاق.
-بس خدو بالكو، ما تتكلموش مع أى حد فى الحكايه دى. إذا اتكلمتم مع

حد لازم تكونو بتثقو فيه قوى.
وشكرناه كثيراً ونحن سعداء غاية السعادة. إننا نمتلك الآن سر الثورة التى ستغير الكون. سر الثورة التى تقضى على الظلم والاحتلال. إنها نفس ما كنا نفكر فيه، لكننا الآن عرفنا كلمة السر. أنها الاشتراكية.
قلت لألفونس بعد أن غادرنا حجرة المدرسين:
-إيه رأيك؟
قال فى حماسٍ:
-كويس طبعاً. بس يعنى حكاية الثوره الاشتراكيه يظهر إنها مشكله.
تساءلت مندهشاً:
-وإيه اللى خلاك تقول كده؟
-الراجل ميرابو مكنش خايف وهوه بيتكلم ع الثوره الفرنسيه، لما جه لحكاية الاشتراكيه كان بيتكلم بحساب. أنا متهىء لى إنه كان خايف شويه.
ودافعت عن الرجل بحماس:
-لا، أنا أعتقد إنه هو خايف علينا مش خايف على نفسه.
وهز ألفونس رأسه.
-والله كلامك معقول. بس معنى كده إن أحنا نخاف وألا إيه؟
قلت مؤكداً:
-أنا مش خايف، وأنت؟
قال مؤكداً:
-ولا أنا خايف كمان.
-يبقه هنكمل.
لكننا لم نكن ندرى كيف سنكمل غير أن مدرسى اللغة الإنجليزية، وهو إنجليزى الأصل، ومن رجال المخابرات، قدم لنا الحل.
كانت المدرسة قد وزعت علينا أعلام دول الحلفاء وصور رؤسائهم: روزفلت والعلم الأمريكى، تشرشل والعلم البريطانى، شاى كان شيك والعلم الصينى، وستالين وعلم الاتحاد
السوفيتى. كانت الحرب العالمية الثانية على أشدها وقد انقلبت الآية. بدأت قوات هتلر النازية الغازية فى التراجع غرباً، وآلاف الأسرى

يتساقطون فى أيدى القوات السوفيتية، وبطولات خارقة فى ستا لينجراد ولينجراد وسباستبول، والمدن السوفيتية تقاوم من منزل إلى آخر. وكل ذلك يبهرنا، ويطرح أمامنا نموذجاً جديداً لمقاومة المحتل. وغدت الانتصارات السوفيتية تجلجل مثل نواقيس الأفراح بأن دولة النازية إلى زوال، وتلك بشرى بأن دولة الظلم البريطانية سـ يوم تزول فيه.

وربما أحس مدرس الإنجليزية، أو اشتم رجل المخابرات بأنفه المدربة، من تعليق هنا، وتعليق هنالك، ما يجيش في صدور الشباب من أحلام، فأخذ يهاجم الاتحاد السوفيتى، باعتباره بلداً معادياً للأديان والإسلام.

وفوجئت بأحد الطلبة يقف منفعلاً ويقاطعه.

-أحنا ما نعرفش الروس غير من الأخبار، لكن اللى نعرفه كويس إن اللى بيحارب المسلمين والمسيحيين فى بلدنا همه أنتو.

واندفع آخر:

-أنتو اللى محتلين بلدنا، وأنتو قتلتو شبابنا، وزعمائنا. انتو اللى حطيتو الفتنه بين المسلمين والمسيحيين، أنتم أصحاب سياسة فرق تسد.

ووقف ثالث:

-بصراحه احنا ما شفناش حاجة وحشة لا من الروس ولا من الألمان. إحنا شفناكو أنتو عارفينكو أنتو، وبصراحه مش عاوزينكو فى بلدنا.

وأحمر وجه الرجل حتى قفاه. بدا غاضباً يكاد يختنق. صرخ فينا لعل الصوت الصاخب يقنعنا:

-هل تحبون الأكل مع خدمكم، هذا ما يفعله الروس.

ووجدتنى أقف وأقول فى هدوء:

-الحقيقه أحنا ما عندناش خدامين.

وضج الفصل بالضحك. ولزم الصمت حتى انتهى الدرس. وكانت تلك بداية هامة لنا، أنا وألفونس. لقد اكتشفنا أننا لسنا وحدنا، وأن هنالك واحد وآخر وثالث. التقينا بعد الحصة نشد أيدى بعضنا البعض، ونتفق على أننا لن نترك هذا الرجل يقول ما يشاء.

غير أن تلك البداية لم تقف عند هذا الحد. لقد أصبحنا وألفونس خمسة. وسرعان ما تفاهمنا. أنطلقنا من الثورة الفرنسية إلى الثورة الاشتراكية.

الشعور بالحاجة وعدم الاستغناء.

* * * *

ينصحوننا دوماً، فى مدارس الأحد، بقراءة الإنجيل. طلب منا مدرسنا قراءة الإصحاح الخامس من إنجيل متى العدد 28-29. ما أن بدأت القراءة حتى أحسست وكأن ذلك المدرس كان يقرأ ما بداخلى. أحسست أن العالم حولى ينهار: «لقد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن، وأما أنا فأقول لكم، كل من نظر إلى أمرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه. فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك. لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم. وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فأقطعها وألقها عنك. لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك فى جهنم».

أصابنى الفزع والرعب. لم يقل أحد لى ما هو الزنا حتى لا أرتكبه. أنا اتبع الوصايا العشر والتزم بها. أنا أحب أبى وأمى ولا أسرق ولا أقتل ولم أزنى كما كنت أتصور. لكننى اليوم أدركت أننى ارتكبت الزنا بعينى وشفتى، وبكل أجزاء جسدى أو غالبيتها على الأقل، وأننى هالك هالك لا محالة. وأن كل جسدى لا بعضه ذاهب إلى الجحيم حيث العذاب الأبدى.

وسألت ألفونس المشورة فوجدته لا يكاد يعرف شيئاً فقررنا أن نسأل مدرس مدارس الأحد. كنا نود أن نعرف ما هو الزنا الذى حرمته علينا الوصايا العشر.

انزعج الشاب فى بداية الأمر، لكنه سرعان ما تماسك.

-وأنتو عاوزين تعرفو معنى الكلمه دى ليه؟

-عشان ما نعملش الزنا اللى حرمه ربنا.

بدا متردداً يخرج الكلمات فى صعوبة.

-الزنا هو مضاجعة الرجل لإمرأة غير زوجته.

وبدا الأمر أكثر تعقيداً مما كنا نتصور.

-يعنى إيه يضاجع؟

-يعنى يعمل علاقه جنسيه معها.

وأنثال فجأة مخزون ذاكرتى ووجدتنى أقول مندفعاً:

-يعنى لما الراجل يبرك على المره.

وكاد المدرس أن يقفز من كرسيه. وصرخ فىّ صائحاً:

-انت جبت الكلمة دى منين؟
ولم أستطع بالطبع أن أخبره. ويبدو أن فكرة ما برقت فى ذهنه.
-أوعى تكون...
وقلت مؤكداً:
-أبداً، ابداً.
وسألنا المدرس فجأة:
-أنتو بتتناولو ولا لأ؟
قلنا في حماس:
-طبعا بنتناول.
-وبتعترفو قبل المناولة ولا لأ؟
-طبعاً بنعترف.
ونظر غلينا متشككاً
-يعنى بتقولو لابونا على كل حاجه؟
نحن نعترف لا بينا القسيس بما نراه مدعاة للغفران كالشقاوة والشجار والكذب الأبيض والأسود. لكننى عن نفسى لم أعترف له بمسألة فتاة اللبلاب أو فتاة الكشك، فقد أعتبرتها مسألة لم تضر بأحد، وتمت برغبة الطرفين.
وانهينا المناقشة فى سرعة. وانطلقنا بعيداً، والشاب يتابعنا مذهولاً.
ووجدت ألفونس يهرول وراءى ويسأل:
-إيه حكاية يبرك دى؟
وقلت له وأنا أسابقه:
-دى كلمة سمعتها زمان، ومفهمتش معناها. انسى بقه.
وشغلنى هذا الحديث أياماً. لكن المسألة التى أثارت دهشتى أننى لم أرى طوال حياتى رجلاً قلع عينه حتى لا يدخل جهنم. ولم أرى واحدة قطعت ذارعها حتى لا يذهب كل جسدها إلى الجحيم. هل أنا وحدى الذى وقعت فى الخطيئة.
وبدأت أتساءل إذا كان الاشتهاء جرماً يحاسبنا الله عليه، فلماذا جعله واحداً من غرائزنا؟ لماذا يحاسبنا الله على ما زرعه فينا منذ خلقنا؟
ولعنت المدرس الذى فتح هذا الباب. لقد فتح أمامى هوة ساحقة، وايقظ

قلت وكأن الأمر لا يعنينى:
-يا سيدى واحنا ما لنا.
قال سمير معاتباً:
-يا فخرى أنا عارف كل حاجة، أنا مش مدحت ولا رافت.
قلت فى غضب ظاهرى:
-طب وبعدين يا سى سمير؟
-أبدًا بس أنا سمعت النهارده خبر مش كويس.
-خبر إيه دا إنشاء الله؟
-خبر بخصوص البنت بتاعتك دى.
فقلت فى غضب حقيقى:
-وبعيدن بقه؟
-لا بعدين ولا قبلين. استنى بس لما تسمعه.
قلت فى نفاذ صبر:
-قول.
-الولية اللى بتنضف الأوض جت بعد أنت ما نزلت، وقعدت كده مكانك، وشافتها من الشباك، قوم سملت عليها. فأنا سألتها، إنت تعرفيها؟ قالت، عز المعرفة. طبعاً أنا ملاحظ إنها لا بتروح مدرسه ولا حاجه، طول النهار فى الشباك. سألت الوليه، هيه مبتروحش مدرسه ليه؟ قالت لى، تروح مدرسة إزاى، دى خرسه وطرشه كمان.
ووجدتنى أصرخ:
-قالت لك إيه؟
-قالت لى دى خرسه وطرشه كمان.
وعدت أصرخ من جديد. أود أن اتأكد من صدق ما سمعت:
-مين الخرسه الطرشه دى؟
وهمس سمير:
-وطى صوتك، الدنيا ليل، وممكن يسمعونا. الخرسه والطرشه هيه البنت اللى بتقف فى الشباك اللى قدامنا.
-يا نهار أسود. أنت متأكد؟
قال سمير مؤكداً:

-أيوه متأكد. وأنا كنت سمعت كلام زى ده من الولاد اللى ساكنين هنا من السنه اللى فاتت، بس مهمنيش أسأل هيه ولا غيرها.

إعصار عصف بكل أحلامى. هل يُعقل أن يكون كل ما عشته وهماً، وما ظننته بهاء تناثر هباء. هل يمكن أن تكون تلك هى النهاية. وما أبشعها من نهاية أن يتحول الحب إلى إشفاق ورثاء.

ووجدت سمير يهزنى.

-إيه؟ فيه إيه؟ أنت توجيهيه السنه دى.

ونظرت إليه ملياً ثم قلت:

-تصبح على خير أنا عاوز أنام.

كنت أبغى الانفراد بنفسى، الملم شظاياها التى تبعثرت. أنا دائخ أترنح خير لى أن أتمدد. خلعت ملابسى واستلقيت. أوليت سمير ظهرى، أنظر إلى الحائط، إلى الطريق المسدود الذى ولجته ولا أدرى كيف الخروج منه. لابد أن أصل إلى قرار وإلا تهت وضعت. وتلك المسكينة هناك، ما مصيرها؟ وأدركت لماذا عيناها بهذا العمق والجمال. إنهما إبصارها وسمعها ولسانها أيضاً.

وأحسست بالألم يعصرنى. لا مستقبل لتلك العلاقة. العقل يتحرك يحاول كبح جماح القلب واندفاعاته.

وفى الظلام أصلى. أطلب من الله أن يرشدنى أن يأخذ بيدى، أن يقوينى، أن يحمينى من نفسى، وعندما وصلت إلى كلمة آمين كنت أسقط نائماً مع آذان الفجر.

فى الصباح أيقظتنى حركة أخوتى وهم يستعدون للذهاب إلى مدارسهم. أثقال من احتمال تجتم فوق صدرى، وأكداس من نعاس تثقل جفونى.

قلت لسمير وأنا أخرج كلمات متثاقلة كالتأتأة:

-أنا تعبان ومش رايح المدرسه النهارده، واتصرف.

خشى أن أكون متعباً، طمأنته. دفست رأسى تحت الأغطية فانصرف الجميع. لا أدرى إن كنت نمت أم لم أنم. لكننى على أى حال، وجدت نفسى مستيقظاً أنهض، أغادر السرير.

أنا الآن أفضل حالاً من الأمس قليلاً. عندما لمحتنى فى الحجرة فوجئت بوجودى وقت المدرسة. أومأت برأسها تحية الصباح. فأومأت لها وأنا

أغتصب ابتسامة كسيرة. أنا أطفح حزناَ عليها وعلى نفسى. ربما نادتنى مراراً ولم أسمعها، وأنا ناديتها مراراً ورفعت صوتى بالشعر، أخاطبها، أناجيها، ولم تسمعنى. كل ما مر كان خداعاً. عشنا الوهم كثيفاً كالحقيقة.
أغلق النافذة وأنا ابتسم معتذراً، كأنما أهم بمغادرة الغرفة كما نفعل كل صباح. لكننى لا أغادر. أقبع أذاكر. اتسلل ما بين الحين والحين أنظر من خصاص النافذة، أراها مرة ولا أراها مرات.
رأيت الحجرة غير نظيفة وغير مرتبة، وأطباق العشاء والإفطار متناثرة. رتبت السريرين والمنضدتين، وغسلت الأوانى، وكنست الحجرة ومسحتها. وأكتشفت أنها هكذا قد غدت جميلة ظريفة. هذا ما تفعله المرأة فى مقابل قرشين كلما جاءت. وواتتنى فكرة إن ما تأخذه المرأة يعادل تماماً أجر دخول سينما الصداقة، وكم أرغب فى أن اذهب إليها. لماذا لا أقوم أنا بهذه المهمة وأوفر أجرها ليصبح إضافة ندخل بها السينما.

* * * *

غادرت والدتى إلى القاهرة. حان موعد وضعها. حاولت أن تجهض نفسها دون جدوى. كنت أراها، فى بداية الحمل، تقف فوق السرير وتقفز من فوقه. كنت مندهشاً فى البداية، أعجب لما تفعله. كنت أتصورها تمارس رياضة ما رغم علمى جيداً أنها ليست رياضية، ولما سألتها عما تفعل لم تجب، بدا أنها خجلى تفعل شيئاً لا تقبل به. قال لى ابى فى صراحة:
-يا بنى كفيانا أنتم، ربنا يبارك فيكو، هيه بتعمل كده عشان تسقط اللى فى بطنها.
لكن الذى فى بطنها تشبث بتلابيب الرحم فلم يغادره. وها هو قد اكتملت مدته ويوشك أن يدق الأبواب طلباً للمغادرة.
اليوم 7 يناير 1945، عيد الميلاد، ونحن نقضيه بعيداً عن أمنا التى ذهبت إلى القاهرة لينطلق إبنها السادس إلى الوجود. كنا نحس بفراغ هائل. بل لم نكن نشعر بالعيد البتة.
ووصلت المحطة برقية لوالدى قادمة من القاهرة:
اليوم صباحاً وضعت حرمكم المصون صبياً، ألف مبروك وكل عام وأنتم بخير

وليم السندى
كان ذلك هو خالى الأكبر. وللحال أرسل له والدى تلغرافاً يهنىء والدتى لقيامها بالسلامة ويهنىء بالطفل الجديد، ويقترح أن يُسمى رضا. قال ابى لقد حاولنا ألا يجىء، لكن الرب أراد غير ذلك، ونحن نرضى بما شاء الله. ولذا فسوف نسميه رضا.
وسعدنا جميعاً به، وانفعلت فكتبت قصيدة:
أهلاً وسهلا بذا المولود
وشكراً وحمدا لرب الوجود
سمعنا الخبر مزمعين الرحيل
فقلنا سلاما لذاك السعيد
وحتما سعيداً بذا المولد
من عرف الأرض فى يوم عيد
وأهلاً أخاً لنا مكرما
اسما لذاك الزعيم المجيد
عندما عادت أمى من القاهرة ومعها رضا تجمعنا حولها، نود أن نرى ذلك الكائن العجيب العنيد، الذى تحدى كل محاولات استبعاده وأصر على المجىء.
حمله أبى ذات مرة. كان يداعبه. وكان هو يبتسم له، وفجأة فعلها رضا وأغرق جلباب أبى بالمياه. فغضب عضباً شديداً. وخرجت من فمه كلمات غريبة قالها وهو ينفض المياه عن جلبابه:
-فيه ناظر محطه يشيل عيال كده!
وانفجرنا ضاحكين، وقلت أصحح الوضع:
يا بابا أنت مش شايلة بصفتك ناظر محطه، أنت شايله بصفتك أبوه. والطفل من حقه يعملها على أبوه وعلى أمه وعلى أخواته وعلى أى حد يشيله كمان.
وضحك أبى وقام لتغير جلبابه. وكان رضا ما يزال يبتسم وكأنه قد فعلها عن عمد وعن قصد. وغدا رضا شغلنا الشاغل. نسأل عنه ونتابع أخباره وأفعاله ونحن فى أسوان، ونتبادل حمله عندما نجىء إلى المحاميد.
يحاول كل منا أن يفوز منه بابتسامة.
* * * *

أنا الآن أنظف الحجرة كل أسبوع، وبذا يصبح معى دخلاً خاصاً يمكننى من دخول سينما «الصداقة». الناس تتقاطر من دراو وكوم امبو وجبل السلسلة كى يتفرجوا على العبد الأسود الذى أصبح بطل قومع وحاميهم. سراج منير وكوكا، عنتر وعبلة. أنا أجلس فى كرسى لا أكاد أستقر انفعالاً وحماساً أتعاطف مع هذا العبد البطل مهضوم الحق، وأكاد أكون هو عندما يعترف به أبوه مسلماً له بكل حقوقه.

ويوسف وهبى يصرخ فى زملائه الممثلين والمتفرجين فى «سيف الجلاد» و»ابن الحداد»، وهو يرتدى عفريتة العمال، ويلقى بمواعظه التى تنطلق مباشرة إلى أعمق وجدانى.

وأعود إلى منزلى أستعيد ما رأيت وما عشت، واحلم أن أكون ممثلاً أمتلك مثل هذا التأثير، والناس تردد ما أقول.

حلمت يوماً أن أكون قسيساً، ارتدى مسوح الكهنوت، وابدو مهاباً جليلاً. ويصبح فى وسعى مخاطبة كل هؤلاء المصلين الذين يترددون بالآلاف على الكنيسة. الإنجيل نصير الفقراء «تعالوا إلىّ يا جميع المتعبين وأنا اريحكم». و»بع ما تملك وتعالى اتبعنى». تلامذة المسيح كانوا من الصيادين وفقراء الناس.

وعشت لحظات ساخنة أحلم فيها أن أكون طبيباً، حينما أجتاحت الملاريا أسوان. لكننى رأيت بعض الأطباء يعتصرون المرضى، كما يعتصر المرء ليمونة جافة. وطار حلمى مع مواكب الموتى وهم فى رحلتهم الأخيرة إلى المثوى الأبدى.

ثم ملكنى حلم المحامى. حامى المظلومين والمدافع عنهم. وهو القائد والزعيم السياسى. هنا يتطابق الهدف مع الوظيفة فيتكامل الإنسان.

العام الدراسى يخطو إلى نهايته. وتجىء الأيام الصعبة، أيام الامتحان، أيام القلق والتوتر، وينتهى السباق دون إعلان نتيجة الفائزين.

أجمع حاجياتى وقد غدوت وحيداً، كان سمير ورأفت ومدحت، قد عادوا إلى المحاميد. أغلق نافذتنا، بعد أن ألقى نظرة أخيرة على النافذة التى فى مواجهتنا، لكنها الآن مغلقة، ولا أعتب على من أحببت، فربما أكون أنا الذى هجر. لكننى أحس حسرة على لحظات جميلة دافئة، تلاشت. ذهبت وكأنها ما كانت.

ناجح.
وسألنى أ

أتذكر حديثاَ دار بينى وبين والدى. قال رداً على رغبتى دخول كلية الحقوق:

-عاوز تبقه زى مصطفى كامل، ولا سعد زغلول.

وابتسمت وأنا أقول:

-يعنى.

قال أبى ناصحاً:

-يا بنى دا كان زمن. واحنا دلوقت فى زمن تانى. وما نقدرش النهارد نعيش فى إمبارح. احنا دلوقت فى زمن العلوم والهندسة والطب. كان زمان زمن خطب وهتافات، وما جابش حاجة، احنا عاوزين مصريين متخصصين فى كل حاجة عشان منرحش ونقول الحقنا يا خواجة.

أبى نظرته عملية هو يدرك أن توجهى إلى كلية الحقوق مرتبط بآمالى الوطنية. لذا يحاول، بطريقة غير مباشرة، إبعادى عن الطريق الذى يخافه. إنه يؤمن حقاً بأن مستقبل مصر مرهون بتقدمها العلمى.

وصلتنى منه برقية يهنئنى بالنجاح، ويطلب منا سرعة العودة لإعداد الأوراق اللازمة للتقدم إلى الجامعة.

أحس أنى أوشك على الانتقال من عالم إلى عالم. من المحاميد وأسوان إلى القاهرة، من قرب أفريقيا إلى قرب آسيا وأوروبا. من تلميذ بالثانوى إلى طاب جامعى. الذهاب إلى الجامعة يغير مكانة الإنسان. يضيف إليه قدراً غير محدود من الاحترام. الجامعة تعفينا من التجنيد ومن «البدلية» والعمل مراسلة فى بيوت الضباط، خادم ومربيه أطفال بالمجان.

الجامعة بوابة الانتقال من طبقة. إلى طبقة إنها سلم ارتقاء إلى دنيا متميزة. إن أباءنا، يقتحمون بنا القلعة التى عجزوا عن ولوجها. إنهم يدخلونها اليوم وقد دانت لهم، إيديهم تمسك بأيدينا، وكل ما قاسوا من مشقة سوف ترقد هنالك خارج البوابات.

* * * *

الفصل الحادى عشر

جامعة فؤاد الأول- كلية العلوم

1945-1946

قبلت أوراقى فى كلية العلوم، التى هى ليست بالغريبة عنا. فخالى فريد تخرج منها، وخالى منير ما زال يدرس بها. غير أن تلك الكلية كانت تخيفنى موادها فهى صعبة جافة، غالبيتها الساحقة باللغة الإنجليزية، وأكثرية خريجيها يعملون، بعد هذا الجهد والإرهاق، مدرسين. أنا لا أود أن أكون مدرساً بأى حال من الأحوال. أنا الآن أدخل كلية لا أحبها، ولم تطف يوماً بأحلامى. ولو شئت أن أكون مدرساً لالتحقت بكلية التربية التى تمنح طلابها راتباً شهرياً، وضماناً بالتوظف فور التخرج.

عندما رأيت كلية العلوم بهرتنى. كانت من بعيد قصراً منيفاً يدعى قصر الزعفران، ويبدو أنه كان يمت بصورة ما للقصور الملكية. لكن الانبهار سرعان ما طار وانهار عندما اكتشتف أن الكلية تحتل اسطبلات هذا القصر.

كانت تلك هى أبنية الكلية وأقسامها بالعباسية، وكانت باقى الأقسام فى الجيزة، تشكل جزءًا من جامعة فؤاد الأول. وكان علينا أن نتمزق ما بين هنا وهناك.

أول يوم فى الكلية تيه ما بعده تيه. نحن نجرى من قسم إلى قسم، نتحسس المواد والأساتذة. فكرت فى قسم الجيولوجيا حتى أضمن تماماً عدم اشتغالى بالتدريس. الجيولوجيا مادة جديدة علىّ، وعالمها، عالم الصحارى والجبال، عالم أحبه وأعشقه، وأتصور نفسى قادراً على خوض غماره.

لابد أن تكون الكيمياء واحدة من اختياراتى. قدم لنا الأستاذ مقرر التوجيهية كله فى أول محاضرة. فضربنا على أم رأسنا. إذا كانت تلك هى البداية فكيف الحال بباقى العام. استقر أمرى على دراسة الجيولوجيا والكيمياء والحيوان والنبات. دراسة النبات قاصرة على السنة الأولى فقط، وتستمر مادة الحيوان حتى السنة الثالثة، ومن يرسب فيها لا يرسب فى الثالثة لكنه لا يعبر الرابعة دون النجاح فيها. والدراسة فى الرابعة كيمياء وجيولوجيا عامة، أو تكون عام تخصص للمتفوقين فى الكيمياء

أو الجيولوجيا. كما ندرس اللغة الإنجليزية بمفرداتها العلمية. وتعتبر السنة الثالثة نهاية مرحلة يمكن أن يلتحق البعض بعدها، على أن يكونوا فى قسم الكيمياء والنبات والحيوان والطبيعة، بكلية الطب بالسنة الأولى، وتسمى هذه الحالة دبل –كورس» أى «كورس مزدوج» (علوم- طب). عدد طلبة الكلية كلها حوالى 360 طالباً. وكان طلبة السنة الأولى حوالى 150 طالباً وكان طلبة إعدادى طب- القصر العينى، يدرسون فى كلية العلوم. وكان عددهم حوالى 400 طالباً أى يزيدون عن جميع طلبة كلية العلوم.
كان علىّ، عندما تكون الدراسة فى الجيزة أن آخذ «تراموای» 30 من شبرا حتى الإسعاف، ثم أخذ تراموای 15 حتى حديقة الحيوان. أما يوم اسطبلات الزعفران فإننى أخذ ترام 8 حتى نهايته قرب ميدان العباسية.

* * * *

راتب أخى إدوارد من أبى شهرياً اثنين ونصف من الجنيهات، لمواجهة نفقات المعيشة، وخمسين قرشاً قيمة «أبونية تراموای» على جميع الخطوط. كما كان أجر الحجرة التى نسكنها جنيهين، وخمسين قرشاً لصاحب البيت مقابل وصلة كهرباء من شقته إلى حجرتنا.
كان إدوارد يشكو من أن الجنيهين ونصف لا يكفيان. وكان يناضل من أجل رفعها إلى ثلاث جنيهات. وما أن خطوت باب الجامعة حتى ساندته فى معركته، ووافق أبى، وأصبحنا نكلفه نحن الاثنان قرابة نصف راتبه، وهذا فى حد ذاته عبء ثقيل، فما البال لو أضيفت إليه أيضاً مصاريف الكلية والكتب والكشاكيل ومعطف أبيض لى للمعمل.
علقت على صدرى، فى «عروة الجاكتة» شارة كلية العلوم، إله العلوم عند قدماء المصريين. أحس وأنا ألج بوابة جامعة فؤاد الأول بزهو شديد واعتزاز بالذات بلا حدود. عندما أدخل أحد أبنية الكلية تمسك بى فكرة قدس الأقواس، والأساتذة العلماء الأجلاء الذين يقومون بتدريسنا وتهذيبنا. هؤلاء الذين اجتازوا كل الصعوبات ليصبحوا كهنة فى محراب العلم.
أنشئت كلية العلوم فى 25 مارس 1925. وأعلن عن أول دفعة للقبول بها فى أكتوبر 1925. ولم يتقدم للالتحاق بها غير طالب واحد اسمه أنطوان شاكر. وفزعت إدارة الكلية والجامعة. الكلية عامرة بالأقسام

-يا أبنى أنت نهايتك فى أبو زعبل.
بعد أن غادرنا المحاضرة، أقترب منى أحد زملائى فى القسم. قال لى:
-انت جرىء جداً.
قلت مندهشاً:
-وهوه اللى يقول الحق يبقه جرىء.
-أمال يبقه إيه؟
-يبقه حقانى.
-أنت منين؟
-من سوهاج.
هز رأسه وكأن لهذه الكلمة دلالة خاصة.
-يعنيٍ صعيدى؟
-طبعاً، ما سوهاج فى مديرية جرجا، ومديرية جرجا فى الصعيد.
هز رأسه مرة أخرى.
-أنا عاوز أقابلك.
-ما أحنا بنتقابل كل يوم فى المحاضرات.
-لا، أنا عاوز أقابلك بره المحاضرات. عاوز أناقشك.
-هنتناقش فى إيه؟
-لما نتقابل هتعرف.
كانت كلمة أبو زعبل ما تزل تدوى فى أذنى. سألته متردداً حتى لا يسخر منى:
-هيه إيه أبو زعبل دى؟
نظر إلىّ متعجباً.
-أنت ما تعرفش يعنى إيه أبو زعبل؟
قلت متحدياً:
-لأ معرفش.
أخذ يقهقه، مما استفزنى.
-ليمان أبو زعبل، دا سجن كبير قوى. الدكتور نصرى قصده يقولك، أن كلامك دا هيوديك السجن.
ووجدت نفسى أشاركه القهقهة.

ألتقينا فى اليوم التالى ساعة الغداء وكنت فى المطعم. ودخل بعدى لكنه لم يجلس على نفس المنضدة معى. بعد الغداء انتحينا ركنا فى الكلية. سألته لماذا لم يجيء إلى منضدتى عندما دخل المطعم؟ قال فى جدية، علىّ ألا أتعجل الأمور. وسأعرف كل شيء فى حينه. ووجدتنى انفعل قائلاً:

-هيه إيه الحكايه؟

قال وكأنه لم يسمع شيئاً:

-أنا انبسطت جداً من موقفك إمبارح، كلام الأستاذ دا إهانه لمصر.

وعجبت جداً لهذه النتيجة التى توصل إليها. قلت ارفع عن الرجل تلك التهمة البشعة.

-دا راجل عالم كبير. ومش معقول يقصد يهين بلده.

-كان لازم يتحفظ يقول مثلاً أن المعروف عن الخامات حتى الآن هوه كده، لأن فيه مناطق كثيره فى مصر لم يتم بحثها حتى الآن.

-ماشى، بس حكاية بيهين مصر دى شديده شويه.

-طيب ما أنت قلت له أن كلامه بيخدم الاستعمار.

-يا سيدى ممكن واحد وطنى وغير واعى يعمل حاجه أو يقول كلام يخدم الاستعمار، لكن دا مش معناه إنه هو بتاع الاستعمار.

-الله أكبر. أنا اللى يهمنى من مناقشتك إمبارح والنهارده هو موقفك من الاستعمار.

وعجبت لما يقول.

-وماله موقفى من الاستعمار؟

-واضح وواعى.

-وهوه فيه مصرى مالوش موقف واضح من الاستعمار؟

-آه طبعاً، زى السراى والإقطاعيين وشركاء الاستعمار وعملائه.

قلت مؤكداً:

-ودول موقفهم واضح، دول مع الاستعمار.

أيقظت جملته الأخيرة الأحاديث التى سمعتها من بيت خالى من زملائه فى الكلية. كدت أقول له ذلك. غير أن جو الغموض الذى يحيط به نفسه جعلنى أتريث.

أكملت:
-عموماً كلامك يذكرنى بمدرس التاريخ بتاعنا فى ثقافه. كان ضد دول برضه وعاوز ثوره زى الثوره الفرنسيه.
وهز إبراهيم- وهذا هو اسمه- رأسه، قال:
-بس الثورة الفرنسية خلاص، انتهى زمانها.
كأننى اسمع أصدقاء خالى. قررت أن اصدمه.
-قصدك ثوره برجوازيه.
وللحال توقف. ركز عينيه فى عينى لعله يستشف ما وراء هذه المفاجأة.
زم عينيه وتساءل:
-أنت... أنت مُنظم؟
ولم أجب. لم أفهم ماذا يعنى.
-قصدك إيه؟
وجاءت الإجابة مندفعة، وكأنها حمل يود أن يلقيه عن عاتقه:
-منظم فى تنظيم شيوعى؟
وعلى الفور أجبته مندهشاً:
-لأ. وهوه اللى يقول بورجوايه يبقه فى تنظيم شيوعى؟
هز رأسع كأنما يتحسس سؤالى.
-يعنى.
-يعنى إيه؟
-يعنى فى الغالب يبقه كده. أنت سمعت الكلمه دى فين؟
بدا مرتبكاً. مرة أخرى ألقيت بالمسئولية عل عنق مدرس التاريخ.
وكان هو ما يزال يهز رأسه.
-يبقه مدرس التاريخ بتاعك، لازم يكون راجل تقدمى.
وعدت أسأله من جديد:
-وإيه تقدمى دى؟
-تقدمى يعنى شيوعى لأن الشيوعيين همه اللى بيسعو لتقدم الشعب والمجتمع.
وأدركت أننى لا محالة أتحدث إلى شيوعى. وعمدت إلى مواصلة الحوار لا تكشف غايته قلت:

-يعنى قصدك أن مدرس التاريخ دا تقدمى وشيوعى؟
-أيوه تمام.
ثم استدرك:
-فى الغالب يعنى. بس هوه قالكو بورجوازيه دى بمناسبه إيه؟
وقلت له بطريقة تبدو عفوية:
-أصلنا كنا فى التوجيهيه عاملين جماعة اسمها «الجماعه الاشتراكيه».
وكنا دايماً نسأله فيٍ أى حاجه نسمع عنها ونكون مش فاهمينها.
قال إبراهيم مندهشاً:
-جماعه اشتراكيه!!
-ايوه. وكنا معلقين فى أوضنا صور ستالين والعلم السوفيتى.
قال منبهراً:
-الله، دانتو جاهزين يعنى!
فسألته وأنا أتظاهر بالسذاجة:
-جاهزين لإيه؟
قال فى يقين وسعادة:
-جاهزين للانضمام للحركة الاشتراكية.
وتساءلت فى براءة:
-وهيه فين الحركة دى؟
قال فى حماس:
-هنا، وفى كل حته.
ثم همس بطريقة أخوية:
-تحب تقابل حد منهم؟
وأحسست حقاً بسعادة غامرة. كنت خلال الأيام الماضية منغمساً فى المحاضرات، حضوراً ومذاكرة. استيقظ مبكراً للغاية، قرب الفجر، لأذاكر حتى يقترب موعد نزولى فى السابعة، فأرتدى ملابسى، وأعد كشاكيلى وأتجه إلى الجيزة أو العباسية، لتتواصل المحاضرات والعملى حتى الخامسة مساء، لأعود إلى حجرتى فوق السطح، فأصلها دائماً بعد السادسة وكثيراً قرب السابعة، منهكاً، مرهقاً، عاجزاً عن المذاكرة، فآكل لقمة سريعة، هى عشائى ايضاً. ويكون إدوارد فى تلك الأثناء منكباً على

مذاكرته، غير أن شيئاً لا يوقفنى عن النوم حتى قرابة الفجر. وتدور الدائرة.
أكداس المحاضرات والمعلومات الجديدة، وصعوبة الدراسة بالإنجليزية، والصعوبات التى يفرضها علينا بعض الأساتذة بالعروض الغامضة والإملاء السريع تقلقنى. هنالك أحد أساتذة الجيولوجيا، يدرس لنا فى الدور الثالث، من مبنى مرتفع كله نوافذ زجاجية عريضة. هذا المبنى يقع قرب خط المترو، ويهتز بعنف ساعة مروره. والأستاذ ينتهز هذه الفرصة العامرة بالضجيج، ليتلو من المحاضرة فقرة طويلة، فى سرعة فائقة. وعندما نخبره أننا لم نسمع شيئاً أو نكتبه، ينظر إلينا مبتسماً فى شماتة، ويكمل كأن شيئاً لم يكن. كنا نجتمع بعد المحاضرة، أو فى فترة الغداء، نكمل المحاضرة من بعضنا البعض.
ورغم ذلك، لم يفتنى أى اجتماع وطنى أو أى مظاهرة فى العباسية أو الجيزة. أنا دائماً أشارك هاتفاً وخطيباً. استعيد أيام جمعية الخطابة فى مدرسة رزق الله مشرقى الثانوية بجرجا وأستاذ اللغة العربية يعلمنا ويدربنا، وكلمات مصطفى كامل وسعد زغلول تنثال مع العالم المعاصر خطباً داوية. لم يدر بخلدى أو تفكيرى أن يكون الاشتراكيون أو الشيوعيون منظمين فى تنظيمات ما. حقاً لقد شكلنا جماعة صغيرة للغاية فى أسوان الثانوية، لكننا لم ندرك وقتها، أن اسم تنظيم يطلق على هذا الشكل.
كنت كلما رأيت واحداً من الضباط والجنود الإنجليز، ممن يسمون بقوات الحليفة، وخاصة هؤلاء الاستراليين أحس أنى اشتغل رغبة فى قتله. كان منظرهم فى شوارع القاهرة، وخاصة فى وسطها، وفى ميدان الإسماعيلية سرتها، منظراً استفزازياً، يثير فىّ رغبة عارمة أن أحصل على «ريفولف» وأشفى غليلى بطلقات تدوى فى رؤوسهم.
اتفقت وإبراهيم أن نلتقى غداً بعد اليوم الدراسى. غادر المكان بعد أن تلفت حوله يمنة ويسرة. ودار بخلدى سؤال، لماذا كل هذا الحذر؟ وهل سيحل بى ما حل به، فاتلفت حولى هكذا ما بين الحين والحين.

* * * *

انشغل بالى وتشتت أفكر فى لقاء الشيوعيين. هؤلاء الذين يهزون العالم فى الاتحاد السوفيتى ويوغوسلافيا والصين. هل هم هنا فى مصر

يشبهون هؤلاء الذين هناك، يحملون السلاح ويقاتلون أعداء بلادهم؟
جاء الغد. انتهى اليوم الدراسى، وهمس إبراهيم وهو يسير إلى جوارى، وكأنه يتحدث من جوفه: علىّ أن أتبعه، على بعد عشر خطوات منه على الأقل، حتى المنزل الذى سيدخله. إنه هنا فى العباسية. وهو لن ينظر وراءه البتة ليتأكد من وجودى. علىّ أنا أن أتأكد من متابعته. وعلىّ فى الاجتماع ألا أتحدث إلا لو طلب منى رئيس الجلسة أن أتحدث، وإن تحدثت ففى إيجاز وفى حدود المطلوب.
كنت فى صباى مغرماً للغاية بأرسين لوبين وشارلوك هولمز. وها أنذا أدخل عالماً غريباً، لا أدرى عنه شيئاً. لكن البدايات توحى بعالم من الألغاز والأسرار. وأدركت لماذا يتلفت إبراهيم حوله كثيراً.
غادرنا الكلية، وأنا كلى عيون تلحق بخطى إبراهيم. كان يسير متعجلاً، إن كان الطريق مستقيماً، ومتمهلاً عند المنحنيات. كدت ألهث وأنا ألاحقه من الشارع الرئيسى إلى شارع جانبى إلى حارة إلى زقاق مسدود. وهنالك توقف أمام باب آخر منزل ثم دخل. ولحقت به. دق على الباب ثلاث دقات، فانفتح مواربا، وأطل منه رأس ما أن رأى إبراهيم حتى ابتسم. قال إبراهيم بجدية:
-سلام.
فرد الآخر مرحباً:
-سلام.
ودخلنا. كان المدخل يفوح برائحة الرطوبة، وقد بدا مظلماً كأننا فى المساء. أومأ له من فتح الباب ناحية حجرة فى الواجهة وقال:
-اتفضلو.
ودخل إبراهيم ودخلت فى أعقابه. وقال بنفس الجدية وإن كان مبتسماً:
-سلام.
ثم أشار نحوى وقال:
-الزميل فكرى
كدت أنظر خلفى بحثاً عن فكرى هذا، لكننى سرعان ما أدركت أنه يقصدنى أنا بهذا الاسم وتلك الإشارة. سلمت على الزملاء وقد وقفوا، واحداً واحداً، وهو يقدمهم إلىّ: رضوان، شعبان، فاروق، فؤاد، يوسف.

وأدركت بالطبع أن تلك أسماء غير حقيقية. وهمست ونحن نجلس حتى أتأكد:
-إيه فكرى دى؟
ولكزنى فى ذارعى وهو يبتسم هامساً:
-دا اسمك الحركى.
وكدت أسأل عن معنى الحركى، لكننى لزمت الصمت. إذ أننى كلما سألت عن شىء أحاول فهمه تلقيت إجابة تزيد الأمر تعقيداً. تلك مفردات جديدة عليّ، وهى حقاً عربية، غير أنى لا أفهم معناها.
كنا جميعاً نجلس على الأرض وقد أغلقنا الباب. واللمبة الكهربية التى تضىء الحجرة واهنة، فبدت صور الحاضرين شبحية على نحو ما.
تأملت الزملاء. كانوا جمبعاً شباباً فى السابعة عشر حتى العشرين، ما عدا رضوان الذى كان أكبر سناً. اعتدل فى جلسته، تنحنح، ثم بدأ حديثة بالترحيب بى، وبحاجة النضال إلى سيل من الدماء الشابة. بدا كأن الصون آت من بعد عميق. طرق الباب، ثم دخل زميل آخر.
نظر رضوان إلى ساعته موبخا:
-خمس دقائق تأخير يا زميل.
حاول الزميل الاعتذار وتقديم المواصلات والزحام سبباً لهذا التأخير، غير أن رضوان لم يقبل أى منهما. فالعمل الثورى لا يقبل التبرير. ثم أخذ يناقش مسألة التأخير كمبدأ، وعلاقة ذلك بالالتزام. وانهال التقريع على الزميل باعتبار أن الانضباط الحزبى هو المقدم على الكثير. ودام الحوار نصف ساعة حول الخمس دقائق. وأنهى رضوان الأمر باعلانه العودة إلى جدول الأعمال الذى هو محاضرة ثقافية من «الأسس اللينينية». ثم نبه على الزملاء ألا ينسوا التبرع فى «صندوق الإعانة الحمراء». وعندما بدا علىّ الاندهاش أشار الزميل رضوان إلى الوسط فرأيت حصالة تشبه حصالة الأطفال، وأوضح رضوان:
-احنا بنركب مواصلات. وكل واحد بيبقه معاه مليم، اثنين، ثلاثه يعنى، يتبرع بيها للصندوق. ودا هيشكل جزء هام من مالية الوحده.
بحثت فى جيبى فعثرت علي مليمين، فوضعتهما فى فتحة الحصالة.
أخرج الزميل رضوان كتاباً ذا غلاف أخضر وأخذ يقرأ. ولم أعد أرى

فى هذا الضوء المعتم غير شفتين تتحركان. لكننى لم أفهم الكثير مما قاله قراءة أو شرحاً. أحسست أنى أغوص بعيداً. بدا الإرهاق يحل بى وكذا النوم. وسؤال يمسك بتلابيبى، متى ينتهى الزميل رضوان لأفر إلى منزلى. طارت من رأسى كل الأحلام. لا شىء يوحى بعمليات ضد الإنجليز من قريب أو بعيد. إذا كانت تلك الملاليم الحمراء هى مالية الوحدة فإنها أعجز من أن تشترى طلقة.

وبعد أكثر من ساعة توقف رضوان. نظر إلى الزملاء بجدية وتساءل إن كان لأحد سؤال أو تعليق. وقال أحدهم:

-إيه يا زميل رضوان، عاوزنا نعلق على لينين. هيه الدنيا جرا لها إيه.

وكدت أقول أننى لم أفهم شيئاً. وفكرت أيضاً أن أسأل، من لينين هذا؟ غير إننى التزمت الصمت، أمام صمت الجميع بلا سؤال ولا تعليق.

وقال رضوان:

-ننصرف بهدوء. واحد ورا التانى بعد فتره. وهنبقه نبلغكو بالميعاد الجاى.

شد الزملاء على يدى مرحبين بى زميلاً جديداً معهم، أفسحو لى كى أخرج أولهم. أسرعت والدنيا ظلام إلى ميدان العباسيه ومنه إلى شبرا. لا أدرى إن كنت نمت فى الطريق، أم سرحت استرجع كل ما سمعت ورأيت. لكن ما أذكره جيداً أننى أحسست بنفسى فى حجرتنا فوق السطح، أتناول عشائى بطريقة آلية، وأنا أعانى الجهد والإرهاق والإحباط.

ويبدو أن إدوارد قد لاحظ اكتئابى وشرودى، فتساءل إن كانت هنالك مشاكل فى الكلية. إدوارد لا يهوى السياسة ولا يهتم بها. قلت أحدثه فى شىء بعيد عما أعانيه. حكيت له عن مدرس لدينا يدرسنا أحد فروع الكيمياء. إنه كبير السن ولم يحصل حتى الآن على غير الماجستير. إنه ما أن يدخل المدرج حتى يعطى أحد الجالسين فى الصف الأول من المقاعد ورقة كبيرة، ويطلب منه أن يكتب جميع الحضور أسماءهم. فى البداية كتب أربعة أو خمسة أسماءهم بالفعل، لكن يبدو أن السادس كان خفيف الظل فكتب اسمه كلارك جيبل. وسار الباقون على نهجه: روبرت ميتشوم، روبرت تايلور، أنور وجدى، لوريل وهاردى، تحية

كاريوكا، ريتا هيوارث ووجدت نفسى أكتب شارلى شابلن. لكن الغريب فى الأمر أن هذا الأستاذ ما زال يسلم زميلنا فى الصف الأول ورقة كبيرة كل محاضرة له، ويعود بتسلمها منه قبل النهاية.
وعلق إدوارد ضاحكاً:
-يبقه لازم ما بقراهاش.
-دا ميه الميه ما بيقراهاش. تصبح على خير؟
وغطست تحت الغطاء، لأسقط نائماً على الفور.

* * * *

الحجرة التى نعيش فيها، تقع فى حارة داخل حارة، فى منطقة حكر تدعى أرض الحبشية، وراء سينما دوللى- شبرا من ناحية، وتبدأ حيث ينتهى شارع البعثة من الناحية الأخرى.
وتقع الحجرة فى الدور الثانى بعد الأرضى، على السطح، وتشكل جزءًا من شقة صالتها بلا سقف. الحجرتان اللتان على اليسار، الأولى تسكنها أسرة كاملة زوج وزوجة وابن وأبنة، والثانية يسكنها ثلاثة، شقيقان وشقيقتهما، وكلاهما تطل على الشارع. حجرتنا إلى اليمين، تطل على منورين، ولها سقف تتسرب الشمس من بين فراغات ألواحه الخشبية. وتتأكد تلك المسامية إن أمطرت السماء، فسقفنا حينذاك تخترقه قطرات الماء. وباب الحجرة ضخم ولا يتناسب والبابين الآخرين، ربعه الأعلى زجاجى، وهو لا يغلق جيداً.
المنوران اللذان تطل عليهما حجرتى، واحد منهما يطل على حجرات النوم فى منزلنا، وحجرات نوم المنزل المجاور. ساكنات الدور الأرضى يجلسن فى منورهن فى الصباح. يتباهين بما حدث طوال ليل الأمس. يتبادلن الحكايات، وأنا استمع إلى قصص فاجرة ممتعة، وكل قصة تنتهى بحمام الصباح. التفاصيل تنطلق من أسفل إلى أعلى تصحبها ضحكات وقهقهات ماجنة منغمة، وتجتاز كل تلك المنور عبر شقق تسكنها صبايا وصبيان فى سن المراهقة والحرمان.
حدث ذات يوم أن كنت أبيت بمفردى، وقد سافر إدوارد إلى الصعيد، أن استيقظت وأنا أحس أنٍ هنالك من يضغط الباب. قمت نصف قومة فوق السرير. بدا إن شخصاً يصعد سلماً مرتكزاً على الباب. ظهرت رأس فى الربع الزجاجى ثم رقبة ثم كتفان. وأمسك بى الخوف. ثم ارتفعت يد

الجاز و»السبرتاية» والكبريت، وللمنضدة رف سفلى، عليه طاسة وحلة وعدد قليل من الأطباق، وكوبين وملعقتين وسكينة كبيرة وبراد شاى.
وتحتل، فى غير أوقات الطبيخ، صينية صغيرة فى وسطها «قلة» قناوى، مكاناً على المنضدة إلى جوار وابور الجاز، لكننا نضعها أرضاً إن أشعلنا الموقد.
الطبيخ داخل الغرفة مشكلة حقيقية. كثيراً ما «يهب» وابور الجاز فيملؤ الحجرة «بالهباب» كما أننا إن قلينا سمكاً، تظل رائحته عالقة بالحجرة فترة طويلة.
أحياناً ينطفىء النور ونحن نطبخ. ذات ليلة كان على الدور كى أقوم بمهمة الطبخ، وكنت أعد سبانخاً باللحم. وأنطفأ النور. وخشيت أن يلتصق أرز السبانخ بالقاع و»يشيط»، فأسرعت أبرم صفحة من جريدة وأشعلها، واستخدمها كمشعل فوق الحلة. ولم أنتبه لم آل إليه حال المشعل الجريدة، والذى كان قد احترق حتى قرب النهاية، ثم سقط الجزء المحترق فى قلب الحلة، ولم يكن أمامى غير تقليبه مع باقى الخضار. وعندما احتج إدوارد، ناقشته علمياً، إن كل ما فى الأمر أننا أضفنا من لدنيا كمية من الكربون لا ضرر منها إن لم تكن مفيدة. ولم يكن أمام إدوارد خيار آخر. وهكذا أكلنا السباتخ بالكربون.

* * * *

كل يوم جمعة تقريباً نذهب إلى بيت أخوالنا. نستحم ونتغدى، ونرتدى أفضل ما لدينا من ملابس، ثم ننزل نحن الثلاثة، أنا وإدوارد ومنير، لنذهب سيراً على الأقدام إلى وسط البلد، إلى شوارع فؤاد وسليمان وقصر النيل. أحياناً لا يكون معنا مليماً واحداً فائضاً حتى يمكننا أن نأكل فى مطعم «روى» أمام سينما مترو، نأكل قطعة مكرونة محشوة بلحوم لذيذة، اكتشفنا فيما بعد أنها لحوم سندوتشات الأمس، التى فاضت «فباتت»، بقايا كفتة ولحوم ودواجن. ونأكل إلى جوار قطعة المكرونة كمية هائلة من الطرشى، حتى أننا كنا نسخر من أنفسنا بأننا نأكل طرشى بالمكرونة. وأحياناً أخرى نتجاسر ونجلس فى اكسلسيور ونغامر ونأكل جيلاتى. وربما نرتكب حماقة شديدة فنذهب إلى الأمريكيين، ونأكل «تروابيتيت كوشون»، أو إلى تسيباس ونأكل قطعة «جاتوه» محترمة.
كنت كلما دخلت أحد هذه المحلات أعاهد نفسى أننى عندما اتخرج

وأتوظف لابد وأن آتى إلى هذه المحلات وآكل حتى أشبع بحق.
أحياناً ندخل سينما مترو. ندفع «خمسة تعريفة» ونستمتع بالتكيف والسينما سكوب وفيلم أول عرض. غير أنها تجىء فى البند رابعاً!! بعد سينما دوللى وبرودواى فى شارع شبرا الرئيسى، وسينما بلازا إلى جوار محطة السكة الحديدية، والتى تتميز بوجود محل أمير للأسماك ومحل حلوانى إلى جوارها، حيث يمكن للمرء أن يشترى سندوتش جمبرى، نصف رغيف بلدى محترم، يشكل عشاءً رائعاً، «بتلاتة تعريفة»، ثم يأكل طبق مهلبية بالزبيب بقرش صاغ، ويدخل السينما بقرشين صاغ، وبذا لا يصل كل هذا الإنفاق إلى شلن واحد. وهنالك أيضاً سينما روى، فى شارع الترعة البولاقية. وتلك تتميز بوجود مسمط إلى جوارها، وبذا يكون العشاء سندوتش لحمة رأس و»بمبار» بثلاثة تعريفة أيضاً، وثلاث سجاير هوليود رفيع بقرش صاغ ودخول السينما بقرشين، وكل ذلك لا يتجاوز الشلن أيضاً.
لقد أصبحت مدخناً بالإحراج، كان يسكن إلى جوارى، كمال زميلى فى الكلية، سطحنا وسطحهم فى حذاء واحد، هو يمد قدمه فيصبح عندنا. يجىء لنذاكر معاً، وخاصة مادة النبات التى كان يعشقها. كان كلما جاء للمذاكرة لا يجىء بمفرده، يجيىء ومعه سيجارتين واسب غليظة «لنخمسهما» معاً. بعد مرة وأخرى أحسست بالخجل وضرورة أن أقدم أنا أيضاً سجائراً. وأدى هذا الإحراج بى إلى أن أشترى سجائر لندخنها معاً.. وهكذا صرت مدخناً.
* * * *
نحن الآن بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، ومصر كلها تغلى. القوى الوطنية تنتفض فى كل مكان. فى جامعة فؤاد الأول، وفى المعاهد العليا والأزهرية، وفى المدارس الثانوية، فى القاهرة. وكذلك جامعة فاروق الأول فى الإسكندرية.
واجتاحت الإضرابات العمالية المصانع فى القاهرة، فى شبرا الخيمة وامبابة والظاهر وغمرة وحلوان، وفى الإسكندرية والمحلة الكبرى وكفر الدوار. إضرابات من أجل مطالب اقتصادية مطعمة بشعارات وطنية معادية للاستعمار الأجنبى.
وأنا اشارك، قدر ما أستطيع بالخطابة والهتاف. والتقى أسبوعياً بزملاء

خلية المرشحين (كما علمت من إبراهيم) فى العباسية. وقد سألنى
إبراهيم بعد اجتماعى الأول عن انطباعى. ولم أدارى عنه شيئاً. قلت له
بصراحة أن الإحباط قد أمسك بى. كنت أتصور أنهم سوف يدربوننى
على قتال الإنجليز وقتلهم، غير أن تصرفاتهم لا توحى بذلك أبداً، لا من
قريب ولا من بعيد. وقد ضحك إبراهيم ضحكته الأبوية (ربما كان عمره
مثل عمرى) وقال:
-ما تستعجلش. كل شىء بأوانه.
إن الشىء الوحيد الذى أفادنى من ذهابى إلى هذه الخلية هو استماعى
إلى أخبار الأعمال النضالية الجماهيرية، والتى كانت تشعرنى أن
الشيوعيين موجودون فى كل مكان، وأن نشاطهم يمتد عبر مديريات
مختلفة، وفى مجالات مختلفة.
لم أكمل فترة الترشيح، إذ بدأ نشاطى فى الكلية يشد انتباه أصدقاء خالى
مينر. لقد اعتقدت عندما دعانى إبراهيم لحضور اجتماع مع زملاء له،
طاف بخيالى للحظات أننى ربما التقى بزملاء خالى، غير أننى لم ألتق
بأحد منهم هناك.
وكانت المفاجأة عندما ناقشنى أنيس صديق خالى فى الانضمام إلى
منظمتهم، فأخبرته أننى منظم بالفعل. فقال أنه يعلم ذلك لعلاقتى
بإبراهيم، لكنهم شىء وإبراهيم شىء آخر. منظمة إبراهيم أسمها الحركة
المصرية للتحرر الوطنى، واختصاراً ح.م وحمتو، ومنظمتهم اسمها
«إسكرا» أي «الشرارة». غير أن ما شدنى إلى منظمة خالى أنها كانت
الأكثر نشاطاً وفاعلية فى الكلية، حتى أن المرء لا يحس بمنظمة إبراهيم
إلى جوارها. واندهشت اندهاشاً شديداً عندما وجدت بعض المعيدين
يحدثوننا أثناء حصص الكيمياء فى المعمل عن الاستعمار وضرورة
نضالنا التحررى فى مواجهته. وعلمت إن اسم أحدهم عبد المعبود
الجبيلى والآخر عبد الرحمن الناصر، ولما أخبرت إبراهيم
بخصوصهما، قلب شفتيه.
-مثقفين بتوع كلام.
وهزتنى كلماته بشدة. وقلت له أن ما قالاه لا يختلف عما يقال فى خلية
المرشحين، فضيق عينيه، ومد شفتيه هذه المرة، وهز رأسه وهو يقول:

-دول أصلهم اسكراوية.
وسألته عما يعنى بما قال، فأجاب:
-يعنى أصلهم من إسكرا. ودى منظمة غيرنا. همه شوية مثقفين بس بيقولو على نفسهم شيوعيين.
إذن هذان المعيدان من جماعة خالى، وإبراهيم يسخر منهم جميعاً.
وبدأت أحس بالضيق منه، خاصة عندما علمت أن عميد الكلية، د.مصطفى مشرفة، وهو ليس بشيوعى، رفض أن يأخذ موقفًا ضد المعيدين الشيوعيين، استجابة لطلب السلطات الأمنية، على أساس أن الفكر الذى يتبناه أى إنسان فى الكلية هو حقه المطلق.
ألح أصدقاء خالى منير على ضرورة انضمامى إليهم. قلت لهم أننى لا أستطيع التخلى عن أناس ارتبطت بهم، رغم تحفظى على أساليبهم، ما لم أصارحهم برأيى وأسباب تركى لهم. قالوا أنهم سيعطوننى الوقت الذى أراه لاختار بحرية وارادة كاملة، لكنهم طلبوا ألا يطول هذا الوقت.
بدأت معركة اتحاد الطلبة. وكان المرشحون جميعاً فى الكلية ممن ينتمون إلى جماعة خالى. ووجدت نفسى أعمل بصورة تلقائية معهم.
كان معى فى السنة الأولى اثنين من تنظيم خالى: فتحى خليل وميشيل سعد. وسرعان ما ألتحمنا نحن الثلاثة وانغمسنا فى هذه المعركة. كان عدد الإخوان المسلمين حوالى خمسة وعشرين شخصاً، هم فقط الذين صوتوا لمرشحيهم، أما باقى الـ 150 طالباً بالسنة الأولى فقد صوتوا لنا. وأحسست بزهو بالغ. وحدد ذلك موقفى من جماعة إبراهيم، إذ قررت الارتباط بمن لهم نشاط وتأثير. وأخبرت إبراهيم بذلك، فبدا مصدوماً لكنه سرعان ما هز رأسه، وقلب شفتيه وقال فى إيجاز:
-على كيفك.
أسرعت إلى أصدقاء خالى أخبرهم بقرارى. فرحبوا بى أشد الترحيب.
وقال أنيس:
-دا قرار عظيم.
وتوقف قليلاً وأضاف:
-بكره تيجى الصبح بدرى هديلك حاجه مهمه توزعها. ودا بالمناسبه هيكون اختبار ليك.

وأحسست بالضيق:
-هيه إيه حكاية الاختبار دا؟ هيه مشاركتى فى المؤتمرات والمظاهرات والانتخابات ما تنفعش اختبارات؟
فقال أنيسٍ وهو يبتسم:
-تنفع طبعاً، بس دا اختبار مخصوص.
لازمنى القلق حتى صباح اليوم التالى. ذهبت إلى الكلية بالعباسية مبكراً. وجدت أنيس فى انتظارى. بعد تبادل التحية، سرنا إلى مكان هادىء. قال فى ثبات وجدية:
-أنا هديلك منشور دلوقتى. وعليك توزيعه فى الكليه:
كانت المفاجأة شديدة الوقع علىّ، فأنا لم أوزع منشوراً من قبل. ووجدتنى أسأله، أين أوزع، وكيف أقوم بالتوزيع؟ قال فى نفس الهدوء:
-التوزيع فى الكليه والنهارده.
وحسمت للتو أمرى. الآن يوشك فراش المدرج الرئيسى أن يفتحه من أجل تنظيفه. وننتهز نحن الذين نجىء مبكرين تلك الفرصة لندخل ونحجز لنا أماكن فى الصفوف الأولى، حتى نتابع الأستاذ جيداً، تلك كانت فرصتى. اندفعت إلى المدرج، لم يكن به أحد غير الفراش منكباً على عمله. أسرعت فوضعت نسخة من المنشور على كل مقعد فى المدرج. انتهت كل المنشورات التى معى. كان ينتابنى شعور جارف أن أحداً ما، ربما الفراش، وربما من الحرس، وربما من الإخوان سوف يمسك بى ويصرخ شيوعى، شيوعى. ألتقيت بأنيس. يبدو أنه كان يبحث عنى. سألنى فى لهفة عما فعلت؟ فقلت له فى ثقة:
-المنشور أتوزع خلاص.
وشدتنا غمغمات قادمة من ناحية المدرج. توجهنا إلى هناك. ما أن بلغنا المدرج حتى رأينا الطلبة وقد أمسك كل منهم بمنشور يقرأه، وقد ألتفت حوله عدد آخر يستمع. وفجأة قفز أحدهم فوق منصة الأستاذ، وقد أمسك بالمنشور فى يده، وصرخ وهو ينتفض:
-أيها الزملاء. اسمعو واعو.
ثم بدأ فى قراء المنشور بصوت حماسى.
ونظر إلىّ أنيس وقد أتسعت عيناه حتى كادتا تقفزان من حجريهما.

ووجدت أننى لابد وأن أدفع الأمر إلى صدام معه. قلت محتداً:
-أنا عاوز أعرف أنت مستدعينى ليه؟ وحضرتك محقق ولا إيه؟
ثم نهضت واقفاً وقد ارتفع صوتى قليلاً. لزم الصمت. تأملنى من تحت جفنيه. هز رأسه متربصاً.
-عموماً أنت لسه فى سنه أولى. وخد بالك من مستقبلك أحسن لك.
عندما أنهى جملته كنت قد غادرت المكان.
أنتشر خبر استدعائى فى الكلية كلها. أحسست أن الكثيرين يأتون إلىّ مسلمين، يشدون على يدى. لكن السؤال الذى ظل يشغلنى، كيف صدق حد سهم؟ كيف عرفوا أو خمنوا أننى الفاعل؟ لابد أن الفراش لمحنى وأنا أدور فى أرجاء المدرج، أو لابد أن أحد الطلبة الذين يعلمون مع الإدارة قد رآنى وأنا أضع المنشور فوق المقاعد. وربما لم يكن هذا أو ذاك يعرف أنه منشور، غير أن ظهور المنشور بعد ذلك استدعى الربط بينه وبينى. وقد علمنى ذلك أننى يجب أن أزداد حرصاً ودقة عندما أخطط لمثل هذا العمل.
وجاء أنيس ليجلس إلى جوارى أثناء الغداء وقال مرتاحاً، برافو.
عندما غادرت الكلية آخر اليوم الدراسى، كنت أحس أننى الآن شخص آخر. لقد اقتحمت عالم السياسة. كُلفت بعمل لم أكن مستعداً له، ونجحت فى إنجازه. وتعرضت لتحقيق لم أكن أدرى كيف أعالجه. واستطعت الإفلات منه.
ألتقيت بأنيس فى اليوم التالى. بدا وكأنه يحمل بشرى عظيمة: قال أن الزملاء المسئولين عن التنظيم فى الكلية قد وافقوا على دخولى المنظمة مرشحاً. وأحسست بزهو لم أحس به عندما دعانى إبراهيم إلى منظمته. ربما لأن الترشيح جاء هنا بعد اختيار عبرته. وطلب أنيس منى أن أكون مستعداً غداً لحضور اجتماع لوحدتى.
كان علينا، بعد نهاية اليوم، أن نخرج من الكلية فى وقت واحد، وأن أتبعه إلى محطة الترامواى، وأن أركب ذلك الذى سوف يركبه، وأن أكون مستعداً للنزول لحظة ينهض. ثم علىّ أن أتبعه، وأن أتأكد أيضاً أنه ليس هنالك من يتبعه، فإن اكتشفت وجود ذلك، علىّ أن أسرع وأسبقه وحينئذ يلغى اللقاء فى هذا اليوم. ويتحدد فيما بعد موعد آخر.

وبهرني الكتاب. إنه نداء للمستقبل. دعوة لتغيير العالم. حلمى يتجسد فى كلمات. خشيت أن تسقط منى جملة أو كلمة وأنا ألخصه. كما خشيت أيضاً أن أقوم بالتلخيص فى الحجرة التى نسكنها، فيرانى إدوارد ويطرح أسئلة لا أملك لها إجابة. لذا قررت أن أحمل معى الكتاب، الذى لا يزيد حجمه عن كف اليد، إلى الجامعة، وهنالك كنت أجلس أسفل الساعة، محتمياً بجدرانها، والجالسون هنالك قليلون متناثرون. واستطعت فى خلال ثلاثة أيام أن أؤدى المهمة، وألخص البيان. لكن المفاجأة ألتى أدهشتنى هو أنه من خشيتي أن يسقط شيء منى، قمت تقريباً بنقل كل الكتاب حرفياً. وكنت سعيداً للغاية بما فعلت. وأعجبتنى طريقة المشاركة تلك. فقد كانت تدريباً رائعاً على الاستيعاب ثم التلخيص والعرض.
وكنت وأنا استمع إلى أنيس وهو يفعل ذلك دون أوراق، أحلم باليوم الذى أصبح فيه مثله.

* * * *

التطورات تتسارع. محمود فهمى النقراشى باشا رئيس الحكومة وحزب السعديين دائب الحديث عن المفاوضات مع الحليفة بريطانيا العظمى.
وكان المصريون أصدقاء الإنجليز يتحدثون عن أن ما بيننا وبينى بريطانيا هو أقرب شبهاً بالزواج الكاثوليكى، أى زواج لا يعترف بالطلاق أبداً. إنهم يرون أن ما بيننا وبين بريطانيا هو رباط أزلى أبدى.
ويتقدم رئيس الوزراء فى 25 ديسمبر 1945 بمذكرة هزيلة إلى الحكومة البريطانية للدخول فى مفاوضات لإعادة النظر فى معاهدة 1936.
وأعلنت منظمتنا «الشرارة» ضرورة عرض القضية على مجلس الأمن فالوجود البريطانى لا يدعمه سند من شرعية، وأن الجلاء لن يتحقق بالتفاوض لكن الجلاء يتحقق بالدماء.
وجاءت إجازة نصف العام. وجاء خلالها، رد بريطانيا على النقراشى: «إن سياسة حكومة جلالة الملك هى أن تدعم بروح الصراحة والعدل التعاون الوثيق الذى حققته مصر ومجموعة الأمم البريطانية أثناء الحرب».
واستنفز هذا الرد الطلاب، إذ أعتبروه إهانة بالغة لمصر وشعبها، وتعالياً عليهما، إذ أن بريطانيا تؤكد بهذا المعنى وجودها الاستعمارى، وتتجاهل

تماماً ذلك المطلب الهزيل الذى تقدم به صديقها محمود باشا النقراشى.
9 فبراير 1946 عدنا من إجازة نصف السنة. استدعائى رمسيس عصرًا عند نهاية اليوم الدراسى بالعباسية. كان متجهماً مكفهر الوجه. أخبرنى أن أمورًا خطيرة للغاية قد وقعت فى جامعة فؤاد الأول. فقد انفجرت الجامعة تحتج على الرد البريطانى. انفجرت فى ثورة عارمة على المستعمر، وحكومة النقراشى العميلة.
اجتمع الطلاب فى حرم الجامعة، ومعهم طلبة السعيدية الثانوية وطالبوا بإلغاء معاهدة 1936 واتفاقية 1899 الخاصة بالسودان، والجلاء الكامل، ونشر أسرار المفاوضات، والتوجه فى مظاهرة إلى قصر عابدين للمطالبة بتغيير الوزارة.
وأنطلق السيل المنهمر من بوابة الجامعة مندفعاً إلى ميدان الجيزة، حيث انضم إليه عشرات المواطنين الموجودين بالميدان. ووقف عمال شركة الدخان وعمال الترامواى يحيون المظاهرة، «عاش الطلبة مع العمال»، والمظاهرة ترد التحية «العمال جنود الثورة».
وصلت المظاهرة إلى كوبرى عباس فى طريقها إلى عابدين، بدأت عبورها، وفجأة أخذ الكوبرى ينفتح. أسرعت مجموعة من طلبة كلية الهندسة إلى أسفله فى محاولة للسيطرة عليه وإعادة إغلاقه، غير أن جزءًا منه ظل مفتوحاً عند طرفيه يميناً ويساراً. المظاهرة تكمل سيرها. وتبدأ قوات سليم زكى باشا حكمدار القاهرة، والمدرعة بالهراوات والخوذات، تبدأ زحفها نحو المظاهرة. وأحاطت قوات فيتزباتريك حكمدار الجيزة بالمظاهرة من الخلف. وأنهال الضرب المجنون الضارى. والمظاهرة تواجه الضغط من جميع الجهات، حتى أصبحت وكأنها جسد واحد. وقوات البوليس تجهز عليها صفاً صفاً. فإن سقط أحد على الأرض داسته الخيول وهرسته الأقدام والأحذية.. والطلبة عند فتحتى الكوبرى يتساقطون فى الماء. وآخرون يلقون بأنفسهم فى النهر فراراً من هذا الجحيم. والطلبة يحاولون، وقد أحسوا بالمؤامرة التى تستهدف الإجهاز عليهم، يحاولون شق طريق لهم عبر صفوف الجنود بأعمال انتحارية. والذين استطاعوا الإفلات من الحصار مثخنين بالجراح، وجدوا المواطنين المصريين العاديين يتلقفونهم ويدفعون بهم

إلى منازلهم لإغاثتهم وحمايتهم.
وكانت الهتافات تدوى «الشعب الشعب ليحيا الشعب»، «لا استعمار ولا أحلاف»، «لا استعمار ولا استعباد»، «الجلاء بالدماء»، «أين الغذاء والكساء يا مليك النساء».
وكان الملك هو الذى أصدر الأمر بألا تصل المظاهرة إلى عابدين بأى حال من الأحوال، ومهما كان الثمن.
وتنطلق المظاهرات فى الأسكندرية والمنصورة والزقازيق وشبين الكوم، والسنبلاوين وطوخ وبنها والمحلة الكبرى وبورسعيد، وأسيوط.
وحملت الجماهير الطلاب وهى تهتف لهم باعتبارهم «أبطال الثورة» و»جند النضال».
ويعلن فيتزباتريك أنه «فى كل مظاهرة زعيم أو زعيمان أو ثلاثة تنقاد لهم الجماهير انقياداً أعمى. علينا أن نجتهد فى القبض على الزعيم فتتفكك الروح المعنوية فى الجماهير وتكاد تنعدم».
ويلقى القبض على مصطفى موسى وبعض قيادات اللجنة التنفيذية العليا للطلبة. كانت اللجنة قد تشكلت من ممثلين. من مختلف الكليات والمعاهد.
وكان ممثلو كلية العلوم المنتخبين هم: سعد زهران وفاطمة زكى (شيوعيون) ورشدى عبد البارى (وفدى) وكمال عبد الرازق (إخوان)، وواحد من إعدادى طب.
وانتخبت اللجنة التنفيذية مكتباً رئاسياً من لطيفة الزيات (شيوعية)، عبد اللطيف أبو علم (وفدى) وجمال السنهورى (إخوانى) وفؤاد محى الدين رئيساً لعدم انتمائه لأى من هذه التيارات.
وهنالك قيادة ميدانية من جمال غالى (شيوعى)، ومصطفى موسى (وفدى)، مصطفى مؤمن (إخوان).
انتفضت الثورة وهى حبلى بعشرات ومئات القادة، حبلى بأجنة زعماء المستقبل.
ويكتب طه حسين فى جريدة الوفد، «لو حوكم صدقى على جرائمه عام 1930 لما ارتكب النقراشى جرائمه. يجب أن يقدم هؤلاء السادة إلى المحاكمة. ويجب قبل كل شىء أن تعرف الأمة المصرية بالضبط عدد القتلى والجرحى، وإن كان قتيل واحد يكفى لمحاكمة ألف وزارة وألف

نقراشى».
ويعلن خالد بكداش سكرتير عام الحزب الشيوعى السورى اللبنانى على أحداث كوبرى عباس:
«أحداث مصر الدامية اليوم على كل لسان، وفى كل القلوب، فى سوريا ولبنان وكل البلدان العربية... كل عربى يحس تجاه مصر بعواطف خاصة. أى تلميذ من أيام دراسته الأولى لا يعرف الكلمة والثقافة المصرية؟ أى أديب عربى لم يتكون من مدرسة أساتذة وادى النيل؟ أى عامل، أى فلاح، أى ابن من أبناء الشعب لا يحس بحضور الفن المصرى حوله، فى القصة، فى المسرح، فى السينما؟ أى فتاة عربية شابة، أى عاملة لا تعرف اسم قاسم أمين والمفكرين المناضلين العرب الذين كانوا أول من طالب فى العالم العربى بتحريرها وضمان حقوقها. ليس هنالك غير مصر فى العالم العربى جديرة بأن تكون الطليعة والمعبرة عن آمال الشعوب العربية فى الحرية والوطنية والاستقلال والديمقراطية أمام العالم كله. عاش التضامن بين الشعوب العربية من أجل الجلاء والاستقلال والحرية والديمقراطية».
ارتكبت حكومة النقراشى مذبحة بشعة. وأحسست أنى اشتغل غيظاً لأننى لم أكن مع هؤلاء المتظاهرين الأبطال.

* * * *

10فبراير 1946 توجهت إلى الجيزة تطبيقاً لقرار تنظيمى صدر بالحشد فى الجامعة. كل زملاء وحدتى كانوا هنالك، وكذلك العديد من الوجوه التى أمكننى تخمين أنهم من جماعتنا. وكان إبراهيم هنالك أيضاً.
الخطباء فى المدرجات يثيرون الحماس والتحدى. وظهر فى الحرم الجامعى طلاب معصوبى الرؤوس، أو علقوا أذرعهم بالجبس فى أعناقهم.
تقاطرت المظاهرات من المدرجات إلى أمام المبنى الرئيسى للجامعة. ظهر أحد المعصوبين وقد لطخ الدم الأحمر القانى عصابته. كان يتحدث عن شهداء الأمس وضرورة مواصلة المسيرة.
همس طالب يقف ورائى:
-دا عبد المنعم الغزالى.
فرد عليه آخر:

-دا شيوعى.
لم ألتفت إلى الوراء. حاولت أن اقترب من الخطيب الدامى. كان يتحدث عن الذين ماتوا قتلاً بالهراوات أو هرساً تحت سنابك الخيل أو غرقاً فى النيل. انها مذبحة ارتكبتها قوات بلوكات النظام. كانوا يضربون الطلبة وكأنهم أعدى أعدائهم.
وانتصبت فتاة جميلة، لا تتعدى العشرين من العمر. تحدثت عن الاستعمار وعملاء الاستعمار وضرورة توحيد الصفوف الوطنية فى معركة لابد وأن ينتصر الشعب فيها، واشتعل الحرم الجامعى بالتصفيق.
وسمعت ذات الصوت خلفى مرة أخرى:
-ودى كمان شيوعية. لطيفة الزيات، بتاعة كلية الآداب.
ورد عليه آخر:
-والله؟؟
ربما كان آخراً غير الآخر الأول.
فأحسست أننا قوة قادرة على الحشد والإثارة. امتلأت حماساً واندفعت مع المندفعين خارج بوابة الجامعة حتى كردون البوليس، لنضربهم بالحجارة. ولنثأر لشهداء الأمس. كانت المعركة كر وفر، وهجوم وارتداد. وانضمت إلى بعض الزملاء، وكنا معاً نوقف اللوريات المحملة بالحصى أو الحجارة أو الطوب أو أى شيء يمكن استخدامه أداة قتال لنفرغه فى مكان للتخزين، توفيراً لاحتياجاتنا القتالية.
وفجأة دوى الميدان بالصراخ. كان الطالب محمد على قد أوقف سيارة محملة بالحصى، وتعلق بها ناحية السائق، الذى تظاهر بأنه ينفذ ما يطلب منه، وفجأة دفع بمحمد على ليسقط تحت العجلات ولينطلق المجرم هارباً بسيارته. وللحال حُمل محمد على فى سيارة أحد الطلاب، وصاح أحد ركابها قبل أن تنطلق «ع القصر العينى». حل بنا وجوم قاتل، كان يمكن لأى منا أن يكون محمد على. فجأة رأيت أنيس أمامى. قال أن محمد على فى القصر العينى الآن تحت حراسة مشددة من الزملاء. يجب الحشد فى القصر العينى. غداً نخرجه فى جنازة مهيبة. وأعطانى منشوراً للتوزيع. كان المنشور يدعو الطلبة إلى مقاطعة الاحتفالات التى ستجرى غداً بمناسبة حضور الملك فاروق لافتتاح

المدينة الجامعية.
وزعت المنشور وأسرعت إلى القصر العينى. دخلته مباشرة. كان هنالك عدد من الزملاء أخذ يتزايد فى سرعة. بدأ مباشرة الإعداد لاحتمالات الحصار أو الاقتحام. وصل أحد الزملاء وأكد أنهم قد سدوا كل المنافذ إلى كلية الطب. أنهم يمنعون الناس وخاصة الطلاب من المرور. وأن العملية تحت قيادة نفس الجزارين فيتزباتريك وسليم زكى. لابد أنهم يعدون لعملية اقتحام بهدف تخليص جثة محمد على وإفساد الجنازة الشعبية.
قررنا مهاجمة القوات الموجودة فى الشارع أمام المدخل الرئيسى.
اكتشفنا أن سطح كلية الطب ملىء بصناديق خشبية عامرة بأقطان قديمة أو مستعملة. وللحال أشعلنا النار فيها وألقينا بها من سور الكلية إلى الشارع فتقهقر الجنود.
فتحنا الباب الرئيسى وانطلقنا إلى الشارع. أسرنا تراموای کان يقف بالمحطة وقلبناه. كسرنا أعمدة الإنارة، فانطلق غاز الاستصباح من قواعدها فأشعلنا فيه النار.
فوجئنا بجنود بلوكات النظام يندفعون نحونا، لم يكونوا فى حالة هجوم ولكن فى حالة فرار. كان سكان المناطق المجاورة من أبو الريش والمبتديان ومصر القديمة والسيدة زينب قد شنوا هجوماً على الجنود فهربوا مذعورين ليجدوا الشارع يشتعل ونحن فى انتظارهم. حققنا وجماهير الشعب ثغرة خطيرة فى الحصار. غير أن تعزيزات متتالية بدأت تتدفق على المكان.
حل الليل وازداد الظلام كثافة وقتامة. وبدأ يشغلنى سؤال، هل سأقضى الليلة هنا، وإدوارد لا يعلم عنى شيئاً؟ ثم كيف يمكننى الخروج واجتياز كل هذا الحصار دون أن أسقط فى أيديهم؟
كنا قد عدنا إلى خلف سور كلية الطب. وارتفع صوت ميكروفون من الشارع. كان واضحاً أنه قادم من جهة القوات التى تحاصرنا. قال الصوت: افتحوا الباب لتستقبلوا أسرة الفقيد ومعها ضابط كبير للتفاوض معكم.
أصدر أحد الزملاء أمراً. صاح بأعلى صوته، مطالباً بإبعاد عساكر

بلوكات النظام من أمام البوابة، وإلا فإننا لن نفتحها.
حدث هرج ومرج فى الخارج، وابتعد الجنود مسافة مرضية، ففتحت البوابة واندفعت أسرة الشهيد فى بكاء مرير. يبدو أنهم والده ووالدته وأخواته وربما بعض الأصدقاء. قال الضابط كبير الرتبة:
-دول أسرة الفقيد محمد على، سلموهم الجثمان وينتهى كل شىء.
ينصرفون ومعهم فقيدهم كى يدفنوه بما يليق به، فاكرام الميت دفنه. وفى هذه الحاله أعدكم بشرفى أنكم سوف تخرجون من هنا وكأن شيئًا لم يكن.
أنبرى له من قال أنهم بلا عهد ولا شرف، قتلة شهداء كوبرى عباس. ثم انقض على الضابط وأمسك به من رقبته، معلنا أنه أسيرنا حتى تخرج بجنازة الشهيد.
وقفت أسرة الشهيد تبكى تتوسل:
-سلمونا ابننا حرام عليكو تخلوه معاكو كده.
وكادت أمه أن تقع منهارة. أمر الزميل، الذى كان يتصرف كمسئول، بقيادة الضابط الأسير إلى حجرة جيدة الحراسة. مع اليقظة الشديدة لأى تصرف منه.
ثم توجه بحديثه إلى أسرة الشهيد:
-أنتو لو خدتوه دلوقت، مش هتعدو من هنا أكثر من خمس خطوات وهيستولو عليه منكو. محمد على النهارده هو رمز المقاومه، وهمه مش عاوزين يسيبوه لينا ولا ليكو، عاوزين يدفنوه بمعرفتهم من غير ما حد يحس إن كنتو عاوزين يندفن مكرم معزز فسيبوه معانا. احنا زملاته.
وبكره نخرج بجنازته وانتو على رأسها ووراكو الشعب المصرى كله.
قال الأب وهو يكفكف دموعه المنثالة:
-يلا بينا نروح.
وصرخت الأم:
-وابنى؟
قال الأب وهو يتمزق:
-ابنك مع زملاته يا أم محمد.
وارتفعت أصوات نائحة. وبدأ الأسرة تتحرك صوب البوابة. ووجدتنى أسير فى ركابها كواحد منها. خرجنا من الباب الرئيسى إلى الشارع،

حيث كان هنالك ضابط فى انتظارهم. وقبل أن يسأل عن زميله جاءه الرد من داخل الكلية:
-خابطكوالكبير أسير. وعليكو ألا تقدمو على أى أعمال حمقاء.
وصرخ الضابط المرافق، لا أدرى حنقا، أم اعجاباً:
-يا ولاد الكلب.
وكدت أضحك فى قلب هذا الموكب الحزين.
قالت الأم فى حنان بالغ:
-يا بنى يا ضناى. ياللى كنت متمنياك من الدنيا. يا ترى أنت فين دلوقت يا حبيبى.
وربت الأب على كتفها مواسياً:
-محمد ابنك شهيد، والشهدا فى الجنه.
وصلنا كردون الجند فأمر الضابط الذى يرافقنا بفتح طريق لهم ولى معهم. قال الضابط وهو يشد على يد الأب:
-البقية فى حياتكو. ربنا معاكو وأنت يا ست ابنك شهيد الوطن.
ثم استدار واندفع فى الظلام حيث كان.
إجتزنا الكردون ورأيت هنالك سيارات فى الانتظار بعضها فارغ، وبعضها ملىء بالجنود، وكأن هنالك إعداد لهجوم كاسح. ما أن غادرت الكردون حتى أسرعت الخطى، لا خوفاً من الجنود، ولكن خوفاً على إدوارد أخى. لقد غادرت المنزل صباحاً دون أن أخبره بأنى سأتاخر. والآن تجاوزت الساعة العاشرة ليلاً. لابد أنه فى أسوأ حال.
عندما بلغت السطح، وجدت السكان جميعاً مكدسين فى حجرتنا. وما أن رأونى حتى صرخوا فى صوت واحد:
-كنت فين يا راجل. أخوك مرعوب عليك. واحنا ركبنا الخوف والهم. طلبه الجامعة اليومين دول يا مقتول يا مسجون. ولا حد بيعرف لحد جره.
وصرخ إدوارد:
-كنت فين يا أخى. مش تقول لما أنت هتتأخر.
ولزمت الصت حتى صمتوا. وأفسح أحدهم لى مكاناً فجلست فيه. وبدأت أقص عليهم ما جرى حتى وصلت إلى السائق عندما دفع محمد على

-استريح النـ

-لازم أرو

فيتزباتريك هذا وسليم زكى، رمز الاستعمار ورمز العملاء، فيكونا عبرة وعظة للآخرين.
أخذت تراموای 15 إلى الكلية. ما أن بلغ كوبرى الزمالك حتى توقف. كان هنالك كردون من الجنود يسد الكوبرى عند منتصفه، وكمين من الضباط يعيد الطلبة من فوق الكوبرى.
قال أحد الطلبة:
-ولو يلا بينا نعدى من حته تانيه. أصل الحكومه أصدرت قرار بقفل الجامعه.
واندفعنا معاً نهرول على امتداد الضفة الشرقية نبحث عن مراكبى يعبر النيل بنا. عثرنا على قارب بعد كوبرى الزمالك بقليل. لم يتكلم المراكبى. لم يقل شيئاً عبر بنا النهر على الفور، وكأننا لم نكن الفوج الأول الذى حمله إلى البر الغربى.
رفض بشدة أن يأخذ منا نقوداً أحسسنا وكأننا قد أهناه، قال:
-انتو مش طلبة جامعه؟
-أيوه.
-يبقه خلاص.
قلنا فى دهشة:
-خلاص إيه؟
-يبقه خلاص وبس.
وأدركنا ما يعنى. قلنا:
-بس دا رزقك ورزق عيالك.
قال مستنكراً:
-دا ولا حاجة. دانتو مقدمين أرواحكو. روحو ربنا يبارك فيكو ويقويكو.
أحسست بقوة عارمة تملؤنى. اندفعنا لنأخذ الترامواى إلى الجامعة. كان الكمسارى جالساً لا يحرك ساكناً. مد الطالب الجالس إلى جواره يده إليه وقال:
-تذكرة لو سمحت.
نظر الكمسارى إليه ملياً وتساءل:
-أنت مش طالب فى الجامعة يا بنى؟

مجلس الأمن حيث لمصر حلفاء وأصدقاء يساندونها ضد الاحتلال البريطانى.
أعداد متزايدة من طلبة الجامعة والمعاهد والمدارس الثانوية ينضمون إلينا، لكن العديد منهم أيضاً يشارك بعض الشىء ثم يسرع إلى المحاضرات، والبعض لا يشاركون على الإطلاق. يتأملوننا فى توجس ثم يسرعون إلى المدرجات.
اليوم 15/2 يوم الجمعة. الجامعة مغلقة. دعت اللجنة التنفيذية العيا إلى صلاة الغائب على أرواح الشهداء فى كل المساجد. وقد أقيمت الصلاة فى الجامع الأزهر أيضاً. السفير البريطانى يتقدم بمذكرة إلى الملك بضرورة «إقالة وزارة النقراشى لعجزها عن حفظ الأمن والنظام».
ويرضخ الملك.
استقالت حكومة النقراشى فى ذات اليوم. وعين الملك إسماعيل صدقى باشا عدو الشعب رئيساً للوزراء. وقد سعى على الفور إلى الاتصال بالإخوان المسلمين للتأكد من دعمهم له باعتبارهم حلفاء رئيسيين.
ودعت أخبار اليوم الشعب والطلاب إلى دعم صدقى باعتبار أن «صدقى اليوم غير صدقى الأمس». لهذا يجب مساعدته بالسير خلفه والالتفاف حوله... بعيداً عن الأحزاب والمصالح الذاتية». وعزف على ماهر، رئيس «جبهة مصر» ورجل السراى، على نفس النغمة داعياً الشباب «إلى الاتحاد بلا تخرب من أجل الوطن».
ورأت المنظمة أن ذلك انتصار لنا دون شك، إذ سوف يرتبط اسم تلك الحكومة إلى الأبد، بمجزرة كوبرى عباس. غير أن مجىء صدقى المعروف بارتباطاته الاستعمارية وديكتاتوريته، يوضح أن الملك قد جاء بقائد للحكومة أكثر حنكة وخبرة، وأشد عداء للحركة الوطنية، فى الوقت الذى يبدو فيه أنه قد أزاح حكومة دموية استجابة للرغبة الشعبية.

* * * *

17 فبراير 1946: اجتمعت اللجنة التنفيذية العليا للطلبة لتقييم المرحلة التى مضت ووضع خطة عمل للمرحلة القادمة. وأصدرت بياناً تعلن فيه أن «الدم لم يرق لإقالة حكومة، بل من أجل الجلاء ووحدة وادى النيل، من أجل النضال المشترك مع الشعب السودانى وحقه فى تقرير مصيره».

وطالب البيان «بالرد الشعبى على مذبحة كوبرى عباس، المذبحة التى دبرتها ونفذتها القوى الحاكمة الحليفة للاستعمار البريطانى ضد الشعب بغية إرهابة ومنعه من المطالبة بحقوقه المشروعة».

جاء البيان ميثاقاً يطالب بـ: «الجلاء التام براً وبحراً وجواً من كل شبر من أرض وادى [illegible] لية القضية المصرية. التحرر من التبعية الاقتصادية». و [illegible] لميثاق ببيتين من الشعر:

«إذا اسعب يوماً أراد الحياة*فلابد أن يستجيب القدر**

ولابد لليل أن ينجلى*ولابد للقيد أن ينكسر»**

فى هذا اليوم أعلن تشكيل اللجنة الوطنية للطلبة والعمال، فى ملعب كلية الطب بالقصر العينى، من خلال اجتماع مشترك للجنة التنفيذية العليا للطلبة، واللجنة التنفيذية لمؤتمر نقابات مصر.

كانت تلك جبهة وطنية ضمت المنظمات الشيوعية المصرية وأهمها «الشرارة» و»الحركة المصرية للتحرر الوطنى «والطليعة الوفدية»، وعناصر وطنية مستقلة لها دورها الجماهيرى. كما تم الاتفاق على ضرورة تشكيل لجان فرعية للجنة الوطنية فى مراكز تجمع الطلبة، فى الكليات والمدارس، وفى مراكز تجمع العمال، فى المصانع. وأن هذا الشكل الجبهوى هو المسئول عن قيادة العمل الوطنى.

وقد تشكلت بالفعل لجاناً فى الأزهر، ومدرسة الظاهر الثانوية، وفى حى الحضرة فى الاسكندرية.

وأحس الطلبة أن قوة هائلة قد انضمت إليهم هى قوة العمال مما سيكون له أثره على قدراتهم النضالية.

* * * *

19 فبراير 1946: أصدرت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال بياناً جاء فيه:

«قررت نقابات العمال بالقطر المصرى، وطلبة الجامعات المصرية والأزهر والمعاهد العليا والمدارس الخصوصية والثانوية أن يكون يوم 21 فبرارير 1946 يوم الجلاء يوم إضراب عام لجميع هيئات الشعب وطوائفه، يوم استئناف للحركة الوطنية المقدسة التى تشترك فيها كل عناصر الشعب المصرى متكتلة حول حقها فى الاستقلال التام والحرية الشاملة، يوم أشعار المستعمر البريطانى والعالم الخارجى أجمع أن

المصرى قد أعد عدته للكفاح الإيجابى حتى ينجلى كابوس الاستعمار الذى ظل جائماً على صدورنا منذ 64 عاماً. يوم هو وثيقة فى يد المفاوضين المصريين يقدمونها دليلاً للمستعمر على أن الشعب المصرى مصمم على ألا يتخلى لحظة... يوم يقظة عامة للشعب المصرى يؤكد فيه أنه لن يقبل أى انحراف أو تهاون فى حقه فى الاستقلال والحرية، يوم تتعطل فيه المرافق العامة، ووسائل النقل والمحلات التجارية والعادية، ومعاهد العلم والمصانع فى جميع أنحاء القطر. إن جلال هذا اليوم يهيب بنا جميعاً ألا ننحرف بقضيتنا المقدسة إلى شغب أو تخريب أو إخلال بالأمن العام. فلنرفع جميعاً لواء الوطن عالياً، ولنثبت وحدتنا التى لا تنفصم عمالاً وصناعاً وطلبة وتجاراً وموظفين، شعباً متكتلاً يرفع عن نفسه وصمة الذل والاستبعاد».

فى هذا اليوم أعلنت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال عن نفسها، عندما حمل قادتها ذلك البيان التاريخى إلى الصحف. أعلنت اللجنة عن تمثيلها لجماهير العمال والفلاحين رداً على مذبحة كوبرى عباس، وأن يكون يوم 21 فبراير هو يوم الجلاء.

ذهب حسين كاظم ومعه أعضاء من اللجنة إلى جريدة الأهرام. قابلهم انطوان الجميل. قرأ البيان وتساءل:

-أنتم وفديون؟

-لأ.

-من تمثلون إذن؟

-نحن زعماء الطلبة المنتخبين من كلياتهم ومدارسهم، وزعماء العمال المنتخبين من مصانعهم ونقاباتهم.

وقال سكرتير التحرير الذى كان جالساً:

-لكن البيان خطير ويدعو إلى إضراب عام فى كل أنحاء البلاد. وإن لم يستجب الشعب لكم سيكون مصيرنا ومصيركم السجن.

وقال أعضاء اللجنة فى نفس واحد:

-بل سوف يستجيب الشعب.

وسأل انطوان الجميل فى هدوء:

-وماذا إذا لم ننشر لكم البيان؟

-سوف تطبعه النقابات ويوزع على المصانع. ويطبعه الطلبة ويوزع على الكليات والمدارس. وعلى أى حال فإن الدكتور مندور سوف ينشر البيان. إنه دعوة سلمية من أجل الجلاء. مما يؤيد موقف المفاوض المصرى.
وابتسم انطون الجميل وقال لسكرتير التحرير:
-أنشر هذا البيان.
ونشرت جريدة الأهرام البيان يوم 20/2/1946.
لم يكن أحد يتصور استجابة الشعب لمثل هذا البيان.

* * * *

جاءنى أنيس بالبيان حقيبة مليئة. قال، لابد وأن يوزع فوراً فى الأحياء. برق فى ذهنى نفق شبرا. سنعمل من قلبه، هو مظلم إلى حد كبير، ولم يستطيع أحد ملاحقتنا. قلت لأنيس أن لدى خطة، رفض بشدة أن أعرضها عليه. قلت له أننى احتاج إلى أربعة زملاء غيرى. فكر ملياً ثم قال أنه سيرسل أحد الذين أعرفهم ومعه ثلاثة آخرين. اتفقت معه على موعد ومكان اللقاء بعد المساء.
التقينا نحن الخمسة وتوجهنا فرادى إلى منتصف النفق. التقينا عند السلم الذى يصعد من أرضية النفق إلى سطحه. كان على أحد الزملاء أن يظل هنالك ومعه حقيبة المنشورات. وكان على اثنين آخرين أن يتوجه واحد منهما إلى المحطة السابقة على النفق من ناحية شارع الملكة نازلى، والآخر على المحطة السابقة على النفق من ناحية شارع شبرا الرئيسى. وكان على الرابع وأنا أن نظل فى منتصف النفق تماماً. واحد للترامواى الداخل إلى شبرا. والآخر للترامواى المغادر شبرا. وكان علينا أن نتزود بالمنشورات وأن ننتظر.
كان على الزميلين أن يأخذ كل منهما الترام المتجه إلى النفق أن دخولاً أو خروجاً من شبرا. وأن يقف إلى جوار حبل سنجة الترامواى. حتى إذا اقترب من منتصف النفق شد السنجة ليقف الترام ويظلم تماماً. وتكون تلك هى فرصتى وزميلى لإغراق الترامواى بالمنشورات. وكان على الزميل الذى يشد السنجة أن يبتعد عنها فوراً ويترك إعادتها للكمسارى حرصًا على الأمان ويغادر فى المحطة التالية ليعود مع الاتجاه الآخر وهكذا.

واتفقنا أنه فى حالة إيقاف الترامواى، وعدم إغراقه بالمنشورات، فإن ذلك يعنى أن المهمة قد انتهت. ويصبح كل منهما حراً فى تصرفه، فى الوقت الذى يكون فيه نحن الثلاثة أسفل النفق قد غادرنا المكان.
ونفذت العملية بنجاح ساحق. ووصل المنشور إلى كل مكن تصله ترامو ايات شبرا، إلى روض الفرج والساحل، شبرا مصر وشبرا البلد، العباسية مروراً بالظاهر وغمرة والسكاكين، والعتبة مروراً بالإسعاف ووسط البلد، ومصر القديمة وفم الخليج مروراً بميدان الإسماعيلية وشارع القصر العينى، والمبتديان والسيدة زينب.
كان ذلك يوم 19/2 ووزع زملاء آخرون المنشور فى صناديق البريد، وتحت أعقاب الأبواب.

* * * *

قابلت أنيس فى الكلية فى الجيزة. أسرع، إلى أين؟ لا أدرى، وعاد ومعه رزمة من مجلة قال إنها «صوت الطالب». وعلينا بيعها. بدا الأمر غريبًا. قلت له من الأفضل أن نعطيها لبائع الجرائد فهو الأقدر على تلك العملية. قال، أن هذا صحيح، لكن بائع الجرائد يأخذ نسبة من ثمن البيع نحن أولى بها، كما أن البيع ليس عملية تجارية، إنه عملية سياسية. فتلك مجلة تدافع عن الطبة المصريين.
وقفت أمام بوابة الجامعة لا أدرى ماذا أفعل. انقذنى زميلان كانا يسبقاننى وقد أمسك كل منهما بنسخة من المجلة يقدمها للطلبة الداخلين أو الخارجين ويقول مبتسماً: صوت الطالب، صوت الطالب، مجلة وطنية، مجلة رابطة الطلبة المصريين. ووجدت نفسى أبيع ما معى احتماء فى إعلانهما البيع السياسى هذا، وحوار الطلبة معهما حول المجلة والرابطة.
وحملت النقود إلى أنيس وأنا فى غاية الغضب، قلت له وأنا أسلمه الثمن:
-إزاى يا زميل تخلينى أبيع مجلة ناس تانيين، اسمهم رابطة الطلبة المصريين؟
وهز أنيس رأسه معتذراً:
-أنا آسف. كان لازم أقولك على رابطة الطلبة المصريين. هيه تنظيم طلابى علنى لمنظمة الشراره. هيه تعبير عن تنظيم حزبى متخصص: لكنها جزء أساسى من المنظمه.

واسترحت. أحسست أن منظمتنا أكبر وأكبر مما أعرفها. وكان هذا أمراً يثير فىّ شعوراً عميقا بالسعادة.

* * * *

طوال الأيام الماضية والدراسة معى متقطعة. هى فى العباسية أكثر انتظاماً عنها فى الجيزة. أبذل مجهوداً رهيباً حتى استوفي المحاضرات التى لا أحضرها، أو أحضرها ولا أستطيع متابعتها جيداً، فتبدو مليئة بالفراغات والثغرات.

الدكتور مصباح أحد مدرسى الجيولوجيا يجرى لنا أحياناً اختبارات شفوية فتزيد الأمور تعقيداً. إنه يلتقط، وهو فى طريقه إلى الكلية، بعض نفايات الشارع، كسرة طوب أحمر، قطعة زجاج «مشطوفة»، بقايا خلطة أسمنتية. ويضع تلك الأشياء أمامه فوق المنضدة، يرصها بعناية وبمنتهى الاهتمام، ويختبرنا. ويأخذ كل منا فى الشرح والتنظير، متصوراً أن الأمر جد لا هزل فيه. ونجهد رؤوسنا فى تكوينات صخرية لا علاقة لها بتلك الفضلات، وهو يراقبنا من تحت جفنيه فى سخرية.

والأستاذ مصباح يكره الإناث، ويرى أن وجودهن فى قسم الجيولوجيا رجس من عمل الشيطان، وأن مكانهن الطبيعى والواجب هو خلف الجدران، فكيف بهن يردن اقتحام البيد وامتطاء الرواسى. ولم ينقذهن شىء منه غير إرساله فى بعثة إلى فرنسا.

الكلية غنية بأستاذة عظام فى مختلف الأقسام، غير أنه يوجد فى قسم النبات أستاذ يتعامل معنا بجفاء، ينظر إينا فى عداء. وهو واثق، دون أن ندرى لماذا، من أننا نحتقر مادته. من أين جاء بهذه الفكرة الخرفاء، لا أحد يدرى أيضاً. أنه يتصور أننا لا نحترم مادته، كما يجب، لأننا سنتركها فى السنة الأولى. وبالتالى فهى ليست مادة مؤثرة فى دراساتنا.

دخل علينا أثناء حصة عملى نبات. كان كل واحد منكباً على المجهر يدرس ما تحت عدسته من قطاعات، ما عدا واحداً منا كان قد خلع معطفه (الأبيض)، وأخذ يتمشى فى الطرقة بيننا، دون أن يسبب أى شىء لأى واحد منا، سأله فى غضب:

-أنت بتعمل إيه؟

أجاب فى هدوء:

-أنا خلصت شغلى.

سوف يكون هنالك أماكن محددة للحشد، ومسئولون محددون من اللجنة الوطنية للطلبة والعمال وفروعها، يربطون هذه الحشود ببعضها البعض، ويحددون خط سير المظاهرات وحركتها وشعاراتها. وتحديد الذين سيهتفون مع تنبيه صارم بألا يردد أحد أى شعارات يطلقها أى من غير هؤلاء المحددين. إذ لابد أن تقوم الدولة ورجال الخندق الآخر، السعديين والدستوريين ومصر الفتاة وقطاعات من الحزب الوطنى والسراى والإنجليز وعلى رأسهم الإخوان المسلمين، بمحاولة الإندساس وإفساد المظاهرة. وكنت واحدا ممن اختيروا لقيادة الهتاف فى حشد كلية العلوم والإعدادى طب.

الخميس 21 فبراير 1946: استيقظت مليئا بالحماس والتوجس. أخشى ألا تتحقق تقديراتنا. مصر كلها تتحفز اليوم لوثبة هائلة. يجب أن يسمع كل إنجليزى وأجنبى على أرض مصر صرخة اليوم «الاستقلال التام أو الموت الزؤام».

استيقظ أدوارد رغم حرصى الشديد ألا أوقظه. تساءل وهو ما يزال نائما:

-إنت رايح فين ع الريق كده؟

-أبدا رايح الكليه فى الجيزه. ودا مشوار طويل زى ما أنت عارف.

توقفت ثم أكملت:

-بس ما تقلقش لو أتأخرت شويه النهارده.

نهض جالسا وهو يدعك عينيه.

-لا بقه، دا لازم فيه حاجه النهارده. وقلقك طول ما أنت نايم، وصحيانك بدرى. وأديك نازل من غير كتب ولا كشاكيل.

واغتظت منه حقا.

-أيوه يا أدوار. النهارده فيه أكبر مظاهره فى تاريخ مصر. البلد كلها هتشارك فيها وإنت مش دريان.

قفز من فوق السرير ليقف فى وسط الحجرة. لكننى اندفعت خارجا وسمعته وصوته الخائف المشفق يلاحقنى، وأنا أهبط السلم:

-فخرى، فخرى، خد بالك من نفسك.

أسرعت إلى الشارع. لم تكن هنالك أية مواصلات. والناس يتحدثون عن

إلى ميدان الإسماعيلية.

* * * *

اجتمعت فى شبرا الخيمة، فى قهوة المعلم عوف فى الثالثة فجرا اللجنة الفرعية للجنة الوطنية للطلبة والعمال، لوضع اللمسات الأخيرة للحشد العمالى من شبرا الخيمة وقليوب إلى ميدان الإسماعيلية، مرورا بشارع شبرا، ثم شارع الملكة نازلى، والتنبيه على المندوبين وحاملى اللافتات.
ذلك هو المحور الثانى من الزحف.
وفوجئ العمال بحضور إسماعيل صدقى، الذى قال لهم بعد أن سلم عليهم، أنه يعرفهم واحدا واحدا، وكان فى وسعه أن يصدر أمرا بالقبض عليهم. «انتم تقولون اننى خائن وعميل، لكننى لا أقل عنكم وطنية، فأنا موافق على الإضراب، وعلى المظاهرة بشرط النظام والالتزام به».
فى السابعة صباحا خرجت الورديات المسائية. انضمت إليها الورديات الصباحية، وانتظم العمال جميعا كل فى مكانه وتحت اللافتة الخاصة بمصنعه.
ثم تشكيل لجان للمصانع، لمواجهة أية محاولات تخريبية من القيادات العميلة والإنتهازية.
وفى الثامنة صباحا بدأت المسيرة ريحا عاتية إلى شبرا مصر، حيث شكلت مدرسة التوفيقية الثانوية القاعدة الأساسية لتجمع المدارس الثانوية: مدرسة النيل، مدرسة شبرا، فاروق الأول وفؤاد الأول والإسماعيلية. وكذا عمال روض الفرج.

* * * *

انطلق المحور الثالث من الأزهر حيث شكل نقطة تجمع لكل طلبة الأزهر وعمال العباسية وغمرة والظاهر والمطرية.
مظاهرة ساخنة داوية تنطلق من الأزهر قوامها آلاف مؤلفة.
ويظهر أحمد حسين، زعيم «مصر الفتاة» محمولا على أعناق أنصاره، وهو يهتف، «لا حزبية بعد اليوم»، ليرد عليه المتظاهرون «لا فاشية بعد اليوم»، «يسقط الاستعمار وعملاء الاستعمار»، «الجلاء بالفداء والدماء»، «لا مليك إلا الله».
ويدفع بأحمد حسين ومن معه إلى خارج المظاهرة التى تواصل سيرها إلى ميدان الإسماعيلية.

رأس قوة مصرية لحمايتنا، وكل ما يطلبه منا هو الانفضاض الفورى إنقاذا لأرواحنا من تلك المذبحة. سألناه أين القوات التى ستحمينا، فأشار إلى جنود بلوكات النظام فهجمنا عليهم، فصاح البعض منهم:

-إحنا معاكو، احنا معاكو.

انتزعنا منهم البنادق وللحال اكتشفنا أنها فارغة. وانتهز إسماعيل صدقى الفرصة وفر فى سيارته. وانكمش جنود بلوكات النظام ينظرون إلينا فى خوف وحزن لتنطلق بهم سيارتهم إلى خارج الميدان.

الإعصار يتضاءل رغم الإمدادات البشرية من السيدة زينب وعابدين.

تفرقت المظاهرات مجموعات مجموعات فى الشوارع الجانبية والفرعية، هاتفة عاصفة حتى تلاشت.

الرابعة عصرا. توقف إطلاق الرصاص. فرغ الميدان. لم يبق فيه غير الدماء تكسو أرضيته وقد تخثرت، السيارات والأخشاب وأطراف القشلاق المحترقة وأنفاس الآلاف، ومنها آخر أنفاس الشهداء الذين سيظلون إلى أبد الدهر فى هذا المكان، وزئير الهتاف الذى لن يختفى.

أحس وأنا أجرجر نفسى عائدا إلى منزلى بشبرا، إلى حجرتى فوق السطح، أن الدوامة الجارفة مازالت تمسك بتلابيبى. هذا الحشد الهائل الخرافى، هل ذهب أدراج الرياح؟! وكذا تلك المعركة البطولية التى قاتلنا فيها البريطانيين، وواجهنا القشلاق بكل جبروته، بأيدى عارية؟ هل ذهبت هدرا تلك الدماء التى يمتصها الميدان الآن قطرة قطرة ليحفظها طاهرة فى ثناياه إلى يوم الدين؟ وهذا السودانى الذى طار كفه ماذا حل به؟ وماذا حل بالجرحى والشهداء؟

عندما وصلت جثث الشهداء إلى ديارها فى الأحياء الشعبية، خرجت النساء متشحات بالسواد وهن يصرخن ويهتفن «ولادنا فدى الوطن» «ولادنا فدى الوطن».

أنا الآن أفيق من الدوامة. ذلك يوم فى العمر لا مثيل له. يوم مجيد مجيد. أنا مندهش كيف نجوت؟ كيف أفلت وأنا فى قلب هذا الجحيم؟ كنت محمولا عندما أقتحمت السيارات البريطانية المظاهرة، فهبطت واندفعت فى جنون أطاردها. وكنت إلى جوارها عندما بدأ المتظاهرون سحب الجنود وضربهم. وكنت هنالك عندما بدأ إطلاق النيران من القشلاق،

وغمست منديلى وقطعا من ملابس الجنود فى البنزين وألقيت بها مشتعلة على القشلاق. وكنت هنالك أمام السور ساعة احترق وبدأت رشاشات القوات الجوية إطلاق نيرانها. وكنت هنالك ساعة جاء إسماعيل صدقى فى وسط الميدان. كيف نجوت؟ كيف أفلت؟ إننى لو كنت أصبت لما دريت! وإن كنت قتلت لما أحسست! الجرح العشوائى جرح، والموت العشوائى موت. لماذا هذا وذاك وأنا لا؟! كان من الممكن أن أكون الآن راقدا فى واحدة من المستشفيات أو قتيلا راقدا فى المشرحة، ولا أحد يدرى ما حل بى.

رائحة الميدان تملأ خياشيمى، الدم والحريق وأنفاس الآلاف. مازالت هالة من تلك تصاحبنى. وصلت إلى منزلى، ولا أدرى كيف وصلت! وصعدت إلى حجرتى، لا أدرى كيف صعدت!

رأتنى الإبنة الصغرى لصاحب المنزل فصرخت بأسمى، ثم انطلقت تقطع السلم فى درجات. وخرج الجميع من حجراتهم فوق السطح فامتلأ بهم. كان إدوارد أحمر العينين يكاد يبكى. وأدركت لأول مرة، كيف كان شكلى وكانت هيئتى من نظرات الجيران التى فاضت بالدهشة والذهول.

قالت جارتى التى أمامى وهى ترتجف:

-إيه اللى حصل. الأخبار اللى سمعناها كلها رعب.

ونظرت إليها ولم أجب.

أنا عائد من عالم آخر تماما. من دنيا غير دنياهم. أمسك أدوارد بيدى وتساءل:

-إيه اللى عمل فيك كده؟

كان ينظر إلى ملابسى ويدىّ وحذائى. كان قميصى خارجا من السروال، ونقاط دم حمراء على كفى وحذائى. نظرت إلى نفسى وكأنى أراها لأول مرة. من كنت؟ ومن أنا الآن؟ هززت رأسى واعتذرت.

قلت، أود أن أنام. قال إدوارد أغسل وجهك أولا. تساءلت عما فى وجهى. قال إدوارد:

-صماد وساد وشعرك منكوش وزى الهباب.

قلت وقد فاض بى الإرهاق:

-أنا تعبان. عاوز أنام.

أنا أدرك تماما أن كلامهما صادر عن خوف على ومحبة لى. لكنهم هنا بعيدا فى عالم يعالج المسائل عن بعد. لم أشأ أن ألومهم، لكننى قلت بأسى أننا لسنا فى معركة سباق تتابع، نحن فى معركة مصير وهى معركة صعبة جدا، المشارك فيها لا يضع الموت فى حسبانه هو يضع الغد نصيب عينية، والغد لا يموت أبدا.

غادروا وهم يتمنون لى كل خير.. وعاد سامى ليقدم لى جرايد اليوم.

* * * *

الصحف لم تقدم جديدا عما عشته ورأيته فى القاهرة، غير أن هنالك أخبارا عن اشتراك الآلاف من الشباب والطلبة والأهالى فى الإسكندرية، واحتشادهم فى ميدان إسماعيل ومحرم وكرموز والرمل وغيرها من الأحياء، وهم يهتفون بنداء واحد الجلاء. وقد توقفت وسائل النقل وتعطلت دور العلم والصناعة والمتاجر.

وصدر بيان بريطانى يقول أن جموعا كبيرة من الدهماء قد وجهت اهتمامها إلى المنشآت البريطانية وأندية قواتها، وإشعال النار فيها، فأُحرق نادى أفريقيا وأُصيب كل من نادى النصر وفندق سيسيل.

وأعلن تصور للسفير البريطانى يقول، أن تلك المظاهرات إنما هى من تحريض الملك ضدهم إنتقاما لحادثة 4 فبراير.

* * * *

قامت الفتيات فى القاهرة بمظاهرة فى ميدان عابدين قبل الظهر وهتفن بالجلاء ووحدة وادى النيل وبايعن الشباب على الوقوف معهم والتضحية فى سبيل كرامة الوطن ووحدته.

* * * *

وقف عبد الفتاح الشلقانى، وكيل نقابة المحامين، فى محكمة عابدين الوطنية برئاسة محمد البكرى القاضى، وطالب بالتأجيل لإضراب المحامين تضامنا مع الأمة فى طلب الجلاء واستنكار موقف بريطانيا ووحشية جنودها ورعاياها. وقد أثبت القاضى ذلك فى محضر الجلسة، ثم أثبت رده أيضا. هذا الشعور النبيل، شعور الإيمان بالوطن وحقوقه. هذه اليقظة الشعبية الباهرة وهذه الصيحة الكريمة المدوية. بارك الله شعب وادى النيل. حفظ الله الملك العظيم وبارك للنيل فى أبنائه ورجالاته وقادته وزعمائه أجمعين.

26فبراير 1946: عقدت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال اجتماعا، وأصدرت بيانا نبهت فيه إلى خطورة وجود القوات البريطانية فى المدن الكبرى، وطالبت بضرورة انسحابها منها. كما وافقت على اقتراح اللجنة التنفيذية بتحديد يوم 4 مارس لإعلان الحداد العام. وأرسلت وفدا من ثلاثة أعضاء لمطالبة رئيس الوزراء بالإذن بجنازة صامتة. استقبلهم إسماعيل صدقى فى وزارة الداخلية ورفض معتذرا بأن الإنجليز هددوا بالتدخل إن سمح بأية مظاهرات. وأن القوات البريطانية سوف تنزل الشارع لمنعها بالدبابات. وطالبهم أن يتركوه يعمل فى هدوء.
رد الوفد عليه قائلا: «فى هذه الحالة ما على الحكومة إلا أن تصرح بحمل السلاح». وأصدرت اللجنة الوطنية بيانا أكدت فيه إصرارها على موقفها، ودعت الهيئات المختلفة للاشتراك فى إعلان الحداد. وأن يكون الهدوء شاملا حتى لا نمكن للغاصب من تشويه هذا اليوم».

* * * *

حاول إسماعيل صدقى شن هجوم مضاد، بعد فشله فى النيل من اللجنة الوطنية أو اللجنة التنفيذية، فلجأ إلى الإخوان المسلمين، حلفائه، لتشكيل اللجنة القومية العامة» من جماعة الإخوان المسلمين وجبهة مصر وجماعة مصر الفتاة، وحزب الفلاح الاشتراكى، وجمعية الشبان المسلمين وشباب الأحرار الدستوريين والسعديين.
وأعلن المركز العام للإخوان المسلمين عن تكوينها فى 28 فبراير 1946. وأعلن المشاركون فى اللجنة القومية خلع جزبياتهم المختلفة، وتوجههم بقوميتهم نحو المصلحة العليا للوطن. ودعت اللجنة إلى ترك السياسة للسياسيين، وإعطاء الفرصة للمفاوضين. كما دعت اللجنة الشعب إلى وقف مظاهراته/ وما يقوم به من أعمال ضد الاستعمار، وأن تُترك الفرصة لإسماعيل صدقى لتحقيق مطالب الشعب فى الحرية.
وأصدرت رئاسة مجلس الوزراء فى ذات اليوم بلاغا رسميا أعلنت فيه التزامها بقرارها بمنع المظاهرات لا سيما الطلبة والعمال الذين عليهم ألا يقوموا بأية مظاهرة.

* * * *

28فبراير 1946: تشكلت فى لبنان لجنة طوارئ من كل النقابات والأحزاب للتضامن مع الشعب المصرى. وقامت فى 28/2 مسيرة

وشارك الأجانب فى الحداد بتغطية لافتاتهم الإفرنجية. كما شارك الموظفون والقضاة ورجال النيابة وأعلنت وزارة الأوقاف الحداد.
ووصلت موجة الحداد إلى كلية غوردون بالسودان، وطلبة مدرسة فاروق الأول الثانوية فى الخرطوم. وأعلنت الشعوب فى سوريا ولبنان وإمارة شرق الأردن وفلسطين الحداد العام. وخرجت المظاهرات الجماهيرية تحمل الأعلام المصرية تضامنا مع مصر. كما شارك فى الحداد محامو سوريا، ومجلس نواب العراق، والهيئة العربية العليا فى فلسطين، وعمال السودان.

* * * *

عقد أعضاء جمعية الشبان اليهود المصريين مؤتمرا، وأصدروا بالإجماع قرارا بتضامنهم فى المطالبة بالجلاء ووحدة وادى النيل، ومشاركة أسر الشهداء مصابهم الذى هو مصاب الأمة كلها. وأقاموا بهذه المناسبة الصلوات فى جميع المعابد يوم السبت تخليدا لذكرى الشهداء. كما قررت الجمعية الاشتراك فى جمع التبرعات لأسر الشهداء.
ونشر الجامعيون المصريون اليهود بيانا وقعه عنهم طالب من الطب، وآخر من الآداب، وثالث فى الهندسة. وقد جاء فيه:
«تحت خرافة الوطن المقدس، وأرض الآباء والأجداد، غررت الصهيونية بملايين العمال والفلاحين اليهود... ها نحن المثقفون اليهود، وقد تبينا لعبته (الاستعمار) وأدركنا خطرة وخطر الصهيونية، لن نسمح أن تفرق صفوفنا نحن المصريين، ولنكن يدا واحدة مسلمين ومسيحيين ويهود، يد قوية تدك صرح الاستعمار. نكافح مع المناضلين العرب للتحرر من الاستعمار وذنبه الصهيونية، وحتى تسقط الصهيونية وتبقى فلسطين حرة. ها نحن الطلبة اليهود المصريين ننزل إلى الميدان مع زملائنا العمال والطلبة، لنعلن احتجاجنا وسخطنا على الاستعمار والصهيونية. عاشت مصر حرة، عاشت فلسطين حرة.

* * * *

وأصدرت اللجنة الوطنية بيانا يوم 4 مارس جاء فيه:
«حلودا لكم يا شهداء الوطن. اليوم أعلنت مصر من أقصاها إلى أقصاها أنكم فى كل قلب، رمز لجلال الفكرة الوطنية المقدسة. اليوم سكنت

إنزعجت السلطات البريطانية انزعاجاً حقيقياً بسبب أحداث الأسكندرية. أحست أن هنالك قوة شعبية حقيقية وخطرة. وكتب السفير البريطانى لورد كيلرن حول هذا اليوم يقول:

«حدث هجوم وحشى يوم 4 مارس ضد المنشآت الإنجليزية، وكذلك ضد العاملين الإنجليز فى الأسكندرية. ومن ثم لقى جنديان إنجليزيان مصرعهما فى هذا الهجوم الوحشى».

شعر البريطانيون بالهزيمة. وأجبروا على اتخاذ قرار لم يتخذوه طوال أربعة وستين عاماً. إذ جلوا عن المدن الكبرى كالقاهرة والأسكندرية إلى مدن القناة. وكان ذلك انتصاراً رائعاً للجنة الوطنية للطلبة والعمال، وللنضال الذى خضناه جميعاً حتى صدور هذا القرار.

* * * *

أعلن الإخوان المسلمون، أمام المد العارم للحركة الوطنية، انسحابهم من اللجنة القومية العامة بعد أن ظلت تجتمع بمقرهم حتى 3/3.

* * * *

8 مارس 1946: نشرت مجلة المصور موضوعين بعنوان «يوم الجلاء»، كيف بدأ وكيف انتهى.

كما نشر نعى لأخ يبكى أخاه، «فى سبيل مصر العزيزة أزهقت روحك الطاهرة، ولإسعاد وطنك المحبوب أريقت دماؤك الوفية. فهنيئاً لك بجنات الخلد يا شهيد الحرية، وعزاء لأسرتك المجيدة وللوطن».

* * * *

15 مارس 1946: نظم المتظاهرون فى سوريا ولبنان، وفى دمشق وبيروت وغيرهما من المدن العربية، إضراباً شاملاً، كما أقيمت صلاة الغائب على الشهداء.

* * * *

22 مارس 1946: أصدرت اللجنة القومية العامة بياناً جاء فيه:

«يرى المجتمعون أن اللجنة القومية العامة قد أصبحت لا تحمل الطابع القومى الصحيح لعدم تمثيل جميع الأحزاب والهيئات فيها، فضلاً عن أن المصلحة الوطنية تغطى بتوحيد كل الجهود وتركيزها فى الهيئات أو ا للجان التى تتوفر فيها صفة القومية فعلاً، الأمر الذى يدعو إلى انتهاء مهمة اللجنة وعدم ارتباط موقعى البيان من أعضائها بأى قرار تصدره

بصورتها الحالية.
الشبان المسلمين، شباب جبهة مصر، شباب الأحرار الدستوريين، شباب الهيئة السعدية، شباب الكتلة الوفدية- شباب رابطة الحجاج الجامعيين.
وبذا أعلنت جبهة الخندق الآخر المعادى جبهة إسماعيل صدقى إفلاسها.

* * * *

27 مارس 1946: نشرت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال بياناً جاء فيه:
«إن اللجنة الوطنية للطلبة والعمال تعتقد أن حرية النشر فى هذه المرحلة الخطيرة من كفاحنا الوطنى، والتى ستقرر فيها مصير البلاد هى عنصر جوهرى، لابد من تعبير الشعب عن رأيه، إلى جانب أنه حق ديمقراطى يكفله الدستور.
لذا فهى ترى أن أعمال المطاردة للجرائد، ومنعها من نشر بيانات اللجنة، وتبيان خططها الوطنية التى تعبر عن إرادة الشعب عملاً يتنامى مع أبسط قواعد الديمقراطية».

* * * *

النادى المصرى السودانى

أحس أن الكلية عندما تغلق أبوابها، سوف تغلق أيضاً أبواب نشاطنا نحن، كل ما نفعله الآن، كل ذلك الزخم الهائل فى الكلية، يمكن أن يتلاشى إن انتهى العام الدراسى وتفرقنا.
ناقشنا القضية فى وحدة الكلية. كنا بها ثلاثة من شبرا: فتحى خليل، ميشيل سعد وأنا. كانت الفكرة التى طرحت هى كيف نواصل العمل فى الإجازة الصيفية.
ركزنا على أهمية أن نبدأ ومنذ الآن عملاً فى الحى. وتبلورت المناقشة فى إقامة ناد ثقافى رياضى. وكلفنا نحن الثلاثة بإعداد مشروع حول هذا الموضوع، على أن يناقش فى الجلسة القادمة.
كان فتحى خليل وميشيل سعد جارين. وقد اكتشفا وجود فيلا مهجورة لنزاع عليها بين ورثتها، وكان اثنان منهما أصدقاء لهما. وقد رحبا كثيرًا، معلنين أنهما سوف يكونان أول عضوين فى النادى، وأنهما يتبرعان منذ الآن بنصيبهما فى الإيجار. كان ذلك دفعة هائلة للفكرة وتحويلها إلى قرار.
النادى سوف يكون منبراً لنا فى الحى، وملتقى للزملاء والأصدقاء.

سوف يكون شعاره «العقل السليم فى الجسم السليم»، به مكتبة مفتوحة للجميع، تضم أعمال الأدباء المصريين والصحف والمجلات. كما ستلقى بها محاضرات عامة فى موضوعات شتى فى السياسة والاقتصاد والأدب والفن والفلسفة. وهنالك حجرة وقاعة يمكن أن يؤديان الغرض. ثم يجىء الجانب الرياضى، حيث يمكن استخدام الفراغ المسور حول الفيلا وكذا الدور الأرضى، حيث توفر ما يلزم لحمل الأثقال ودمبلز وسوستة ألعاب الصدر وألعاب الجمباز. وربما مستقبلاً المصارعة والملاكة. مع تنظيف هذه المنطقة الفراغ وزراعة السور بنباتات جميلة بدلاً من تلك التى تحولت إلى فروع جافة أشبه بعش العنكبوت.

وتم الاتفاق على تخصيص حجرة لإدارة النادى التى سيقوم بها الزملاء، وحجرة لشئون العضوية والشئون المالية والإدارية.

وظلت حجرتان فارغتان، قررنا استخدام واحدة منها الآن مخزناً والأخرى مستقبلاً نادياً للأطفال يمارسون فيه هواياتهم.

وأقترح تسمية النادى بـ «النادى المصرى السودانى»، تأكيداً للنضال المصرى السودانى المشترك.

كان الحلم جميلاً ورائعاً، لكن المشكلة الحقة كانت فى التنفيذ. نحن فى حاجة ملحة إلى إمكانيات كبيرة للتأثيث. كما نحن فى حاجة إلى إمكانيات نقدية شهرية لسداد الإيجار والإنفاق على النور والمياه.

وجاءنا الحل من أسر الزملاء. كان البعض منهم أثرياء ولديهم أثاثات قديمة، هى قمة الروعة بالنسبة لنا. وقدمت الأسر المتوسطة جهدها ووقتها، وما لديها من كتب يمكن التبرع بها. كما تبرع البعض بأدواتهم الرياضية أو قاموا بشرائها لنا. وانغمسنا بهمة فائقة حتى غدا النادى معداً تماماً وجاهزاً للعمل فى شهر أبريل.

ارتفع يوم الافتتاح العلم المصرى فوق المبنى. وارتفعت يافطة النادى المصرى السودانى فوق الواجهة، ووقف حشد كبير فى انتظار اللحظة التاريخية.

كنا قد اتفقنا مع الأستاذ إسماعيل الأزهرى رئيس «الحزب الاتحادى السودانى»، وكان مقيماً فى القاهرة، فى أن يفتتح النادى. وأن يصاحب الافتتاح محاضرة عن النضال المصرى السودانى المشترك، والعدو

وتجىء الامتحانات، وأخرج منها كلها يتملكنى يقين قاطع، وعن حق، أننى ناجح لا محالة.
وتظهر النتيجة. كارثة. نجحت فى الجيولوجيا والكيمياء والحيوان، ورسبت فى النبات. أنا واثق كل الثقة من أننى أجبت فى تلك المادة على أفضل وجه.
وامتلأت الكلية بإشاعة سرعان ما تأكدت، أن أستاذنا «العظيم» الذى أهاننا واعتذر يقف وراء هذه العملية: كانت الأسماء التى وقعت عريضة الاحتجاج هى ذاتها الأسماء التى رسبت.
سافرت إلى المحاميد. وصدم النبأ الأسرة. غير أن إدوارد أكد لهم أننى كنت أذاكر بالفعل أولاً بأول. وسردت عليهم قضبة الأستاذ ضيق الأفق. غير أن والدى أنهى الجدل:
-دا كان إمبارح. إحنا فى النهارده وبكره. ركز وعدى فى الدور الثانى.
وركزت فى المذاكرة. انقطعت لها فى المحاميد. أنهيت المقرر مرة واثنين، وكان والدى والأسرة كلها شهود على ذلك.
عدت إلى القاهرة. دخلت الامتحان وزملاء الدفعة نتحدى. جاوبنا ونحن واثقين كل الثقة أن هذا العدو الخفى لن يجد حجة علينا.
وكانت النتيجة فجيعة. سقطنا مرة أخرى. كل من وقع عريضة الاحتجاج. وأسفر الأستاذ «الشجاع» عن وجهه الكالح. لقد جعل منا عبرة لمن يعتبر. لمن يتصور أن فى وسعه أن يتحدى باسم كرامته.
عام من العمر انقضى بلا عائد. مصروفات دفعتها الأسرة من لحمها الحى، وحرمان كابدته بكاملها من أجل لا شىء غير الحزن. أهدر «الأستاذ» عامًا من عمرنا وجهد أهلنا.
وأحسست بأنى أعجز من أن أواجه أبى بتلك الفاجعة. استنجدت بإدوارد كى يحمل عنى تلك «الخطيئة» التى ليس لى فيها ذنب أو جريرة لقد سمع إدوارد بنفسه ما قاله جارى تأكيداً لروايتى. ما كان فى وسعى أن أواجه ألمه.
أخبرنى إدوارد بعد عودته أن أبى عندما سمع النبأ الحزين الأليم، لم ينطق. وضع رأس بين كفيه وأغمض عينيه. وظل مكتئباً بقية اليوم. وعندما حاول إدوارد مواساته أو تهدئته، قال وهو يهز رأسه يمنة

ويسرة:
-المشكلة يا بنى إن دى سنه من العمر. وهو، قدامنا تعب حقيقى.
ثم سمعه يخاطب أمى هامساً:
-يمكن برضه تكون غلطتنا. هوه دخل كليه مش بيحبها.
وقررت بينى وبين نفسى ألا أجعل أبى يحزن بسببى أو يرثى لحالى، مرة أخرى.

* * * *

الضربة الشاملة - 11 يوليو 1946

23 يونيو 1946: أرسل مؤتمر نقابات عمال مصر والمؤسسات الأهلية «إنذاراً لإسماعيل صدقى بضرورة تحقيق مطالب العمال خلال شهر.
ولما لم يجب المطالب، قررت اللجنة التنفيذية للمؤتمر إعلان الإضراب العام يوم 25 يونيو.
غير أن صدقى قبض على أعضاء اللجنة التنفيذية من القاهرة والأقاليم ووضعهم فى السجن يوم 23 يونيو.

* * * *

8 يوليو 1946: أصدرت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال بياناً تطلب فيه من الحكومة قطع المفاوضات واعتبار قضية وادى النيل قضية دولية واجبة العرض على مجلس الأمن.

* * * *

10 يوليو 1946: طالبت اللجنة الوطنية، ومعها خمسة عشر هيئة شعبية، بتجديد الجهاد الوطنى بمناسبة ضرب الإنجليز للأسكندرية.
وفزع إسماعيل صدقى فزعاً شديداً.

* * * *

11 يوليو 1946: وجه إسماعيل صدقى ضربة شديدة إلى كل القوى الوطنية والتقدمية شن حملة مسعورة تحت غطاء اتهامه الجميع بالشيوعية، وتدبير مؤامرة كبرى لقلب نظام الحكم. رفع راية الخطر الشيوعى، وأنه يضرب أو كاره.
اعتقل أكثر من مئتين من الصحفيين والكتاب والمثقفين والعمال، وعلى رأسهم قيادة اللجنة الوطنية. اعتقل 21 من القيادات الطلابية، على

رأسهم: مصطفى موسى، ولطيفة الزيات، وعبد الرؤوف أبو علم، وجمال غالى، وعبد المحسن حموده، وزكى مراد وآخرين. وكان ممن اعتقلوا محمد مندور ومحمد زكى عبد القادر الذى لم تكن له أية صلة بالتنظيمات الشيوعية، غير أنه كتب مقالاً عن سقوط الملكية فى أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية.

وصادر الصحف والجرائد مثل الفجر الجديد وأم درمان والطليعة والضمير. وأغلق دور النشر التقدمية والأندية مثل رابطة خريجى الجامعة، ودار الأبحاث العلمية، ولجنة نشر الثقافة الحديثة، ورابطة فتيات الجامعة، ودار القرن العشرين، والنادى المصرى السودانى.

وحل مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية.

وشملت الحملة القاهرة والأسكندرية بصورة أساسية.

واتهم صدقى كل هؤلاء الذين اعتقلهم بأنهم كانوا مجتمعين يخططون لإنقلاب مسلح. وأنهم أمروا بفتح مخازن أسلحتهم السرية، وأصدروا أوامرهم بتدمير كافة المرافق والمنشأت فى مصر.

وقد حضر مع المقبوض عليهم عمر عمر نقيب المحامين، وسليمان غنام باشا، وعدد كبير من المحامين الوطنيين الذين هالهم إستناد النيابة إلى تقرير من البوليس السياسى كدليل اتهام. ومع استجواب شاهدين من البوليس السياسى ثبت أنه لم يكن هنالك أى اجتماع، وأن القبض قد تم إما فى الطريق العام او فى المنازل. وسقطت مؤامرة الإنقلاب المسلح التى كانت عقوبتها الإعدام.

* * * *

وهاجم النحاس باشا هذا النهج بضراوة، بمناسبة عيد الجهاد، «هذا هو صدقى باشا يخلق من نسيج خياله خطراً شيوعياً يهول به، ويشيع الخوف منه، لأغراض فى نفسه ويتخذه ذريعة لاضطهاد خصومه. هذه دعوة كاذبة يكررها كلما احتاج إلى دفاع حتى مجتها النفوس، وملتها الأسماع. وهو يعلم قبل غيره، سخافة ما يدعيه».

* * * *

الفصل الثانى عشر

1946-1947

بدأ العام الدراسى وإحساس كثيف بالضيق يغمرنى. أحس بخجل شديد من الذهاب إلى الكلية ورؤية من سبقونى. إدوارد فى البكالوريوس يوشك أن يتخرج، وأنا أبدأ من جديد.

ذهبت إلى الكلية فى خطى متثاقلة. الكثير من الزملاء تركوا المنظمة بعد ضربة الصيف الماضى. أنيس نفسه المسئول انسحب بحجة الرغبة فى التركيز على المذاكرة وهو فى السنة النهائية، وكذلك خالى. كما أغلق نادينا الجميل، النادى المصرى السودانى، واحتلته إحدى شعب الإخوان المسلمين. جاءنا مسئول جديد هو الزميل كمال.

غالبية دفعة جيولوجيا هذا العام، من أبناء العام الماضى. من ضحايا الأستاذ «الشجاع». إنه يسير فى الكلية مزهواً بفعلته. المأساة أننا مجبرون على حضور محاضراته والاستماع إليه عاماً كاملاً.

* * * *

وصل عبد الله كامل إلى القاهرة. كان مليئاً بالحماس والتحدى. التحق بكلية التجارة، والتحق فى داخل الكلية بقسم الاقتصاد. سألته عن الوظيفة التى سيشغلها عندما يتخرج من هذا القسم، فلم يهتم. إن ما يهمه هو أن الاقتصاد محرك التاريخ، وكان عليه أن يمسك بهذا المحرك.

وكان ألفونس عزيز قد سبقه إلى هذه الكلية فعرفتهما ببعضهما البعض. وقد نُظم كلاهما فى أسكرا. لم نكن فى وحدات واحدة، لكننا كنا نلتقى ونعمل معاً، إننا نذهب إلى اجتماعات تعقدها الأحزاب المختلفة، وربما تكون معادية لنا، ونقوم نحن الثلاثة بالهتاف بشعاراتنا، «الشعب الشعب ليحيا الشعب»، «عاش الطلبة مع العمال». تلك شعارات أشبه بأعلام حمراء قانية، تكشف شيوعية من يهتف بها. نحن لا نخالف أحداً.

والفونس يهتف بحماس بالغ، حتى أنه يقفز وهو جالس فوق كرسيه.

ونحن أيضاً نتناقش فى النظرية والشيوعية والاشتراكية المفروض أن ذلك مخالف للتنظيم. إلا أننا مدرسة خاصة قادمة من أسوان والفيوم، وتعرف بعضها البعض قبل أن تعرف التنظيم ربما يكون ألفونس أكثرنا انضباطاً، أو أقل انغماساً فيما أفعله أنا وعبد الله.

نحن كثيراً ما نذهب إلى السينما. وغالباَ ما ترتبط أيام دخول السينما بالشحنة التى تصل إلى عبد الله من البلدة، فتوفر لنا ثمن الغداء والعشاء. يجيء لعبد الله من العدوة «هبرة» محترمة من اللحم وعشرين بيضة وقطعة جيدة من الزبدة. نحن نسلق اللحم ونحمره بالزبدة ونقضى عليه ظهراً. ثم نطبخ «سبانخاً»، لنغليها ليلاً و»نطقش» فيها العشرين بيضة، ونقوم بهذه الوجبة الخرافية، بإذن الله. نحن لا نترك شيئا للغد وإلا فسد. وداخل البطن أكثر أمنا من خارجها.

هنالك صديق إخوانى لعبد الله، يأتى أحياناً ليأكل معنا. ومع ذلك يدهشنى هذا الأخ عندما نلتق فى المظاهرات، ويحاول بحماس شديد الاعتداء علينا مع أخوانه، وكأن أكل «لحمنا الكندوز» شيء، وضرب «لحمنا الحى» شيء أخر.

عبد الله يسكن فى جاردن سيتى. يسكن فى عمارة فخمة شاهقة تطل على القصر العينى. وكنت أقول لجيرانى، عندما يسألوننى، إلى أين أنا ذاهب؟ أقول أننى ذاهب إلى صديقى فى جاردن سيتى، فينظرون إلىّ باحترام شديد وتقدير عال. فجاردن سيتى هى حى الأرستقراطية المصرية. لكن المشكلة كانت أين يسكن عبد الله فى هذه العمارة؟ هذا سر يجب كتمانه وإلا ضاعت الدهشة من وجه كل من يسمع بمأواه. كان عبد الله يسكن فوق سطح تلك العمارة. إذ يوجد فوق سطح مثل تلك العمارات الهائلة حجرة لكل شقة تسمى غرفة الغسيل. وكان أحد أقرباء عبد الله المقربين قد احتل واحدة منها عندما جاء ليدرس فى الجامعة، ثم ورثها عبد الله عنه.

نحن نصل إلى تلك الحجرة عبر سلم «الخدامين»، وهو سلم حديدى يكاد يكون رأسياً، فيقطع أنفاسنا إذ أن «السطوح» هو الدور السادس فى العمارة.

وليس اجتياز هذا السلم بالأمر الهين فهو عامر «بصفائح الزبالة»، والقطط التى «تنكشها»، وتهددنا فى الصعود والهبوط مزمجرة، مكشرة عن أنيابها ومخالبها الرفيعة الحادة. أنفاسنا اللاهثة لابد وأن تختلط بروائح بقايا طعام البشر وقد تخمرت، وإفرازات القطط وقد عمرت السلالم وغمرتها.

ويتجهون إلى الحاكم الجديد، إلى النقراشى، يقدمون خدماتهم ضد الوفد والشيوعية.
ويقابل المرشد العام فيليب ايرلند السكرتير الأول للسفارة الأمريكية، ويتحدث معه عن الخطر الداهم للشيوعية على المنطقة، وحرب الإخوان ضدها بكل السبل والوسائل، وتكليف البعض باختراق الخلايا الشيوعية للحصول على معلومات. واقترح المرشد إنشاء مكتب مستقل مشترك بين الإخوان والحكومة الأمريكية لمحاربة الشيوعية. وأن تتولى الحكومة الأمريكية إدارة المكتب، ويكون غالبية الأعضاء من الإخوان. ورفضت الحكومة الأمريكية الاقتراح، باعتبار أنها تتعامل مع الحكومات.
فاتجه المرشد إلى الإنجليز، وقابل والترسمارت، السكرتير الشرقى للسفارة البريطانية، فكتب الأخير إلى حكومته، «الإخوان المسلمون هم أكثر الحلفاء نفعا لنا.. وهم أشد الحواجز صلابة فى وجه الشيوعية».

* * * *

أسس عذرا هرارى «الرابطة اليهودية لمكافحة الصهيونية»، وهاجم الصهيونية بشدة فقامت حكومة النقراشى بحل هذه الرابطة لحساب الصهاينة أمثال كليمان شيكوريل.

* * * *

الإخوان المسلمون لا يكفون عن الاحتكاك بنا والاعتداء علينا. كان لديهم مخزون خرافى من معدات الضرب والعدوان. وكان ذلك يثير الطلبة العاديين، ويستعديهم عليهم بسبب تماديهم فيما يفعلون وتحديهم للجميع.
كانت شعاراتنا ضدهم على الدوام شعارات سياسية. كانوا يهتفون بحياة الملك فنرد عليهم بأنه «لا مليك إلا الله» ثم بحياة الجمهورية.

* * * *

فى أحد الأيام ما أن اجتزت بوابة الجامعة حتى وجدت عددًا ضئيلاً من الزملاء يحتشدون. كانوا مسلحين بأيدى المكانس. ولا أدرى من أين جاءوا بها. ثم بدأ أحد طلبة كلية الحقوق، لا أدرى إن كان شيوعياً أم وفدياً أم أى شىء آخر، فى الإعلان أن الإخوان قد اعتدوا عليهم بالأمس، ولابد من الرد عليهم. ثم طلب ممن حوله أن يحملوه، ودفع

برأسه إلى الوراء، ثم هتف بكل ما فيه من عزم وقوة:
-أين أنتم يا نساء البنا؟ أين أنتم يا حريم الإخوان؟
وردد الجمع الهزيل حوله الهتاف، الذى لم يكن البتة من شعاراتنا المعتادة. وقبل أن أفهم ما المسألة، خرج الإخوان علينا أضعافنا عدداً وعدة فتناثرنا. ودخلت «بوفيه» كلية الآداب. كانت هناك بعض الطالبات تتابعن الكر والفر فى ساحة الجامعة.
وسمعت إحداهن تقول:
-آدى حريم الإخوان خرجو، أمال الرجالة راحو فين؟
لم تكن الفتاة محجبة أو إخوانية. أحسست بطعنة أصابتنى حتى الأعماق. إن هذه الشعارات العنترية الجوفاء، والتى لا علاقة لها بالسياسة، تضر ضرراً بالغاً، وتسىء إلينا بشدة، وقد تدفع بالطلبة العاديين إلى الانفضاض عنا.

* * * *

حملة جديدة شديدة. نشرت جريدة صوت الأمة، اليوم الأحد 21 يناير 1947 عنواناً رئيسيًا يقول:
أسرار وخفايا قضية الشيوعية الكبرى. قصص لم يسبق لها مثل فى التاريخ. المتهمون هم صفوة من شباب مصر المثقف وكتابها المعروفين، يلعب الكثير منهم دوراً ملحوظاً فى حياة مصر الثقافية والوطنية. وفيهم صحافيون ومدرسون بالجامعة ومحامون وأطباء ومهندسون وزعماء عمال:

والصحافيون هم:

الدكتور: محمد مندور، محمد زكى عبد القادر، سلامة موسى، د.عبد الكريم السكرى، أحمد رشدى صالح، أسعد حليم، أبو سيف يوسف، عمر رشدى، أنور كامل، فتحى الرملى. رمسيس يونان، عبده دهب (سودانى).
ومن المحامين:
مصطفى كامل منيب، سعد لبيب، عبد الرحمن الشرقاوى، سعيد خيال.
ومن المدرسين بجامعتى فؤاد وفاروق:
أحمد كامل قطب، عبد المعبود الجبيلى، أحمد شكرى سالم، سعد عريان،

محمد عجلان، عبد المنعم خربوش، أديب سلام، حسين شعراوى، عبد العظيم أنيس، د.محمد الشحات.
ومن الأطباء:
د.محمد بلال، د. محمد حسونة.
ومن موظفى الحكومة:
د.أبو بكر نور الدين، نعمان عاشور، أنور عبد الملك، عصام الدين حفنى ناصف، فوزى طابو زيد.
ومن المهندسين:
صادق سعد، عبد المجيد المهيلمى، عباس إبراهيم.
ومن مدرسى الثانوى:
شهدى عطية، لبيب حنا.
ومن قادة الطلبة بالجامعة والمعاهد العليا:
مصطفى موسى، سعد زغلول فؤاد، كمال شعبان، جمال غالى، كمال عبد الحليم، روبير ستون.
ومن قادة العمال:
محمد يوسف المدرك، محمد مدبولى.
ومن الأجانب:
سترانى زربينى، جورج افيرون، سلفاجو، هنرى كورييل، روسوس.
ومن الآنسات:
لطيفة الزيات، إنجى أفلاطون.

* * * *

جاءت والدتى إلى القاهرة، كانت حبلىٍ وقد أوشكت على الوضع. أفرغت بطنها الثامنة وجاء الوليد صبياً. تلقيناه بفرحة شديدة. كان حلو التقاطيع، يبدو كهرة صغيرة. أسموه مجدى. الأطفال شئ جميل. عندما أتزوج سوف أنجب دستة، إثنا عشر أبنا. قبيلة خاصة بى. عزوة من صلبى. كنت أحمل مجدى الصغير وأحس كأنه أول أبنائى، كان ينظر إلىّ مباشرة فى عينى، وعيناه الفاحمتان البراقتان تبتسمان، أو هكذا خيل إلىّ.

* * * *

الاستعدادات لانتخابات الاتحاد العلمى فى كليتى تجرى على قدم وساق.

ونحن نناقش فى وحدتنا التنظيمية دورنا فى هذه المعركة الهامة.
الاتحاد العلمى هو تنظيم رسمى يجرى انتخابه من طلبة السنة الثالثة والرابعة فقط، أى الطلبة «السينيور»، أما الطلبة «الجينيور» أمثالنا فى السنتين الأولى والثانية، فينحصر دورهم فقط فى التخديم على المعركة والتعبئة لها. فى الكلية ثلاثة عشر قسماً، ينتخب واحد عن كل قسم أى ثلاثة عشر عضواً بما فيهم رئيس الاتحاد.
أصدر الشيوعيون قائمة بأسماء مرشحيهم وعلى رأسها فاطمة زكى لرئاسة الاتحاد. وأصدر الإخوان المسلمون قائمة على رأسها مرشح رفع شعار «لا تنتخبوا إمرأة»، فاستفز الجميع واشتعلت المعركة.
وجرت الانتخابات تحت إشراف إدارة الكلية والحرس الجامعى. جرت فى هدوء مشوب بالتوتر. بدأت لجنة فرز الأصوات عملها بوجود مندوبين عن الطرفين فى المدرج، وأحتشد الطلبة خارجه فى انتظار النتيجة. وعندما أظهرت النتائج الأولية فوز فاطمة زكى، بدأ الإخوان هجوماً على الأبواب محاولين اقتحام المدرج لوقف الفرز وإبطال الانتخابات. لكن الحرس والطلاب تصدوا لهم. وانتهت العملية. وأعلن فوز فاطمة زكى برئاسة الاتحاد، وفوز إحدى عشر طالباً من قائمتها، وواحد فقط من قائمة الإخوان المسلمين.
وأحسست بفخر شديد أن أكون طالباً فى تلك الكلية.

* * * *

جاءنى عبد الله ليقضى الليلة عندى. كانت تبدو عليه سمات الجدية. قال أن لديه موضوع هام يود أن يناقشه معى لنصل إلى قرار.
بدأت الحكاية فى الفيوم، وعبد الله ما زال طالباً فى المدرسة الثانوية. تعرف على شخص يعمل فى النيابة هو محمد مصطفى درويش. كانت المعرفة سطحية حتى جاءه درويش ومعه شكوى ضده. كانت الشكاوى تمر عليه قبل أن تعرض على وكيل النيابة. وعندما نظر عبد الله إلى الشكوى وخطها عرف فى الحال صاحبها. كان شديد القرابة منه.
وكانت الشكوى تقول أنه شيوعى، ووصفته وصفاً دقيقاً للغاية.
وسأل عبد الله درويش، ما الذى سيفعله بالشكوى. فقال له على الفور، أنه سيفعل بها ما يراه هو، فقطعها. وبينما تتناثر مزقها تساءل درويش، إن كان عبد الله شيوعى بحق؟ وحسم عبد الله موقفه أمام هذا الإنسان

لكنه منور الروائح الطيبة والسيئة.
قررت للأمر الذى جد فى منطقتنا أنٍ أفتح هذه النافذة الطولية قليلاً وقت العصر، عندما يكون إدوارد منشغلاً خارج الحجرة أو خارج المنزل.
فى هذا الوقت بالذات يضف النشاط فى المطابخ ودورات المياه فتهدأ الروائح وتصبح محتملة.
لقد جاءت مع السكان الجدد، الذين تطل عليهم هذه الفتحة الطولية، فتاة تبدو نشطة سريعة الحركة. لفتت نظرى أول ما لفتت عندما سمعت نداء غريباً ينطلق فى الحارة المجاورة:
-يا بتاع البتاتس، يا بتاع البتاتس.
كان النداء مبتكراً. وأدركت على الفور أنها لابد تكون صعيدية تحاول جاهدة أن تكون رقيقة قاهرية. كانت نداءاتها المضحكة للباعة هى التى جذبتنى إليها. فأخذت اهتم بها وأتابعها داخل شقتها. لم تكن المسافة بعيدة، وكان فى وسعى أن أراها بوضوح، تتحرك فى خفة، تخدم أشقاءها، وهى دوماً مرحة.
وتذكرت أختى إقبال التى ماتت طفلة. لو ظلت حية حتى الآن لكانت صبية جميلة، ولكنت عشت مع الأيام، تلك العلاقة الحلوة بين الأخ والأخت.
لقد أيقظت جارتى الجديدة فى نفسى تساؤلات، ما كانت تخطر لى على بال، مثلاً، عن سلوك الصبية عندما يكون لهم شقيقات. لابد أنهم يكونون أكثر حرصًا عند الحديث، فلا تصدر عنهم ألفاظ نابية أو خارجة. ولابد أنهم يراعون حركاتهم فلا تتسم بالوقاحة وقلة الذوق، ولابد أنهم حريصون فى ملبسهم، فلا يسيرون فى المنزل عراة، أو نصف عراة، أو غير مبالين بما يظهر منهم أو يختفى.
عالم الأخوة الذكور دون إناث عالم عنيف، يحكمه صراع الديكة والخناقات الصغيرة على أتفه الأشياء.
أنا الآن أقبع خلف زجاج النافذة الطولية، أعيش مع فتاتى، كأى واحد من أخوتها، وأحلم أن تعاملنى كما تعاملهم، وأن تحدثنى كما تحدثهم، وأن تضحك معى كما تضحك معهم.
متابعة فتاتى تحتل جزءًا كبيرًا من تفكيرى. ليس لدى هذا العام مذاكرة

تذكر فأنا ناجح حقاَ. والعمل السياسي ليس بحدة العام الماضى.
أنا أسمع صوتها، حتى إن كنت نائماً فاستيقظ. أشرب أنغامها الغريبة الصعيدية المتمصرة، فتعيدنى إلى مراعى الصبا، إلى جرجا وسوهاجٍ.
أنا لا أعرف من أى بلد هى، لكنها لابد وأن تكون من أسيوط فجنوباً. لا يمكن أن تكون من الوجه البحرى، ولا من شمال الصعيد، فلكنة هؤلاء ممطوطة ناعمة، لكن تلك قاطعة حادة، فقط ذلك التمصير القاهرى المبتكر، والذى يمكن للمرء أن يفرزه ويعيد اللكنة إلى أصولها.
الأيتم تمر وفتاتى تمتلكنى أكثر فأكثر، وخيالى يشطح يعيشٍ الوهم حقيقة. أنا واثق أنها لا تشعر بى، بل أنا الذى يحاول جاهداً ألا تشعر بى. أنا الآن أمتلكها خالصة لى. أحلم بها منفرداً، دون أحد من أسرتها، أناجيها فتستجيب لى، وتسبح معى كلماتى فى عالمى السحرى. لقد أنتزعتها من عالمها لأضمها إلى عالمى.
أنا لا أشتهيها، لكننى أحس بها طيفاً اثيريا يحوم حولى، ملاكاً يرفرف فى فضاء غرفتى، فتحيلها إلى جنة. وتنتابنى حالة من السموٍ، أعيش لحظات يتلاشى فيها الكون بآثامه، ويصبح العالم جميلاً تملؤه أنغام سحرية، ليس هنالك ما يضاهيها رقة وعذوبة.
بالأمس لقيتها عند حامد البقال أسفل منزلها. أطاحت بىّ المفاجأة فكدت أفقد توازنى. ما كنت أحلم أن أكون قريباً منها إلى هذا الحد. شدتنى عيناها الواسعتان السوداوتان فى بياض ناصع، عينان مندهشتان فى تساؤل مرحٍ. ألتقت منا العيون، فكادت الأرض تنهار تحت قدمى. حولت وجهها سريعاً وقد اصطبغ بحمرة الخفر والحياء. وسمعت حامد يقول:
-أى خدمة يا آنسة سعاد؟
وأمسكت بالاسم الذى سألقى إليه بهمساتى. هى سمراء، أنفها دقيق، وشفتاها رقيقتان وشعرها أسود فاحم ناعم، تلفه ضفيرة تتسدل على ظهرها.
وعندما غادرت كنت أنا ما أزال مسمراً فى مكانى، صامتاً صمت المتعبد الخاشع.
وافقت على صوت حامد الماكر:
-إى خدمة يا أستاذ فخرى؟

فأسرعت أغادر وأنا أتساءل إن كنت قد فضحت نفسى أمام حامد، أو إن كنت فضحت نفسى أمامها. وهل هذا الخفر والحياء ابن تلك اللحظة العابرة السريعة، أم أنها تحس بى دون أن أدرى، وأنها تبادلنى مشاعرى وشطحاتى، أم أننى أسير وهم وخيال.

وقررت أن أغلق النافذة، لا أنظر إليها أو نحوها.

تجىء للإنسان لحظات يتحتم عليه فيها أن يُقدم ولا يحجم. أن يخطو خطوة إلى الأمام لكنه بدلاً من فعل ذلك، يخطو خطوات إلى الوراء. بل ربما أقدم على «خلف در» سريعة وحاول الفرار فى الاتجاه المعاكس.

اكتشفت أننى أخاف أن أحب وأن أحب. ماذا أفعل لو تحول هذا الشىء الخيالى إلى واقع. أنا فى خيالى ارسم الصور التى أشاء، وأعيشها بالطريقة التى أختارها، لكن الواقع غير ذلك. ماذا أفعل لو غدا هذا الحب حباً حقيقياً متبادلاً، وأنا فى السنة الأولى من كلية العلوم، مهمتى الأساسية التى تضحى أسرتى من أجلها، هى أن أنجح، لا أن أحب!

وماذا لو أحببتها وبادلتنى الحب، وكان علىّ أن أدبر لقاءات، خفية، بعيدة عن العيون، من أين لى بالنفقات، وأنا بالكاد آكل بما معى من مصروف تقتطعه الأسرة من جسدها! وهل أستطيع أن أحب وأناضل وأذاكر، وكل مهمة من تلك تقصم الظهر والعقل معاً! وهل يحب المناضل؟ وهل هناك مكان لغير حب الوطن؟ ألا يجىء حب فتاة ما على حساب حب الوطن، مما يعنى خيانته؟ كيف أزعم أننى وهبت حياتى كلها للشعب، وها أنا أخص واحدة منه بقلبى ووجدانى وعواطفى. ألا يعنى ذلك أننى قد تخليت عن الشعب وخسرت القضية؟

وماذا لو اكتشف إدوارد الأمر وفضحنى فى الأسرة؟ سوف يسخر منى الجميع دون شك. فأنا قد فعلت أشد ما تتكره أسرتى علىّ. أن أحب بنت الجيران، والمفروض أن أغلق عينىّ وأسد نافذتى، تأدباً أن ظهرت فى شرفتها. لقد تخطيت كل ذلك ونظرت إليها حتى أحببتها. يا للعار! والذى سوف يزيد الطين بلة تصور أنى قد رسبت بسبب هذا الحب وليس بسبب الأستاذ الأكذوبة!

كنت أتصور أن الحب سوف ينقلنى إلى «ظلال الزيزفون»، أو حتى إلى شرفة «جوليت» إلى عالم من السحر والخيال، لكن حبى أضاف

إلى حياتى أثقالاً، فلم أحلق فى الفضاء، لكننى أحسست بالتعب والإرهاق والتشتت. وغدوت متوتراً مشدوداً، يختلط فى رأسى الصواب بالخطأ..
ووجدت أن الصعيدى الغليظ الذى تربى فى نشأته تربية جافة عاطفية ودينية، أقوى بكثير من صاحب المشاعر الإنسانية الناعمة العذبة. بل إن هذا الصعيدى هو الذى يصبغ السياسى بقيمه وأخلاقياته ويطغى عليه.
وأخذت أفكر فى ضرورة أن أفضى لأحد بما أعانى. وفكرت فى عبد الله غير أنه كان ريفيا، وقد نشأ نشأة دينية أشد منى تزمتاً. وفكرت فى ألفونس. وأخيراً استقر بىّ الرأى أن ألجأ إلى كليهما، وأن نناقش معاً تلك المشكلة التى بلبلتنى.
التقينا يوم الجمعة وإدوارد فى منزل أخوالى. وقصصت عليهم كل ما جرى، وكل ما جال بخاطرى. وفوجئت بعبد الله يقهقه ضاحكاً، فصحت فيه:
-بتضحك على إيه يا عبد الله؟
لكنه قهقه أكثر وهو يضرب كف بكف:
-آخر حاجة كنت أتصورها إنك تحب.
وانفعلت:
-ليه يا سيدى، مش بنى آدم يعنى ولا إيه؟
-لا، مش النظرية.
-هيه نظرية فيثاغورس ولا إيه؟
-أبداً، بس عمري ما سمعتك بتتكلم فى الحب، ولا فى البنات.
كان ذلك صحيحاً.
-أصل أنت عارف الأرياف، وحكايات البنات.
وعاد عبد الله يقهقه من جديد. قلت معاتباً:
-تانى يا عبد الله!
-أيوه أنت ما كنتش بتحكى. بس احنا كنا عارفين، بيحصل إيه مع بنات القرية لما بيجو عندكو عشان مية الطرمبه.
-يخرب بيتك يا عبد الله. إيه اللى بتقوله دا؟
-يا راجل حصل ولا لأ!
وتصنعت الغضب:

-حصل إيه وزفت إيه؟
أكمل مهوناً:
-متقلقش. أحنا كنا نعرفهم كمان. وكانوا بيحكو لنا على كل حاجة.
وعموماً كلهم اتجوزو وخلفو وأشياءهم بقت معدن.
قلت مندهشاً من التزامه الصمت طول تلك السنوات:
-معدن ولا كوتاريللى، انت بتحكى الحكاية دى دلوقت ليه؟
قال وهو يفرك كفيه:
-أيوه هى دى النظريه.
-تانى النظريه!
-اللى عاوز أقوله، إن إنت يعنى مش جديد على الأمور دى. بس فى الأرياف المسائل بسيطه، ما عندناش عقد المدينة، يمكن عندنا عقد تانيه بين الفلاحين المتيسرين، لكن الفلاحين الغلابة بيتكلمو فى الجنس زى ما بيتكلمو فى الأكل والشرب. شيء عادى يعنى. أهى دى النظريه يا أبو لبيب.
واغتظت من حكاية النظرية تلك.
-إيه حكايه النظريه دى بقه؟
-نظرية العقد. حل العقد ما يبقاش فيه مشكله.
وضحك ألفونس هذه المرة، وقال مهدئاً:
-عبد الله قصده أن الأصل الصعيدى والنشأه الدينية بيشكلو عقد بتتحكم فى حياة الإنسان، رغم إنه بيتصور إنه ابتعد عنها.
وصاح عبد الله:
-الله يفتح عليك يا فونس.
وأكمل ألفونس:
-وحكاية الوطن دى، ما هو الوطن برضه ناس. وأنا إن محبتش الناس دى، طيب هدافع عنها إزاى؟ وهضحى عشنها إزاى؟ فيه حد يضحى عشان حد ما بيحبوش؟ أبداً، لازم تحب اللى أنت بتضحى عشانهم. وأنا رأيى مفيش داعى نلبس الفكر السياسى جلابية الصعايدة وقفطان الدين.
وصاح عبد الله ثانية:
-الله ينور عليك يا ألفونس. وفخرى بقه بيحب الناس كلهم، بس بيحب

واحده فيهم أكثر.
ثم صمت قليلاً:
-وبالمناسبة دى، إحنا من حقنا المعاينه.
وفى تلك الأثناء ارتفع صوت سعاد تنادى بائع الخضروات. قلت وأنا أحس الخجل:
-أنت منشن يا عبد الله، أهيه قدامك فى البلكونه.
واستدار عبد الله فى بطء. وقام ألفونس إلى قدميه وارتفعت صيحتان:
-الله أكبر.
-لا والله، وعرفت تنقى.
غير أن عبد الله قال وهو يهز رأسه:
-حلوه صحيح. بس مش دى النظريه.
-تانى يا عبد الله؟
-لأ، دى نظريه تانيه غير النظريه الأولانيه.
-نظريه عقد برضه؟
قال وهو يهز رأسه مفلسفاً الأمر:
-لا، المره دى النظريه نظريه قدره، ولا يقدر ع القدره غير القادر.
-الله أكبر، فلسفه يعنى!
-لا، المسأله مسأله حسابات، والمثل بيقول أبو بالين كداب وأبو ثلاثه منافق.
-مش فاهم قصدك إيه؟
-قصدى إن إحنا محددين بإمكانيات زمنيه ونقديه محدوده، واحسبها أنت بقه.
وهز ألفونس رأسه:
-أيوه والله، كلام عبد الله مضبوط. ما هو لازم حاجه هتيجى على حساب حاجه. المسألة مش مسألة عقد، المسأله مسألة أولويات.
ولخص عبد الله الموقف:
-يعنى الأهم فالمهم فالأقل أهمية، مش مسألة محظورات.
واستاذنا ليغادرا. وهمس عبد الله وهو يضع قدمه على أول درجة فى السلم:

لم أستطع أن أنظر فى وجه أبى. ثبت عينى فى وجه إدوارد الذى كان ينظر إلى الأرض. صاح أبى فىّ:

-صحيح الكلام اللى بيقوله إدوار دا؟

ولم أجب كنت أود أن تمر العاصفة. لكن أبى ازداد اشتعالاً:

-رد علىّ لما أسألك. صحيح الكلام اللى بيقوله إدوار؟

ما كان فى وسعى أن أنكر. قلت فى هدوء لعلى أمتص بعض الغضب:

-أيوه أنا شيوعى.

واتسعت عينا والدى. هو لم يعتد منى كذبًا. هدأ قليلاً لكن رنة الغضب ما زالت زاعقة.

-وكمان بتقولها!

-أنا معملتش حاجة غلط. حاجة تسىء لىّ أو ليكو.

كان ما يزال غاضباً.

-دا كان أهون علىّ أسمع إنك ماشى مع واحدة، من إن أسمع إنك بقيت شيوعى.

«المشى مع واحدة أمر مشين»، رغم أننى الذكر. ماذا لو عرف أبى بأمر سعاد. سأكون فى عرفه مرتكباً للجرمين معاً. وكل منهما إثم أشد هولاً من الآخر.

أحسست بالإهانة فقلت فى غضب:

-دى غير دى خالص. مفيش وجه للمقارنه.

سألنى والدى وإن كان فى غضب أقل:

-يعنى إيه؟

-يعنى المشى مع واحده خبص ولبص ونسوان. لكن الشيوعية مبادىء إنسانيه ساميه.

ونظر أبى إلى إدوارد، وكأنه يطلب منه أن يتدخل، فأكملت أنا:

-أنت ناسى لما كنت دايماً تقول، إن أنت ما تبقاش عملت حاجه، لو أولادك مطلعوش أحسن منك. يعنى أنت بتضحى عشان ولادك يطلعو أحسن منك. أنا وسعت المسأله شويه. أنا عاوز ولادى، وولاد الناس كلهم يطلعوا أحسن منى أنا عاوز الجيل اللى بعدى يطلع أحسن من جيلى. يبقه أنا غلطان. أنا نفذت كلامك، بس على واسع شويه. دى

مبادئك أنت. ولا أنت نسيت؟
قال فى هدوء أكثر:
-لا يا بنى أنا منستش بس أنا بأعاند نفسى وظروفى، وتضحيتى مش هتضر حد، لكن أنت بتعاند الحكومة، بتعاند السراية والإنجليز، واحنا يا بنى مش قد دول خالص.
-بس أنت علمتنى أكره الأجانب والإنجليز.
-أيوه يا بنى علمتك تكرههم، لكن تحاربهم لأ، مش هتقدر. ما حنا عملنا ثورة 19 وما قدرناش. وهمه لسنا على قلبنا. يا بنى دول هيضيعوك سجن وتشريد.
-أنت علمتنى إنى أفكر. أنت حكتلى عن عرابى واحنا رايحين القنطرة عند عمتى وأنا عندى ثمن سنين. وأنت اللى كنت بتخلينى أقرا الجرنال وأنا عندى عشر سنين. أنا يا بابا بكمل اللى أنت عملته.
كان ينظر إلى الأرض وكأنه يستعيد تلك الأيام البعيدة. رفع رأسه لينظر فى عينىّ مباشرة.
-إذا كنت عاوز تكمل اللى أنا عملته، إدينى الأول فرصة أن أنا أعمل اللى أنا عاوزه، أوأدى واجبى الأول وبعدين أنت تكمل.
لكننى قلت مؤكداً:
-أنت قمت باللى عليك وأكثر. ودلوقت الدور علينا.
هز رأسه يمنة ويسرة.
-لا يا بنى. أنا لسه ما أديتش دورى. دورى إنى أعلمك. واجبى اللى لازم أقوم بيه أنى أعلمك. سيبنى أأدى واجبى الأول، وبعدين كمل أنت وزملاءك.
ثم نظر إلىّ بعمق:
-أظن إنه من حقى إنى أقوم بواجبى.
أنا لا أستطيع إغضاب أستاذى الأول ومثلى الأعلى. هذا الربط الرائع بين الحق والواجب، ليصبح الحق واجباً أيضاً. لن أحدثه بشىء عما أفعل، لكننى لن أتخلى، فى نفس الوقت، عما أؤمن به البتة. سوف يغادر إدوارد الغرفة خلال شهر أو شهرين. ولن يعرف أبى عنى شيئاً.
وهززت رأسى أوافقه.

ضخمة، وكان فى عجلة فالمسافة بعيدة ويستحسن أن نذهب ونعود فى ضوء النهار. طلبت منه أن نقتسم الحمولة فرفض وأسرع الخطا.
ركبنا الترامواى من شارع شبرا حتى نهايته. كان علينا أن نقطع الطريق إلى شبرا الخيمة سيراً على الأقدام. أصريت أن نقتسم الحمولة فقبل. قال أنه ما يزال أمامنا مشوار طويل. كان الطريق متربا، وهنالك حقول على الجانبين، والصمت جاثم على المكان، حتى لاحت مبان عن بعد، فقال زميلى، أننا أوشكنا على الوصول، فتلك التى تبدو من بعيد هى المصانع، لكنها ليست هدفنا. إن هدفنا قرب مساكن العمال، حيث المقاهى والمطاعم والبقالين والحلاقين والحرفيين.
وصلنا إلى مقهى هو الأول فى المكان. جلسنا على الفور. المكان ضيق لكن الكراسى مرصوصة فى الشارع، كراسى من بوص مجدول، كراسى نظيفة. وأمام كل أربع كراسى منضدة خشبية. الخشب متآكل. بعضه يبدو محترقاً، لكنه نظيف ومغسول. المكان حول المقهى مكنوس ومرشوش بالمياه. جاء الجرسون يرتدى جلباباً عليه «مريلة». طلب زميلى «جوزة» وطلبت حلبة حصى. عجبت أن يدخن زميلى هذه الجوزة، ابتسم وقال:
-لزوم الأمان. أنت لما تشرب جوزة تبان ابن بلد، تبان أنك واحد منهم.
لكن الجرسون اكتشف أننا لسنا منهم. جاء بالطلبات، وجاء آخر بعده يستأذن ويجلس. قال وهو يبتسم كأنما يطمئننا:
-أنا صاحب القهوة. حضراتكو مش من هنا؟
قلنا في تحفظ:
-تقريباً.
ابتسم كأنما صدقت فراسته.
-طلبه؟
قلنا فيما يشبه التحدى:
-أيوه، فيها حاجه يعنى!
أسرع يقول:
-أبداً، ابداً. أنا بس جاى أرحب بحضراتكو. وعندى سؤال. الكلام اللى بنقراه فى الجرايد، ولا نسمعه فى الإذاعه، دا كلام صحيح؟

قلت:
-أنهو كلام؟
-المظاهرات والضرب والقتل والبهدلةه والإجرام بتاع البوليس دا؟
كنا ما نزال حذرين. قلت:
-أيوه صحيح، دا أقل من الحقيقة كمان.
-يا سلام، إزاى؟
-اللى بيعمله الطلبة أكثر من كده، واللى بيعمله البوليس برضه أكتر من كده.
صمت قليلاً. بدا أنه سيدلى لنا بأمر هام.
-أنا أصلى مش قهوجى. أنا أصلى عامل نسيج. كنت دايماً بدافع عن مصالح العمال. وشفت بهدله كتير. أنا كنت عامل نقابى، وأصحاب المصانع سدو باب الرزق فى وشى. قلت افتح قهوه. ما أنا اصلى مقدرش أرجع البلد، وابتدى من الأول تانى. أنا حافظ القرآن الكريم فى الكتاب وأعرف أقرا وأكتب والحمد لله.
وأحسسنا بالإرتياح العميق. فابتسمنا له مشجعين، وقلنا مرحبين:
-أهلاً وسهلاً.
قال فيما يشبه الهمس:
-أنا جيت أكلمكو، لأنى أنا من جوه شفتكو. وحسيت أنكو مش من هنا. خدو بالكو.
ولاد الأبالسه مرشقين فى كل حته.
وقلت فى صوت خفيض مثله:
-مين ولاد الأبالسه دول؟
قال فى صوت أكثر همساً:
-المخبرين.
ثم أكمل وهو يشير إلى اللغة التى معنا:
-ومعاكو إيه إنشاء الله، منشورات؟
قلنا على الفور:
-لا، لا، دى مجله.
قال:

فأكمل وقد رأى الحيرة واضحة فى وجوهنا:
-عموماً، سيبولى النص التانى برضه. أنا ليه صحاب جيران، واحد عنده قهوه، وواحد بقال، وواحد مزين. وكلهم وطنيين، وجدعان ورجالة. وأنا هكلمهم النهارده. وإنشاء الله ربنا يجيب ما فيه الخير.
وشددنا على يده شاكرين. ونهضنا لننصرف، فقال فى صدق:
-ما تقعدو شويه. القهوة خلاص بقت بتاعتكو.
شكرناه باخلاص ونادينا على الجرسون كى ندفع ثمن الطلبات، فغضب بشدة:
-عيب، عيب قوى، أنا قلتلكو القهوه بقت بتاعتكو، قوم تعملوا كده. ميصحش أبداً.
وشكرناه ثانية ونحن نصافحه.
-هنجيلك إنشاء الله زى النهارده. السلامو عليكو.
-مع السلامه؛ وربنا يقويكو ويحميكو.
وبدأنا طريق العودة. سرنا صامتين فترة ثم قال زميلى:
-تفتكر اللى عملناه دا صح؟
كان متشككاً. كنت أنا الذى رفض أخد ثمن المجلة مؤجلاً ذلك إلى الأسبوع القادم.
قلت:
-ممكن يطلع صح، وممكن يطلع غلط. بس احنا ما كنش قدامنا غير كدة. المعلم حسان ابن المنطقه وعارفها كويس، أحسن مننا ألف مره. المخاطرة مطلوبه فى العمل، بس لازم تكون محسوبه. احنا النهارده كنا داخلين منطقة الغام وهوه اللى لعب دور المرشد لينا. دى الـ 50% الصح. أما لو حصلت الـ 50% الغلط وطلع الرجل نصاب ولا مخبر، فأنا المسئول عن دفع ثمنها.
ولزم زميلى الصمت. يبدو أنه ارتاح لتحملى المسئولية.

* * * *

عدت إلى منزلى وقد حل الظلام. حاولت المذاكرة، غير أن ذلك كان فوق طاقتى، سقطت نائماً.
فى الصباح التقيت بكمال فى الكلية بالعباسية. أخبرته بكل ما حدث تفصيلاً. استمع بإمعان، هز رأسه، قال فى تؤدة:

-حضرتك ساكن فين؟
-فى شبرا.
-خلاص أحنا هنعزل لشبرا. دا احنا زارنا النبى النهارده والله.
توقفت أقدم نفسى:
-أنا اسمى مختار. طالب فى الجامعه.
-أهلاً وسهلاً. وأنا أسمى حسونه.
-أهلاً وسهلاً معلم حسونه.
-أهلاً بيك. أنا معايا ثمن العدد اللى فات وفيه ناس دفعت الثمن وتبرع كمان. وأفتكر اللى معاك دا العدد الجديد.
قلت وأنا أهم بالوقوف:
-أستأذن يا معلم. لسه المشوار طويل.
قال:
-بس أنا كنت عاوز أقول إن الكميه دى بسيطه. وأنا اقدر أوزع هنا قد كده مرتين، ثلاثه.. كمان أنا كنت عاوز أتكلم معاك شوية. لكن أنت مستعجل، تتعوض المره الجايه إنشاء الله.
شد على يدى بقوة وهو يقول:
-أنت عارف السكه لقهوه المعلم عليوه؟
قلت أننى لا أعرفها وأننى كنت أوشك أن اطلب عونه.
نادى صبى بالمطعم:
-يله يا واد يا عتره، وصل الأستاذ لقهوه المعلم عليوه، وأرجع فريره زى الأكسبريس يا وله.
ثم لى مرة أخرى:
-مع ألف سلامه.
-الله يسلمك.
عندما وصلنا إلى مقهى المعلم عليوه، أسرع العتره إليه وهمس فى أذنه وهو يشير ناحيتى. وقف الرجل مرحباً. سلم علىّ بكف قوية، قلت:
-مختار من طرف المعلم حسان.
كان ربع القامة ممتلئاً. أسرع صبى القهوة يحضر كرسياً لأجلس إلى جوار المعلم. الكراسى هنا خشبية، أحسن منظراً من كراسى ومناضد

ثم أشار إلى الرزمة التى معى.
-دا العدد الجديد؟
فأجبته بالإيجاب. وناولته نصيبه.
قال:
-دى فلوس العدد اللى فات. أنا حاططها على جنب لوحديها. دى أمانه لازم تترد زى ما هيه وأكتر.
ثم صمت وبدا متأملاً.
-لا مؤاخده يعنى يا أستاذ. فيه عمال عاطلين. ما معاهمش فلوس يعنى، وبيحبو يقرو المجله، فيها حاجه يعنى لو أنهم يقعدو سوا كده على جنب، هنا فى القهوه، وواحد يقرا لهم، وبعدين يرجع العدد صاغ سليم، ما فيهوش ولا خدش.
قلت له فى حماس:
-إطلاقا. ودا تصرف سليم منك يا معلم ميه الـ ميه. أحنا يهمنا الماده اللى فى المجله توصل لأكبر عدد من العمال. والمجله دى بتاعك زينا بالضبط يا معلم.
وقفت لأنصرف فنادى بأعلى صوته:
-واد يا حموده تعالى وصل البيه لزين الحلاق، ورد على طول.
ثم شد على يدى مسلماً.
-مع ألف سلامه. نشوفك قريب إنشاء الله.
دكان زين الحلاق جزء من منزل طينى يبدو متهالكاً بعض الشىء. المحل ضيق، به كرسى للزبون، وكرسى آخر احتياطى، وكنبة خشبية إلى جانب المدخل فى الشارع. عندما وصلت، أخبره حموده أننى من طرف المعلم عليوه والمعلم حسونه. خرج ليرحب بى، فقدمت نفسى إليه. جلسنا أمام الدكان. اقترب منى وهمس:
-حكاية المجله دى، ما فيهاش خطر على حد يعنى؟
استوعبت السؤال بعد لحظة. كانت مفاجأة لم أكن أتوقعها. قلت نافياً بشدة:
-لا يا أسطى، ما فيش أى خطر. وهيه لو فيها خطر كان بعتهالك المعلم حسان برضه.

لا لا. أطمئن. دى مجله رسمى بتصريح من الحكومة.
ثم سألته:
-أنت برضه كنت عامل فى الأصل، زى المعلم حسان والمعلم حسونه؟
هز رأسه يمنة ويسرى.
-لا يا أستاذ، دول زباين عندى. أنا جيت هنا من الفلاحين، واشتغلت صبى مزين لغاية ما ربنا سهل وعرفت الصنعة واتجوزت، فبنيت البيت دا. أنا اللى بانيه. أصل وأنا صغير كنت شغال فى الفاعل. بيت للسكن، ودكان للشغل، والرزق على الله.
حك رأسه ونظر إلىّ من تحت جفنيه.
-يعنى حضرتك شايف أن المظاهرات دى هتطلع الإنجليز بجد؟
-والله احنا بنعمل اللى علينا، والباقى على الله. وأحنا مش لوحدينا. إحنا والعمال والفلاحين والشعب كله. وربنا قال اسعى يا عبد وأنا أعينك.
هز رأسه إلى أعلى وإلى أسفل.
-صحيح. كلامك صحيح.
أستأذنت فى الإنصراف. أمسك بى.
-أنت لسه ما شربتش حاجه.
-مره ثانيه معلهش. أصلى مستعجل، والمشوار لمصر بعيد.
قال وهو يشير إلى داخل منزله:
-طب دقيقه واحده بس، وأجيب لك فلوس العدد اللى فات.
ناولته العدد الجديد وأنا أقول:
-ما تقلقش أبداً. كل واحد كاتب كلمه حاطط اسمه عليها.
ابتسم وهو يردد:
-إنشاء الله ما فيش حاجه.
أسرع إلى المنزل وعاد ليعد لى النقود فى كفى. شددت على يده.
-إنشاء الله أشوفك الأسبوع الجاى.
وانطلقت عائداً إلى القاهرة، مفعماً بزخم هائل من الشعور بالثقة. لقد غدا لنا من أول جولة أربعة مراكز هامة للغاية. وألتقيت بأناس بسطاء، لكنهم يفيضون أملاً فى مستقبل أفضل. يشاركون بوعى أو بدون وعى فى صياغة المستقبل.

وملأنى ذلك ثقة بالناس وبجلال قدرهم وأدوارهم.

* * * *

انتهى العام الدراسى. نجحت، وانتقلت إلى السنة الثانية، وتركت علم النبات وأستاذه إلى غير رجعة فى السنة الأولى. ونجح إدوارد وتخرج، وبذا أصبح أول من يحصل على البكالريوس فى فرعنا العائلى، وسوف يكون أول موظف أيضاً.

أنتقل والدى إلى «السمطا». قرية غريبة. الزناد فيها أسرع من الإنسان والطلقات أسرع من الكلمات. غالبية الناس بلا عمل. هم لا يكادون يطيقون أنفسهم، فما البال أن يطيق الواحد منهم الآخر أو يطيق الغريب.

أحياناً تدوى الطلقات بالليل، لا ندرى من أين جاءت، أو على من أطلقت!! بل أننا نسمع أحياناً أصوات تدوى دوياً تدهش له الأذن، وعرفنا، فيما بعد، أنها أصوات رصاص يطلق فى مياه قناة تقع خلف منزلنا، فيصدر عنها هذا الهسيس العجيب.

لقد فر ناظر المحطة الذى قبلنا، فر بأهله وبأعصابه. يبدو أنهم يكرهون الحكومة ويتصورون أن ناظر المحطة هو من يقوم بتمثيلها، فيعمدون إلى إزعاجه وإرهابه.

فى أول يوم وصلنا إليها كانت معنا أقفاص الطيور التى كنا نقتنيها فى المحاميد. وكان علينا فور وصولنا أن نوزعها على العشش المختلفة.

وأن نقدم لها الحبوب والمياه. وأخترنا للحمام عشة متناسقة يمكن رص صناديق عشوش الحمام فيها بطريقة منظمة، أقرب ما تكون لما كانت عليه فى المحاميد. كان هديل الحمام يشكل لنا دوماً خلفية تشعر الواحد منا بأنه ليس بمفرده. وكنا قد قصصنا ريش الحمام حتى لا يفر ويضيع. يجب أن يظل فترة هكذا حتى يبيض ويفقس ويعتاد المكان ويرتبط به ولا يتوه عنه. بعد فترة قصيرة من وضعنا الحمام فى عشته أختفى صوت الهديل، وكأن كل الحمام، على غير المعتاد، قد لزم الهدوء والصمت، أو أنه أغفى ونام. وأسرعنا نطل على العشة. كان المنظر بشعاً. هنالك على أرضيتها رقدت المأساة، الغالبية الساحقة من الحمام قتلى، والقليل احتمى بالصناديق لم يكن هنالك من تفسير غير أن ثعباناً متوحشاً «آفاً» قد هاجم الحمام وأجهز عليه. وكانت تلك بداية مفزعة فى هذا المكان المرعب.

الفصل الثالث عشر

1947-1948

عدت إلى القاهرة. عمل إدوارد مأموراً للضرائب بدمنهور. ووفر ما كان ينفق عليه من مصروفات. وأصبح هو الذى يقدم يد العون.
دعانا كمال إلى اجتماع عاجل، أخبرنا أن الوحدة قد تمت بين أسكرا والحركة المصرية، وقد تشكلت منظمة جديدة نتيجة ذلك هى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو). وفرحنا فرحاً شديداً بهذا النبأ واحتفلنا به. وعلمنا أن احتفالات عديدة قد جرت. وقيل لنا أن أعضاء المنظمة الجديدة قد يصلون إلى أربعة آلاف عضو. وأن البعض ممن كانوا مقدمين على الزواج تبرعوا بتحويشة العمر دعماً للتنظيم الوليد.
أحسسنا أننا قوة حقيقية، وأننا على مشارف تحقيق الاشتراكية.

* * * *

سبتمبر 1947: بدأ العام الدراسى. لم يحدث تغيير يذكر فى وحدتنا التنظيمية. بدأت نغمة تذمر فى الارتفاع: دور الأجانب فى الحركة. خط يونس السياسى. خط القوات الوطنية الديمقراطية، والتنظيم الفئوى الذى يعكس هذه الرؤية السياسية. يجب أن يكون التوجه السياسى نحو الطبقة العاملة. كان يجب أن يكون ناتج الوحدة حزباً شيوعياً، لا حركة ديمقراطية وطنية.
التذمر من أن الوحدة قد جرت من أعلى، جرت بين القيادات فقط، وأن كل تلك القضايا لم تناقش على مستوى الأعضاء كما يجب، لا قبل الوحدة ولا بعدها.

* * * *

أخبرنا كمال فى اجتماع الوحدة أن هنالك إضراباً كبيرًا قد حدث فى المحلة الكبرى، شارك فيه حوالى اثنى عشر ألف من العمال. وقد ردت عليه الحكومة بعنف شديد. نزل الجيش بالمصفحات والدبابات، وتحولت المحلة الكبرى إلى ثكنة عسكريةٍ. وقد سقط أربعة شهداء وجرح عشرة، وقُبض على ستين عاملاً مناضلاً. وكان المطلب الأساسى للإضراب هو تشكيل نقابة حقيقية للعمال.
وحدث إضراب آخر فى إمبابة، فى مصنع شركة الشرق للغزل

والنسيج. وسقط فيه أيضاً، شهيد من العمال.

* * * *

سبتمبر 1947: اجتاحت الكوليرا قرية القرين بالشرقية. جاءت من الهند مع قوات «الحلفاء» المعسكرين قرب القرية. انتشرت حتى غدت وباء اجتاح 2270 قرية ومدينة. انتشر عبر حبات البلح، ثم عبر الخضروات والفاكهه. الناس تصاب بقيء وإسهال شديدين حتى يجفوا ويموتوا.

رابطة الطلبة المصريين نزلت تخوض المعركة. شكلت لجاناً لمكافحة الكوليرا، فى القاهرة، وخاصة فى الأحياء الشعبية، بعد أن غزاها الوباء.

شكلت والزميل محمد محمود عثمان، وكنت قد تعرفت به أثناء تكوين النادى المصرى السودانى، لجنة جزيرة بدران وروض الفرج والساحل، لمكافحة الكوليرا. نجحنا مع الأيام فى ضم حوالى 70 شاباً مثلنا إلى هذه اللجنة.

نشرت مجلة الجماهير الإرشادات الواجب اتباعها للوقاية من المرض.

كان الزملاء الأطباء قد أمدونا بالإجراءات اللازمة عند دخول منازل المصابين وطلب الإسعاف لنقلهم إلى المستشفيات وتطهير المكان، وتزويد باقى الأهل بضرورات الوقاية. غسل كل ما يدخل الجوف بمحلول برمنجنات البوتاسيوم واستخدام الليمون، والغسيل المتواصل تحت الصنبور، وغلى الأكل وتسخين الخبز على النار، وحث الناس على ضرورة التطعيم.

وانتشرت الزميلات فى لجان أخرى يحملن حقائب الإسعاف وبها المصل المضاد، يغزون الشوارع والحوارى لتطعيم النساء فى المنازل. وتنبيههن إلى أهمية تنظيف الشوارع من النفايات التى كانت مرتعاً للذباب، الناقل الأخطر للميكروب.

نحن نعمل بلا كلل ولا خوف. وتبرعات تصلنا من الخارج، تزود بها لجان المكافحة. كنا نحصل على المواد المطهرة والمضادة من صيدليات الزملاء والأصدقاء. والحكومة تضع أمامنا العراقيل، وتحتجز دفعة تبرعات قادمة من الخارج وتوجه الرابطة نداء إلى كل الطلبة الأعضاء والمتطوعين للاحتشاد أمام وزارة الصحة. تجمعنا هنالك، واعتصمنا بالجلوس على سلمها. ظللنا كذلك نرفض أى إزاحة لنا أو احتكاك بنا،

حتى جاءتنا الأخبار بأن مندوبينا المفاوضين قد حصلوا على وعد بالإفراج عنها، فغادرنا.
بدأ الوباء فى الإنقشاع بعد أن أجهز على أكثر من عشرة آلاف مواطن. لم يكن هنالك أى استعداد لدى الحكومة لمواجهة مثل هذه الكوارث. وذكرتنى كارثة الكوليرا فى القاهرة وشرقى البلاد وشمالها، بكارثة الملاريا فى جنوبها. والمساكين هم الضحايا، فهم بالنسبة لحكومتهم ومليكهم نسباً منسياً.

* * * *

2 سبتمبر 1947: اتخذ النقراشى فى مجلس الأمن موقفاً هزيلاً من القضية المصرية. الحكومة تعد له استقبالاً حافلاً يوم 2 سبتمبر يوم عودته، تحشد فيه عمال النقل وعمال السكك الحديدية، لإضفاء طابع البطولة على ضعفه وهزاله.
صدر تكليف حزبى عاجل بضرورة التواجد فى تلك الحشود. الحشد الرئيسى فى محطة مصر. بدأت المظاهرة بالتهليل للنقراشى. ثم اتجهت إلى شارع إبراهيم باشا. حدث تحول فجائى فى المظاهرة. بدأت الشعارات الوطنية تسود، واشتد حماس العمال. حملوا فاطمة زكى وحكمت الغزالى فوق مقاعد فوق الأعناق. وجاءت من اتجاه آخر مظاهرة تقودها سعدية عثمان، وأخرى تقودها لطيفة الزيات. وآسيا النمر فوق المقاعد. الهتافات تدوى «لا مفاوضات بعد اليوم»، «الجلاء بالدماء»، «عاش الكفاح المشترك»، «يسقط الدولار الأمريكى»، «تحيا روسيا»، «تحيا بولندا»، «تحيا سوريا»، وهى الدول التى وقفت بجانب القضية المصرية فى مجلس الأمن، على عكس موقف رئيس وزراء مصر فى هذا المجلس. تحولت المظاهرات المهللة للنقراشى إلى مظاهرات تهاجمه. ومن هتافات ترحب بعودته إلى هتافات معادية له. وانضم العمال والناس العاديين إلى هتافاتنا وشعاراتنا. حشدت الدولة الجماهير، وقدنا نحن الطلبة والطالبات، هذه الجماهير وغيرها، ضدها. والتقت تلك المظاهرات أمام سينما رويال قرب قصر عابدين، فبدأت قوات البوليس هجوماً وحشياً. ضربت المتظاهرين بعنف، فتفرقت المظاهرات. حاولوا إلقاء القبض على قيادات المظاهرات، فأسرع أصحاب المحلات لإخفائهم لديهم. وفى اليوم التالى نشرت آخر ساعة

صورة لفتاة محمولة على مقعد وتحتها تعليق يقول: «فتاة تهتف للنقراشى».

* * * *

قضية فلسطين تزداد اشتعالاً. المظاهرات لا تتوقف ضد الاستعمارين الإنجليزى والأمريكى، وضد الصهيونية، وتطالب بدولة فلسطينية لكل الفلسطينيين. وطالب الاتحاد السوفيتى فى الأمم المتحدة، «بإلغاء الانتداب البريطانى فوراً وإعلان استقلال فلسطين» وأبدى رغبة فى أن يرى فلسطين موحدة. وأوضح أن ما يهدف إليه هو تسليم فلسطين فى أسرع وقت ممكن لسكانها. وطالب جروميكو مندوب الاتحاد السوفيتى فى الأمم المتحدة «بتكوين دولة عربية –يهودية مستقلة ديمقراطية».

غير أن الوضع الفعلى تعقد كثيراً، وتفجر الصراع الدموى داخل فلسطين ذاتها. وشكلت الأمم المتحدة لجنة فى سبتمبر 1947 قدمت تقريراً طالب بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود. وأعلن جروميكو أنه قد «ظهر أن هذا الحل (دولة عربية- يهودية مستقلة ديمقراطية) غير عملى بسبب سوء علاقات العرب واليهود. فلابد من تقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين، عربية ويهودية».

وعند التصويت على قرار التقسيم فى 29 نوفمبر 1947، أعلن الاتحاد السوفيتى موافقته على أساس أنه «هو المشروع الوحيد الذى يمكن تنفيذه فى الظروف الحاضرة». وباعتبار أن «التقسيم هو أفضل الحلول السيئة».

وأعلنت بريطانيا أنها سوف تغادر فلسطين فى 14 مايو 1948.

دارت مناقشات عاصفة فى التنظيم، غير أن هنالك عجزاً حقيقياً عن رؤية حل ما. بدأت ترتفع أصوات تطالب بالتطوع والذهاب إلى فلسطين ومقاتلة الصهاينة. لكن كيف السبيل إلى ذلك؟ وانتهى الأمر إلى تبنى قرار التقسيم باعتباره أفضل الحلول السيئة.

المظاهرات لا تتوقف، والإخوان المسلمون يغرقون القضية فى أنواع الصراع الدينى. هنالك مظاهرة ضخمة فى ميدان الأوبرا. وأنا والهام سيف النصر ممن يقودون الهتاف ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية. الهام سيف النصر أبيض الوجه أحمره، أصفر الشعر، والإخوان يعرفونه جيداً. وأمام شعاراتهم المثيرة دينياً، وأصابعهم

الوصول إلى حقيقة ما يجرى، لا من خلال مسئوله، ولكن من خلال من يثق فيهم. أعيش فى دوامة، لا أدرى كيف الخروج من هذا المأزق الرهيب. الاتهامات بالخيانة –العمالة تتناثر، تتطاير هنا وهناك.

* * * *

فبراير 1948: حدث انقسام هائل داخل حدتو، حمل اسم «التكتل الثورى» وعلى رأسه شهدى عطيه الشافعى وأنور عبد الملك، الرفيقان سليمان وسيف. ووجدت نفسى جزءًا من هذا التكتل. حضرت اجتماعاً مفتوحاً تحدث فيه سعد زهران وداود عزيز ليشرحا لنا ما جرى، موضحين أن التكتل الثورى هو منقذ الحركة الشيوعية وأداتها لتحقق أهدافها.

ذهبت وعبد الله كامل إلى منزل شهدى عطيه فى مصر القديمة. رحب الرجل بنا ببشاشة. المنزل يغص بالزملاء، والأحاديث مشتعلة. بدا أن حدتو قد انهارت تماماً. وأننا نضع أقدامنا على طريق الثورة.

صدر قرار لجميع أعضاء التكتل بأن يسلموا كل ما لديهم من كتب أو مكتبات وأجهزة فنية. شكلت لجنة منى ومن عبد الله كامل وعبد المجيد أبو زيد لتلقى هذه الإمكانيات، ثم إعادة تبويبها وتوزيعها على مناطق القطر المختلفة.

امتلأت حجرتى بالكتب عربية وإنجليزية وفرنسية، وأجهزة فنية مثل الرونيو الخشبى والبلوظة والحبر الشينى والأوراق والآلات الكاتبة. كان علينا نحن الثلاثة أن نعمل ليل نهار، من أجل إنجاز هذه المهة الخطرة. إننا ننام أحياناً بالتوالى، يستريح الواحد منا ساعتين، ليستيقظ، وينام آخر، وهكذا.

فى اليوم الثالث جاءتنى أبنة صاحب البيت الصغرى، لتخبرنى أن أباها غاضب أشد الغضب لاستهلاك الكهرباء، كما أنه رأى زملائى يحملون لفافات إلى حجرتى، وهو يفكر فى الذهاب إلى قسم البوليس لإخطارهم، حتى يستريح من نزيف الكهرباء، ويخلى مسئوليته عما يجرى فى منزله.

واشتطت غضباً. قلت لها أن أباها لو فعل ذلك فقد حكم على نفسه بالموت. لأننى لو ذهبت ومن معى هنا إلى السجن، فإن زملاء آخرين، لن يتركوه حياً.

كان علىّ أن أثير فزعه، أشل فعله، ولو ساعة أو ساعتين. وأخبرت زميلىّ بالأمر، فقررنا ضرورة إخلاء الغرفة على الفور. اتصلنا بالزميل المكلف بمتابعتنا وطلبنا سرعة التصرف. بعد قليل وصل محمد سيد أحمد بسيارته الفخمة فى حارتنا. وفى همة شحناها، على وعد بالعودة لنقل ما تبقى.

كان صاحب المنزل يرسل بابنته لتقصى ما يجرى. علمت منها أنه قد همد مؤقتاً حتى يتأكد من خروج كل شىء، وعدم إشعال النور طوال الليل.

انتقى عبد الله خلال تلك الأيام الثلاثة كتباً بالعربية والإنجليزية. وعندما سألته ماذا يفعل، قال، أننا ونحن نعد مكتبات لجميع المناطق، يجب ألا ننسى أنفسنا، يجب أن نعد لأنفسنا مكتبة، حتى نعرف بأنفسنا وفى المنابع الرئيسية مباشرة الفكر النظرى لما نؤمن به سياسياً. الفكر النظرى لماركس وإنجلز ولينين وستالين. وقررنا الاحتفاظ بهذه المكتبة، فى أحد الحقائب، فى حجرة عبد الله، فهى الأكثر أماناً.

عندما عاد محمد سيد أحمد بعد الظهر بسيارته، شحنا ما تبقى فيها، وشحنا أنفسنا أيضاً، حيث علينا أن نكمل المهمة فى المكان الجديد وكان هذا المكان هو دكان ترزى فى الدقى.

بدأ الظلام يحل، فالدنيا شتاء. الرجل زميلنا فى التكتل. قال أنه سيغلق اليوم مبكراً ليعطينا فرصة للانتهاء من عملنا حتى حلول الصباح، وترك معنا صبياً لا يتجاوز الثالثة عشر، هو ابنه، حتى لا يبدو وجودنا فى الدكان غريباً.

عملنا بهمة شديدة. انقطع النور فأشعلنا «مصباح جاز نمرة 10»، وظللنا نعمل. أغلقنا باب الدكان علينا، غير أن الضلف لم تكن تغلق جيداً، كانت تترك مسافات فيما بينها، مما سمح لشعاعات النور الذابلة أن تعبرها إلى الخارج. كما أن هذه الفتحات ذاتها تسمح لعيون من بالشارع أن يلقى نظرة على ما يجرى فى الداخل.

تحولت الكتب والأجهزة الفنية إلى لفافات مربوطة بالحبال أو الدوبار، وقد كتب اسم الجهة المرسلة إليها. بنى سويف، الفيوم، المنيا، الأسكندرية، أسوان، طنطا... الخ. سقط عبد الله وعبد المجيد والصبى

الجندى الشاب مصر على الإجهاز علينا. نحن أن وصلنا إلى قسم الشرطة فلابد وأن تودى بنا أبسط معاينة. غير أنى أحسست أن الجندى الأكبر سناً غير مستريح لاندفاع الجندى الشاب. وخمنت أن الجندى الأكبر ينهى نوبطشيته ويسلمها لهذا الجندى الشاب. ولو انتهى الأمر إلى قسم البوليس، فسوف ينتهى الأمر بإدانته أيضاً. إذ أين كان منذ المساء ونحن فى دركه وهو لم يتتبه إلينا، فى حين تنبه الشاب منذ اللحظة الأولى.
توجهت بحديثى إلى الأكبر سناً مرة أخرى:
على إيه يعنى القسم والضابط النوبشطى، وأحنا زى ما أنت شايف مش عاملين أى مخالفه. كل اللى هيحصل إننا نترمى فى التخشيبه ظلم. بهدله يعنى من غير لازمه.
قال العسكرى الأكبر:
-أصل يا فنديه، فيه شبان طخو بيت النحاس بالقنابل، والأمن مشدد قوى اليومين دول.
كانت كلمة «أفندية» نقلة هامة فى الحديث. قال عبد المجيد أبو زيد موجهاً الحديث إلى العسكرى الأكبر:
-يا شاويشنا، أنت زى مانت شايف احنا مش وش كده.
هز الرجل رأسه كمن يتدبر الأمر، ثم سأل فى تخابث:
-طب وإيه اللفف دى؟
وأسرع الصبى أبن صاحب الدكان:
-دى حاجات الزباين.
نظر العسكرى الأكبر إلى العسكرى الأصغر وقال فى حسم:
-شوف، أنت هتسيبهم للصبح، وإن حد منهم طلع قبل الصبح أقبض عليه.
قال عبد الله كامل وهو يأخذ نفساً عميقاً:
-دا كلام مضبوط.
نظر الجندى الأصغر إليه بضيق.
قال الجندى الأكبر لنا، وهو يمسك بيد الجندى الأصغر، ويدفعه إلى الخارج:

-أنتو سمعتو الكلام أهه. وأنتو المسئولين عن نفسكو بقه. أقفلو باب الدكان ورانا دلوقت، وما يتفتحش أبداً إلا فى الصبحيه.
وأكد عبد الله رغم نظرة الجندى الأصغر إليه:
-تمام يا شاويش.
وغادرا فأغلقنا الباب وأطفأنا المصباح وأنتظرنا حتى أدركنا أنهما قد ابتعدا من وقع خطواتهما. قال عبد الله وهو ينفخ:
-أعوذ بالله، دى ليله كوبيا.
قلت فى صوت هامس:
-المهم دلوقت نتفق هنقول إيه، لو العسكرى الصغير ابن المجنونه دا، شاور عقله، وراح للضابط النوبطشى، وحكاله الحكايه؟
تساءل عبد المجيد أبو زيد:
-نقول إيه فى إيه؟
قال عبد الله:
-فى التهم اللى معانا دى. دا كتاب واحد بيودى فى داهيه، ودى مكتبات وأجهزه فنيه.
اتفقنا على القول بأننى قد أصبت بإسهال مفاجىء، فذهبت لأقضى حاجتى فى الخرابة التى تقع خلف الدكان، فوجدت هذه الحقائب واللفائف، فحملناها إلى الدكان من باب الفضول. وكنا لابد سنخطر البوليس والنيابة فى الصباح إن وجدنا بها ما يخالف القانون.
سقطنا نائمين بعد الاتفاق على هذه الحجة الواهية، والتى لم يكن أمامنا غيرها. استيقظنا على طرقات على الباب والصبى يسرع يفتحه، ويقول لنا مطمئنناً:
-دا بويا.
جلسنا جميعاً نفرك عيوننا ونتثاءب. حكينا للرجل عن كل ما حدث. كان يستمع فى هدوء، يهز رأسه يمنة ويسرى أو من أعلى إلى أسفل. بدا مفكراً بعمق، ثم قال:
-أنا كنت أحب نفطر سوا ونشرب الشاى، بس الظروف كده ما تستحملش. الحمد لله اللى رسيت على كده. بس برضه الاحتياط واجب.
ثم نظر إلى اللفائف التى ملأت أرضية الدكان:

-ساعدونى بس نركن الحاجات دى كلها على جنب، عشان ما تبنش من الشارع، وبعدين مع السلامه أنتو. بس لازم تتصلو بالزملا يجيبو عربيه تاخد اللفف دى دلوقت.
أكدنا أننا سوف نتصل على الفور من أجل ذلك، غير أننا لن نغادر المكان حتى نطمئن عليه. سوف نجلس على المقهى المجاور، ونطل عليه ما بين الحِين والحين. وأصر هو على مغادرتنا على الفور والابتعاد تماماً عن المكان. لكننا نفذنا ما قلناه دون أن يرانا حتى جاءت سيارة محمد سيد أحمد ونقلت كل الحاجيات فأنصرفنا. أنجزنا المهمة، ونجونا بمعجزة.

* * * *

19 يناير 1948: خندق السراى بمن فيه من مصر الفتاة والسعديين والدستوريين وعلى رأسه الإخوان المسلمين لا يكفون عن الاعتداء علينا، خاصة فى المظاهرات المعادية للحكومة أو الداعمة للقضية الفلسطينية. وقد أثار ذلك بالفعل استفزاز كل القوى الوطنية الديمقراطية المستقلة، كما أثار بين الشيوعيين والوفديين ضرورة الثأر منهم، فى معركة تحشد لها كل قوى الجامعة.
بدأ الإعداد بتخزين أسلحة المعركة فى الجامعة: أيدى مكانس، قبضات حديدية، البلاك جاك (هراوات قصيرة من جلد مجدول محشو بالرصاص)، الكرابيج، وكل ما يمكن أن يكون أداة ضرب.
تحدد يوم 19 يناير 1948، يوم ذكرى اتفاقية السودان 1899، للتظاهر والثأر من الإخوان إن حاولوا الاعتداء. وأطلق على هذا اليوم اسم «محاربة الفاشية».
احتشدت منذ الصباح الباكر قوات البوليس على الكبارى المؤدية إلى الجامعة تمنع عبور الطلبة. ولم يكن أمامنا غير ذلك الطريق الذى لم ينتبهوا إليه بعد، أو أنهم لا يستطيعون إغلاقه. عبرنا النيل من أمام القصر العينى وكلية طب الأسنان إلى أمام حديقة الحيوانات. وانطلقنا من داخل الحديقة لنقفز من فوق سورها المشترك مع كلية الهندسة، إلى كلية الهندسة، ثم خرجنا منها لنصبح أمام الجامعة، ولنفاجأ ببواباتها مغلقة، وعليها حراس من الطلبة يمنعون فتحها لأى داخل أو خارج. ولم يعد أمامنا غير القفز من فوق سور الجامعة، لأسقط فى مواجهة الحائط

الجانبى لكلية الحقوق، وقد تمزقت يدى. غير أن مفاجأة أخرى مثيرةٍ كانت فى انتظارى. رأيت أمامى مباشرة طالباً يحمل فى يده مسدساً، يهدد به آخرين، ويده المصوبة ترتعش فى عنف. كان واضحاً أنه خائف للغاية، مرعوب، يمكن أن يفعل أى شىء، وانتهز فرصة أن من أمامه أيضاً كانوا يخشون أن تنطلق رصاصته فتصيبهم فى مقتل، ليفر هارباً، غير أن الآخرين لحقوا به، وأسقطوه على وجهه، وبركوا عليه، ليأخذوا مسدسه، ويشبعونه ضرباً.

ولم أعرف بالتحديد من الذى يضرب؟ ومن الذى يُضرب؟ أسرعت إلى فناء الجامعة حيث ألتقيت بعدد من الزملاء. كان الإخوان وحلفاؤهم قد احتشدوا على سلم كلية الحقوق، بينما أحتشد الشيوعيون والوفديون والمستقلون أمام المبنى الرئيسى. الإخوان يهتفون كالمعتاد. الله أكبر ولله الحمد، «عاش الملك، يحيا الملك»، والخندق الآخر يرد عليهم، «الشعب الشعب ليحيا الشعب»، «لا مليك إلا الله». وارتبك بعض الإخوان فرددوا الهتاف الأخير. وقاموا كالمعتاد باختراق حشدنا. لم يدركوا أن اختراق هذه المرة جزء من الخطة المدبرة، إذ سرعان ما أحيط بهم، إحاطة السوار بالمعصم، وخرجت أدوات القتال، وانهال الضرب العنيف مرة واحدة. وسرعان ما تناثروا وتبعثروا. وحاول البعض منهم الفرار خارج الجامعة، فأغلقت عليهم الأبواب، واحكمت المصيدة، فانطلقوا يختفون فى مدرجات كلياتهم.

وتشكلت للحال فرق تحرس البوابات، وفرق تهاجم المدرجات، وشاركت أنا فى تلك الأخيرة. قصدت على الفور كلية التجارة أبحث عمن شاركوا فى الاعتداء علىّ وعلى الهام سيف النصر يوم مظاهرة فلسطين. كنت أعرفهم وأحتفظ بصورهم فى ذاكرتى. كانت معى هراوة البلاك جاك، وقد ثبتها فى قبضتـ اليمنى. وعثرت على بعضهم فى أحد المدرجات. وهم فى حالة من   شديد. غير أن ما أصابوننى به يوم المظاهرة، ما كان يمكن أن أ   أغفره، وأمسكت من طالته قبضتى اليسرى من عنقه، وأنهالت يدى اليمنى عليه ضرباً. كنا نعوض ما أصابنا على أيديهم سنوات طوال.

عدت إلى فناء الجامعة. بدأ الحرس الجامعى يتحرك دفاعاً عن الإخوان

وخندقهم. وللحال تشكلت فرقة للتصدى للحراس وتحطيم حجراتهم، وتجميع منقولاتهم فى فناء الجامعة. إنهم لم يتدخلوا أبداً لحمايتنا من الإخوان.
اقتحمنا المبنى الرئيسى، حيث مكاتب إدارة الجامعة. انتزعنا صور الملك من كل الحجرات، وألقينا بها أمام المبنى، حيث تبارى الطلاب فى تمزيقها والتبول عليها، وإشعال النيران فيها، والهتاف بسقوط الملك والملكية وحياة الجمهورية.
غدت الجامعة تحت سيطرتنا الكلية. انتهى الإخوان فى هذا اليوم وكذا حرس الجامعة والملك الذى يهتفون له رمزاً لخندقهم المعادى. وأعيد فتح البوابات. كان اليوم عامراً بالمهام.

* * * *

21 فبراير 1948: تم الحشد فى شارع قصر النيل بدأت الزميلات الهتاف، ثم لحق بهن الزملاء. حاصر البوليس المكان. هاجم الحشد ليلقى بالزميلات والزملاء قسراً فى عربة بوليس كبيرة مكشوفة، والجميع يهتف «عاشت مصر حرة مستقلة». كانت من الزميلات، فاطمة زكى ولطيفة الزيات وسميحة عبد الحميد وثريا شاكر وحكمت الغزالى وثريا أدهم.
جلست فاطمة زكى فوق كبينة السائق. كانت بطلة جرى سابقة. قفزت إلى الشارع وانطلقت جرياً فى الشوارع الجانبية. نجحت فى الإفلات حيث عوق الزملاء الذين كانوا ما يزالون طلقاء، والناس العاديين، البوليس من إعادة الإمساك بها.
كان الحصاد الذى انتهى إلى قسم البوليس سبعة عشر زميلة وتسعة عشرة زميلاً.

* * * *

أعلنت الكلية الحربية عن قبول دفعة، من طلبة الجامعة، مدتها ستة أشهر، ليتخرجوا ويصبحوا ضباطاً. قيل أن ذلك تحضير للحرب التى ستشنها البلدان العربية على إسرائيل حماية للوطن الفلسطينى.
وجدنا فى هذا الإعلان المخرج الذى كنا نبحث عنه للمشاركة فى القضية الفلسطينية فى مواجهة الصهيونية.
قررت السفر مباشرة إلى حيث يعمل والدى فى «أبو طشت» (وكان قد

نقل إليها من السمطا) وهى أيضاَ قرية من قرى الصعيد، لكن حالها أحسن بكثير من حال السمطا. تلقتنى الأسرة بالترحاب. سألنى أبى بعد الغداء الأسرى الجميل:

-إزى الحال؟ إزى حالك فى الكلية وحال المذاكرة.

كان اهتمامى بالدراسة هذا العام يجىء فى المرتبة الثانية، بعد مسافة طويلة، من اهتمامى بالسياسة. وعندما قررت، ومجموعة من الأصدقاء، الالتحاق بالكلية الحربية، أهملت المذاكرة تماماً، إذ لم يعد لها مكان أمام انغماسى الكلى فى العمل السياسى.

أحسست للحظة بالخجل. قلت فى صوت خافت:

-أنا عاوز أدخل الكليه الحربيه.

بدا أنه لم يسمعنى، أو سمعنى ولم يستوعب ما قلت. كررت جملتى مرة أخرى:

-أنا عاوز أخش الكليه الحربيه.

قال وقد غمر الذهول صوته:

-إزاى يعنى؟

-الكليه أعلنت عن دفعه جديده مدة ست أشهر بس ونتخرج ضباط.

تساءل وقد ازداد ذهوله:

-وكلية العلوم؟!

قلت فى بساطة:

-خلاص بقه. أنا هبقه ضابط فى الجيش.

-بس يا ابنى ليك تلات سنين فى كلية العلوم.

قلت مهوناً:

-ممكن بعد ما خلص حربيه أكمل علوم. ما فيش مشكله.

تساءل:

-وهيه الكليه عامله ليه دفعه ست أشهر بس، بدل سنتين؟

قلت فى تباه لم أحسب عواقبه:

-عشان حرب فلسطين. الحكومه بتجهز للحرب.

زالت دهشته وانتفض:

-يعنى أنت داخل الحربيه عشان تحارب؟

-طبعاَ. أمال كليه حربيه يعنى إيه غير كليه الإعداد للحرب.
قال من بين أسنانه:
-يعنى أنت داخل الكليه دى عشان تموت!
فوجئت بهذا القدر من الغضب.
-أنا داخل عشان أحارب. يمكن أموت، ويمكن ما أموتش.
قال فى حسم:
-لأ، أنا مش موافق.
صدمنى رفضه. ثم أكمل وهو ينهض واقفاً:
-لأ يعنى لأ. والموضوع دا مسمعوش تانى. أنت ما بتفهمش حاجه، دى دفعة تروح الحرب، عشان ولاد الأكابر ما يرحوش. انتو تموتو وهمه قاعدين هنا يترقو وينامو فى حضن أمهم. أنت مش هتموت فدا مصر. أنت هتموت فدا ولاد الأكابر. ست أشهر وتروح الميدان. هتكون تعلمت فيها إيه؟ شمال يمين وخلفا در! وتقولى أنت ضابط. دا النفر أحسن منك. دا انتحار مش حرب. وأنا قلت لأ يعنى لأ.
ثم اتجه مغادراً الحجرة وهو يقول فى حسم:
-حالاً تقوم ترجع على مصر، على كليتك.
أفزعتنى رؤيته، وتحليله الذى لا يخلو من غرابة. إنه يتحول إلى مقاتل كاسر إن مس الخطر أبناءه.

****

عدت إلى القاهرة بخيبة أمل عميقة. قُبل زملائى فى الكلية الحربية. وملأتنى الحسرة.
الضربات تتوالى على التكتل الثورى والانقسامات على حدتو. ظهرت أشكال جديدة بدأت تشد الزملاء إليها. أعُلن عن تشكيل «القاعدة المشتركة» داخل حدتو ذاتها، وذلك لإدارة صراع نظرى وفكرى وسياسى بين كل المختلفين مع قيادة حدتو والرافضين لها أو المنقسمين عليها. رفضت ومن معى فى التكتل الانضمام إلى هذا الشكل، فقد رأينا فيه سوق عكاظ سياسى ومزايدات يسارية، ومباراة نصوصية نظرية. وأنه سوف يكون ساحة مباحة متاحة للاختراق الأمنى. ولابد أن ينتهى إلى انقسام جديد.
أصابت الضربات المستويات القيادية وما دونها والأجهزة الفنية

صفوف الطبقة العاملة.
وقلت لهم بهدوء، أنهم لا يعرفون اللغة العربية. لقد عجزوا عن التحدث معى بلغة البلاد، فما البال مع العمال. كيف يستطيعون مخاطبتهم والتعامل معهم. ويبدو أن الوسيط قد أدرك الآن لماذا أصريت على الحديث بالعربية. لم أكن أود الإساءة إليهم، لكننى كنت أود أن أنبههم عملياً، أن لكل قدراته.
قال الوسيط بالعربية:
-يبقه همه يقدرو يعملو إيه؟
قلت وهو يترجم:
-هنالك مهام هامه للغايه يمكنهم القيام بها. ولنبدأ بمهام ثلاث: المساعدات الماليه، تأمين إقامة للزملاء الهاربين المطلوب القبض عليهم، وتشغيل الأجهزه الفنيه. ويمكن مع تواصل العمل أن تظهر مهام جديدة.
بدا الامتعاض الشديد على وجوههم. وقف البعض منهم إعلاناً بانتهاء اللقاء. جلست أتأملهم وهم «يبرطمون» ويشوحون بأيديهم. جاءنى الوسيط يسلم علىّ منصرفاً.
سألته:
-همه استقرو على إيه؟
رفع حاجبيه، ولوى شفتيه، وابتسم ابتسامة كالاعتذار:
-همه هيسيبو التكتل لأنه تنظيم يمينى، وهينضمو للقاعده المشتركه.
هززت رأسى وأنا ابتسم.
-عل بركة الله.
سلمت على الدكتور فريد حداد. سألته وأنا أنصرف:
-أنا عملت حاجه غلط معاهم؟
فقال على الفور:
-أبداً. أنت حطيت ليهم المهام اللى تحميهم، وتفيد التنظيم.
فشكرته وانصرفت.

* * * *

علمت فيما بعد أن أحد هؤلاء الشبان الأجانب المتحمسين لـ 100% عمال. قرر تنفيذ قناعاته مع عمال الترامواى.

أتخذ الترامواى من أول العتبة. وقف إلى جانب السائق. قدم له سيجارة فأخرى حتى يخلق معبراً مشتركاً، كما تصور. قال وقد أحس أن السائق قريب منه:
-ممكن خبيبى نتقابل بعد الشغل؟
نظر إليه السائق فوجده أجنبياً وسيماً للغاية، يبدو عليه الثراء. وللحال خمن أنه من هؤلاء الشبان الباحثين عن متعة شاذة.
قال مرحباً:
-وماله يا خواجة نتقابل.
تصور الزميل الأجنبى أنه يسير على الخط الصحيح، فطمع فى المزيد.
-ممكن حد تانى يجى معاك؟
نظر السائق إليه مندهشاً:
-وأنت فى حد تانى جاى معاك؟
فكر الزميل ملياً ثم هز رأسه بالإيجاب.
اتفقا على موعد اللقاء ومكانه. وعندما التقوا أكتشف العاملان أن الأجنبيين ليسا كما تصورا وحاولا. وأكتشف الزميلان الأجنبيان، من محاولة العاملين معهما، أن الطبقة العاملة المصرية ليست كما تصورا!
وللحال فكرا فى ترك مصر والهجرة إلى بلد أوروبى.
لم يتصور العامل أن يسعى أجنبى للأخذ بيده لتحسين ظروفه والقيام بثورة، لكن الأقرب للعقل والمنطق، أن يكون الأمر شيئاً آخر. ولم يتصور الزميل المؤمن بالطبقة العاملة على إطلاقها، أن يفكر عامل بروليتارى فيما فكر فيه هذا العامل.

* * * *

زرعت القنابل فى محلات شيكوريل وشملا وبنزايون وجاتينيو التى يمتلكها يهود.
ثم امتدت إلى حارة اليهود. ثم وقع انفجار ضخم فى شركة الإعلانات الشرقية ليرى المؤسسات الإعلامية والإعلانية الأجنبية.

* * * *

22 مارس 1948: أغتيل المستشار أحمد الخازندار وهو فى طريقه إلى المحكمة. تبين من التحقيق أن القاتلين من شباب الإخوان المسلمين، وإنهما قد قتلاه انتقاماً من حكم أصدره حين كان رئيساً لمحكمة الجنايات

جرى القبض على الطلبة رداً على المظاهرات التى قاموا بها طوال الفترة الماضية، وخاصة يوم 19 يناير. وجهت لهم تهم الحرق العمد لمنشآت أميرية وسب الذات الملكية ورئيس الحكومة. وضعوا فى سجن الأجانب. قدموا إلى جلسات المعارضة التى حضرها عدد كبير من المحامين وعلى رأسهم د.عزيز فهمى.

قال المدعى العام، «إن أحد عشر ألف طالباً من طلبة الجامعة (وكان هو العدد الكلى لطلبة الجامعة) قد رددوا وراءهم الهتاف الخطير ضد الملك.

قاطعه عزيز فهمى واتهم النيابة والقلم المخصوص بالسب فى الذات الملكية: «أى سب فى الذات الملكية أبلغ من أن يقال أن أحد عشر ألفا من الطلاب مستعدين لترديد الهتاف الذى أطلقه المتهمون». قامت النيابة بعد المداولة برفع تهمة السب فى الذات الملكية وأبقت على باقى التهم.

ثم حفظت القضية.

وقدم الطلبة إلى مجلس تأديب عال فى إدارة الجامعة فقرر فصلهم فصلاً نهائياً.

* * * *

ظهرت نتائج العام الدراسى، وكنت من الراسبين. ليس فى الأمر مفاجأة لى لقد غرقت هذا العام فى العمل السياسى. المأساة هى فى كيفية استقبال أسرتى لهذا النبأ الحزين. والمأساة الأكبر أن مذكرات العام الدراسى غير متوافرة لدى، كما يصعب الحصول عليها، مما لا يبشر بخير فى الدور الثانى.

عندما سمع أبى النبأ، لم يكن مفاجئاً له. هز رأسه فى أسى، وقال، أننى لم أرسب فى نهاية العام، لكننى رسبت منذ قررت ترك كلية العلوم والالتحاق بالكلية الحربية. كان هذا القرار يعنى أننى قد ألقيت إلى سلة المهملات لا بسنة واحدة ولكن بثلاث سنوات.

حاولت الاعتذار لكننى عجزت عن الكلام. أنزويت طوال فترة الإجازة أحاول المذاكرة دون جدوى.

عندما حان موعد عودتى إلى القاهرة، كان أبى ما يزال غاضباً فى صمت. ودعنى وداعاً فاتراً. لم يقل لى شيئاً له علاقة بالمذاكرة أو امتحان الدور الثانى. قال فى حزن:

-ربنا يهديك يا بنى.

الفصل الرابع عشر

1948-1949

وقعت فى يد الأجهزة الأمنية سيارة للإخوان المسلمين مليئة بالخرائط والخطط لإقامة «الجمهورية الإسلامية».
لكن حكومة النقراشى شنت مع بداية العام الدراسى الجديد حملة اعتقالات ضخمة ضد الشيوعيين والطليعة الوفدية، وملأت بهم أقسام الشرطة.

* * * *

عقد طلبة كلية طب القصر العينى اعتصاماً. حاول سليم باشا زكى اقتحامه فقتل.
اتسعت الحملة لتشمل الإخوان المسلمين أيضاً.
أخليت أقسام الشرطة من الشيوعيين والوفديين لتضع الحكومة بها الإخوان المسلمين. وأُرسل بالشيوعيين والوفديين إلى معتقل الهاكستيب، وكان ذلك فى ديسمبر 1948. ثم أُرسل الإخوان إلى الهاكستيب أيضاً.

* * * *

28 ديسمبر 1948: أصدر النقراشى باشا قراراً بحل جماعة الإخوان المسلمين، فرد عليه الإخوان باغتياله فى 28/12، فى قلب وزارة الداخلية.

* * * *

انتهت «القاعدة المشتركة» «وصوت المعارضة» و»نحو منظمة بلشفية» إلى منظمة واحدة جديدة هى «المنظمة الشيوعية المصرية» (م.ش.م) فى أواخر 1948. وقررنا عدم دخول م.ش.م. بسبب يساريتها الشديدة، ونظرية 100% عمال.

* * * *

فبراير 1949: جاء إبراهيم باشا عبد الهادى الذى كان رئيساً للديوان الملكى، وأصبح رئيساً للحزب السعدى بعد اغتيال النقراشى، جاء رئيساً للوزراء. شن حملة كاسرة على الإخوان المسلمين.
كان إبراهيم عبد الهادى عدوا لأعداء الملك، للطلبة الشيوعيين والطلبة الوفديين، ثم أصبح عدواً للإخوان المسلمين.
وفى فبراير 1949 تم اغتيال حسن البنا، انتقاماً للنقراشى، وثأراً له.

* * * *

21فبراير 1949: الذكرى الثالثة لهذا اليوم التاريخى. حدثت مظاهرات فى كل أنحاء البلاد، كما تم توزيع منشورات. ألقى البوليس القبض على عدد من الزميلات والزملاء، غير أنه تم الإفراج عنهم لضعف الأدلة.

* * * *

ألتقيت وعبد الله كامل، ناقشنا الوضع الذى وصلنا إليه. قررنا أن نناقش من تبقى معنا من زملاء التكتل. لقد انتهى التكتل، ولم يعد له وجود.
سوف نعمل بمفردنا. لن ننضم لأى تنظيم جديد. سنعمل على التعرف الصحيح على النظرية بالتثقيف الذاتى، وعلى الواقع من خلال النزول المباشر إلى العمال.
وانصرف البعض ولم نعد نراه، وبقى البعض يعمل معنا.
أرتديت وعبد الله ملابس قديمة، واتجهنا إلى شبرا الخيمة. أقترحت أن نذهب إلى مقهى المعلم حسان، أحد ركائزى فى توزيع «الجماهير».
وكنت قد انقطعت عنه، عندما تعقدت الأمور فى التكتل، إلا أن عبد الله لم يرحب بالفكرة، واقترح أن نذهب إلى مقهى لا يعرفنا فيه أحد، حيث أننا لا ندرى أين يقف الآن، من كانوا معنا بالأمس؟ لنذهب إليهم فيما بعد.
لم يكن من الصعب العثور على مقهى مزدحم بالعمال. جلسنا الواحد منا قبالة الآخر. وطلبنا شاى وحلبة حصى و»ضُمنه». رص كل منا «قواشيطه»، وبدأنا اللعب. بعد قليل أدار أحد الجلوس إلى جوارنا كرسيه مبتسماً، وقال:
-ممكن؟
قلنا مرحبين:
-أهلاً وسهلاً.
ثم جاء أحد أصدقائه، أستأذن وجلس قبالته. سألاً إن كان يمكن أن نلعب سوياً فرحبنا. كانت تلك فرصة نتعرف فيها على أهل المنطقة، وبذا لا نكون غرباء.
سأل أحدهما، وكأن السؤال عرضى، غير مقصود:
-أنتو مش من هنا؟
قلت وأنا لا أعطى أهمية كبرى للسؤال:

وتدمروها. لكنا أحنا مش هنسيبكو.
قلت متحدياً وقد غدا اللعب على المكشوف:
-إلا صحيح، أنتو مين؟
نظر حوله ثم قال من بين أسنانه:
-أحنا العسكريين. واسأل الشراميط بتوعك يقولولك إحنا مين. وأحسن لكو ما تظهروش تانى هنا. دا انذار هتنضربو لما تتكسحو.
قال عبد الله متحدياً:
-دنتو فتوات بقه؟
أجاب الأول:
-بالضبط كده.
وأكملت تحدى عبد الله:
-على بركه الله، بس معلهش يا أخ. ما تأخذناش يعنى، احنا هنيجى هنا وقت محنا عاوزين، وابقه ورينى هتعمل إيه يا عسكرى.
انصرفا وهما يتوعدان.
قلت لعبد الله، دعنا ننصرف نحن أيضاً. فتلك اسوأ بداية. وسوف نذهب المرة القادمة إلى مقهى المعلم حسان.
سعيت جاهداً بعد عودتنا لمعرفة من هم «العسكريين» هؤلاء. وقد أخبرنى أحد الزملاء:
-دول عمال الدلاشنه.
ودارت بىّ الدنيا:
-وإيه الدلاشنة دول كمان. أنا أعرف أسكرا وحمتو وحدتو. دا انقسام جديد ولا إيه؟
-لا يا سيدى. دول مش انقسام جديد. دول تنظيم تانى قديم معادى لحدتو، مدرسه تانيه. همه ناس كويسين. تحب أقابلك بحد منهم؟
-يا ساتر يا رب. أقابل حد تانى منهم. مره واحده كفايه قوى.
وأخبرته بما جرى فى مقهى شبرا الخيمة.
* * * *
جاءنى عبد الله كامل يلهث. لقد أمسك به البوليس فى شبرا الخيمة، وجاءوا به فى لورى مع آخرين إلى شبرا مصر. انتهز عبد الله فرصة تهدئة السيارة عند أحد الإشارات فقفز منها وظل يجرى حتى وصل

من الأفضل أن نحصل نحن على واحد منها نستفيد به ونفيد به قضايا الشعب والبلد. وبعد الثورة نعيده لهم مطبعة كاملة.
-بس دى سرقه يا عبد. وممكن تتمسكو.
-لا يا أبو لبيب. من جهة السرقه فمال الحكومة هو مالنا. مال الشعب يعنى. ومفيش حد بيسرق نفسه. أما بالنسبة للمكان، فدى عملية نضيفة مية الميه.
عبد الله وقد اقتنع بالثورة، يكاد يترهب فى محرابها، ويفعل كل ما يراه فى صالحها مهما كان الثمن.
مر أسبوع وجاءنى عبد الله. دفع باب الحجرة فدخل واستيقظت أنا.
تساءلت، أين كان طوال هذه الفترة. قال وهو يجلس على الكرسى الوحيد بالحجرة:
-صحصح معايا يا أبو لبيب.
قلت وأنا ما زلت بين النوم والصحيان:
-ما أنا مصحصح أهوه.
قال وهو يضغط الكلمات:
-لأ، صحصح تمام. أنا عندى كلام مهم.
-وأنت عمرك يا عبد ما قلت كلام مش مهم.
-طيب يا سيدى نخش فى الموضوع.
-موضوع إيه؟
-موضوع العملية، عملية التايبرايتر.
بدا ممتعضا كل هذا الحماس والاهتمام وأنا ألقاه من وراء سحابة نوم.
-عموماً العملية خلصت على خير والحمد لله.
-عملية إيه، وتايبرايتر إيه يا عبد الله؟
-تايبرايتر المرصد. مرصد حلوان.
وأفقت تماماً، أسرعت إلى الحمام. وضعت رأسى أسفل الصنبور وفتحته إلى آخره. أعتقد أننى كنت فى حاجة إلى وقت استوعب فيه ما سمعت وما سأسمع.
دعكت رأسى بعنف أجففها بفوطة الوجه.
تساءل عبد الله مندهشاً:

-إيه، فيه إيه؟
-أبداً. ولا حاجة، بس أفوقٍ لك.
كان عبد الله يتحرق شوقاً ليفضى بما لديه. ذهب منذ أيام إلى قريبه فى المرصد ساعة انتهاء يوم العمل. دخل وقد فرغ المبنى إلا منه، ومن قريبه والسعاة. كانت معه حقيبة، وفى داخلها مفك وما يلزم من أدوات. كانت الآلة الكاتبة مثبتة إلى قاعدة خشبية، ومركونة فوق أحد الدواليب. فكاها فى سرعة ووضعاها فى الحقيبة وأنصرفا. لم يصدق قريبه نفسه. تصور عندما حادثه عبد الله من قبل أنه كان يضحك معه أو يمازحه. غير أنه عاونه تماماً عندما صارت المزحة حقيقة. خرجا بالآلة الكاتبة وكأن شيئاً لم يكن.
عند باب المرصد افترقا. ويكمل عبد الله. عندما بقى لوحده أحس بالخطر. هو يحمل فوق كتفه حقيبة والطريق من حلوان إلى منزله فى شارع القصر العينى ملغوم بالمخبرين بسبب أعمال الاغتيال والتفجيرات. رأى بعض الجنود قادمين نحوه، فأسرع يوقف عربة حنطورٍ لتأخذه إلى محطة حلوان. غير أن المحطة كانت أشد خطراً وهولاً من الشارع. رأى أمامه لورى جيش وسائقه يسأله إن كان ذاهب إلى القاهرة. وللحال حمل عنه بعض الجنود الحقيبة ووضعوها فى صندوق اللورى وهو معها. وانطلقت السيارة.
وسأله أحمد الجنود الذين كانوا معه فى صندوق السيارة، وهو يبتسم ابتسامة خبيثة إن كانت هنالك قنابل فى تلك الحقيبة؟ فوجىء عبد الله لكنه تماسك وقال أنها أشياء خاصة. لكن الجندى أصر على أنها ثقيلة للغاية. أدرك أنهم يساوٍمونه على الأجرة. قرر أن يدفع ما يطلبون. أمام منزله طلبوا منه جنيهاً ونصف، وكان ذلك هو نصف مصروفه الشهرى. دفع الجنيه الذى كان معه واقترض من بائع كازوزة يجاور المنزل نصف الجنيه المتبقيٍ.
أنزل البواب الحقيبة مندهشاً. الحقيبة ثقيلة وتحملها سيارة جيش. وسائقها يأخذ جنيهاً ونصف، يعادل أجره الشهرى، ازدادت دهشته وتحولت إلى احترام كبير لعبد الله عندما طلب منه أن يضع الحقيبة فى أحد الدكاكين الشاغرة أسفل العمارة. تعامل مع عبد الله باعتباره رئيس عصابة دولية.

-يعنى أحنا دلوقت عندنا والحمد لله مكتبه عظيمه وجهاز فنى محترم. ومواقع نسيج فى امبابه وشبرا. ونقل عام فى الجيزة وشبرا والعباسية وغمره. ومعانا مثقفين، وأبطال رياضة. يعنى.
-يعنى إيه؟
-يعنى عندنا مقومات تنظيم.
-المشكلة مش مقومات تنظيم. خمس أنفار ممكن يعلقوا يافطة ويقولوا أحنا عملنا تنظيم. المشكلة هى، هل هناك ضرورة لهذا التنظيم. عنده شىء يستطيع تقديمه ولا يستطيع غيره تقديمه؟ هيه دى المشكلة.
-ما أنت شايف العسكريين وحالهم. وحدتو واللى عملته. وم.ش.م وبينا وبينها خلافات شديدة. كمان فيه سؤال، أحنا مين دلوقت، واللى بنعمله دا هيصب فين؟
-أعتقد إن دا موضوع لازم نطرحه على كل الزملا، والمناقشة هتوضح إيه البر اللى ممكن نرسى عليه.
قال عبد الله وهو ينهض منصرفاً:
-ماشى يا أبو لبيب. أنت ناقش عمال شبرا الخيمة وصلاح هلال بالذات، وعمال إمبابة، وزملاء شبرا مصر وخاصة محمد محمود عثمان وزملا لجنة الكوليرا والنادى المصرى السودانى، وأنا هناقش زملا النقل وخاصة محمود فرغلى. وزملاء عابدين وخاصة محمد مصطفى درويش وأمين الصيرفى.

* * * *

تعرف عبد الله على محمود فرغلى سكرتير عام نقابة عمال الترامواى فى تعريشة مشروبات فى الدقى. كان عبد الله قد ركن إليها ليشرب كوب شاى، وهنالك التقى بمحمود وسرعان ما اكتشفا بعضهما البعض وارتاح الواحد منهما للآخر. وإلى هذه التعريشة كان يجىء العديد من عمال النقل.
توثقت العلاقات الشخصية والنضالية وتعمقت الثقة. محمود فرغلى شخصية جماهيرية شخص جاذب ومحبوب للغاية ممن يعملون معه. قال لعبد الله:
-شوف يا عبد أنا معرفش أجند، دى شغلتك أنت. أنا أناقش، آخد مواقف وأنت تكمل، تجند من جنبى ومن ورايا. أحنا لازم تكون عندنا ركائز

جيدة يعتمد عليها عشان نقدر نتحرك.
وقد تميز محمود فرغلى بأنه كان على الدوام شديد الاهتمام برأى الشيوعيين، وليس رأى عبد الله فقط. كان لا يعترف بوجود الانقسامات، وعندما يتحدث عن الشيوعيين يتحدث عنهم باعتبارهم شيئاً واحداً، كياناً كلياً، رغم أنه معنا.
ونجح عبد الله فى اكتساب ثقة العديد من الكمسارية والسائقين وعمال التحويلة والمخازن، وجند الكثيرين منهم. غير أنه كان يواجه مشكلة دقيقة.
-أنا أجيد الحديث فى النظرية، لكن باعانى من الربط بين النظرية والمشاكل المباشرة للعمال.
لقد اعتدنا طوال الفترة الماضية أن تنفذ قرارات آتية من أعلى، أو المشاركة فى مظاهرات وطنية. لكننا الآن مسئولون عن التصرف، عن اتخاذ قرارات وإصدار توجيهات.
لقد توجهنا طوال الفترة الماضية إلى عمال شبرا الخيمة وإمبابة. واستفدنا كثيراً من هذه التجربة. عرفنا الكثير عن صناعة النسيج ومشاكلها وعمال النسيج ومشاكلهم. غير أن الدرس الأكبر الذى تعلمناه هو أن العمال أنفسهم هم أدرى الناس بمشاكلهم وأقدرهم على تقديم الحلول لها.
نحن القادمون من الخارج نستطيع التحدث جيداً عن الاستغلال الرأسمالى، والقيمة والثمن والربح، وفائض القيمة والتراكم، لكن العامل يعيش هذه المفردات يومياً. قد لا يعيها. كما نعيها نحن نظرياً، لكنه يعى من أين يجيئه الظلم. وكيف عليه أن يواجهه وما هى الحلول التى فى صالحه. ومن هم القادة المخلصون له.
علينا أن نقدم لهم الوعى، ووضوح الرؤية المستقبلية، وليست الآنية فقط. وأن نعمل على تحويل النضال النقابى إلى نضال سياسى طبقى.
علينا أن نربط نضالهم ببعضهم البعض وبباقى الطبقات المضطهدة فى المجتمع. لكن علينا أن نعى جيداً أننا لا نناضل بديلاً عنهم، كما أننا لسنا أوصياء عليهم. علينا أن نستمع إليهم جيداً، ونحاورهم، ونصل من خلال ذلك، إلى ما العمل، فى هذا المكان بذاته. إنهم هم الذين سيقومون

بالتنفيذ. ومن ثم، فإنهم هم الذين يحددون ما الذى يمكن تنفيذه، وكيف؟
نحن نقدم الوعى والمنهج، لكننا أبداً لا نفرض عليهم حلولاً من خارجهم.
الحلول تأتى نهم وتعود إليهم.
ولتحقيق هذا المخرج الصحيح علينا أن نعد برنامجاً ثقافياً لهم. إن نستفيد من تجربة «الشرارة» التثقيفية، ومجموعة الكتب الخضراء والحمراء.
وأن نعد بحوثاً ودراسات عن الواقع المصرى وتاريخ الحركة الوطنية، وتاريخ الطبقة العاملة المصرية، ونضالاتها. الرأسمالية المصرية ودورها. والنموذج الاشتراكى والتجارب الاشتراكية. وهذا يقتضى منا أن نبدأ فى الحال.

* * * *

كنا منهمكين فى أعمالنا تلك، عندما التقينا بالرفيق حوتر (اسم فرعونى) واسمه الحقيقى إبراهيم عرفة، ميكانيكى طيران. كان دائم الابتسام، ابتسامة الثقة المطلقة. أخبرنا أنه قد شكل تنظيماً يدعى «اتجاه النضال الثورى». ولم نتعرف على أحد غيره فى هذا التنظيم. طلب منا أن نسمح له بكتابة وثائق منظمته فى حجرتى. وبالفعل احتل مكتبى الذى أذاكر عليه والكرسى الوحيد بالحجرة. وبدا أنه لن ينتهى من الكتابة أبداً. لقد أصبح واحداً منا سكنيا، وبذا كان علينا أن نقدم له الشاى والسجائر، وأحياناً الورق والأقلام. ثم طلب منا أن «نُبيض» له ما يكتب. كان إحساسه بأنه كادر قديم، وأنه من رجال الطيران، يعطيه أحساساً بالسمو. فوجئنا ونحن «نُبيض» له أوراقه أنها مليئة بجمل شديدة السخونة مثل «نحن بارود الثورة»، «نحن مفرقعات النضال»، فرأينا أن نطورها إلى «نحن جليجانيت الثورة»، نحن «ديناميت النضال». وغضب منا غضباً شديداً لهذه التحريفية فى إفكاره، وخشى منا على كتاباته، فغادرنا. لم نقطع علاقتنا بحوتر. احتفظنا بخيط ما بيننا وبينه، خاصة وأن عبد الله التقى فى شبرا أيضاً بزميل يدعى سعد، وعرف أنه ينتمى إلى منظمة تدعى «العصبة الماركسية». ودار حوار استقر على أهمية الوحدة. غير أن «سعد» لم يكن هو صاحب القول الفصل فى هذا الحوار. كان هو اليد اليمنى لفوزى جرجس مسئول هذه المنظمة. وبذا صعد اللقاء إلى فوزى جرجس وبحضور حوتر أيضاً. كانت الوحدة التى يقصدها فوزى هى الانضواء تحت اسم منظمته، رغم أنه كان ينادى بأن

الوحدة التى تؤدى إلى الحزب يجب أن تقوم على مجلة تدير حواراً بين كل الشيوعيين، ينتهى بمؤتمر تأسيسى، يتشكل فى مندوبين منتخبين من المنظمات المشاركة. أى النمط اللينيتى حرفياً. غير أنه فى هذه الوحدة معنا كان يطبق نظرية النمو الذاتى. نظرية تجميع الآخرين تحت رايته وقيادته.

وعقدنا عدة اجتماعات، أنا وعبد الله ودرويش، واستقر بنا الحوار إلى رفض هذا الاقتراح. والمطالبة بوحدة حول وثائق نتفق عليها (استراتيجية وتكتيك وبرنامج ولائحة). وأن تتم الوحدة بين بقايا التكتل الثورى الذين هم نحن، واتجاه النضال الثورى، والذى هو حوتر ومن معه، والعصبة الماركسية، تحت مسمى جديد أقترحنا أن يكون هو «نواة الحزب الشيوعى المصرى»، باعتبار أن هذه الوحدة هى خطوة على طريق وحدة كل الشيوعيين وإعلان الحزب الشيوعى المصرى.

وغضب فوزى جرجس غضباً شديداً. كان عبد الله هو المندوب الذى يلتقى به. وقد أخبره بوضوح أننا لا نقبل باسم العصبة الماركسية لأننا لا نرغب فى تحمل مسئولية تاريخها الذى مضى، والذى سمعنا به، عندما رفعوا شعار «فلنحنى رؤوسنا للعاصفة» فى مواجهة حملة إسماعيل صدقى باشا.

وأعلن تكوين التنظيم الجديد. واختير عبد الله وحوتر أعضاء فى لجنته المركزية. وقمنا على الفور، التزاماً منا بهذه الوحدة، وفرحة بها، وتأكيداً لثقتنا فيها بتسليم كل الكتب التى كانت معنا، وهى تشكل حقاً مكتبة رائعة. وكذا تسليم الآلة الكاتبة.

وسافر سعد مع عبد الله إلى العدوة فيوم حيث قام باستلام الماكينة، وأخذ سيارة من القرية واختفى.

لم يمض أكثر من عشرة أيام، ولم يكن اجتماع اللجنة المركزية الثانى قد انعقد، حتى فوجئنا بقرار مركزى، يبدو صادرًا عن اجتماع جانبى خاص، لم يدعى إليه عبد الله كامل بفصله من «النواة». كانت صدمة داوية. لم نعرف بالضبط ما السبب؟ غير أن ذلك قد يكون رداً من فوزى جرجس على موقفنا من اسم العصبة الماركسية. كان عقاباً لنا. لقد أخذوا كل إمكانياتنا، المكتبة والآلة الكاتبة، وربما تصوروا أيضاً أن ذلك

يمكنهم أيضاً من الاستيلاء على قواتنا، وإلا أصبحت هذه القوات انقسامية خارجة على قرارٍ مركزى، إن لم تخضع لقرار الفصل وتنفذه.
إلا أن الرد عليهم كان سهلاً. لقد أخلوا باتفاقيات الوحدة، وبذا أصبحت هذه الوحدة وكأنها لم تكن.
خرجنا ومعنا كل قواتنا، بل وقوات إضافية ممن كانوا معهم، احتجاجاً على ما حدث معنا ورفضاً له.

* * * *

ومنذ تلك اللحظة بدأ تفكيرنا الجاد فى تشكيل منظمتنا الجديدة. لقد غدت هناك ضرورة لتكوينها. لقد أحسسنا أن الشيوعيين المصريين الذين يتحدثون عن أنفسهم كطليعة للطبقة العاملة المصرية والشعب المصرى، هم أنفسهم فى حاجة إلى طليعة. وسوف نكون نحن تلك الطليعة.
وطرحنا فيما بيننا اسم «طليعة الشيوعيين المصريين» (ط.ش.م).
وكان علينا أن نعيد تنظيم قواتنا. وأن نبدأ على الفورٍ إعداد وثائق منظمتنا الجديدة. وكان ذلك يقتضى أن نجلس معاً، عبد الله ودرويش وأنا، وقد أضفنا إلينا حسن حسنى، الذى خرج معنا من النواة، وكان أساساً من الحركة المصرية للتحررٍ الوطنى وشهرته «فوزى أبو شنب»، فقد كانٍ له شنباً ستالينياً كثيفاً.
كنت أنا مسئولاً عن عمال شبرا الخيمة والقاهرة، وعبد الله عن عمال الترامواى والمطبعة الأميرية. وحسن حسنى عن إمبابة، ودرويش عن عابدين.
وكانت فى عابدين مجموعة متميزة. كانوا فى الأساس شلة المعجبين بدرويش بطل الملاكمة. كان بعضهم قد أتى منٍ الفيوم والبعض الآخر تعرف عليه فى مقهاه فى عابدين. كانوا جميعاً من أبطال العدو والملاكمة. وتم تجنيد اثنين فقط منهم دسوقى بطل ملاكمة وأمين الصيرفى طبيب، أما الباقيين فكانوا على استعداد لفعل أى شىء يطلب منهم، ربما بما يتجاوز واجبات العضو، طبع مطبوعات، تأمين أجهزة فنية، نقل مطبوعات وتسليمها، وتخزين أى شىء، وإخفاء هاربين، كل شىء ما عدا الاجتماعات. بل هم كانوا أيضاً على استعداد لتأديب أى أحد يضايقنا.

* * * *

جاء، فى تلك الأثناء، من يتصل بى فى الكلية. قال أنه قادم إلىّ بتوصية رفاق التقيت بهم فى منزل د.فريد حداد. وأجهدت ذهنى حتى تذكرت هؤلاء الزملاء الأجانب. لقد أصبح لبعضهم دوره فى م.ش.م الآن. إنهم يرشحوننى لعضوية المنظمة. قال ذلك باعتزاز، باعتباره يعرض علىّ شرفاً لم ينله الكثيرون. ووقعت فى حيرة شديدة. هل أخبره أننى فى تنظيم آخر؟ ومن يكون حتى أفضى له بمثل هذا السر الذى يجب ألا يتناثر الآن. طلبت منه أن يمهلنى حتىٍ غد. كنت أود أن أتشاور مع الزملاء فى هذه الورطة. بدا مصدوماً. كيف أتعامل مع هذا الشرف بهذه البساطة.

وأسرعت إلى عبد الله أناقشه. تمطىء أو تثاءب ثم قهقه.

-وماله يا أبو لبيب.

-وماله يعنى إيه؟

-تخش عندهم.

-يعنى أبقه غواصه!

-غواصه، يعنى إيه؟

-يعنى ما أنتش عضو بجد. أنت عضو استكشاف.

-خلاص يا سيدى. وكمان مش إحنا اللى رحنا ليهم، دا همه اللى جم لينا، إحنا عاوزين نعرف الناس دول من جوا، من ممارساتهم العمليه.

التقيت ورفيق م.ش.م الذى أوصٍلنى إلى مسئولتى الزميلة جنيفيف سيداروس وكنت أعرفها شكلاً من مظاهرات الجامعة. وكان معى فى وحدتى رفيق سودانى اسمه الحقيقى حسبو لقد أخبرنى منذ أول لقاء بكل شىء عن نفسه. كان يدرس الاقتصاد فى لندن، لكنه رأى، مع احتدام الصراع ضد الاستعمار البريطانى، إن مكانه فى مصر وليس فى لندن. فجاء إلى مصر ليدرس ويناضل. كان أسمر اللون هادىء الملامح منبهراً أقرب إلى الطفولة. وكان الشيوعيون المصريون بالنسبة إليه مناضلين يقتحمون الصخر. كان يتعامل معى باحترام شديد، أما مع الرفيقة المسئولة، فقد كان الاحترام أشد وأكبر.

الرفيقة المسئولة جادة غاية الجدية. قالت أن خط م.ش.م. يقوم على نظرية 100% عمال، وبالتالى علينا أن نقوم بغزو المناطق العمالية.

برقت عينا الرفيق حسبو بالحماس. وأحسست أنا بالتوجس، أى المناطق يا ترى سوف نكلف بغزوها!

وأكملت الرفيقة بأننا مكلفين بعمال أبو زعبل، العمال الذين يجيئون عن طريق محطة كوبرى الليمون. تساءلت عمال أى حرفة هؤلاء؟ نظرت إلىّ الرفيقة نظرة حادة، وقالت أنهم فى الغالب عمال السكة الحديدية. ويبدو أنها تنبهت فأكدت أن تلك هى مهمتنا نحن. أن نعرف من هم، وكيفية التعامل معهم.

وأحسست بالتحدى، فقلت أن هذه الطريقة لا تصلح، إنها غير مجدية لقد جربناها مع عمال النسيج على المقاهى ولم نخرج بفائدة. التجنيد الصحيح يجرى من داخل الموقع وبناء على خبرة التعامل. وكما أن المقهى ليس مجال عمل، فإن ركاب القطارات الخارجين من محطة السكة الحديدية ليسوا مجال عمل.

وبدا إن الرفيقة قد صبرت علىّ طويلاً، خاصة بعد أن تدخل الرفيق حسبو، وأوضح أهمية أن ننفذ القرار أولاً، ونكتشف العقبات ثم نناقش معاً كيفية تذليلها وأمسكت الرفيقة بهذا المخرج وقالت فى حسم، أن كلام حسبو هو الكلام العلمى والعملى، وأنه بناء على ذلك علىّ أن أنفذ ثم أناقش فيما بعد. وأحسست أننى أمام عسكرية صارمة، أو مركزية مطلقة.

واتفقت وحسبو أن نذهب إلى كوبرى الليمون ثم نلتقى فى حجرتى فيما بعد.

وقفت أمام المحطة لا أدرى ماذا أفعل تحديداً. كان الركاب ومنهم عمال يدخلون فى عجلة ليلحقوا بالقطارات، أو يخرجون فى عجلة ليذهبوا إلى منازلهم. ولم يكن من السهل أن استوقف أحدهم لأسأله إن كان يود أن يصبح مناضلاً شيوعياً. إننا لم ننجح فى شبرا الخيمة إلا بعد أن عدنا إلى ركائزنا القديمة، لنلتقى بقراء الجماهير من العمال هؤلاء الذين تابعوا إرادياً أفكارنا ونشاطاتنا، بل وكانوا يتبرعون لنا قبل أن يعرفوننا.

اشتدت حرارة الشمس فوق «يافوخى»، وحل الإرهاق بساقىّ. وما أن فرغ مكان ممن هو جالس عليه حتى أسرعت أحتله، وأدلك ساقىّ البائستين. وأنعشنى طفل صغير تدحرج نحوى فداعبته، فابتسم ابتسامة

ملأت وجهه، غير أن أمه سرعان ما لحقت به وألقته فوق كتفها وانطلقت نحو القطار، وهو ما يزال ينظر نحوى مبتسماً. وحمدت الله أننى جذبت انتباه أحد، حتى إن كان طفلاً رضيعاً.
وأحسست بدوار ما. بدت الدنيا حولى وكأنها تهتز على غير ما يرام. غير أننى أفقت تماماً عندما رأيت مشهداً أذهلنى. رأيت حسبو فى اتجاه الخروج من المحطة، ومعه رجل طويل عريض أسود اللون. ناديت عليه فتوقف، وملأت الابتسامة وجهه، ولمعت أسنانه البيضاء فأشرق وجهه وقدمنى فى سعادة بالغة.
-الأسطى مصطفى حسنين، من عمال السكة الحديد، سودانى.
فرحبت به أشد الترحيب. لقد نجح حسبو فيما لم أنجح فيه. لكن إحساسى بالدوار اشتد فاستندت على حسبو ففزع.
-مالك؟ فيه إيه؟
-دوخه بسيطه. أنا هروح دلوقت. وبعد الضهر نتقابل. زى ما اتفقنا.
وصلت حجرتى وأنا أكاد أترنح. وضعت رأسى تحت الصنبور حتى ارتوت. وما أن جففت شعرى حتى سقطت على السرير، كما أنا، بملابسى كاملة، وتذكرت وأنا أتلاشى فى النوم أنى مقدم على كارثة. سيأتى حسبو إلى حجرتى مساء، واليوم مساء، هنا أيضًا، موعد اجتماع منطقة شبرا الخيمة.
خبطات على الباب. جاءتنى مثل لكزات بعيدة تدفعنى إلى اليقظة. غادرنى النوم وأنا شبه تائه. استيقظت تماماً عندما دفع الباب وتقاطر الزملاء السبع. جدول الأعمال اليوم حافل. الامتيازات الأجنبية. القضية الفلسطينية. الحركة النقابية. المطالب العمالية. التجنيد والتنسيق مع الشيوعيين الآخرين.
كنا قد اندمجنا فى الاجتماع عندما جاءت من عند الباب نقرات خافتة. تصورت للحظة خاطفة أنه أحد الجيران. غير أننى فوجئت بحسبو أمامى. تمالكت نفسى وأفسحت له الطريق للدخول. عندما رأى الزحام فى الحجرة بدا مستغرباً. ابتسمت له ليتفضل. أسرع الزميل الذى يحتل الكرسى الوحيد بتقديمه إليه. قدمته إليهم باعتباره مناضلاً سودانياً، وقدمتهم إليه بأسماء لا أدرى من أين جئت بها.

علامة الاستفهام التى ظللت بعضاً من وجهه، امتدت لتشمله كله. قال:
-عامل كيف دلوكيت؟
-الحمد لله أحسن.
-أنت حالتك الصبح كانت وحشه خالص.
تنبه الزملاء فأصروا على المغادرة حتىٍ أستريح.
دعك حسبو وجهه وهو ينظر إلىّ تائهاً.
-إيه يا رفيق دا. أنت جندت كل دول النهارده!
كنت أنتظر أى شىء إلا هذا الاستنتاج العبقرى.
-لا يا راجل. دى لو الحكايه بالسهوله دى، كنا نبقه 1000% عمال.
قلت محاولا تغيير الحديث:
-تشرب شاى؟
-نشرب شاى.
قام ليشعل الوابور ويعد الشاى.
-احكيلى يا راجل أنت عرفت السودانى دا إزاى؟
-أبداً يا شيخ. دانا لقيته بعد ما طلعت روحى. قعدت أركب القطر رايح جاى. دا نايم، ودا بياكل، ودا سرحان، ودا مش عاوز حد يكلمه، لغايةٍ فى آخر مره، والقطر راجع من المرج، ركب الزول دا قدامى. طبعاً احنا سود زى بعض. كمان طلع سودانى، بقينا سودانيه أحنا الإتنين. أنا قلت له أنى طالب مغترب هنا، وأحب أتعرف بقرابتنا السودانيين.
فالراجل رحب قوى، وعرفت أنه عامل فى ورش السكه الحديد، واتفقنا نتزاور ونتقابلٍ. وربنا يجيب ما فيه الخير.
ثم صمت قليلاً، وأكمل محتجاً:
-بس أنت ما جوبتنى عن سؤالى. إذا كانوا دول مش تجنيد النهارده، يبقو يطلعوا مين؟
لم يعد أمامى غير المصارحة. أنا لا أرغب فى الكذب على هذا الرجل الذى أعتبره مناضلاً مضحياً نقياً. لزمت الصمت قليلاً فاستحثنى. قلت:
-أيوه يا رفيق حسبو، دول مش تجنيد النهارده، دول تجنيد سنين. عمر من الشغل والتعبه اختيار الكادر مهمة صعبه جداً، وإعداده وتربيته مهمه أصعب بكتير. دول عمال زى الفل من مصانع نسيج شبرا الخيمه.

وكاد يقفز من كرسيه أو يدلق كوب الشاى.
-يعنيٍ أنت تعرفهم من زمان؟
-طبعاً من زمِان. وأعرف غيرهم كمان.
وضرب كفاً بكف.
-بس أنت ما قولتش فى الاجتماع إنك تعرف عمال؟
-وأقول ليه. دا موضوع ما يخصش م.ش.م.
اتسعت عيناه وبرقتا.
-أمال يخص مين؟
-يخص التنظيم اللى أنا فيه.
وضع كوب الشاى فوق المنضدة.
-أنت ف تنظيم تانى غير م.ش.م.
-أيوه.
وجاءت الصدمة شديدة فأفاق تماماً.
-طيب وليه الموضوع دا ما يخصش م.ش.م؟
اعتدلت فى جلستى، وقد طارت ضربة الشمس من رأسى.
-أنا غير مقتنع بـ م.ش.م. تنظيم مكون من مثقفين وأجانب، ويتكلم عن 100% عمال. تنظيم يتجاهل الطلبة، ودول قوة أساسية فى المستعمرات. يتجاهل البورجوازية الصغيرة ودى قوة هامة فى معركتنا الوطنية، ويتجاهل الفلاحين ودول الأغلبية الساحقة من الشعب. م.ش.م النموذج الصحيح «لليسارية عبث أطفال». هل تطلب منى أن أسلم مثل هؤلاء الذين رأيتهم، وأمثالهم معنا كثيرين، إلى أطفال يعبثون بالشعارات باسم الثورية!؟
كان ينظر إلى الأرض. فرفع عينيه وثبتها فى عينى.
-طب ليه طلبت عضويتهم؟
-همه اللى طلبو عضويتى.
-مش مهم. بس أنت قبلت.
-قبلت عشان أعرفهم من الداخل. وكانت تجربه مُره.
-وبعدين؟
-وبعدين فى إيه؟

-فى كوبرى الليمون، وشبرا الخيمه وم.ش.م. وأنت.
قلت مهوناً:
-ما تشغلش بالك نهائياً. إعمل اللى أنت مقتنع بيه.
قال فى أسى:
-بس دى نتيجته هتكون فصلك.
-يا سيدى أنا ما اعتبرتش نفسى عضو معاهم، عشان يبقه فيه فصل من عندهم. أنا رحت عندهم زياره بناء على دعوه منهم. وأنا دلوقت راجع من الزياره.
ثم قلت له، أننى ما كنت أحب قول ما سأقوله، لكن هذه المنظمة آيلة للسقوط، ستنهار وتتلاشى. إن متابعتها من الخارج ومتابعتها الآن من الداخل تؤكد أن المتشدد المتصلب هو الأكثر، من غيره، عرضة للكسر. وهذا هو حال م.ش.م.
جاءنى عبد الله فأخبرته بكل التفاصيل. ضرب كفاً بكف وهو يقهقه:
-يعنى أنت طلعت دبابه مش غواصه. وبعدين.
-بكره عندنا الاجتماع الأسبوعى.
-طبعاً مش هتروح، لأنك مفصول مفصول، وبالخيانه العظمى كمان.
-لأ هروح همشى الشوط لأخره.
-يا راجل دى نص التنظيم بتاعهم مفصول بتهمة البوليسيه.
ثم توقف وأكمل:
-يا راجل كنت هتسينى. دنا جايلك مخصوص عشان فيه واحد اسمه منصور زكى بيدور عليك. ودا على فكره من م.ش.م ومفصول بتهمة البوليسيه.
-أيوة، أنا أسمع عنه. دا عامل تجليد مناضل إزاى فصلوه بالتهمه دى. بس نأجل مقابلته لما نخلص من الحكاية اللى احنا فيها دى.
* * * *
ذهبت إلى الاجتماع. كان على ضفة النيل ناحية العجوزة. جاءا متأخرين، حسبو أولاً ثم المسئولة. كانت قسمات حسبو حائرة. كان يحمل فى داخله شعوراً أنه قد أبلغ عنى. حاول ألا تلتقى عيناى بعينه. أما جينيفيف فقد كانت متجهمة. قالت دون أن تستخدم كلمة رفيق:
-أنت عارف أنت عملت إيه؟

وأحسست أننى صبى صغير، وأن أمه توشك أن تعاقبه لفعلة فعلها.
-لأ مش عارف عملت إيه؟
كانت تفرك أصابعها. كانت منفعلة غاضبة.
-أنت حجزت عمال عن التنظيم.
تساءلت متصنعاً الدهشة:
-عمال إيه يا رفيقة؟
-العمال اللى كانو عندك فى بيتك.
كان حسبو ينظر إلى الأرض.
-أنتو لما دعتونى أدخل م.ش.م. دعتونى منفرداً، ولا بمعارفى وأصحابى!
-دعناك منفرداً، لكن لما يكون معاك عمال تسلمهم للتنظيم.
-وأفرضى همه مش عاوزين، أوردهم ليكو إزاى؟
-توردهم لينا؟
-ايوه طبعاً، ما هو أنا بأحاسب باعتبارى مورد طبقه عامله، وقصرت فى عملية التوريد.
تحولت الرفيقة من الجهامة إلى الشخط.
-أحنا مش عاوزين تريقه هنا.
-شوفى يا زميله، أنتو هنا بتعتبرونى مرشح لغاية ما أبقه محل ثقه، آخذ العضوية. وأنا أيضاً باعتبركم فى فترة اختيار لغاية ما أثق فيكو. وفى هذه الحالة اسلمكو العمال بعد موافقتهم طبعاً. أنا سقطت فى اختباركو، وأنتو سقطتو فى اختبارى.
وعموماً يبدو أن الرفيقة تنبهت إلى أنها لم تبلغنى بالقرار بعد، فقالت وهى تهم بالوقوف:
-عموماً، أنت مفصول بسبب أعمالك التخريبية.
وقلت وأنا أنهض أيضاً، وقد أنتابتنى رغبة فى التعالى:
-وعموماً يا زميله، وأنت كمان يا زميل، لما تنهار مشمش بتاعتكم دى، ودا هيحصل قريب قوى إنشاء الله، لإنكو من غير أى أساس، فأهلاً بيكو فى التنظيم اللى أنا فيه.
وافترق ثلاثتنا، وكأننا لم نعرف بعضنا البعض أبداً.
* * * *

أحسست وأنا أغادرها بحزن شديد. أحسست أن العالم ليس جميلاَ، وأننا نؤلم بعضنا البعض بشدة. نتحدى أنفسنا، والأجدر بنا أن نتحدى ما نرفضه حولنا. نتعامل كأعداء والأعداء الحقيقيون يحيطون بنا. لماذا التنابذ أيسر من التوحد! والتنافر أيسر من التقارب! ودفعنى ذلك إلى التشبث أكثر وأكثر بقضية وحدة الشيوعيين. وأنه يتوجب على تنظيمنا، الذى نعد لإعلانه، أن يجعل من قية الوحدة، وتكوين الحزب الشيوعى المصرى، أحد أركانه الأساسية.

* * * *

التقيت بمنصور زكى على مقهى فى باب الشعرية. كان طويلاً عريضاً باسم الوجه. رحب بى كثيراً بكفه الضخمة. غادر الزميل الذى جاء بى إليه. نظرت حولى فضحك:

-ما تقلقش. دى قهوة أخويا. وأنا أعرف كل اللى قاعدين فيها واحد واحد.

-أنا مش قلقان خالص. بس هنعرف نتكلم إزاى.

-نروح عندنا فى البيت، بس نشرب حاجه الأول.

-أنا ما بشربش حاجة. نقوم على طول عشان نكسب الوقت.

غادرنا. سرنا من درب إلى درب حتى انتهينا إلى زقاق مسدود. دخلنا منزلاً متهالكاً، تصورت لو دفعه أحدهم بقبضته لتكوم على من فيه. وضع مفتاحاً فى باب فى الدور الأرضى. وقبل أن يدخل قال بصوت جهورى:

-يا ساتر.

ما أن ولجنا الباب حتى رأيت سيدة مسنة ضئيلة الحجم للغاية، تقف فى منتصف حجرة كالجحر. وقال منصور باعتزاز:

-أمى.

ومددت يدى أسلم عليها، غير أنى أدركت للحال أنها ضعيفة البصر. قالت من صوت مشحون بالترحيب:

-أهلاً وسهلاً اتفضل يا بنى.

كانت الحجرة فقيرة الأثاث، لكنها نظيفة. قالت:

-أعملكو شاى؟

شاورت لمنصور أننى لا أشربه. قال لها:

-تشكرى يا أمى.
تحسست طريقها إلى الخارج.
-أنا هقعد فى الهوا، قدام الباب، لو عاوزين حاجه أندهولى.
قال منصور:
-نبتدى منين؟
-نبتدى بيك أنت.
سحب نفسا عميقاً.
-أنا اسمى منصور زكى. عامل تجليد.
وأشار إلى ركن فى الحجرة. كانت هنالك آلة بدائية أشبه بالمكبس وبعض القطع الخشبية.
-دى عدة شغلى وأنا عامل إعلان فى القهوه اللى عاوز يجلد يسيب الشغل فى القهوه وأنا أخلص هنا وارجعه تانى. أصل المكان زى مانت شايف يصعب الوصول ليه.
صمت قليلاً، كأنما يستجمع نفسه.
-أنا كنت شغال قبل كده فى مطبعه. لكن التنظيم طلب منى وقت أكثر دون مساعده ماليه، فكان علىّ أن اشتغل فى بيتنا. وكذلك أبقه متحكم فى وقتى طول النهار. وبعدين فصلونى بتهمة البوليسيه.
ثم نظر حوله وهو حزين يكاد يبكى:
-بقه دى عيشة بوليس!؟
-طيب وإيه أساس التهمه دى؟
قال وهو يضرب كفا بكف:
-أنا أحكيلك، وأنت تحكم.
منصور زكى عضو من أيام حدتو ثم القاعدة المشتركة. وهو يعتبر نفسه من مؤسسى م.ش.م. وهو عامل يعيش، كما أرى، فى مكان شعبى للغاية. وقد اعترض على مجىء أجانب إلى منزله باعتبار أن ذلك يجعله فى وضع غريب أمام جيرانه. غير أنهم اتهموه بالشوفينيه وافتقاد الروح الأممية. وعندما أعترض على 100% عمال اتهموه بأنه انتهازى خطير يمثل الفكر البورجوازى متخفيًا تحت عفريتة العمال. ثم وقع فى أفدح الأخطاء إذ اعترض على وجود سيدنى سلامون وأوديت فى

القيادة، باعتبار أنهما أجنبيان لا يعرفان الواقع المصرى.
فاتهم بالبوليسية، إذ لا يجرؤ أحد على الطعن فى كفاءتهما غير أجهزة الأمن. وبالتالى فإنه بطلبه هذا قد كشف نفسه وفضحها. وأنهى كلمته:
-الواحد ضحى بكل حاجه عشان العمل السياسى، قوم العمل السياسى يدمره. يهين شرفه ويمسح تاريخه.
قلت له مهدئاً ومواسياً:
-ولا يهمك يا زميل منصور.. أنا برضه لسه فاصلينى بتهمة التخريب.
وأبدى منصور دهشة شديدة.
-أنت كنت فى م.ش.م.؟
-أبداً، أنا مكنتش. همه اللى جم ودعونى للانضمام. ولما اكتشفو إن أنا فى تنظيم تانى ومعايا عمال ما سلمتهمش ليهم، اتهمونى بالتخريب وفصلونى. وبين التخريب والبوليسيه فرطة كعب. يعنى لو كنت قعدت أسبوع تانى، كنت خدت بوليسيه.
وأخد منصور يقهقه. قلت:
-المهم دلوقت نشوف إمكانياتك اللى ممكن تساعد بيها.
فكر قليلاً.
-أنا ممكن أقدم مساهمات كبيرة فى العمل الفنى.
-تقصد الأجهزة الفنية؟
-أيوه. أنا بأفكر فى حاجة جديدة، لا آلة كاتبة ولا ورق استنسيل، ولا كربون ولا بلوظة ولا عزيزه. ننسى كل الحاجات دى. نعتبرها مرحلة قديمه بأدوات بدائيه. نعمل مطبعة حروف.
وبهرتنى الفكرة، غير أننى سرعان ما استيقظت من هذا الحلم الرائع.
-فيه تلات مشاكل فى المسألة دى: الفلوس للشرا، ومين اللى يشترى، ومين اللى يشتغل عليها.
وضحك منصور.
-الفلوس عليكو، ومش هتكون كتير. إحنا ممكن نشترى حاجات مستعمله بس صالحه قوى للتشغيل، والشرا أنا اللى هقوم بيه، والتشغيل كمان.
شدنى الموضوع تماماً. إنه فتح جديد فى عالم العمل السرى. أكمل منصور:

-المسأله دى شاغلانى من بدرى. أنا هشترى جزء من حته، والبقية من حتت تانى.
كده يبان إن أنا باشترى قطع غيار. مش بجمع ماكنه. البوليس له ناس فى الأماكن دى وأحنا لازم ناخد بالنا كويس قوى.
-عظيم.
-ونصنع مكتب، تكون أدراجه مكان حفظ الحروف. وفيه أماكن لباقى المطبعه. بس لازم شكله من بره يكون مكتب عادى. وفوق المكتب هحط عدة التجليد. والمشروع زى ما هيتم بشرا الحاجات من أماكن مختلفه، كمان يتم الشرا على مراحل، على مسافات زمنية متفاوته يعنى.
كان المشروع أكثر من مبهر. وسألت منصور:
-بس أنت عامل تجليد..
وقاطعنى قبل أن أكمل:
-أنا عامل تجميع كمان. واشتغلت فى مطابع قبل كده. ما تقلقش من الناحيه دي خالص.
توقف قليلاً ثم قال:
-بس فيه نقطه مهمه. لازم أسكن فى مكان أحسن من دا شويه. لازم يكون شعبى: بس له مداخل ومخارج أكثر من ده، عشان الأمان يعنى، وهتبقه والدتى معايا. وهيه مفيده جداً، فى عمل علاقات بالجيران، وتدى شكل عائلى.
أعجبنى عرضه تماماً. وأحسست أن منصور سوف يكون إضافة هامة جداً لنا. طلبت منه أن نلتقى بعد أسبوع. كان علىّ أن ألتقى بعبد الله وأحكى له ما حدث. استمع عبد الله ثم أطرق طويلاً.
-كل دا كلام عظيم. بس تهمة البوليسيه دى عاوزه شوية تمحيص يعنى.
-البوليسيه، على طريقة م.ش.م تهمه سياسيه مش أمنيه. لو كان فصل بعد ضربه بوليسيه فى مجاله، أو بعد اكتشاف شبكه بوليسيه فى مجاله، كان يبقه فيه احتمالات. التهمه والفصل هنا جم بعد خلافات سياسيه، يبقه الفصل سياسى، واتحط له تبرير أمنى للتشويه والتدمير، وعشان يبقه عبره لغيره.
هز عبد الله رأسه.

-كلام معقول. بس برضه نتأكد.
-دا طبيعى. بس إيه رأيك فى مشروعه؟
-هايل دى مسأله مش عاوزه كلام. بس اللى عاوز تفكير هو موضوع الفلوس. وأحنا كلنا عايشين بالعافيه.
-نضاعف الاشتراكات.
-مش دا الحل، المطبعه دى مشروع. وبعدين أنت عاوز مكان، وده إيجار ونفقات ومتفرغ، ودا احتراف.
ثم فكر ملياً.
-إيه رأيك نستعين بالزملا بتوع المطابع الأميريه؟
-لا. خلى الموضوع فى أضيق نطاق. ولو كانوا يقدرو يعملو حاجه كانو قالو. إحنا نناقش درويش ونشوف رأيه.
توجهنا إلى عابدين، إلى مقهاه المفضل. كان يلعب الورق مع بعض من شلته. رحبوا جميعاً بنا. همس عبد الله فى أذنه، أننا نود أن ننفرد به، أشار إلى الشلة مقهقهاً.
-ماشى بس بعد ما أخلص عليهم.
انتحينا جانباً. قال فى همس:
-أنا عندى خبر ليكو. خبر لسه طازه. وكنت بأفكر أتصل بيكو عشان نتقابل.
-وأحنا كمان عندنا خبر مهم برضه.
وحكينا له قصة منصور زكى كلها. فرحب بها وبه أشد الترحيب.
-أهى دى الأفكار الثوريه.
-بس الفلوس منين؟
وخبط دروبش راحته بيده.
-كنتو هتنسونى الخبر بتاعى.
-مش لما نخلص الموضوع اللى بنتكلم فيه؟
-ما هو يمكن خبرى يحل مشكلة خبركو.
-إزاى يعنى؟
-اسمعو وشوفو.
وبدأ درويش يحكى:

جاءه الدكتور أمين الصيرفى، وأخبره باهتمام شديد، أن طالباً بطب القصر العينى، وهو قريبه فى ذات الوقت، ويعرف عنه أنه يسارى، أتى إليه وطلب منه الانضمام للحركة الشيوعية. كانت مفاجأة شديدة له. فهو يعرف أن هذا القريب قد ذهب مع كتائب الفدائيين إلى فلسطين لمحاربة اليهود. كان شديد التدين. هو يصوم رمضان، ويشترى لحماً يسلقه ثم يضع اللحم فى أرغفة يوزعها على الفقراء. ويفطر هو «بفتة» مرق اللحم فقط. وحدث فى أحد الأيام أن نفذ الخبز واللحم الذى يوزعه، ووقفت صبية تمد يدها إلى يده الفارغة فأسرع إلى مسمط واشترى لها ما يكفيها من لحمة الرأس. فقالت له:

-أنا خدامتك يا بيه. وإذا كنت عاوزنى، أروح معاك دلوقت على طول.

الفتاة تعرض نفسها عليه مقابل وجبة الإفطار. وأعتبر هو ذلك تجربة عاتية من السماء فأطلق لحيته، وعذب نفسه، بأن يذهب إلى الكلية ماشياً كل يوم. من درب سعادة خلف سجن الاستئناف حتى القصر العينى.

ما كان يتصوره يسارياً أبداً. ليس فقط بسبب أفكاره، ولكن لأنه من عائلة ميسورة، وهو بمفرده يمتلك دخلاً شهرياً قدره خمسة عشر جنيهاً. إن دخله يتجاوز راتب خريج الجامعة. وهو دمث للغاية. منطوى إلى حد كبير. مثالى إلى حد أكبر. لكن يبدو أن ذهابه إلى فلسطين للدفاع عن أرضها، قد قلب كل الموازين. لقد حمل البندقية وأطلق النار وواجه الموت، واكتشف الخديعة والفساد والخيانة. وألتقى بشيوعيين فلسطينيين وسوريين.

الخيانة تجسدت فى الأنظمة العربية المرتبطة بالاستعمار. كيف يمكن لمثل هذه الأنظمة أن تحارب الاستعمار، سيدها، وتحرر فلسطين منه ومن الصهاينة. والأولى بها، لو هى حقاً مخلصة أن تحرر بلادها لتصبح أقدر وأجدر بتحرير غيرها. بتحرير فلسطين. واقتنع بما سمع، بعد أن كاد يفقد حياته أكثر من مرة. دفعه حماسه الجديد إلى أن يفكر هو ومجموعة معه فى الذهاب إلى فيتنام والوقوف إلى جانب الشعب الفيتنامى، ضد الاستعمار، الفرنسى. لقد التقى بشيوعيين، وسمع عن شيوعيين يناضلون ضد العدو من أجل استقلال بلادهم. وبدأت أفكاره تتجه إلى هذا العالم الجديد، الذى اتسم بالبطولة والفداء والتضحية والمثل

العليا والدفاع عن الوطن والإنسان.
واستقر به الأمر هو وزملاءه، أن وطنهم يحتاج لهم ولنضالهم. وأن طريقهم إلى فلسطين يجب أن يبدأ من القاهرة. إذ ليس معقولاً أن يناضلوا إلى حد الاستشهاد تحريراً لبلد جار لهم، بينما بلدهم هم محتل وتحكمه قوى خائنة وعميلة.
وعادوا إلى القاهرة. وذهب هو إلى كليته ليؤدى امتحانه. ثم اتصل بأمين الصيرفى.
وأكمل درويش:
-أنا قابلته وقعدت معاه قعده طويله. دا حاجه تانيه خالص. اسمه عمر مكاوى. هوه ينفع زاهد، ينفع قديس. بنى آدم بيضحى بطريقه تلقائيه من غير ما يعرف أنه بيضحى. غالباً ما يعرفش يعنى إيه ملكيه خاصه.
وفى إيجاز مناضلٍ متربيٍ وابن ناس.
وأخذ عبد الله نفساً عميقاً.
-يا سلام. دى مصر ولاده بصحيح.
-دا خبر مهم جداً، ودا نموذج للمثقف الثورى الحقيقى. دا اللى اختار انتماؤه بإرادته. وأنا اقترح الموافقه على ضمه.
ووافق عبد الله ودرويش، على أن ألتقى به وأن ننقل المناقشة معه إلى مستوى أعلى.
قال درويش:
-بالنسبه لموضوع منصور أعتقد أن المسأله الماليه كدة اتحلت.
واعترضت.
-دى مسأله حساسه جداً.
وقال درويش:
-أنا قعدت معاه مرتين، وحاسس أن أنا أعرفه من زمن طويل. سيبونى أفاتحه أنا فى الموضوع. دا راجل واخد ع التبرع والتبرع بسخاء.
-الوقت مبكر جداً على كده. وأرجو تأجيل المسأله لما أقابله.

* * * *

قابلت عمر مكاوى. ارتحت له فور لقائه. إذا ابتسم، ابتسم وجهه كله.
قلت له، أننى أحب أن أسمع تجربته منه. قال أن تجربته هى محاولة صادقة لتنفيذ قناعاته. هو يكره الاحتلال والاغتصاب. يكره أن يجىء

أجنبى ويأخذ منه أرضه وبيته. هذا ما فعله الأمريكيون مع الهنود الحمر، وهذا ما يفعله اليهود معنا. أنهم قبيلة من القتلة، لكنه اكتشف على أرض المعركة أن البعض ذاهب إلى هنالك من باب الدعاية. المسألة ارتداء ملابس عسكرية وحمل بندقية وأخذ صور للنشر والإعلان. لقد ذهبوا بلا تدريب. قيل لهم أن التدريب الحى هو فى الميدان. وكان معنى ذلك الموت العاجل بلا مقابل. كان عليهم أن يحاربوا على أرض لا يعرفونها، فى حين كان أصحاب الأرض أنفسهم مطاردين من الصهاينة ومن العرب الذين يقودهم قائد إنجليزى.

وفى هذا الوقت التقوا بالشيوعِيين الفلسطينيين والسوريين وشرحوا لهم كيف أن المعركة ليست حرباً صليبية أو دينية، أنها حرب تحرير.

فلسطين مليئة بالمسيحيين، وبر الشام ملىء بالمسيحيين، ومصر فيها مسيحيين، وكل دول جزء أصيل من الشعوب العربية المعادية للاستعمار. فإذا كان البعض يعتبرها حرباً دينية، فهذا يعنى حرباً أهلية لا حرباً ضد الغزاة الخارجين. وأنهى حديثه:

-وعشان كده فكرت نرجع مصر ونبتدى من هنا. والدكتور أمين الصيرفى يشكر أنه عرفنا بيكو.

أخذت نفساً عميقاً بطول هذا المشوار.

-حمد الله على السلامه. وأحنا يسعدنا جداً إنك تكون معانا. ويا ريت تنجح كمان فى جذب زملاءك اللى كانو معاك.

قال وهو يهز رأسه ويبتسم:

-إنشاء الله.

ثم بدا وكأنه قد تذكر أمراً ماً.

-بمناسبة ذكر الدكتور أمين الصيرفى، هوه كلمنى فى موضوع، كلمه فيه الأستاذ درويش.

وقال لى إن أنا ممكن أعرف التفاصيل منك.

-دا يسعدنى جداً. بس إيه هوه الموضوع؟

نظر فى وجهى.

-موضوع المطبعه.

«آه عملها درويش. مفيش بينه وبين أمين الصيرفى حرج فكلمه فى

الموضوع. ومفيش بين أمين الصرفى وعمر مكاوى حرج فكلمه فى الموضوع. يعنى دروش نفذ اللى هو عاوزه».
قلت فى تردد:
-أيوه عندنا مشروع مطبعه. بس قدامنا مشكلة التكاليف.
فقال فى بساطة شديدة:
-وأنا هقوم بالتكاليف.
وصحت بطريقة تلقائية:
-لا.
فسأل مندهشاً:
-لا، ليه؟
وتلجلجت:
-يعنى إنت لسه زميل جديد معانا، ومره واحده تحتمل العبء ده لوحدك.
قال دون تردد:
-أنا صحيح جديد معاكو، بس مش جديد على أفكاركو. أنا معايا فلوس وأقدر أغطى المشروع ده، يبقه خلاص. فكرة الاكتتاب والتبرع عشان غيرى يشارك فيها مخاطره، مخاطره الإعلان عن المطبعه من دلوقت. وأنا فى فلسطين اتحوشت لىّ شوية فلوس، أتصور إنها تغطى المطبعة بالراحة.
شكرته باسم التنظيم شكراً جزيلاً، فاحتج على هذا الشكر. قال، أننا أقترحنا عليه مشروعاً. وهو يود أن يقترح علينا مشروعاً، وهو المسئول عن تنفيذه أيضاً. لقد عرف وهو فى فلسطين، أن الأخوة الفلسطينيين يتعاملون مع مكتبة فى انجلترا. مكتبة تقدمية. هم يرسلون إليها النقود، وهى ترسل إليهم بأحدث الإصدارات فى الفكر الماركسى. وهو قد أحضر العنوان. ويمكن البداية بطلبات معقولة، محدودة، ثم نرى ما النتائج. كل ما يريده هو أن نجلس معًا ونحدد قائمة بالكتب.
كنت ألهث وراءه.
-بالراحه يا زميل عمر. إحنا نقلنا من المطبعه للمكتبه، والاثنين طبعاً مهمين جداً. لكن تحملك تكلفة الاثنين عبء ثقيل.
قال فى تواضع:

-أنا بعمل اللى أنا مقتنع بيه وأقدر عليه. أنا كنت مستعد أضحى بحياتى، يبقه مش هقدم فلوس.
وعدت أشكره من جديد. وأطلب مهلة للتفاهم مع زملائى.
قال وأنا أغادره:
-على فكرة، أنا أقدر أترجم أى حاجة من الإنجليزى للعربى كمان.

* * * *

التقيت بعبد الله كامل ودرويش مصطفى. كان درويش متهللاً سعيداً، قال:
-خير إن شاء الله.
-ما أنت عارف كل حاجه.
قهقه وهو يقول:
-بس آخر حاجه لسه.
-لا خير إنشاء الله.
وقال عبد الله فى امتعاض:
-يعنى أنا هقعد كتير كده زى الأطرش فى الزفه.
وبدأت أحكى تفصيلاً كل ما جرى بينى وبين عمر مكاوى. وكانت الفرحة عارمة. اتفقت وعبد الله أن نفكر فى قائمة كتب نعوض بها ما استولت عليه منا منظمة النواة. وتساءل درويش، كيف يمكن لهذه المطبوعات أن تمر من الرقابة. فأوضحت له أننى قد فهمت من عمر أن لديه طريقة لذلك. ولم أدخل معه فى التفاصيل.
وفرك عبد الله كفيه.
-كده احنا خطينا خطوات مهمه جداً. وأنا باقترح أن فخرى يوالى عمر مكاوى فى موضوع الكتب، وأنا ودرويش نوالى موضوع المطبعه مع منصور.
ووافقناه على ذلك.

* * * *

طالب المعتقلون فى معتقل الهاكستيب بحقهم فى دخول الامتحانات للعام الدراسى 48-1949 (مايو 1949). غير أن الحكومة رفضت فدخلوا إضراباً عن الطعام من أجل حقهم فى الامتحانات (كما أنهم كانوا معتقلين، ولم يكونوا بالخارج وقت مقتل سليم باشا زكى، ومحمود باشا

النقراشى). ورفض عبد الهادى السماح لهم بالامتحان، بل وقام بنقل البعض إلى معتقل الطور.

* * * *

مايو 1949: نجحت هذا العام وانتقلت إلى السنة الثالثة.

* * * *

كان والدى قد انتقل من أبو طشت إلى الغابة، وهى قرية قريبة من فاقوس فى مديرية الشرقية.
ذهبت إلى هنالك لقضاء الإجازة الصيفية. كنت ناجحاً، لكنه كان نجاحاً بلا طعم. كان المفروض أن أتخرج هذا العام.
منزل ناظر المحطة مكون من جزأين. جزء فى المبنى الأصلى للمحطة، ويقيم فيه أبى وأمى وباقى أخوتى، وجزء شبه مهجور، مكون من حجرة ودورة مياه وبضعة شجيرات، وينساب وراءه مصرف صغير، تنق فيه الضفادع طوال الليل، بل وتسمع فيه أصوات غريبة، كأن هنالك كائنات صغيرة تدب بين أوراق البوص الحادة القاطعة النامية على شطى المصرف.
المحطة بعد المغرب صامتة موحشة، مظلمة إلا من لمبة تشعل بالجاز، لمبة قابعة خاشعة لا تمتد أشعتها لأكثر من دائرة تحيط بعمودها. تصنع قمعاً يمتد من الشعلة حتى الظلال، وقد امتلأ بالناموس والهاموش وحشرات أخرى غريبة.. يجذبها الضوء والحرارة. وإلى جوار الضوء الخافت الباهت أريكة من خشب اللبخ وقد تآكلت. وكنت أنا أحب الإقامة فى هذا المكان الخلاء.
نساء هذه القرية جميلات جميلات. بشرة بيضاء ناصعة مشربة بحمرة مشتعلة وعيون زرقاء وخضراء، وشعور صفراء أو بنية أو سوداء فاحمة. والقد منحوت صنعة فنان لا يبارى. الخصر ضامر والصدر ناهد والأرداف راقصة. غير أن دماءهن مصرية. الظل الخفيف والوجه الصبوح والعيون النابضة بالدفء والحياة.
ليس هنالك من أفندية غيرنا بالقرية. تعرفت على ابن أحد الأعيان وهو طالب يدرس الحقوق بجامعة فاروق الأول بالإسكندرية، عندما أبديت له تلك الملاحظة قهقه ضاحكاً
-أصل دا يا أستاذ، مدخل مصر الشرقى. كل الغزاه جم من هنا أو

خرجو من هنا برضه. أتراك وشراكسه وألبان وأنكشاريه وإنجليز وفرنسويه، ومماليك داخلين خارجين. وطبعاً الأمر ما يسلمش من بذره هنا ولا بذره هناك.

ثم عاد يقهقه مرة أخرى.

-إيه رأيك فى قعده النهارده، تمام التمام.

استثار فضولى:

-قعده إيه يعنى؟

-قعدة شرا وبيع، تحب تيجى.

واستثارنى أكثر.

-بيع وشرا إيه يعنى؟

وضغط كلماته مؤكداً:

-شرا وبيع حشيش.

وفزعت.

-يا نهار أسود!

-نهار اسود ليه. دى تجاره. وأنت عمر ما هتجيلك فرصه تشوف فيها حاجه زى دى.

-والبوليس.

-بوليس مين يا أستاذ. البوليس ليه حق بياخده. وخلصت على كده. وبرضه للاحتياط فيه حراسه من مدخل البلد لغاية هنا. ناضورجيه يعنى. جاهزين بالرشاشات.

وكان اللقاء فى المساء. فى منزل عين أعيان القرية. دخلنا من باب خلفى إلى قاعة فسيحة، مفروشة على الطريقة العربية. سجاد عجمى على الأرض ومساند إلى جوار الحوائط.

رحب بنا الحاضرون ترحيباً حاراً. كانت وجوه لا يبين فيها غير نصفها. ورأيت واحداً منهم وقد سالت أنفه ودمعت عيناه، وخيل إلىّ أن لعابه يتساقط. غمزت صديقى القابع إلى جوارى. فنظر إلى الرجل ثم ضحك ضحكة خافتة.

-دا أصله أفيونجى مدمن، وجه ميعاد الحمصه، بش مفيش دلوقت أفيون.

-وبقيه اللى حوالينا دول.

-معلمين تجار جمله.
-أمال فين الحشيش.
-الحشيش الأساسى الله أعلم بمكانه. هنا عينات بس. عينات للدواقه.
ولم يكن ينهى جملته حتى رأيت «الجوز» و»قصعة» كبيرة مثل تلك التى يستخدمها عمال «المعمار» مليئة بجمرات الفحم. ورفع أحدهم غطاء كان أمامه فبانت أشياء مرصوصة، يميل لونها للإصفرار، أطول من كف اليد. كومات ثلاث، وعلب المعسل. وهمس صديقى:
-دى طرب الحشيش. والتلات أكوام دول تلات أصناف.
وقلت لصديقى:
-أنا أمشى بقه، لأن أنا مليش فيٍ الحكايه دى.
-أمسكنى بقوه وغدا صوته أجشاً.
-لا. هوه دخول الحمام مش زى الخروج منه. محدش يقدر يقوم من العقده دى غير لما كله يقوم مع بعضه.
أنا لم أدخن الحشيش فى حياتى. ومرة واحدة أقع فى قلب «دواقة» تجارة جملة. وضع أحدهم «قرمة» صغيرة أمامه، إنها أشبه بتلك التى لدى الجزارين. وفى يده سكين صغيرة حادة كالموس. وإلى جواره رجل طويلٍ عريضٍ مهيب. قال فى صوت عميق:
-أهلاً وسهلاً. مرحب بالرجاله. مرحب بالمعلمين. نبتدى بالصلاة على النبى.
وتمتم الجميع بالصلاة والسلام.
-الفاتحه.
ورفع الجميع أكفهم يقرأون الفاتحة. ولم أدرى ماذا أفعل فلكزنى صديقى وهو يغمز لى، فأدركت ماذا يعنى فرفعت كفى مثل الجميع وأخذت أحرك شفتى متمتماً.
ونظر الرجل المهيب إلى الرجل القرمة، فبدأ التقطيع. وقرفص رجال ثلاثة يعبئون «الجوز» بالمعسل المطعم بالحشيش ويضعون عليه الجمرات، ويسحبون الأنفاس ويخرجونها كغمامات صغيرة من أنوفهم وأفواههم. وعبق الجو برائحة غريبة. وأخذت «الجوز» تنتقل من فم إلى فم. وسبحت القاعة فى دخان أثيرى مائل للزرقة على أنغام الكركرة.

وعندما وصلت «الجوزة» إلىّ يقدمها صديقي، هززت رأسى رافضاَ بقوة، فلكزنى، ودفعها إلى فمى فسحبت نفساً فعاد يؤكد.
-كمان، وكركر.
فسحبت نفساً طويلاً فكركرت. كنت قد أعتدت شربها فى مقاهى شبرا الخيمة.
ووجدته يصيح:
-الله أكبر. وتقولى ما ليكش فى الموضوع. أمال لو كان ليك كنت عملت إيه.
وقهقه الذين حولنا.
دارت «الجوزات» الثلاث. ودارت الأصناف الثلاث والمساء يوغل.
وقال الرجل الأبهة الذى يتصدر «القعدة».
-أهلاً وسهلاً. يا مرحبا.
ويبدو أن ذلك السؤال من هذا الرجل كان يعنى ماذا ترون؟ وتعالت الأصوات:
-أهلاً بيك وسهلاً. الله ينور. الله أكبر. الكل أكسرا. إكسرا آخر مزاج.
وأنتابتنى رغبة عارمة أن أشارك فى هذا الاستفتاء الديمقراطى. لكننى لم أكن قد ذقت الحشيش من قبل حتى أستطيع أن أبدى رأيًا صائباً.
وكانت أصوات الاستحسان تعنى أن الصفقات قد تمت.
قال المعلم الكبير:
-ناكل لقمه سوا. عيش وملح يعنى.
وجاءت صوانى واسعة عليها أطباق كشك ولحوم وعسل أسود. وأكلت اللحم بالخبز ووضعت العسل الأسود على الكشك وشربته من الطبق مباشرة. كان فى وسعى أن أكل كل ما فوق الصينية. أحسست أن معدتى قد تمددت واتسعت.
انتهى الحفل فسلمت وصديقى على كبير القعدة. قال صديقى يقدمه لى:
-عمى.
وعندما خرجنا، واستنشقت هواء الخلاء، صدمنى نقاؤه فأحسست بشىء من الدوار. سألت صديقي إن كان عمه حقاً. قال مؤكدا، وإن كانت مشيته مهتزة مختالة. يقيناً إنه عمه. إذ كيف كان يمكن لنا أن نرتاد مثل

هذه اللقاءات الخطيرة، لو لم يكن عمه. واختتم حديثه باعتزاز:
-أصله بيمرنى على الشغل فى الإجازة الصيفية.
قلت له محبذاً:
-ونعم التمرين.
غادرته واتجهت إلى المحطة. كانت صامتة تماماً. وعن بعد لاح لى ذلك الضوء المتهافت والدكة الخشبية. كان علىّ أن أعبرهما إلى صومعتى الرابضة فى الظلام. أحسست أنها قد بعدت كثيرًا، فحاولت أن استحث خطاى، غير أنها لم تستجب لى. كانت ثقيلة متأنية. وسمعت وأنا أعبر الدكة صوتاً ناعماً مرتجفاً يقول:
-يا بيه.
ونظرت إلى الدكة. كانت خالية. غير أن الصوت تكرر:
-يا بيه.
كان منكسرًا واجفا مرتبكاً. نظرت خلفى فرأيتها. فلقة قمر فى هذه العتمة. صبية بيضاء حمراء شقراء. غزال سبحان الذى خلق. وفقدت النطق فلم أرد عليها. لكننى ركزت عينى فى عينيها اللتين كانتا تشعان نوراً أخضر. قالت:
-إنت ساكن هنا يا بيه؟
وأشارت إلى صومعتى. هززت رأسى إيجاباً. وأعتقد أننى ابتسمت. تشجعت وخطت نحوى أو نحو الصومعة، أو اتجه كلانا فى ذات الاتجاه. قالت:
-أنا غريبه يا بيه ومسافره فى أول قطر الصبحيه. بيتنى حداك على قد الضلمه.
قالتها بنغمة غريبة، أعتقد أنها أنثوية أكثر مما يجب. أذهلتنى المفاجأة حتى أنها، قبل أن أجيبها، كانت قد التصقت بى. وسرنا صامتين حتى فتحت الباب. ثم أغلقت الباب. وأشعلت عود ثقاب لأرى أين لمبة الجاز. كاد عود الثقاب أن يحرق أصابعى، فأشعلت أخر وأضاءت اللمبة الحجرة. لا أدرى ماذا أفعل. ركزت عينيها فى عينى. كانتا ناعستان نائمتان تتوسلان. قالت:
-أنام معاك على السرير ده. أصل أنا أخاف أنام لوحدى.. أخلع هدومى.

ابتسمت لها. فالفكرة عبقرية. خلعت رداءها، فإذا بها عارية ليس هنالك من ملابس تحتية. تصورت أنها ستخلع «الملس» فقط، وستظل بباقى الأشياء. تراقص النور عليها فتراقص جسدها وتوهج. خلعت ملابسى كلها، فضحكت ضحكة خافتة ناعمة لها جرس كالنداء. وقفزنا إلى السرير، وملأت خياشمى رائحة عطر شعبى يفوح من كل جزء فى جسدها. وعصفت بنا لحظات مجنونة.

تركت اللمبة مشتعلة، على غير ما أعتدت، حتى لا تخاف. ونمنا كما نحن.

فى الصباح استيقظت أحس صداعاً فى رأسى. تحسست جوارى أبحث عنها فلم أجدها. السرير خال إلا منى. قلت لنفسى أرتدى ملابسى وأطل على المحطة أراها قبل أن تسافر. وجدت نفسى مرتدياً كل ملابسى.

أسرعت أفتح الباب. كان الرصيف يسبح فى ضوء الشمس والدكة خالية. عدت سريعاً أنظر إلى اللمبة التى تركتها مشتعلة، وجدتها مطفأة باردة. ملأت خياشيمى رائحة عطر شعبى. جلست على حافة السرير غارقاً فى حيرة. فوجئت بسمير يدخل الغرفة.

-انت كنت فين إمبارح. مريت عليك المغرب، وبعدين بالليل. وأنت ولا رديت.

نظرت إليه كمن يفيق لتوه.

-كنت سهران إمبارح سهره زى بعضها.

-عموماً يلا نفطر إفطار عائلى، أحسن الإجازه على تشطيب.

ثم أخذ يتشمم حوله:

-إيه دا. ريحة عطر زى اللى بيتباع فى الأسواق.

ودفعته لنخرج.

-يا سيدى يله. أنت هتعملى فيها الكلب هول. ما السوق ورانا، وكان فارش لسه إمبارح.

الإفطار العائلى ممتع. الفول المدمس البيتى الذى قضى طوال الليل فى الدماسة. وقد أضافت له أمى بعض العدس الأصفر والبصل والتوم. خلطة تجعله بحق كهرمان أصفر كما الزبدة. وأنا أهرسه حتى يصير ناعماً تذوب فيه الطحينة والكمون والفلفل الأسود. والبيض المقلى عيون

يعوم فى السمن البلدى. و»المترد» وطبقة القشدة التى تطفو على سطح اللبن الذى «تجبن». والذى نأكل منه ما نشاء، ثم تضع أمى ما تبقى فى الشاش ليصفى «شرشة»، ويتحول إلى جبنة رائعة بعد تمليحه. والبصل الأخضر. والمخللات المنزلية، الخيار والفلفل والبصل، وبعضٍ فروع الكرمب. ومربة المشمش «الطعمة» الجميلة صناعة أمى أيضاً.

كان ذلك آخر يوم لنا فى الغابة. وكان أبى قد قرر أن يذهب سمير معى إلى القاهرة، وحول له أوراقه إلى مدرسة التوفيقية الثانوية. إن وجوده فى الغابة، وٍهو فى التوجيهية هذا العام، سوف يضيعٍ وقته. فإما أن يسافر يومياً إلى الزقازيق، وذلك سوف يستهلكه تماماً، أو أن يقيم فى الزقازيق فتستهلكه الغربة. وقد سعدت بذلك تماماً، فسمير معى سوف يكون عوناً لى وأكون عوناً له.

غداً صباحاً أغادر، أنا وهو إلى القاهرة، وأمى على قناعة عميقة أننا نعيشٍ هنالك جوعى محرومين. والحقيقة أنها محقة، لذلك تحاول تغذيتنا تماماً ونحن فى ضيافتها.. بالإضافة إلى ما تُحمله لنا ونحن مغادرون.

قالت أمى:

-خدو بالكو من بعض. وربنا معاكو يحفظكو ويباركو، وسلمولى كتير على أخوالكو وخالاتكو.

وقال أبى وهو يسلمنى مصروفنا:

-بلاش والله حكايه السنه بسنتين دى. وأديك شايف.

ونظر حوله إلى أخوتى رأفت ومدحت ورضا ومجدى وقد ألتفوا حولنا يبتسمون مودعين.

أحسست بالخجل وبأننى عاجزٍ عن الرد غير تأكيد أننى لابد سأنجح هذا العام من أول دور وبتقدير أيضاً.

وغادرنا.

* * * *

أغسطس 1949: استقال إبراهيم عبد الهادى.

أغسطس 1949: تشكلت حكومة أئتلافية برئاسة حسين سرى، وشارك فيها الوفد نزولاً على الرغبة الملكية الكريمة.

أغسطس 1949: بدأ الإفراج عن المعتقلين.

توجه الطلبة الذين كانوا فى المعتقل إلى فؤاد سراج الدين باشا، وزير

المواصلات فى الحكومة الأئتلافية، مطالبين بامتحان استثنائى لهم. تحمس سراج الدين، ولم يعارض حسين سرى. رفض الوزراء السعديون ذلك وهددوا بالاستقالة وإنهاء الائتلاف.

* * * *

الفصل الخامس عشر

1949-1951

غدا سمير معى فى القاهرة. سمير غير إدوارد. أنا مسئول عنه، أما إدوارد فقد كان مسئولاً عن نفسه، والمفروض أن يكون مسئولاً عنى أيضاً، فهو الأكبر. وسنة التوجيهية سنة حاسمة. وقد أرسله أبى معى أمانة يجب أن أحافظ عليها، وليس من حقى أن أحمله مسئولية ما أقرره لنفسى.

ومع ذلك، فقد قررت هذا العام أن أعطى تركيزاً خاصاً للكلية. أنا الآن فى السنة الثالثة، والمواد المقررة علينا ثلاث: جيولوجيا وكيمياء وحيوان. مادة الحيوان اختيارية، أستطيع تأجيل الامتحان فيها إلى العام القادم، وسواء دخلت الامتحان أو رسبت فيه فإننى انتقل إلى السنة الرابعة إن نجحت فى الكيمياء والجيولوجيا. وحسمت أمرى، سوف أركز على هاتين المادتين، وأمتحن الثالثة فى العام القادم.

بدأت المتاعب منذ اليوم الأول فى الكلية. طالبونا بأقساط ومصروفات متأخرة من العام الماضى، وأخرى جديدة للعام الجديد. عجز بعض زملائنا عن الدفع والسداد، فلم تصرف لهم كارنيهات الكليات، ومنعوا من دخول الجامعة.

انطلقنا فى مظاهرات تطالب بإسقاط كل الأقساط، وبمجانية التعليم. طاردونا فى الشوارع حول الجامعة، ومن أمسك به، قبض عليه وأرسل إلى أقسام الشرطة. جاءنا طعام كباب وكفتة، أرسله حزب الوفد لنا، وكذا محامين لإخراجنا من الحجز.

عدنا للتظاهر مرة أخرى. خلف الأبواب المغلقة للجامعة.

* * * *

اجتمعنا عبد الله ودرويش وحسن ومنصور وأنا. ناقشنا ما تم من تطورات أعداداً لإعلان التنظيم. تجهيز المطبعة يسير بخطى جيدة للغاية. تم استئجار سكن مناسب لمنصور ووالدته فى دور أرضى فى حى شعبى. أُعد المكتب المطبعة. وبدأت أدراجه تمتلىء بالحروف. وجارى العمل على شراء «الفورم»، وباقى اللوازم.

نجح عمر مكاوى فى الاتصال بمكتبة لندن- انجلترا. ووردت بالفعل

دفعة هامة من الكتب، مصحوبة بمفاجأة مذهلة، اشتملت على كتب لم نكن قد طالبنا بها. كانت كلها كتابات صينية لماوتسى تونج، «عن التناقض»، «التناقضات فى صفوف الشعب» و»الجبهة الوطنية الديمقراطية». وكانت «الفاتورة» عشرين جنيهاً، فى حين أن عمر كان قد أرسل إليهم بعشرة جنيهات فقط. وكان هذا يعنى شيئين، أنهم يثقون فينا، وأننا مدينون لهم بعشرة جنيهات.

وكانت المناطق العمالية تعمل بجدية فى التوعية والحشد حول مطالب العمال، والعمل النقابى والتنظيم.

ان الإعداد لوثائق التنظيم يسير قدماً. تم إعداد اللائحة، على أن تكون أيضاً مشروع لائحة للحزب الشيوعى الواحد الذى نسعى للوصول إليه.

وقد جاء فى أهداف الحزب، فى الصفحة الثانية، فى المادة (1):

«الحزب الشيوعى المصرى، حزب الطبقة العاملة المصرية، يتسلح بالنظرية الماركسية اللينينية، فى نضاله التاريخى لتحرير الطبقة العاملة، والجماهير الشعبية الكادحة من نفوذ وسيطرة الرجعية المصرية الخائنة، وإعداد هذه الملايين وتنظيمها كجيش للثورة الديمقراطية الشعبية، على رأسه الطبقة العاملة، بزعامة وتوجيه الحزب الشيوعى. وذلك للتطويح بكتلة كبار ملاك الأراضى، وكل بقايا النظام الملكى والاستعمار – الأنجلو أمريكى. وطريقنا لانجاز هذا الواجب التاريخى هو الثورة الديمقراطية الشعبية المسلحة، وإقامة الديمقراطية الشعبية الحكم الثورى للعمال والفلاحين، والبورجوازية الصغيرة فى المدن تحت قيادة الطبقة العاملة وتوجيه الحزب الشيوعى. وفى عبارة مختصرة إقامة الديكتاتورية الشعبية الديمقراطية. وتواصل الطبقة العاملة، بقيادة حزبها الشيوعى، فى حلف طبقى من العمال والفلاحين، تصفية كل نواحى النشاط الاستغلالى وبناء الاشتراكية فالشيوعية».

ناقشنا فيما يتعلق بالعضوية ألا تجنيد للأقارب منعاً للشللية والقبلية وسيادة العلاقات الشخصية على العلاقات التنظيمية.

وألا تجنيد للأجانب. هم أصدقاء، حلفاء، ولكن لا داعى لأن يكونوا أعضاء، إذ أن فاعليتهم تحدها حدود. كما أنهم وبطبيعة ظروفهم معزولين عن الواقع حولهم.

وألا تجنبيد من المثقفين إلا لمن هم ثوريين من خلال مواقفهم العملية، لا من خلال قدراتهم الكلامية.

* * * *

يناير 1950: نجح الطلاب الذين كانوا معتقلين فى أن يُعقد له امتحان استثنائى، فى ظل الوزارة المحايدة. وكان وزير المعارف هو محمد باشا العشماوى.

* * * *

اشتعلت معركة الانتخابات. اتخذنا موقف الداعم لحزب الوفد امتلأت الشوارع والأحياء بصور المرشحين الوفديين، وإلى جوارهم صورة رفعة مصطفى النحاس باشا تأكيداً لوفديتهم ولدعم الحزب ورئيسه لهم. منذ نهاية الحرب العالمية الثانية والحركة الوطنية تعانى من حكومات الأقلية والسراى والإنجليز، وصدقى (عدو الشعب) والنقراشى (المفاوض المستسلم) وإبراهيم عبد الهادى (كلب الوادى).
كان علينا الوقوف مع الوفد بكل ما لدينا من قوة، فهو الأمل الوحيد الممكن للخروج مما نحن فيه.
دائرة باب الشعرية مغلقة على المليونير سيد بك جلال النائب السعدى. كان للرجل العديد من الأيادى البيضاء على دائرته، مدرسة ومستشفى ووظائف وخدمات. ورشح الوفد فى هذه الدائرة المهندس مصطفى موسى، وهو من أبرز زعماء اللجنة الوطنية للطلبة والعمال، ومن أشهر زعماء الجامعة وخطبائها. ودارت معركة رهيبة محفوفة بالمخاطر لكن الحشد أيضاً كان هائلاً. الطلبة الذين كانوا مع أهل الحى فى حشود المظاهرات الوطنية. وهؤلاء الذين عاشوا مع أهل الحى أيام الخطر والموت، أيام الكوليرا. والتراث الوفدى المنحاز إلى الفقراء وأمل بمستقبل أفضل، كل هذا فجر فى الدائرة كل المشاعر الوطنية وكل الآمال بأن يحقق الصوت الانتخابى إرادة شعبية. واكتسح مصطفى موسى الدائرة. وأصبح عضواً فى مجلس النواب.
اجتاح الوفد الانتخابات. حصل على 228 مقعداً من 319 مقعداً فى مجلس النواب.
9 يناير 1951: شكل حزب الوفد المصرى وزارته السادسة برئاسة مصطفى النحاس باشا.

* * * *

رشح العمال، فى تلك المعركة، القائد العمالى البارز محمد يوسف المدرك عن دائرة شبرا الخيمة. خاض المعركة بمساعدة العمال وأموالهم.

* * * *

أعددنا وثيقة للاستراتيجية، باعتبارها أيضاً مشروع استراتيجية للحزب الشيوعى المصرى، تناولت: انقسام العالم، بعد الحرب العالمية الثانية إلى معسكرين. المعسكر الاشتراكى، المعسكر الصديق، معسكر الشعوب والتقدم والتحرر والسلام. معسكر يقف على رأسه الاتحاد السوفيتى، ويضم البلدان الاشتراكية، والبلدان التى تحررت، وحركات التحرير فى العالم، والطبقة العاملة فى البلدان الرأسمالية، ونحن جزء من هذا المعسكر العالمى.

والمعسكر الرأسمالى الاستعمارى، ويضم مكونات البلدان الغربية الاستعمارية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، أقوى قوة استعمارية، والتى خرجت بعد الحرب العالمية الثانية بكامل قوتها دون أن تصاب بأى أضرار تذكر فى الوقت الذى دمرت فيه بلدان كل الاستعماريات السابقة، البريطانية والفرنسية والألمانية واليابانية، وتقع فى تلك الجبهة، وهذا المعسكر، كل القوى الرجعية والعميلة.

وقد حددت الاستراتيجية أعداء الطبقة العاملة المصرية بالاستعمار وقواته التى تحتل الوطن ورأس المال الأجنبى الاحتكارى الاستعمارى، ورأس المال المصرى المرتبط به، وكبار ملاك الأراضى. وكل القوى الرجعية والعميلة وعلى رأسها السراى والنظام الملكى. كما حددت جبهة الحلفاء بالفلاحين والبورجوازية الصغيرة بقيادة الطبقة العاملة وحزبها الشيوعى، من أجل إقامة الجمهورية الديمقراطية الشعبية.

وأن ما يسعى إليه الحزب هو التحرر الوطنى من الاستعمار الأجنبى الاقتصادى أو السياسى أو العسكرى، والقضاء على رأس المال الاحتكارى وتأميم مؤسساته صناعية ومالية وعقارية. والقضاء على كبار الملاك ومصادرة أراضيهم وتوزيعها على فقراء الفلاحين والمعدمين.

كما يجب العمل على تحطيم الأحكام العرفية، والنضال ضد الأحلاف

العسكرية، وضد الإعداد لحرب عالمية ثالثة من أجل بناء سلم دائم.
وصدرت التوجيهات لكل الزملاء والأصدقاء بضرورة الاشتراك فى كل النشاطات الوطنية والسلامية.
وأما المطالب البرنامجية التكتيكية فهى تحدد طبقاً لكل مجال وكل معركة، وأساساً داخل صفوف عمال النسيج والتراماواى والمطبعة الأميرية.
إصدار بيان إلى الشيوعيين المصريين من أجل تكوين الحزب الشيوعى المصرى، تواصلاً مع موقفنا وقت تكوين نواة الحزب الشيوعى المصرى.

* * * *

اجتمعت اللجنة المركزية لتنظيمنا، وقد تشكلت من الخمسة الذين مارسوا التأسيس والقيادة خلال الفترة الماضية: منصور زكى، حسن حسنى، محمد مصطفى درويش، عبد الله محمود كامل وفخرى لبيب. وأطلقت إسم «طليعة الشيوعيين المصريين» على المنظمة، كما وافقت على إصدار مجلتين، واحدة داخلية هى «الطليعة»، وأخرى خارجية هى «الصراع». كما اقرت الوثائق السياسية المختلفة. وكان قد تم طرحها للنقاش مع عدد من كوادر المنظمة للتشاور حولها، على أن تناقش بعد هذا الإقرار مع المنظمات الأخرى التى يمكن أن نلتقى بها، وبداية نواة الحزب الشيوعى المصرى.
وكان ذلك هو الإعلان الرسمى عن منظمة «طليعة الشيوعيين المصريين».

* * * *

ترجمنا أجزاء من فكر ماوتسى تونج وقمنا بنشرها فى مجلة الطليعة.
رأينا أن هذه الأفكار هامة للغاية ويجب تقديمها للمناضلين المصريين.
إن أفكار ماوتسى دونج ولى شاوشى وتنج هسيا وبنج تتناول واقعاً أقرب إلى واقعنا المصرى وواقع المستعمرات، ويمكن أن تكون تجارب رائدة بالنسبة لنا.
غير أن مجلة «إلى الأمام»، المجلة الداخلية لنواة الحزب الشيوعى المصرى، هاجمتنا واتهمتنا بأننا انتهازية «صفراء» لأننا نقدم فكرًا صينيًا. وكان هذا نوعًا جديدًا من الاتهام. إنه ليس اتهاماً بالانتهازية أو

الخيانة أو العمالة أو التروتسكية أو التيتوية. إنه أول اتهام ملون. والحقيقة أنه لم يثر فينا الدهشة أو الاستنفار، بقدر ما أثار فينا الضحك. كنا رغم ما فعلوه بنا، نحافظ على علاقة ما مع «النواة» ونتبادل المطبوعات ونناقش معهم قضية الوحدة.

* * * *

تلقت المنظمة الشيوعية المصرية (م.ش.م) ضربات متلاحقة.

* * * *

الدكتور رياض ترك أستاذ الكيمياء الطبيعية رجل عالم حقيقى، لكنه كثير النسيان. كان يشرح لنا فى إحدى المحاضرات ونحن ننظر إليه فى إصغاء عميق، فى محاولة صعبة لفهم ما يقول. واكتشف بذكائه أننا مجرد عيون مفتوحة فتساءل:

-انتو سنه كام؟

قلنا:

-سنة تالته.

هز رأسه ووضع دفتر المحاضرات الذى أمامه جانبًا. ونظر إلينا متأملاً. قال وعلى فمه ابتسامة المعتذر:

-أنا كنت فاكركو سنه رابعه.

كان ابنه فى الإعدادى طب فى كليتنا. ويقال أن الدكتور ترك التقى به يوماً فى فناء الكلية فبادله الحديث:

-إزيك يا بنى وإزاى أحوالك؟

-كويس الحمد لله.

-عال قوى. والله إبقه سلم لى على والدك.

قرب نهاية العام الدراسى قال لنا الدكتور رياض ترك، أنه لا يهمه إن كنا نحفظ أو «نصم». إن ما يهمه أن نفهم. ولذا فإنه سوف يعطنا الأسئلة الأساسية، أسئلة الامتحان. هو يؤمن أن الامتحان اختبار لفهمنا لمسائل بعينها فى المقرر. من يجاوبها بفهم، يمر فى مادته، لأن هذا يعنى أنه يمسك بمفاتيح مواد العام القادم. وأنه يمتلك أسس الفهم والمنهج العلمى.

المشكلة فى الكيمياء، كما فى الجيولوجيا، أنها ليست فرعاً واحداً، لا تقف موادها عند حد مادة الدكتور ترك، فهنالك الكيمياء العضوية، وهى

تتطاير كما يتطاير الكحول، وغير العضوية والتحليلية والصناعية... الخ. وكل تلك تشكل حائطاً خرسانياً يجب تسلقه إلى السنة الرابعة.

* * * *

اصدرت حكومة الوفد قراراً بإعفاء الطلبة الجامعيين الذين عجزوا عن دفع الأقساط المتأخرة من المصروفات، والسماح لهم بدخول الكليات والامتحانات. وكان ذلك تجاوباً رائعاً من حكومة الوفد وانتصاراً هائلاً للحركة الطلابية ومطالبها الخاصة.

وأعلن طه حسين، وزير المعارف العمومية، أن التعليم كالماء والهواء، أى ضرورة من ضرورات الحياة. وكان ذلك يعنى أن مجانية التعليم قادمة.

* * * *

التحقت فى الكلية بفريق السلاح. أتدرب يومياً على «الأيبيه فلوريه»، المدرب يفرض علينا رياضة عنيفة وكأننا سنصبح راقصى باليه عالميين، حتى يمكن للواحد منا أن يتحكم تحكماً تاماً فى حركة الرسخ والقدمين والأصابع، مع التدريب على التركيز وسرعة الاستجابة والحركة ورد الفعل. أعود يوم التدريب إلى المنزل، وأنا مرهق للغاية. ومنذ عامين وأنا ألعب الفولى بول والهوكى والبنج بونج. وقريباً سوف التحق بفريق الجوالة.

وسمير يسخر من ذلك، ويقول أنه سيدخل كلية العلوم، لأنها ليست، على ما يبدو، كلية، لكنها ناد رياضى.

والذى لا يعرفه سمير، هو أننى أدخل هذه الرياضات، لا لألعب فقط، ولكن لتتوفر لى فرصة الالتقاء بطلبة من مختلف السنوات، بما فيها الإعدادى طب بهدف كسب أعضاء جدد فى الكلية.

* * * *

بدأ الإعداد لانتخابات الاتحاد العلمى. طلب مني زملائى فى القسم أن أرشح نفسى عن الثالثة جيولوجيا. قالوا أن أحداً آخر لن يرشح نفسه. وبذا سأنجح بالتزكية. وقد حدث ذلك بالفعل. أحسست بسعادة فائقة لهذه الثقة التى اكتشفت أن زملائى يكنونها لى.

* * * *

توارت سعاد إلى الوراء كثيراً. لم أعد أسمعها تصرخ، تنادى كالعهد

بها. علمت من جارى وزميلى بالكلية أنها قد خطبت لابن عمتها خلال الإجازة الصيفية. إنه مدرس فى الصعيد.
انتبانى حزن عميق، أنها لم تعرف بحبى حتى تكون أمامها فرصة الاختيار. ما كان فى وسعى أن أعلن عن وجودى. أن ذلك فى حكم المستحيل. لكنها ستظل كما كانت ملكاً لى يعايشها خيالى كما يشاء. فقط غداً الحلم سراباً.

* * * *

أصدرت الحكومة الوفدية القانون العسكرى 99 لسنة 1950، والخاص بغلاء المعيشة.
جاء القانون نتيجة معارك عمالية ونقابية بسبب ظروف الحياة الصعبة. وكان على العمال أن يخوضوا معارك جديدة متصلة حتى يضع أصحاب المصانع القانون موضع التنفيذ.

* * * *

عمال الترامواى يخوضون معارك حول مطالب خاصة متميزة. إنهم يخوضون معركة المطالبة بصرف معطف فى الشتاء. الشركة تراوغ والعمال يضغطون. ونحن نشاركهم معركتهم التى اشتهرت باسم «معركة البالطو».
غير أن معركة أخرى كان يزداد الحشد لها. الشركة رفعت سعر تذكرة الترامواى مليماً، على أن تذهب حصيلة المليم تلك إلى العمال. وأصبح المليم قروشاً وجنيهات، فاستيقظ جشع الشركة المعهود، فوضعت يدها على حق العمال. فارتفع التذمر واشتد. ولعب محمود فرغلى سكرتير عام النقابة دورًا مجمعاً لكل الشيوعيين العاملين فى الترامواى ولكل العمال.
تم الاتفاق على الإضراب، وحُدد موعده. ولعبت مخازن العباسية وشبرا والجيزة وغيرها، دوراً هاماً فى الإعداد والتعبئة. وأصدرنا منشوراً بعنوان «يا عمال الترام اتحدوا». «حصيلة المليم حق لكم».
تقدمنا بخطة للإضراب مبتكرة، تحقق مطالب العمال، وتحافظ فى ذات الوقت على مصالح المواطنين العاديين. وقوبلت الخطة بالترحيب من القيادات العمالية. قامت الخطة على تنفيذ الإضراب دون التوقف الكلى للتراموبات. كل القطارات تسير كالمعتاد، ولكن ببطء، إعلاناً عن أن

هنالك شيء ما، مشكلة ما، وهنالك موقف منها. الكمسارية لا يحصلون تذاكر من الركاب، بل الركوب مجانى. وعلى كل كمسارى فى عربته أن يشرح للمواطنين كيف أن المليم الذى اضافته الشركة على ثمن التذكرة، وهم دافعوه، لصالح عمال الترامواى، قد استولت هى عليه، وترفض صرفه للعمال. أى أن الشركة قد سخرت من الركاب والعمال وخدعت الجميع. وبذا فإن الإضراب ليس إضراب عمال الترامواى فقط، لكنه إضراب العمال والركاب.
وتعاظم الحشد وتصاعدت التعبئة. وأصبح الإضراب حديث البيوت والصحافة، وارتفعت الاحتجاجات ضد الشركة، وصدرت بيانات تضامن مع العمال. تعرت الشركة. فخضعت ورضخت وعاد المليم إلى أصحابه.
ارتفعت معنويات العمال إلى عنان السماء. ازداد تماسكهم وتمسكهم بوحدتهم وقيادتهم النقابية والسياسية. وكانت تلك نقلة هامة فى حياتهم وحياتنا التنظيمية.

* * * *

أنا على أتم الاستعداد للامتحان فى الجيولوجيا والكيمياء. قررت تأجيل مادة الحيوان إلى العام المقبل. جاءنى جارى وزميلى فى الكلية إنه قسم «نبات» ولديه مادة «الحيوان» متخلفة من العام الماضى. إنه فى السنة النهائية. سألنى لماذا لا أحاول دخول مادة الحيوان هذا العام؟ إن نجحت، فذلك مكسب، وإن رسبت فأنا لن أخسر شيئًا.
كان كلامه منطقيًا. لكنٍ كيف أدخل الامتحان وأنا لم أذاكر علم الحيوان البتة. لقد واظبت تماماً على حضور المحاضرات وإعدادها، وكذا حضور العملى واستيعابه جيداً. غير أن صديقى وجارى قدم الحل. قال لنجلس معاً قبل الامتحان باسبوع، ونراجع أسئلة الأعوام السابقة، ونستخرج منها ما هو مكرر. إذ أننا نتعامل مع نفس المادة ونفس الأستاذ، ونفس منهج دكتور رياض ترك الذى يتبعه هؤلاء الأساتذة دون أن يعلنوا ذلك.
والتقيت وصديقى وأربع سجائر «واسب». وفحصنا بدقة كل الأسئلة واستخرجنا بالفعل ما هو مكرر. ثم عمدنا إلى مطابقة مقرر العام الحالى بمقرر العام الماضى، فاكتشفنا أن هنالك موضوعين جديدين أضافهما

الأساتذة وبذا اصبحت أسئلة الامتحان، طبقاً لهذه النظرية، أمامنا، وأصبح علينا مراجعتها جيداً ودخول الامتحان.
وجاء الامتحان مذهلاً. صدق حدسنا بنسبة عالية. وكانت أسئلة اختيارية منها سؤالين. واحد عن «دراسة مقارنة لقطاعات فى جلد حيوانات مختلفة»، وكانت تلك مقررة علينا فى السنة الثانية. والسؤال الثانى عن «الحياة الاجتماعية للنمل الأبيض». وركزت بقوة فى السؤالين لأستعيد الإجابة عليهما. وأخرج من الامتحان وأنا مندهش من نفسى غاية الاندهاش، فقد أجبت كل الأسئلة. وأصبح علىّ أن أعطى اهتماماً حقيقياً لامتحان العملى، فاجتاز علم الحيوان أيضاً، ولا يشكل عبئاً علىّ فى السنة الرابعة.
ظهرت النتيجة. ونجحت فى المواد الثلاث. الفرحة عارمة فتلك أول سنة أغادرها دون إعادة.
أرسلت على الفور برقية إلى أبى أبلغه بنجاحى وانتقالى إلى السنة النهائية. ثم أعقبت ذلك بخطاب، ببقائى مع سمير حتى يؤدى امتحانه ونعود سوياً إلى قرية الغابة.

* * * *

كل أخوتى كانوا فى انتظارنا. على رصيف محطة الغابة، رأفت ومدحت ورضا بل وحتى مجدى محمولاً. لا أدرى كيف أفلتوا من الوالدة وأعدوا لنا هذا الحشد. وكان والدى يقف هنالك. قرب باب مكتبه. أما إدوارد فقد مقل من دمنهور إلى الإسكندرية.
هاص الأولاد وهصنا. واستقبلنا والدى بالأحضان، ووالدتى بالقبلات. زغدت أمى رأفت ودفعته جانباً.
-برضه عملتوها وما سمعتوش الكلام.
«وهشتهم» وكأنها «تهش» مجموعة من الكتاكيت.
وقلت لها أطمئنها:
-المحطة كانت فاضيه. والناس نفسها مسدوده. محدش له نفس يحسد اليومين دول.
كانت فرحة وكان أبى سعيد أيضاً.
-مبروك يا بنى. عقبال سمير إنشاء الله.
وقالت أمى:

-ماتنسوش مارى جرجس. أنا ندرتلكو أنتو الإثنين. وأدى الندر اتحقق معاك يا فخرى.
وابتسمت وأنا أشكرها وأشاغبها.
-طيب ما افتكرتيش ليه تندريلى من سنة أولى. كنا زمانا خلصنا يعنى.
فقالت معاتبة:
-أنت دايماً كده. عمرك ماهتوب.
ثم نظرت إلى سمير.
-أوعى تعوم على عومه يا سمير.
وصاح سمير:
-لا يا ماما، أنا من ندرك ده، لندرك ده.
ثم قال فيما يشبه الهمس:
-دى النتيجة بتاعتى لسه ما طلعتش.

* * * *

قلت لأبى:
-إيه رأيك نروح يومين عند إدوارد فى إسكندريه؟
قال سمير:
-وأنا معاك.
قالت أمى:
-يا ابنى انتو لسه مقعدتوش معانا.
قلت مهوناً:
-الأيام جايه، وأحنا تعبنا السنه دى وعاوزين نتفسح شويه.
قال أبى:
-ماشى. وأنا هكلم إدوار. أنتو تستحقو إسكندريه السنه دى.
زاط الأولاد.
-وأحنا يا بابا.
نظر إليهم أبى مستفسراً.
-وأنتو إيه؟
-نروح إسكندريه. إحنا كمان. نروح مع فخرى وسمير.
وأخذ أبى يقهقه. فقد كان منظرهم طريفاً وهم يتحدثون بلسان واحد.
-لما تبقو قد فخرى وسمير أبقو روحو إسكندريه.

وتساءل رأفت باعتباره الأكبر سناً والأقرب لنا:
-يعنى إيه الكلام دا بقه؟!
قال أبى فى حسم:
-يعنى لما تخش الجامعه.

* * * *

رحب إدوارد بشدة بقدومنا إلى الإسكندرية.
كان فى أنتظارنا على محطة سيدى جابر، وما أن رآنا نطل من نافذة القطار حتى ارتفعت يده تلوح لنا، وقد ملأت وجهه ابتسامة عريضة.
أخذ يخطو مسرعاً فى محاذاتنا، وكأنه يخشى أن يتوه الواحد منا عن الآخر.
أخذنا إدوارد بالأحضان. كنت وسمير نحمل حقيبة بها ملابسنا، وسبت به كمية من «الفايش» و»القراقيش» والخبز الشمسى المحمص، وعدداً من الحمام البيتى، ودكر بط محترم وزوج دجاج بلدى «عتاقى».
شقة ادوارد تطل على ميدان ملىء بكل أصناف الباعة. كان اليوم جمعة وقال ادوارد لنا:
-إيه رأيكم، ننزل البحر على طول.
ونظرنا إليه مترددين، فتساءل:
-إيه، فيه إيه؟
-أصل أحنا معندناش مايوهات.
وقهقه ادوارد ضاحكاً. ثم نادى على شغالة لديه:
-هاتى المايوهات والشمسيه والكراسى.
ثم إلينا:
-ما تشغلوش بالكو بحاجه. كل اللى هتعوزوه موجود.
ثم للشغالة:
-احنا هنرجع على تلاته ونص، أربعه، نلقى الحمام المحشى جاهز.
ارتدينا المايوهات وحملنا الشمسية والكراسى وأسرعنا إلى الشاطىء.
قال إدوارد:
-تعرفو تعومو.
-لأ، طبعاً مانت عارف.
-أمال هتنزلو الميه تعملوا إيه؟

-نبلبط.
-عظيم. تبقه البلبطة جنب الشط. جوه مفيش يامى أرحمينى. الغرق على طول.
كثيرون مثلنا «بيبلبطون». نحن لا نذهب إلى الموج، لكنه هو الذى يأتى إلينا، يهجم على الشاطىء، يقلب الرمال ويقلبنا. نستطيع أحياناً أن نعلو برؤوسنا وأحياناً أخرى يغمرنا تتابع الموج فنتدحرج وتمتلىء أفواهنا وعيوننا بالماء المالح وفتات القواقع.
قال إدوارد عندما غادرنا الماء:
-بسرعة على «الدش» أحسن الميه المالحه تحرق الجلد.
قلت لإدوارد منبهراً:
-البنات كده عريانه، ومفيش حد ليه دعوه بحد!!
قال إدوارد مندهشاً:
-البنات مش عريانه، دول لابسين مايوهات، بس يعنى إيه حد ليه دعوه بحد؟
-يعنى مفيش حد يقولهم عيب كده؟!
-وأنت مالك.
-وأنا مالى إزاى. مانا مش قادر.
وضحك إدوارد.
-الله أكبر ع الصعايده. يعنى أنت مش عاوز تقولهم عيب، أنت عاوز تعمل العيب نفسه.
-يعنى أنت عاوز تقولى، إنك يعنى ولا همك؟
-لا أبداً. بس أنا خلاص خدت ع المناظر دى.
-دول فيهم صعايده؟
-طبعاً تلاتربعهم صعايده.
-يا نهار أسود.
كانت الساعة تقترب من الثالثة. جمعنا حاجياتنا استعداداً للعودة.
كان الشاطىء يموج بالناس. وبدأ البعض فى التهام الطعام. صوانى بطاطس باللحمة. صوانى سمك مشوى وطحينة وسلطات، وكباب وكفتة وبفتيك وفراخ محمرة. وشعرت أن معدتى تستغيث. الشاطىء فتح

الشهية والشهوة. كل المسام تهفو للحياة، تقبل عليها بفرح.
قال إدوارد:
-عيب قوى حد يبحلق فى الستات.
-يا راجل احنا بنبحلق فى الأكل. جعنا ع الآخر.
وقررنا ألا نبحلق فى أحد أو فى أى شىء، ابتداءً من غد، فقط ننظر من «تحت لتحت». فى المساء جلسنا فى «الفراندة» نرقب المارة أفواجاً ووحدانا. كنا نأكل ذرة مشوية وتين شوكى مثلج.
سألت إدوارد السؤال الذى لابد منه:
-إيه أخبار الشغل معاك؟
تنهد إدوارد.
-الشغل دا حكايه. أنا وظيفتى مأمور ضرائب، أحاسب ممولين، أصحاب متاجر وورش وبارات وكازينوهات وقهاوى.
هو يحدد الضرائب المستحقة على كل عميل. وهنا الضمير هو الحكم. فإذا كان إنساناً سيئاً فهو يحدد القيمة التقديرية ثم يساوم على التخفيض. وكثير من الممولين على استعداد لتقديم رشاوى، نقود، عزومة فاخرة، هدايا عينية. كل حاجة ولها حسابها. ويمكن أن يصل الأمر إلى تقديم فتيات.
وسألت إدوارد فى تردد:
-وأنت عملت إيه؟
وأجاب دون تردد:
-عملت اللى تربينا عليه. عمرك شفت أبوك عمل حاجه غلط. البيت والأسره همه أساس تشكيل ضمير الإنسان.
وانزعجت كيف يمكن لطلبة تربوا فى الجامعة، وعلى مثاليات كبرى أن ينحدروا هكذا. وعبرت عما يحول بخاطرى. فقال إدوارد:
-الجامعة ومثالياتها شىء، والواقع بطموحاته وإغراءاته وضعفه شىء آخر تماماً. أنا اتعلمت من شغلى أضعاف اللى تعلمته وأنا طالب. الحياة العملية غير الكتب، وغير كل تصوراتنا الشخصية. الكتب أساساً نظرية. لكن الحياة واقع عملى. تجارب حقيقيه.
التجارب انضجت إدوارد. إن ادوارد الذى أراه الآن وأسمعه قد تغير

كثيراً عما كان عليه أيام الدراسة. لكن الغريب أنه لم يسألنى عن نشاطى السياسى. هل لا يود أن ينكأ جرحاً قديماً. أم هل هذا نضج منه أيضاً.
قضينا أسبوعاً رائعاً. إدوارد يذهب إلى عمله، ونذهب نحن إلى الشاطىء وقد اعتدناه. ثم نلتقى ظهراً نتغدى ونستلقى، لنعود بعد العصر إلى الكورنيش نراقب الغروب، قرص الشمس القانى يغطس فى الماء الأزرق اللامع الساطع.
طلب إدوارد منا أن نقضى أسبوعاً آخر، غير أن سمير كان قد بدأ يعانى قلق اقتراب إعلان النتيجة.
عدنا إلى الغابة، واستقبلتنا الأسرة بالأشواق، وعطش إلى أخبار إدوارد والأسكندرية.

* * * *

نجح سمير. دخلت الفرحة منزلنا هذا العام للمرة الثانية. امتلأت الصحف بأخبار احتمال دفعة كبيرة لكلية البوليس.
قال أبى لسمير:
-إيه رأيك فى كلية البوليس؟
فاجأنا هذا السؤال. فالكليات العسكرية هى آخر ما كنا نفكر فيه. تلك كليات قاصرة على أبناء البيوتات الأرستقراطية، والسلالات العسكرية والوسائط الكبرى.
قلت لأبى:
-سؤال غريب. يعنى فيه فرصه.
أكد أبى:
-فرصه كبيره كمان.
لقد سمع بهذه الدفعة من النائب الوفدى وعين أعيان هذه البلدة. كان مسافراً منذ أسبوع، وقضى معه بعض الوقت فى المحطة لحين وصول القطار.
-الكلام جر بعضه وعرف أن عندى ابن فى التوجيهيه، فقال أن الحكومه ناويه تدخل كليه البوليس دفعه كبيره قوى السنه دى. ولما سألت إذا كان ممكن يكون لابنى نصيب فيها. أكد على طول أنه مستعد يتوسط لنا فى الموضوع ده. مدير كليه البوليس قريبه قوى وعلاقتهم كويسة.

كانت تلك أنباء عظيمة، لكننى فى أعماقى كنت أشعر بالغرابة، كيف أكون ما أنا عليه، ويكون أخى ضابط بوليس!
تنبه والدى إلى أن سمير لم يرد عليه:
-ما قلتليش يا سمير إيه رأيك؟
قال سمير وهو غير مصدق لما يسمع:
-طبعاً يا ريت. مين يقول لأ لفرصه زى دى؟
-يعنيِ موافق؟
-طبعاً موافق.
قال أبى فى ارتياح:
-على بركة الله. النائب بس يرجع وأنا أفاتحه على طول فى الموضوع دا.

* * * *

بدأ العام الدراسى 1950-1951. أنا الآن فى السنة الرابعة قسم عام كيمياء وجيولوجيا. وقد التحق سمير بكلية البوليس. وأصبح يرتدى البدلة الميرى المميزة والشرائط الحمراء على جانبى سرواله. يحمل حقيبته وعصاه، التى أطلقت عليها اسم عصا المارشالية.
سمير يجيئنى كل خميس مع الغروب. يقضى النهار معى ونهار الجمعة، ثم يغادرنى فى المساء. وأنا فرح به، ألح عليه أن يكون يقظاً وألا تصبغه الكلية بطابعها ولونها.
سمير يعلم بكل نشاطاتى. سألنى ذات مرة إن كان عندى أوراق أو منشورات أو أى شيء أود نقله من هنا لأى مكان آخر.
ولما سألته:
-وافرض عندى. قصدك إيه؟
قال فى ثقة أنه على استعداد لحملها لى فى حقيبته حتى المكان الذى أريد. وعلىّ أن أمشى وراءه أو أمامه أو على الرصيف الآخر.
عجبت تماماً لما يريد. وقلت له أننى أخاف عليه، فهو عرضة لخطر كبير كما أن وضعه حساس للغاية. لكنه أجاب على الفور بأننى أعرض نفسى لأخطار أكبر من ذلك بكثير جداً. كما أن وضعه الحساس هو، من ناحية أخرى، ستره وغطاه.
وحمل سمير بالفعل أوراقًا هامة وخطيرة مرة واثنين وثلاثة. لكننى

توقفت بعد ذلك وحمدت الله وشكرته أننا قد أفلتنا بما مضى.

* * * *

المنظمة الشيوعية المصرية (م.ش.م) آخذة فى التآكل والتلاشى.
جاءت جنيفيف سيداروس تطرق باب «طليعة الشيوعيين المصريين».
قُبلت على الفور.
فقد كانت معروفة للجميع منذ كانت فى الجامعة.
لقد تحقق ما قلته لها يوماً، عندما أبلغتنى بقرار فصلى بتهمة التخريب من م.ش.م، غير أننى حزنت لتهاوى م.ش.م فقد كانت تضم مجموعات من خيرة الشيوعيين المصريين.

* * * *

اجتمعت اللجنة المركزية للمنظمة. طرحت عليهم ما سمعته عن الفساد فى الأسكندرية. وقلت أن الرأسماليين يفسدون، وعن عمد، كل من يقترب منهم من موظفى الدولة، بهدف تسخير كل الناس لحسابهم. قال درويش الكثير عن ما يفعله العاملون فى النيابة بالمتقاضين والتلاعب فى الأحكام وألاعيب المحضرين. وأن ذلك يرجع إلى ضعف المرتبات وارتفاع تكاليف الحياة. إن الفقر والظلم الاجتماعى هما ما يجب توجيه النيران إليه.
وأكد عبد الله أن الاستغلال الرأسمالى من الدولة أو أصحاب المصانع هو مصدر الشقاء الإنسانى.
ورأيت أننا يجب أن نهتم بمثل هذه القضايا ودراستها تفصيلاً. إذ أنها تقدم نموذجاً للحل الفردى، والثمن إهانة النفس وإذلالها. يجب أن نستنهض فى الناس الحلول الجماعية بالمواجهة، وتوجيه صفوفهم وتنظيمها حول أهداف يسعون لتحقيقها.
وأتفقنا على تكليف عبد الله ودرويش بكتابة تقرير حول تلك الظواهر، والبحث عن حلول يمكن تحقيقها.
وكانت المشكلة التى علينا مناقشتها مرتبطة بمصنع الشرق للغزل والنسيج بإمبابة. وقد عرض حسن حسنى الموضوع بتفاصيله:
يبلغ عدد العاملين بمصنع الشرق 2000 عاملاً. يعمل كل واحد منهم على ماكينة من أحدث الماكينات. ويعتبر هذا المصنع معقلاً من معاقل الشيوعيين. فقد تمركز فيه عدد كبير من القيادات العمالية التى كانت

تعمل فى شبرا الخيمة وتعرضت للمطاردات البوليسية والفصل.
لدينا فى هذا المصنع عدد جيد من العمال، موزعين على الورديتين، وفى داخل كل وردية فى أقسام المصنع الخمسة، نسيج الحرير، نسيج الصوف، الصباغة والتجهيز، قسم الغزل وقسم الصيانة.
ويوجد القسم الأكبر من القيادات العمالية والشيوعية، من مختلف التنظيمات، فى قسم الحرير، حيث يجرى التنسيق بين الجميع توحيداً للقيادة، بغض النظر عن الانتماء التنظيمى الشيوعى. وقد اتفقوا معاً على تشكيل لجنة مشتركة لتنظيم هذا القسم. وقد شكلت فيما بعد، لجنة أخرى فى قسم الصوف، ثم بقسم الصباغة والتجهيز.
الإدارة تعد لشن هجوم على العمال. وقد اتفق العمال على الرد بلا تردد، تم تفويض لجنة المنطقة باتخاذ الموقف الناسب، فى تنسيق تام مع باقى المنظمات. وأن المنظمة سوف تدعم هذه المعركة بكل ما لديها من إمكانيات.
مرتٍ الأيامٍ وتوالت، وصدق حدس العمال. أدركت إدارة الشركة أن عملاً منظماً يجرى فى قسم الحرير. فقررت أن تضرب وبسرعة.
فقامت بطرد عدد من عمال القسم، وللحال اجتمعت اللجنة المشتركة، وقررت الدخول فوراً فيٍ معركة سريعة: إضراب الوردية النهارية التى تعمل من السابعة صباحاً حتى الثالثة، والاعتصام داخل القسم، على أن تظل الوردية الثانية خارج المصنع، وتتحرك فى مظاهرة إلى النقابات العمالية.
بدأ الإضراب فى نهاية الأسبوع. تجمعت الوردية الثانية أمام الشركة لإعلان وتأكيد تضامنها مع الوردية المضربة، ثم عبرت إمبابة ومدينة العمال إلى التراموای والعمال يهتفون «بنضال الشعب المصرى» و»الطبقة العاملة» و»عمال النسيج»، حتى وصلوا إلى «قنطرة الدكة» حيث النقابة العامة للنسيج. وقد انضم إليهم عمال ورش الأحذية، تضامنا معهم وتشكلت وفود تتجه فى اليوم التالى إلى مختلف النقابات.
توجهت وردية الخارج فى اليوم الثالث إلى وزارة الشئون الاجتماعية تتقدمها الزوجات والأمهات. أمر الوزير الوفدى عبد الفتاح حسن، وكيل الوزارة بالتوجه فوراً إلى مقر الشركة وإعادة كل العمال المفصولين.

كانت قوات الجيش تحاصر المصنع، فهتف العمال للجنود، «لأبناء العمال والفلاحين»، و»كفاح الطبقة العاملة» و»سقوط أعداء العمال أذناب الاستعمار».

فُتحت أبواب الشركة والتقت الورديتان فى أحضان دافئة. وأعيد كل العمال المفصولين إلى العمل وانتهى الإضراب.

اجتمعت لجنة منطقة إمبابة لطليعة الشيوعيين المصريين. وطرحت كل ما حدث للتقييم. أكدت أن العنصر الأساسى للنجاح هو وحدة القيادة التنظيمية للعمال ووحدة الهدف. كما أكدت على الأهمية الكبرى لربط المطالب الاقتصادية بالمطالب السياسية، والعمل على تشكيل لجان مشتركة فى كل الأقسام الخمسة بالمصنع.

* * * *

نجحت للمرة الثانية بالتزكية فى الاتحاد العلمى عن طلبة السنة الرابعة قسم الجيولوجيا. فزت بمدالية فى لعبة الشيش «السلاح» فى المباريات التى جرت على نطاق القاهرة بنادى السلاح، بحديقة الأزبكية.

* * * *

أعلن طه حسين وزير المعارف العمومية بوزارة الوفد قراراً بمجانية التعليم الابتدائى والثانوى، ذلك حدث هام للغاية وانتصار هائل للنضالات السابقة، وإن كنا نطالب بمجانية التعليم فى كل المراحل.

* * * *

انتهى العام الدراسي، مايو 1951. نجحت بتقدير جيد.

سعادتى فائقة. أخيراً انهيت تلك المرحلة الجميلة الصعبة. أنا أحلم الآن بعملى كجيولوجى يقتحم الجبال ويخترق الصحارى والتلال.

غير أن صدمة هائلة كانت فى الانتظار.

لقد أغلقت الحكومة التعين فى كل المجالات ما عدا وزارة المعارف العمومية حتى توفر لها ميزانية لتنفيذ مجانية التعليم.

ذهبت إلى كفر الشيخ، حيث نُقل والدى خلال العام الماضى إلى بنها ثم إليها، ناظراً للمحطة.

فرحت الأسرة بنجاحى فرحاً شديداً. أحسست أن عبئاً ثقيلاً قد أزيح عن كاهل والدى. عدت إلى القاهرة ومعى بطاقة أحضرها لى والدى من نائب البلدة، لكنها لم تجد معى نفعاً.

أعيش فى القاهرة فى صراعٍ ضار داخل وزارة المعارف العمومية التى لا تعترف، أو لا تعرف، شيئاً اسمه الجيولوجيا، شيئاً لا قيمة له ولا جدوى.

أخيراً وبنضال شرس اقتنصت درجة سادسة فى وزارة المعارف العمومية ومنتدباً منها إلى التعليم الحر، فى مدرسة حرة ابتدائية بكفر الزيات تدعى مدرسة جريس الابتدائية.

ذهبت إلى المدرسة لاتسلم عملى. وجدتها أبنية صدئة، يحيطها سور خشبى متهالك متداعى. وأمامها ترعة راكدة عطنة.

وأدركت أننى أحتل الآن موقعاً مؤكداً فى أبعد جزء من القاع.

* * * *

الفصل السادس عشر

1951-1952

أُعلن على لسان رئيس الوفد البريطاني، الفيلد مارشال سليم «أن الجلاء أمر مستحيل. وسيكون من العسير جداً أن أوصى حكومتى بقبول الجلاء التام. فإذا انسحبت القوات من مصر، سيكون لذلك أثر وخيم على الحرب الباردة ضد روسيا. ولست أدرى كيف يستطاع الدفاع عن مصر بغير القوات البريطانية».

* * * *

(1) صيف 1951: استقال د.أحمد حسين من حكومة الوفد، وشكل ما أسماه «جمعية الفلاح»، والتى أسمتها الصحافة اليسارية «جمعية الفلاح الأمريكانى». إنه الشخصية التى يعدها التيار الأمريكى للقيام ببعض الإصلاحات الاجتماعية ذات البريق. وقد حيا إحسان عبد القدوس هذه الرؤية.

* * * *

أضرب عدد من الصحفيين عن الطعام مطالبين بإلغاء معاهدة 1936.

* * * *

(2) 7 أكتوبر 1951: كتبت جريدة الملايين (جريدة حدتو) أن المتأمركين يتحدثون عن الفساد والرشوة واستغلال النفوذ. وأن هنالك دعوة لحزب جديد بخطة تقوم على:-

1-محاربة الفساد.
2-التوسع فى الإصلاح الاجتماعية.
3-الانحياز للمعسكر الغربى وتكوين حلف البحر المتوسط مع دول الشرق الأوسط.
4-حركة تطهير واسعة ضد الفساد.

* * * *

8 أكتوبر 1951: ألغت حكومة الوفد معاهدة 1936. وأعلن النحاس «من أجل مصر وقعت معاهدة 1936، ومن أجل مصر أطالب اليوم بإلغائها». وأعلن الوفد أن وجود الإنجليز فى البلاد بعد إلغاء المعاهدة أصبح أمراً غير مشروع.

اشتعل الغضب الشعبى.

قامت اللجنة الوطنية العليا للطلبة، ولجانها الفرعية بمهمة تدريب المواطنين على حمل السلاح والتوجه للنضال فى القنال.

* * * *

بدأ خلاف ينشب بين الزميل حسن حسنى واللجنة المركزية لطليعة الشيوعيين المصريين. ارتفعت شكاوى من زملاء منطقة إمبابة، بأنه لا يعطى المنطقة حقها من الاهتمام والمتابعة، مما ترتب عليه تراكم المشاكل وانفضاض بعض الزملاء. أجرى تحقيق فى هذا الموضوع، فتلك وقائع خطيرة فى منطقة عمالية هامة للغاية بالنسبة لنا، فبرر حسن حسنى ما حدث بظروف شخصية فرضت نفسها عليه وأثرت على عمله. وتعهد بالتركيز حتى تستعيد المنطقة وضعها. غير أن ما وعد به لم يستطيع الوفاء به. بل تفاقمت الأوضاع وانتقلت إلى اللجنة المركزية ذاتها. لم يعد يشارك فى اجتماعاتها، ولم يعد يبدى اهتماماً بما تفعل. جرى التحقيق معه مرة أخرى وجرى اتخاذ قرار تخفيضه من اللجنة المركزية للمنظمة وتصعيد الزميل عمر مكاوى بديلاً عنه.

* * * *

5 نوفمبر 1951: شكلت لجنة تحضيرية للجان الوطنية أصدرت فى 5/11 مشروع برنامج. وكان فى سكرتاريتها يوسف المدرك وادوارد الضبع وفريد رمزى وسيد ندا.

وتشكلت فى ذات الوقت اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى لعمال النسيج وملحقاته. ووقع بيانها: محمد على عامر، وأحمد خضر، وسيد ندا، ومحمد عبد الجواد، وعمال آخرون من كل التنظيمات. وقد انتهى ذلك المؤتمر إلى: رفض حلف البحر المتوسط، وإلغاء البوليس السياسى، وإلغاء قانون حمل السلاح، وتكوين اللجان الوطنية.

وانتشرت اللجان الوطنية حتى غدت فى كل مكان. وفُتح باب التطوع لمعارك الفدائيين والمقاومة الشعبية والكفاح المسلح وبدأت عمليات فدائية.

* * * *

رفض الوفد حلف الشرق الأوسط الرباعى الاستعمارى.

* * * *

كون الشيوعيون مجموعة «الأنصار» للقتال فى القنال.

* * * *

انسحب العمال الذين يعملون مع القوات البريطانية (عمال الأورنس)، من العمل معهم. كما انسحب المقاولون الذين يمدونهم باحتياجاتهم. وقد وفرت الحكومة العمل للبعض، غير أن البطالة زادت وانتشرت.

* * * *

تساقط الشهداء أحمد المنيسى وعمر شاهين من الإخوان الشبان الذين شاركوا فى الأعمال الفدائية، والأعسر من الشيوعيين.

* * * *

نوفمبر 1951: زار الصحفى الأمريكى المعروف ستيوارت السوب مصر، وكتب إلى صحيفته «شيكاغو صن» يصف الوضع فى مصر، «مصر لا تحتاج إلى ديمقراطية، بل تحتاج إلى ديكتاتورية، تحتاج إلى رجل فرد، إلى رجل ككمال أتاتورك، ليقوم بالإصلاحات الضرورية اللازمة للبلاد. لكن مشكلة مصر هى كيفية العثور على الديكتاتور، فليس بين رجالها من لديه المؤهلات اللازمة للديكتاتور».

* * * *

25 ديسمبر 1951: عُين حافظ عفيفى رئيساً للديوان الملكى. وكان للأمريكيين دور فى هذا التعيين، إذ كان يدعو إلى حلف ثلاثى بين مصر وبريطانيا وأمريكا. وأن يضم هذا الحلف دول الشرق العربى. وأن هذا هو خير ما يطمح إليه ويتمناه.
وقد سارت المظاهرات تهتف بسقوط عفيفى، و»حافظ» عفيفى (الملك)، وسقوط الملكية وحياة الجمهورية.

* * * *

26 ديسمبر 1951: تقول جريدة التايمز، «إن أعصاب الجنود البريطانيين قد أصبحت شديدة التوتر. وأنهم يتساءلون عن جدوى الاحتفاظ بقاعدة عسكرية فقدت كل قيمة عسكرية لها نتيجة الشعور الوطنى المعادى».

* * * *

أضرب عمال مصنع الشوربجى بإمبابة. فخطف الحفراء مندوب العمال، أحمد نصار، وقُتل وقُطع وأُلقى فى به فى الترعة.
أضرب عمال مصنع الشرق بإمبابة، من أجل:

-حق العمال فى حصة من أرباح الشركة فى نهاية السنة المالية.
-حق العمال فى وجبة غداء بسعر رمزى.
-حق العمال فى شراء منتجات الشركة من الحرير والصوف بسعر التكلفة.
-نقل العاملين فى سيارات خاصة.
خاضت المعركة أقسام الحرير والصوف والتجهيز.
ذهب العمال فى مظاهرة إلى وزارة الشئون الاجتماعية وهم يهتفون، «عاش كفاح الطبقة العاملة»، «عاش كفاح عمال النسيج»، «أعداء العمال إذناب الاستعمار».
نزلت قوات تابعة للقوات المسلحة إلى منطقة إمبابة. هتفت المظاهرة المؤيدة للإضراب للجنود، وهم يصوبون البنادق إليهم، «عاش الجندى ابن العامل»، «عاش الجندى ابن الفلاح! «نكس الجنود بنادقهم»، ونزلت السناكى إلى الأرض رغم صراخ الضباط.
تم تحقيق المطالب الثلاثة الأولى.

* * * *

3 يناير 1952: انتخابات نادى الضباط. ونجاح قائمة الضباط الأحرار، ومحمد نجيب رئيسًا للنادى.

* * * *

أحل الشيخ إبراهيم حمروش دماء الجنود البريطانيين.

* * * *

12 يناير 1952: كتبت النيوز كرونيكل، بعد أن نسف الفدائيون قطاراً كاملاً محملاً بالجنود والأسلحة والذخيرة. علق الضباط الإنجليز على هذه المعركة أنها أعنف معركة خاضوها أيام الانتداب البريطانى.
وكتبت نيوستيتسمان، «يبدو واضحاً أن حرب العصابات قد أصبحت مسألة مقررة عند الفدائيين فى مصر.... إن مستقبل المصالح البريطانية قد أصبح الآن مظلماً.

* * * *

25 يناير 1952: حاصرت القوات البريطانية فرق الأمن التابعة لوزارة الداخلية المصرية فى مقرهم بالإسماعيلية. وقاوم الجنود ببسالة فائقة، غير أن القوات البريطانية ارتكبت جريمة شنعاء، مجزرة سوداء.

* * * *

دعت القوى الوطنية، ومعها حكومة الوفد، إلى مظاهرة صامتة يطلق عليها يوم الحداد على شهداء الإسماعيلية، وأن تكتب لافتات تندد بجرائم الاستعمار فى مدن القناة.

اتفق عمال النسيج بإمبابة وشبرا الخيمة والزيتون على تحويل المظاهرة من صامتة إلى صاخبة. انطلقت المظاهرة تهتف بحياة الشعب المصرى والطبقة العاملة.

* * * *

26 يناير 1952: خرج جنود بلوكات النظام من ثكنات العباسية بأسلحتهم فى السادسة صباحاً، فى مظاهرة صاخبة احتجاجاً على ما أصاب زملاءهم. واتجهوا إلى جامعة فؤاد الأول بالجيزة حيث اختلطوا بالطلبة المتظاهرين، الذين نادوا بحمل السلاح والسفر لمحاربة الإنجليز. والهتاف أمام قصر عابدين بسقوط الملك، وأمام مبنى رئاسة الوزراء بالمقاطعة الكاملة للإنجليز، وإرسال القوات المسلحة إلى القناة، وإبرام معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتى.

* * * *

26 يناير 1952: حريق القاهرة. الغليان يجتاح مصر. المد الوطنى عال عارمٍ، ومعارك الفدائيين تستنهض الهمم، والإرادة الشعبية تزداد صلابة يوماً بعد يوم، وزمن الإنجليز والسراى والقوى الرجعية يوشك أن ينقضى.

وامتدت أياد إجرامية تحرق القاهرة.

مؤامرة كبرى.

وزارة الوفد تعلن حالة الطوارىء.

الملك يقيل حكومة الوفد، ويكلف على ماهر باشا بالتشكيل الفورى للوزارة الجديدة. على ماهر يشن حملة اعتقالات على الفدائيين فى الإسماعيلية وبور سعيد والسويس والتل الكبير. وعلى القيادات العمالية وقيادات القوى الوطنية والتقدمية.

فيترك الكثيرون من العمال الذين أنسحبوا من العمل مع المعسكرات البريطانية بلا عمل فيعودون إليها مرة أخرى، كما تستأنف أعمال الشحن والتفريغ للقوات البريطانية من موانىء القناة، كذا إعادة تموين

المعسكرات البريطانية.
ويكتب إحسان عبد القدوس يقول أنه لا مانع من التضحية بالديمقراطية من أجل الإصلاح. «مصر فى حاجة إلى ديكتاتور. فهل هو على ماهر».
ويقترح د.أحمد حسين رئيس «جمعية الفلاح» على «على ماهر» وقد أصبح رئيساً للوزراء أن يطلب من الملك، مكافحة للشيوعية، وتصفية للسخط الشعبى التنازل عن أملاكه أو عن نصفها للشعب مثلما فعل شاه إيران. كما طالب الدولة بالتدخل لوضع حد أدنى لأجور العمال.
لقد جاء على ماهر لضرب الحركة الوطنية والعمالية.

* * * *

ويصدر اتحاد الصناعات قراراً بإغلاق قسم الحرير بمصنع الشرق بحجة أنه خطر على الشركة والاتحاد.

* * * *

أسرعت من كفر الزيات إلى القاهرة.
وسط البلد تحول إلى أطلال سوداء. النيران ما زلت مشتعلة فى بعض الأماكن، والدخان الكثيف سحابة حزن تخيم على القاهرة.
اجتمعنا. نحن أمام مرحلة جديدة. هجمة مضادة شرسة من القوى المعادية. لم يقبض على أحد من زملائنا، لكن الحذر واجب للغاية، مع مواصلة كل الأعمال النضالية بصورة مضاعفة ارتباطاً بالحركة الجماهيرية. توضيح رؤيتنا فى مجلتى الطليعة والصراع والمنشورات، والتناول الشفوى فى أى مكان نعمل فيه.

* * * *

التقيت بأخى سمير. هو الآن بالسنة الثانية. كان منفعلاً للغاية بكل ما يدور حولنا.
جاءتهم فى الكلية أنباء أنه لا يوجد لدى فرق الأمن بالإسماعيلية ما يكفى من السلاح والذخيرة، لمواجهة القوات الإنجليزية. بدأ صف الضباط من طلبة السنة النهائية والمشرفين عل طلبة الكلية من الأولى إلى الثالثة يتباحثون سراً فيما يجب عليهم فعله، أو ماذا يمكنهم تقديمه لزملائهم فى الإسماعيلية. وتوصلوا إلى ضرورة القيام بعمل ما. واتفقوا إلى أن يكون ذلك العمل هو الخروج من الكلية بالسلاح دون ذخيرة. السلاح الخاص

بكل مجموعة موجود فى عنبر النوم الخاص بها فى الكلية.
كان عدد دفعة سمير وهى السنة الثانية (توجيهية 1950) 420 طالباً. وطلبة السنة الأولى (توجيهية 1951) 420 طالباً وطلبة السنة الثالثة (توجيهية 1949) حوالى 90 طالباً، وطلبة السنة الرابعة (توجيهية 1948) حوالى 70 طالباً. كان مجموعهم حوالى الألف طالب. أن خروج هذا العدد بأسلحته لابد وأن يفعل شيئاً، ولابد أن يكون لهذا الفعل صدى.
لقد سمعوا بحريق القاهرة، فصعدوا إلى سطح المبنى الذى يقيمون فيه، وهو أعلى مبنى فى الكلية، فرأوا اللهب والشرر يملؤ سماء القاهرة الحمراء، وقد غمرها ضوء النيران.
عندما ضربت نوبة النوم فى التاسعة من مساء 26 يناير، ظلوا بملابسهم البيادة التى يستخدمونها داخل الكلية. وارتدوا الأحذية البيضاء «الكاوتش»، واستلقوا على السرر ووضعوا الأغطية على أجسادهم حتى لا ينفضح أمرهم أمام الضابط النوبطشى، كثير المرور ليلاً.
فى الساعة الواحدة من صباح 27 يناير، وهى الساعة المحددة لبدء تنفيذ عمليتهم، بدأوا التسلل عبر الأماكن المظلمة حتى لا يراهم أحد من الضباط أو العساكر الحراس ليتجمعوا عند البوابة، ويقتحمونها خروجاً من الكلية.
تنبه الأميرالاى قائد الكلية لما يجرى، فأخذ يصيح فيهم:
-يا تلامذة، انتو رايحين فين. احنا هنحاكمكو عسكرياً.
ولم يبالى به أحد. كان الطلبة فى قمة الانفعال بما يفعلون، وهو حدث غير مسبوق فى الكلية، والإنفعال بالجريمة البشعة التى حدثت فى الإسماعيلية، وضرورة أن يفعلوا شيئاً من أجل زملائهم الضباط والجنود.
انطلقوا فى خطوة عسكرية بطيئة، يحملون بنادقهم الـ «لى انفيلد»، عبر الشارع المواجة للكلية، ثم يساراً إلى حى «الظاهر» عبر الشارع الرئيسى الذى يسير فيه تراموای 22، ومن هناك إلى شارع فاروق، إلى العتبة، فحديقة الأزبكية أمام نادى السلاح.
ورغم حالة الطوارىء، لم يقابلهم أحد من العباسية حتى الأزبكية. وهناك

أمام فندق كونتننتال رأوا جنود الجيش يحرسون الأماكن المحترقة، ويمنعون أى أحد من الاقتراب منها.
عندما وصلوا إلى نادى السلاح، تقدم أقدم طالب صف ضابط فى الكلية (من السنة الرابعة) يسأل عن ضباط الداخلية بنادي السلاح، حيث كان هنالك ضباط من الجيش أيضاً. وقابل بالفعل مندوباً عن الوزراة، أبلغه أنه مستعدون بسلاحهم للتوجه فوراً إلى الإسماعيلية لمساعدة المجموعة المحاصرة هناك. واتصل مندوب وزارة الداخلية بوزير الداخلية وأبلغه بالأمر. فأخبره الوزير بشكره للطلبة على هذه الروح العالية، وأن الوزارة مسيطرة على الموقف، وأنها قد أتخذت ما يلزم من إجراءات، وعليهم العودة مشكورين إلى كليتهم.
كان الوقت حوالى الخامس صباحاً. تفرقوا زاحفين إلى المطاعم التى فتحت فى ذلك الوقت فى العتبة، وأفطروا. وعندما بدأ الترام سيره، ركبوا ذلك الذاهب إلى العباسية وعادوا إلى الكلية.
قبض على الطلبة الذين تزعموا العملية، وحوكموا، وأدخلوا زنازين المحكوم عليهم لتحريضهم الطلبة واقتحام الكلية إلى الخارج. غير أن وزير الداخلية أمر بالإفراج عنهم بعد أيام قليلة.

* * * *

1 مارس 1952: استقات وزارة على ماهر بعد أن فشل فى إقامة ديكتاتورية مستتيرة.

* * * *

دعت أمريكا إلى سياسة «التطهير قبل التحرير»، بغرض تنفيذ برنامج إصلاحى، يصفى الوضع الثورى. وكانت الشخصية المعدة لذلك هى نجيب باشا الهلالى.

* * * *

1 مارس 1952: شكل نجيب باشا الهلالى الوزارة الجديدة. رفع شعار محاربة الفساد لاستخدامه ضد الوفد لحساب الملك. وكذا استهدف تصفية الحركة الشعبية لحساب الإنجليز والقوى الرجعية.
حاول الهلالى تشكيل حزب له. وكتب أحمد بهاء الدين، «تتفرد مصر دون سائر بلاد الأرض الديمقراطية، بطريقة فذة فى تكوين الأحزاب. فالطريقة المتبعة فى العالم أجمع أن يخرج زعيم من صفوف الشعب،

ينشىء حزبه، ويجمع حول دعوته الجماهير، ويظل يكافح على رأس حزبه حتى يصل إلى الحكم. أما فى مصر فالزعيم يصل أولاً إلى الحكم، ثم ينشىء لنفسه حزباً بعد ذلك».

* * * *

24 مارس 1952: حل الملك البرلمان الوفدى، ودعا إلى انتخابات جديدة فى 15 مايو 1952، مع وعد بإلغاء الأحكام العرفية قبل الانتخابات. غير أن الحكومة عادت، ومدت موعد الانتخابات إلى أجل غير مسمى.

* * * *

الإخوان المسلمون يؤيدون على ماهر ثم نجيب الهلالى. ويرفعون شعار «الجامعة الإسلامية» وضرورتها تحت شعار «ربانية لا وطنية».
الإيمان بالله أبقى وأغنى من الإيمان بالأرض». واتهموا كل من يرفض فكرة الجامعة الإسلامية بالكيد للإسلام. وصرح المرشد العام بأنه لا يرفض مبدأ الأحلاف الدفاعية الإقليمية.
18 يونيو 1952: شنت «الدعوة» حملة ضد منح المرأة حق الانتخاب.

* * * *

منع نجيب باشا الهلالى الصحافة من الإساءة للإنجليز. كما منع الإشارة إلى أىّ من قضايا الشعوب ضد الاستعمار. عطل الدستور، ووسع الاعتقالات. وكانت الجماعة الوحيدة المسموح لها بالنشاط فى هذه الفترة هى جماعة الإخوان المسلمين.
28 يونيو 1952: استقال نجيب باشا الهلالى بعد أن فشل فيما أسماه بالتطهير، فقد كانت السراية والاستعمار هما أخطر أوكار الفساد.

* * * *

ظلت الدولة بلا وزارة أربعة أيام.

* * * *

2 يوليو 1952: كُلف حسين سرى باشا بتشكيل الوزارة. كانت وزارة أصحاب المال. حاول حسين سرى تهدئة الأمور مع الجيش فطالب بطرد اللواء حسين سرى عامر وتعيين اللواء محمد نجيب وزيراً للحربية. ورفض الملك الطلب.

* * * *

16 يوليو 1952: حُل مجلس إدارة نادى الضباط وعلى رأسه اللواء محمد نجيب.

* * * *

20 يوليو 1952: استقالت وزارة سرى باشا بسبب رفض الملك طلبها. وقبلت الاستقالة فى 22 يوليو 1955.

* * * *

22 يوليو 1952: تولى نجيب باشا الهلالى الوزارة للمرة الثانية. وحلف الوزراء اليمين فى ذات اليوم.

* * * *

23 يوليو 1952: اليوم الأربعاء أنا فى منزل عمر مكاوى. وبينما نستمع إلى الراديو ونتنقل من محطة إلى أخرى، فاجأتنا نداءات عسكرية تنطلق من الراديو. ركزنا عليها لنكتشف أن هنالك أوامر وتعليمات متبادلة بين قوى مصرية. نزلنا إلى الشارع. كان الناس يهرعون فى اتجاه قصر عابدين فأسرعنا مع المسرعين. كانت الدبابات تحاصر قصر عابدين. ولم يكن أحد من الناس يعرف ما الحكاية. هرع البعض فجأة ناحية أحد المقاهى، حيث كان هنالك زحام شديد، وبيان يتلى باسم حركة الجيش.

كان ذلك يعنى أن انقلاباً عسكرياً قد حدث. وقد استولى العسكر على محطة الإذاعة.

وقد جاء فى البيان، «أنى أؤكد للشعب المصرى، أن الجيش المصرى كله، أصبح يعمل لصالح الوطن، فى ظل الدستور، مجرداً من كل غاية».

* * * *

23 يوليو 1952: استقال نجيب باشا الهلالى.

* * * *

24 يوليو 1952: صحف الخميس تقول بعناوين كبيرة، «محمد نجيب يقوم بحركة عسكرية».

*علي ما هر باشا يشكل الوزارة الجديدة بتكليف من الملك، ويصبح حاكماً عسكرياً.

*صدر أمر بمنع المظاهرات على إطلاقها بحجة أن خصوم الحركة قد

يندسون بين المتظاهرين.
*أذاع القائد العام اللواء محمد نجيب بياناً قال فيه: «أننا ننشد الإصلاح والتطهير فى الجيش، وجميع مرافق البلاد، ورفع لواء الدستور.. إن كل شىء يسير على ما يرام. وقد أعددنا لكل شىء عدته، فاطمئنوا إلى نجاح حركتنا المباركة، وسيروا خلفنا إلى الأمام».

* * * *

26 يوليو 1952: وجه إنذار إلى الملك فاروق باسم ضباط الجيش ورجاله، كى يتنازل عن العرش للطفل أحمد فؤاد ولى عهده. وقد جاء فى أسباب خلع الملك: أنه نظراً لما لاقته البلاد فى العهد الأخير من فوضى شاملة، ونظراً للعبث بالدستور وامتهان إرادة الشعب. لذا أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش لسمو ولى عهدكم.
فريق أركان حرب
محمد نجيب
ووقع الملك على التنازل، وغادر قبل السادسة مساء من ذات اليوم.
وكان فى وداعه جيفرسون كافرى السفير الأمريكى.
وعلى أثر إذاعة بيان التنازل عن العرش، خرج ضباط الجيش فى سيارات مزودة بمكبرات الصوت يطوفون بشوارع الإسكندرية والقاهرة، مطالبين المواطنين بالتزام الهدوء والسكينة.
*أعلنت وزارة الخارجية الأمريكية أن السفير جيفرسون كافرى قد أبلغ الحكومة المصرية أن الولايات المتحدة تعتبر الأحداث التى وقعت فى مصر مسألة داخلية.
*السعديون والدستوريون والمستقلون والكتلة الوفدية يقابلون القائد العام محمد نجيب ويهنئونه بنجاح الحركة.

* * * *

27 يوليو 1952: حزب الوفد والحزب الوطنى يهنئان أيضاً.

* * * *

عقدنا اجتماعاً للجنة المركزية لطليعة الشيوعيين المصريين تناولنا حركة الجيش باعتبارها انقلاباً عسكرياً، هو التجسيد الجديد للصراع بين قوى الاستعمار على المنطقة. إذ بدلاً من شن تلك القوى الحرب على بعضها البعض، فإنها تعتمد على قوى داخلية، وأساساً قوى عسكرية

لتدبر انقلاباً يحقق لها مصالحها. هذا ما يجرى فى بلدان أمريكا الوسطى والجنوبية. وهو أيضاً ما يجرى فى سوريا. انقلاب حسنى الزعيم لحساب أمريكا. ردت عليه انجلترا بانقلاب سامى الحناوى، ثم جاء انقلاب العقيد أديب الشيشيكلى. إنها انقلابات من أعلى داخل السلطة ذاتها، يقوم بها أقوى أجهزتها ألا وهو الجيش. ومصر تعانى منذ حريق القاهرة، حالة من الاضطراب وعدم الاستقرار. والأمريكيون يبذلون محاولات لا حد لها للنفاذ إلى مصر، والحلول محل الإنجليز. وها هو إنقلاب آخر فى مصر يتخفى العسكريون وراءه وعلى رأسهم لواء فى الجيش. ويجىء على باشا ما هر رئيساً للوزراء، وهو رجل السراى، والرجل الذى جاء بعد حريق القاهرة ليضرب الفدائيين، والقوة الوطنية والتقدمية إرضاء للإنجليز. وهنالك أيضاً أنور السادات الذى أذاع بيان الحركة، وله تاريخه الإرهابى ضد الوفد وارتباطه بجماعات الجاسوسية الألمانية وعلاقته بالحرس الحديدى. وها هو السفير الأمريكى يملؤ مقدمة الصورة على المسرح فى حرية هنا وهناك، إن جيفرسون كافرى من أشهر مدبرى الانقلابات، فى وزارة الخارجية الأمريكية، فى أمريكا الوسطى والجنوبية. وهو قد جاء إلى مصر فى مهمة مثيله. تنفيذ انقلاب لحساب أمريكا، على حساب إنجلترا.

وقد بدأ الإنقلاب بمنع المظاهرات، وتكبيل الحركة الوطنية المتصاعدة جماهيرياً ضد الاحتلال البريطانى والاستعمار الأمريكى والسراى والقوى الرجعية.

إنهم يتحدثون عن الدستور، فى الوقت الذى يدوسون فيه الدستور. حالة الطوارىء كما هى بل تفاقمت أكثر وأكثر. أزيح الملك، والملكية باقية. الإخوان المسلمون يقفون مع الانقلاب مثلما وقفوا مع على ماهر ونجيب الهلالى. بعد حريق القاهرة.

إن خندق الأعداء يحكم الآن، يدعمه الجيش بديكتاتورية عسكرية. علينا رفع شعار سقوط الإنقلاب العسكرى، وحكم الديكتاتورية العسكرية.

علينا اتخاذ أعلى درجات الأمان.

* * * *

أصدرت حدتو، منذ اللحظة الأولى للإنقلاب بياناً تؤيده مما يثير الشك فيه ويؤكد الشك فيها.

* * * *

30 يوليو 1952: نشرت مجلة نيو تايمز السوفيتية مقالاً بقلم زفياجين، فى عددها الصادر بهذا التاريخ يقول، إن الاستعمار الأنجلو أمريكى يلجأ الآن إلى مناورات تؤدى إلى مؤامرات وانقلابات عسكرية لتنفذ مشاريعه فى الشرق الأوسط. وأن ما وقع فى مصر يؤيد هذا الاتجاه، إذ نشرت جريدة «النيويورك تايمز» أبناء تدل على وقوع الانقلاب فى مصر قبل أن تُنشر هذه الأبناء فى الجرائد العربية.

* * * *

أدانت الحركة الشيوعية العالمية حركة الجيش، واتهمتها بأنها صنيعة لأمريكا. وأنها مجرد تعبير عن الصراع الخفى بين الاستعمار البريطامى والأمريكى.

وأدانت أيضاً حدتو لأنها تؤيد حركة الجيش.

* * * *

31 يوليو 1952: صدر بيان يدعو الأحزاب والهيئات إلى تطهير نفسها، كما فعل الجيش. وأن يكون للأحزاب برامج محددة.

هاجم على ماهر باشا النظام البرلمانى، ووصفه بأنه لم يستطع خدمة البلاد. وهاجم الأحزاب باعتبارها ركيزة للتدخل الأجنبى. وأعلن أنه إما تنظيم وازدهار، وإما زوال وانهيار.

أذعت القيادة بياناً بإجراء الانتخابات فى فبراير 1953 لإعطاء الأحزاب فرصة للتطهير الكامل. أعلن القائد العام. «اننا ننصح ثم نحذر ثم ننذر». وقال متحدث باسم قيادة الثورة، «إن النتيجة الحتمية لعدم التطهير هو حل الأحزاب».

* * * *

12 أغسطس 1952: تحركات عمالية فى شركة مصر للغزل والنسيج الرفيع بكفر الدوار.

13 أغسطس 1952: بدأ إضراب عام فى المساء.

14 أغسطس 1952: مظاهرة سلمية فى الصباح، تطالب بمقابلة محمد نجيب، وتعلن تأييدها للثورة، وتهتف بحياة العمال وسقوط مدير المصنع. «عاش محمد نجيب»، «يحيا القائد العام» «مطالب العمال عادلة». وتصل المظاهرة إلى أسوار الشركة، وعلى رأسها مصطفى

خميس.
كان عدد العمل يتراوح من عشرة إلى اثنى عشرة ألفاً. وكانت المطالب:
*زيادة الأجور.
*منح العلاوات.
*بدل سكن لمن لا سكن لهم.
*إجراء انتخابات للنقابة ونقل مقرها خارج الشركة.
*فصل مدير الشركة والسكرتير العام ومدير مكتب العمل، وتطهير الشركة من الخونة المأجورين (أعوان الملك) أسوة بما تم فى شركة الحرير الصناعى (أعوان الملك هم: حسين سرى وحافظ عفيفى والياس أندراوس).
عندما دخل العمال المصنع، أطلق الجيش النيران عليهم، وقُبض على مصطفى خميس وكان مصابًا برصاصة فى ذراعة.
بعد دقائق من إنطلاق رصاصات الجيش، انطلقت رصاصات من البر الغربى لترعة المحمودية، أودت بحياة اثنين من الجنود.
وتشكلت فى سرعة محكمة عسكرية عليا، برئاسة عبد المنعم أمين رجل أمريكا فى مجلس قيادة الثورة، كما حدث فى دنشواى. ووجهت إليهم تهم التخريب والتدمير وإحداث الاضطرابات والفتن فى البلاد، وأن وراءهم من يحرضهم ضد الثورة. كما اتهم خميس بقتل الجنديين.
18 أغسطس 1952: صدر الحكم ضد مصطفى خميس ومحمد حسن البقرى بالإعدام ووضعا فى سجن الحضرة.

* * * *

اجتمعنا لنناقش تلك الكارثة. لقد واجه الجيش العمال بالدبابات. ووقفت حدتو إلى جانب الجيش، وقد ربطت بين الإضراب وبين حافظ عفيفى عضو مجلس الإدارة المنتدب من شركة كفر الدوار. إن مجلس قيادة الثورة يرى فى أحداث كفر الدوار حركة مضادة للثورة. وقد وافقت أغلبية المجلس على الحكم. وكان محمد نجيب هو الأكثر حماساً. إن غالبية مجلس قيادة الثورة المعادية للشيوعية، لابد وأن تكون معادية للعمال، تتربص بهم لتضرب ضربتها. إن كل ذلك يؤكد تحليلنا للوضع الراهن وللديكتاتورية العسكرية.
وقد شن الإخوان المسلمون حملة عاتية ضد عمال كفر الدوار واتهموهم

بالخيانة.

* * * *

7 سبتمبر 1952: نُفذ الحكم الإجرامى فى مصطفى خميسٍ ومحمد حسن البقرى. وكان عمر مصطفى خميس تسعة عشر عاماً. وقد أعلن خميس أنه برىء. وأنه يطالب بإعادة محاكمته وأن محاميه لم يستدع الشهود اللازمين.

ونعلن نحن أنه لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث يعدم عمال مصريين لمطالبتهم بحقوقهم. وأثارت تلك الحادثة تذمراً واحتجاجاً واسع المدى فى أنحاء العالم المختلفة.

* * * *

7 سبتمبر 1952: محاولة إعلان أول اتحاد للعمال فى مصر. وقد اقترح سيد قطب أحد قادة الإخوان المسلمين، وكان مستشاراً لعبد المنعم أمين (سفاح خميس والبقرى وصلة الوصل بالسفارة الأمريكية) والذى يشرف على وزارة الشئون الاجتماعية، اقترح عليهم منع قيام اتحاد العمال.

* * * *

7 سبتمبر 1952: استقال على باشا ماهر، وشكل اللواء محمد نجيب الوزارة برئاسته. وكان أحمد حسن الباقورى أحد قادة الإخوان المسلمين وزيراً بها.

أصدر مجلس قيادة الثورة بياناً ضد على ماهر، انتقده فيه لعدم وضوح موقفه من إجراء الانتخابات فى فبراير، ومن قضية الإصلاح الزراعى، وفرض ضرائب جديدة ورفع أسعار السلع.

* * * *

9 سبتمبر 1952: صدر قانون الإصلاح الزراعى بحد أقصى للملكية مائتى فدان للفرد الواحد، يضاف إليها مائة أخرى لأسرته.

كانت فكرة الإصلاح الزراعى، كما جاءت فى قانون الإصلاح الزراعى، مطروحة قبل الثورة، وبحد أقصى خمسين فداناً. وقد طرحها أساساً التيار المتأمرك كإجراء اجتماعى يمتص الغضب والفقر.

ويضرب الحركة الثورية والشيوعية.

وقد جاء فى العدد 23 بتاريخ 19/10/1952، بمجلة «الصراع» التى

تصدرها منظمتنا، منظمة طليعة الشيوعيين المصريين، مقالاً بعنوان:
«أكذوبة القضاء على الإقطاعى». وقد قال هذا المقال:
«إن النصر الأساسى الذى حققه الفلاحون هو اعتراف الطبقات الحاكمة لأول مرة بمبدأ توزيع الأرض، وفساد نظام تملك الأرض الإقطاعى. إن قانون تحديد الملكية، على الرغم من أنه سيقلل من هيبة النظام الإقطاعى، فإنه لن يقضى على طبقة الإقطاعيين كطبقة، بل سيؤدى إلى خلق فئة أشد بأساً فى خدمة الرجعية والاستعمار. وأنه، وغيره من القوانين التى صدرت، سيفتح الباب أمام نوع من الاستغلال الرأسمالى للريف، بما فى ذلك الأجنبى منه، جنباً إلى جنب مع بقايا الاستغلال الإقطاعى.
إن الشعب يعلم أن الطريق الوحيد لرفع مستوى الفلاحين، وزيادة قوتهم الشرائية هو الإصلاح الزراعى الثورى، الذى تنتقل بمقتضاه كافة أراضى الإقطاع إلى الفلاحين بلا تعويض. وأن الشعب يعلم، أن حكم جمهورية الشعب الديمقراطية وحكم العمال والفلاحين هو الطريق إلى الإصلاح الزراعى الثورى».

* * * *

تمرد لملوم الإقطاعى بالمنيا رافضاً تنفيذ قانون الإصلاح الزراعى. ولم يعدم. وقد قامت جماعة من أتباعه. بمهاجمة البوليس وأطلقوا عليه الأعيرة النارية، ولم يعدم منهم أحد.

* * * *

9 سبتمبر 1952: صدر قانون تنظيم الأحزاب السياسية. وكان على الأحزاب الموجودة أو الجديدة أن تتقدم بمقتضاه إلى وزير الداخلية بإخطار تطلب فيه إعادة تكوينها.
تقدم ستة عشر حزباً.

* * * *

14 سبتمبر 1952: نشرت جريدة المصرى فى صفحتها الأولى صورة للافتات كتب عليها «نحن نحمى الدستور». وكانت هذه اللافتات تملؤ الشوارع.

* * * *

11 أكتوبر 1952: صدر عفو عن المسجونين فى قضية مقتل

المستشار أحمد الخازندار. وعن قتلة «محمود فهمى النقراشى رئيس الوزراء الأسبق. كذلك عمن سجنو فى قضية قنابل الإسكندرية. وكانوا جميعاً من الإخوان المسلمين.

* * * *

16 أكتوبر 1952: صدر مرسوم بقانون بالعفو الشامل عن الجرائم السياسية منذ توقيع معاهدة 1936 حتى قيام الثورة. وكذا عن المتهمين فى قضايا سياسية لم تزل أمام المحاكم. ولم يطبق المرسوم على الشيوعيين بحجة أنهم ليسوا بمجرمين سياسيين، ولكنهم مجرمين اجتماعيين واقتصاديين.

* * * *

19 أكتوبر 1952: جاء فى العدد 23 من مجلة «الصراع»:

*نداء من اللجنة المركزية إلى الرفاق لدفع الاشتراكات والعمل على زيادتها.

*العمل من أجل تكوين الحزب الشيوعى، حزب الطبقة العاملة، قائد الصراع المرير من أجل إقامة الجمهورية الديمقراطية الشيعة والتطويح بالاستعمار وأذنابه

*مقال حول شعار محمد نجيب عن الاتحاد والنظام والعمل، جاء فيه:

«إن الاتحاد والنظام الذى يطالبِ اللواء محمد نجيب بهما يفرضان على الشعب ديكتاتورية سافرة وحكماً استبدادياً يسوق الشعب كالأغنام إلى حظيرة الدول الغربية، وأن العمل الذى يتخذه اللواء محمد نجيب شعارًا له إنما هو من أجل رفاهية الاستعماريين والإقطاعيين والاحتكاريين ومصاصى الدماء. لكن الشعب الذى عانى أجيالاً عديدة تحت حكم الاستبداد قد أخذ يتطلع إلى أن يحكم نفسه بنفسه، إلى الديمقراطية الشعبية، حكم العمال والفلاحين. وهو يرفض الاستبداد فى صورته الجديدة. الحكم العسكرى لمصلحة المستعمر.

ليسقط حكم العسكر والأحلاف العسكرية، ومعاهدة الصداقة والتجارة بين مصر وأمريكا.

*ومقال حول فكرة الحياد جاء فيه:-

«.... هنالك معسكران، معسكر أمريكا، ومعسكر الاتحاد السوفيتى والصين الشعبية ويحتوى هذا المعسكران على جميع الأمم والطبقات،

وبذلك لا يوجد طريق نسلكه يسمى الحياد. فهذه الكلمة مرادفة فى المعنى لكمتى الخداع والتضليل.... وأن كل حكومة تدعى الحياد هى حكومة خائنة مرتبطة بالاستعمار، معسكر أعداد الشعوب.... إن الموقف السلبى الذى يتخذه المطالبون بالحياد لن يكون موقفاً ثورياً».

*ومقال عن ظروف العمال جاء فيه:

«... إن الطبقة العاملة فى مصر تقاسى من البطالة وانخفاض مستوى المعيشة. وانعدام الحقوق النقابية. وهى فى سبيل تحقيق مطالبها، قامت بسلسلة من الإضرابات ضد سياسة اصحاب الأعمال التى تتلخص فى طرد العمال بالجملة.. وقد توجت الطبقة العاملة إضراباتها، بإضراب كفر الدوار الذى قام الجيش بتحطيمه بقسوة.... وهكذا كشفت الطبقة العاملة رجعية الجيش... وتعد وزارة الشئون الاجتماعية قانوناً رجعياً بتحريم الإضراب نهائياً. ولن يكون لهذه الحركة نجاح إذا ما كافحت الطبقة العاملة بصلابة هذه المشاريع البغيضة».

-كما جاءت بعض الأخبار فى ذات العدد:

-أجل افتتاح العام الدراسى للمدارس والمعاهد العليا إلى ما بعد 8 أكتوبر، ذكرى إلغاء المعاهدة حتى لا يرتفع صوت فى الجامعة ضد الاستعمار وأذنابه.

-صدر أخيراً قانون عدم اشتغال الطلبة بالسياسة.

* * * *

4 نوفمبر 1952: احتوى العدد 24 من مجلة «الصراع» على منشور سبق توزيعه بعنوان «يا عمال المطبعة اتحدوا». ويناشد المنشور العمال الاتحاد لمواجهة الاضطهاد الذى يهددهم.

* * * *

10 ديسمبر 1952: أعلن محمد نجيب، باسم الشعب، سقوط دستور 1923، وذلك فى بيان أوضح فيه أنه قد أصبح لزاماً تغيير الأوضاع التى كانت تودى بالبلاد، والتى كان سندها دستور 1923.

* * * *

جيفرسون كانرى يزهو أمام أمام السفراء الغربيين، موحياً إليهم أنه على علاقة خاصة جداً مع الثورة. وكان يتحدث عنهم قائلاً: أولادى.

* * * *

تمت مصادرة مجلتى «الكاتب» و»الواجب».

* * * *

12 ديسمبر 1952: صدر العدد 25 من مجلة «الصراع» وقد جاء فيه:

*مقال بعنوان «موقف حكومة الإرهاب، من الشيوعيين»، يعلن على عدم الإفراج عن المعتقلين الشيوعيين وعدم العفو عنهم. ويصف الحكومة بأنها مستبدة.

*مقال حول «ثورات الشعوب ضد الاستعمار». ثورات كينيا وكوريا وتونس والعراق وإيران ضد الاستعمار.... النظام القائم فى مصر، حكم عسكرى مستبد، يستند إلى تأييد وتشجيع الاستعمار الأنجلو أمريكى.... على الشعب المصرى أن يهب للكفاح ضد الاستعمار وأعوانه».

*مقال حول «اتفاقية السودان»، ينتقد الاتفاقية التى تمت بين الحكومة المصرية والأحزاب السودانية. والتى كان توقيعها من أعمال الخيانة.

*مقال حول، «محمد نجيب والقضية الوطنية»، ينتقذ سياسة محمد نجيب رئيس مجلس الوزراء ويصفه بأنه عدد الشعب.

* * * *

13 ديسمبر 1952: السبت، الساعة العاشرة مساء. شُنت حملة شرسة على «طليعة الشيوعيين المصريين».

«طلبت إدارة المباحث العامة بالقاهرة الإذن من النيابة العسكرية بضبط وتفتيش أشخاص ومساكنهم، حيث يكونون منظمة شيوعية باسم، «طليعة الشيوعيين المصريين»، كذا ضبط وتفتيش أشخاص ومساكن من يتواجد معهم. إذ ثبت من التحريات والمراقبات السرية أنهم يقومون بنشاط شيوعى واسع المدى بين أوساط العمال والطلبة والموظفين، ويصدرون مجلتى «الصراع، والطليعة».

وجاء فى اقوال حسن المصيلحى ضابط المباحث العامة. «إنه منذ حوالى ثمانية أشهر ظهرت فى بعض الأوساط منشورات باسم منظمة طليعة الشيوعيين المصريين، بعضها عبارة عن كتيبات صغيرة بعنوان الطليعة أو عنوان الصراع، أو نشرات من ورقة واحد توزع فى نقابات العمال المختلفة مثل الترام والمطبعة الأميرية وعمال النسيج. وقد لوحظ أن هذه النشرات ذات أسلوب مرتفع المستوى فيما يماثلها من نشرات

شيوعية».
«تم ضبط محمد مصطفى درويش (كاتب نيابة البلدية) ومعه لفافة بها كمية من المنشورات بعنوان «يا عمال الترام اتحدوا»، وكان يقيم مع منصور زكى فهمى (عامل تجليد) الذى فتش منزله، وعثر به على مطبعة حجر كاملة المعدات من فورم وحروف وباقى لوازمها، وأصول النشرات، ومحاضر اجتماعات اللجنة المركزية، ورونيو خشبى بأدواته. ثم جرى تفتيش منزل عبد الله محمود كامل (مدرس بمدرسة المحروسة الابتدائية) وضبطت فيه كمية كبيرة من النشرات الشيوعية الصادرة عن نفس المنظمة، وأوراق خطية. ثم تم تفتيش منزل عمر إبراهيم مكاوى (طبيب) ووجد به عدد من الأوراق الخطية الشيوعية، وأبحاث فى النظريات الشيوعية بخط اليد، وبعضها مترجم. وفتش منزل عبد الستار عثمان محمد (كمسارى بالترام) وضبط لديه عدد من مجلة الصراع، وبعض أوراق خطية. وفتش مسكن السيد فتح الله حسن (عامل نسيج) ووجد لديه نشرة الصراع. وفتشت مساكن سعيد مصطفى محجوب (المطبعة الأميرية) وضبطت لديه العديد من منشورات أنصار السلام. وصلاح الدين شريف (موظف بتحقيق الشخصية)، ومحمود السيد فرغلى (سكرتير نقابة عمال الترام)، وألفى أسحق سليمان، وعلى حسين معبد (المطبعة الأميرية)، وعبد المهيمن زكى جعفر (مصلحة السياحة) وإبراهيم على حسين (مشرف اجتماعى بالسويس الثانوية)، ولم يضبط لدى هؤلاء أوراق تفيد التحقيق. كما لم يستدل على ثلاثة اشخاص من ضمن من وردت أوصافهم بمحضر التحريات وإذن الضبط».
وقد أنكر الجميع أنه ضبطت لديهم أية أوراق، ما عدا منصور زكى الذى اعترف على نفسه بأنه يقوم بكتابة المقالات ورص الحروف وطبعها، وأنه المسئول عن كل ما ضبط، كما اعترف بانضمامه لمنظمة طليعة الشيوعيين المصريين.
وقال الصاغ سيف اليزل أمام النيابة، «أن هؤلاء كانوا يقومون بترويج المبادىء الشيوعية على نطاق واسع بين أوساط الطلبة والعمال والموظفين.
وأن المنظمة قد أصدرت عدة نشرات وزعت فى عدة مناسبات فى المدة

الأخيرة. وأن هذه المنظمة قد تكونت منذ أكثر من سنتين. وكانت تصدر، فى بادىء الأمر نشراتها بالرونيو، ثم اصبحت تصدرها مطبوعة بالأحرف.

* * * *

الصدمة قاسية، والضربة موجعة. لم ينجو من اللجنة المركزية أحد غيرى. ربما لأنى كنت مقيماً بكفر الزيات. وربما لأنى عندما كنت أجىء إلى القاهرة لم أكن أقيم فى مكان واحد.
كانت الخطوة الأولى هى تشكيل لجنة قيادية على الفور. وتم تصعيد الزميل محمد محمود عثمان وزميل آخر من الوجه البحرى. وكان علينا العمل السريع والحذر، من أجل تجميع الزملاء من المناطق التى وجهت إليها الضربات، وتربيطهم بطريقة تحافظ على أمانهم مع إصدار توجيهات حاسمة بنظافة المنازل أو محال الإقامة، إذ لم تكن أبعاد الضربة قد تكشفت بعد. كان هنالك خشية من ضربات لاحقة.
نجت المكتبة من الضربة، أما المطبعة فقد سقطت، وكانت تلك خسارة فادحة. فليس فى مقدورنا الآن تدبير النقود التى تجهز مطبعة جديدة، كما أنه ليس لدينا منصور زكى آخر يقوم بالإعداد والتشغيل. كان علينا أن نعود من جديد إلى الرونيو الخشبى، والبالوظة أحياناً. إنها لا تحتاج إلى مال يذكر أو خبرة خاصة، كما كان تأمينها أسهل بكثير من المطبعة.
كما قررنا ألا توجد مكونات الرونيو –الإطار الخشبى وقطعة الحرير والرولو والأحبار والأوراق فى مكان واحد. وزعناها على أماكن عدة. وكان علينا أن نجمعها يوم الطبع فقط، ثم توزيعها كما كانت. وتوصلنا إلى ضرورة الإقلال من الأوراق الخطية كمحاضر الاجتماعات، والاعتماد على الذاكرة أو على بيانات عامة.
واصدرنا أول بيان لنا، وقد كتب على ورق الاستنسيل وطبعه على عزيزة (الرونيو الخشبى) وقد شن البيان هجوماً شديداً على النظام الديكتاتورى، وأساليب البطش التى يمارسها على الشرفاء، وانفراد السلطة العسكرية بكل السلطات، وعدائها لكل أشكال الديمقراطية، كالأحزاب والحياة البرلمانية.

* * * *

الفصل السابع عشر

1953-1954

القبضة الديكتاتورية تشتد- حكم عسكرى مطلق.

13 يناير 1953: صدر مرسوم بتشكيل لجنة لوضع الدستور من خمسين عضواً على رأسها على ماهر.

* * * *

15 يناير 1953: أعيدت الرقابة على الصحف. فتحت المعتقلات. تمت عمليات فصل بلا محاكمة.
صلاح سالم يصرخ: قبل أن تعود الحياة البرلمانية يجب أن نستأصل كل أسباب الفساد فى الأمة.

* * * *

17 يناير 1953: أعلن القائد العام، بصفته رئيس حركة الجيش، بياناً ندد فيه بالأحزاب، وقال أنها أفسدت أهداف ثورة 1919. ثم أعلن حلها منذ اليوم، ومصادرة جميع أموالها. وقيام فترة انتقالية لمدة ثلاث سنوات.

* * * *

18 يناير 1953: حملة اعتقالات. 14 من قادة الأحزاب. 39 بتهمة الاتصال بجهات أجنبية 48 شيوعياً أغلبهم من حدتو.

* * * *

23 يناير 1953: إعلان تكوين هيئة التحرير بمناسبة مرور ستة أشهر على الحركة وسط مهرجانات صاخبة، كأداة لتنظيم الشعب تحت شعار «كلنا هيئة التحرير». تشكلت تلك الهيئة والسجون تضم قادة الأحزاب السياسية والشيوعيين. الإخوان المسلمون فقط هم من يتحرك بحرية تماماً، مثلما كانوا أيام نجيب باشا الهلالى.
وقد أشرف على هيئة التحرير، إبراهيم الطحاوى وأحمد عبد الله طعيمة، وهما ضابطان بعيدان عن مجال العمل السياسى.

* * * *

10 فبراير 1953: إعلان دستور مؤقت، منح مجلس قيادة الثورة ورئيسه كل سلطات الدولة السيادية، وتعيين الوزراء وعزلهم. وفترة انتقال مدة ثلاث سنوات. وبذا انفرد مجلس قيادة الثورة بكل السلطات،

وأصبح الحكم العسكرى مباشراً. وكان محمد نجيب من أشد المتحمسين لذلك، وكذا الإخوان المسلمين الذين كانوا من أعتى المحرضين ضد الحياة النيابية والأحزاب بأمل أن ينفردوا بالساحة.

* * * *

28 إبريل 1953: صدر قرار اتهام الزملاء. اتهم رئيس النيابة منصور زكى فهمى وعبد الله محمود كامل، بأنهما نظما وأدارا فى المملكة المصرية، جمعية ترمى إلى سيطرة طبقة اجتماعية على غيرها من الطبقات. وأن المتهمين محمود درويش مصطفى، وعمر مكاوى، والسيد فتح الله حسن، وعبد الستار عثمان محمد قد انضموا إلى هذه الجمعية.

* * * *

18 يونيو 1953: إعلان قيام الجمهورية، وسقوط الملكية، وتولى اللواء محمد نجيب رئاسة الجمهورية، وتشكيل وزارة رأسها محمد نجيب أيضاً، وأصبح عبد الناصر نائبه ووزير الداخلية أيضاً، وعبد اللطيف بغدادى وزيراً للحربية والبحرية، وصلاح سالم وزير الإرشاد القومى.

وفى يوليو عين حسن بغدادى نائباً لوزير التجارة والصناعة.

وفى أكتوبر عين جمال سالم وزيراً للمواصلات، وزكريا محى الدين وزيراً للداخلية.

* * * *

ترك محمد نجيب قيادة الجيش. رقى الصاغ عبد الحكيم عامر إلى رتبة لواء وعُين قائداً عاماً للجيش.

بدأ الصدام داخل مجلس قيادة الثورة بين محمد نجيب وجمال عبد الناصر، وخارجه بين الأخير وبين الضباط الأحرار وضباط المدفعية والفرسان.

وقع صدام مع الإخوان المسلمين لتحركهم فى صفوف الجيش والبوليس، وتحريضهم ضد الثورة.

* * * *

عرفت بتارخ الجلسة التى سيحاكم فيها الزملاء. قررت الذهاب إلى المحكمة بباب الخلق، دون أن أخبر أحداً. كنت أود أن ألقاهم وأطمئنهم

على أننا بخير، وأننا قد استعدنا عافيتنا بصورة ما. أندسست بين الأهالى الذين كنت أعرف البعض منهم. فزعت أم منصور زكى عندما عرفت بوجودى خشية علىّ. كان القفص خالياً والمنصة خالية. الصفوف الأولى احتلها المحامون بمعاطهم السوداء وملفاتهم. يبدو أن والدة منصور أخبرت البعض عنى. أحسست أن عدداً من الشبان يلتفون حولى دون أن يحدثونى. جلست وراء المحامين وقرب قفص الاتهام.

عندما دخل الزملاء القفص انقبض صدرى. كانت الأغلال فى معاصمهم، لكنهم كانوا مرفوعى الهامة. دوت الأصوات تحيى العائلات والمحامين. نظر منصور نحوى وابتسم. تهامسوا ثم بدأ الجميع ينظرون نحوى. أخذت أصواتهم ترتفع: احنا حديد. مفيش حاجة هتهزنا هيجى اليوم اللى نحاكمكم فيه –احنا كويسين خالص. خدوا بالكو من نفسكو- أحنا أملنا فيكو أنتو.

كانت تلك الكلمات لى وليست للأهالى. ضممت قبضتى فى قوة محاولاً أن أقول لهم أننا نكمل بالفعل ولن نتوقف أبداً.

ظهر القضاة وهب الجميع واقفين. وقفت معهم وانتهزتها فرصة لأفلت فى ظل هذه الضجة «والدربكة» الصامتة. انطلقت بعيداً إلى محطة السكة الحديدية، إلى طنطا.

صدر الحكم على منصور زكى وعبد الله كامل بخمس سنوات، وعلى محمد درويش مصطفى بثلاث سنوات وتبرئة الباقين.

* * * *

أخبرت، فيما بعد، زميلىّ فى اللجنة القيادية بذهابى إلى المحكمة يوم محاكمة الزملاء. ونقلت إليهم رسالتهم القوية التى بعثوا بها إلينا. وأن معنوياتهم عالية للغاية.

ناقشنا ضرورة أن نحقق اتصالاً بهم فى الداخل، لاخبارهم بما نفعل وللاستشارة. أخبرنى الزميل محمد عثمان أن هنالك أحد الزملاء العمال مستعد للقيام بتلك المهمة. قال محمد أنه لا يعرفه شخصياً لكن كل زملائه تحدثوا بالخير عنه.

أخبرنا والدة منصور لتخبره بهذا الرجل ودوره.

بدأنا بخطاب عادى للغاية. كان فى الأساس مجس اختبار. واتفقنا أن تكون الخطابات مسلسلة رقمياً أو بأى طريقة أخرى لا يعرفها هذا

الزميل، ونعرفها نحن للتيقن من صحة وصول الرسائل.

****

أواخر نوفمبر 1953: هاجم عبد الناصر، فى اجتماع جماهيرى، المنافقين والمخادعين الذين يتمسحون بالديمقراطية.

****

أرسل والدى لى خطاباً يخبرنى فيه أنه قد قرأ فى الصحف، أن الحكومة قد فتحت باب الانتساب فى الجامعة. طلب منى أن انتسب إلى كلية الحقوق التى كنت أود الالتحاق بها، وهو على استعداد لتحمل النفقات. شكرته جزيل الشكر وأخبرته أننى قد غدوت مدرساً. وقد قررت الالتحاق بمعهد التربية لأكون جديراً بوظيفتى.

****

ديسمبر 1953: محاصرة محمد نجيب إعلامياً.

****

14 يناير 1954: حل جماعة الإخوان المسلمين. وقيل فى الأسباب أن هذا الحل لتآمرهم مع رجال السفارة البريطانية لقلب نظام الحكم، وتطبيقاً لأمر مجلس قيادة الثورة السابق صدوره بحل الأحزاب السياسية عليهم.

وكان الإخوان قد طالبوا بالاشتراك فى الوزارة فرفض طلبهم. فطالبوا بتكوين لجنة من الإخوان تعرض عليها القوانين قبل صدورها للموافقة عليها، فرفض هذا أيضاً.

وكان منير الدله وصالح أبو رقيق من قادة الإخوان يلتقون بمستر إيفانز المستشار الشرقى للسفارة البريطانية كممثلين للإخوان المسلمين. كما تم لقاء بين المرشد وإيفانز فى منزل المرشد.

وفى 10 يناير ذهب العشماوى إلى منزل مستر كريزويل الوزير المفوض بالسفارة البريطانية السابق صباحاً. ثم عاد فى الرابعة من نفس اليوم فى مقابلة أخرى دامت حتى الحادية عشر مساء من نفس اليوم.

واعتقلت الحكومة 450 من الإخوان المسلمين.

****

16 يناير 1954: صدر قانون تشجيعاً للاستثمار الأجنبى، يجعل نسبة رأس المال الأجنبى 51% ونسبة رأس المال المصرى 49% على أن

تكون فى صورة أسهم مطروحة للأفراد الطبيعيين أو الشركات المصرية.

* * * *

يناير 1954: تعيين كمال الدين حسين وزيراً للشئون الاجتماعية.
فبراير 1954: تعيين حسن بغدادى وزيراً للتجارة والصناعة والتموين.

* * * *

12 فبراير 1954: عبد الناصر يزور قبر حسن البنا فى الذكرى الخامسة لوفاته، هو وصلاح سالم، وأحمد حسن الباقورى، ويخطب قائلاً، «أشهد الله أنى أعمل، وكنت أعمل لتنفيذ هذه المبادىء، وأننى فيها وأجاهد فى سبيلها».

* * * *

21 فبراير 1954: مطالبة محمد نجيب بترك رئاسة مجلس الوزراء ليتولاها جمال عبد الناصر.

* * * *

22 فبراير 1954: قدم اللواء، محمد نجيب استقالته من جميع مناصبه.
25 فبراير 1954: مجلس قيادة الثورة يقبل بالإجماع استقالته. وتعيين عبد الناصر رئيسًا للوزراء مع ترك منصب رئيس الجمهورية شاغراً.

* * * *

26-27 فبراير 1954: رفض ضباط المدرعات (الفرسان) القرارات وأعلنوا ضرورة عودة محمد نجيب ولو بدون سلطات، وضرورة عودة الحياة النيابية والدستورية (الانتهاء من وضع الدستور). إقامة حكم ديمقراطى ونيابى (بعد ثمانية أشهر قبل نهاية العام) قائم على اطلاق الحريات، وتعدد الأحزاب وحرية الصحافة.
إن المسألة ليست جمال ونجيب، لكنها الديمقراطية أم الديكتاتورية. عودة جميع الضباط إلى وحداتهم. إلغاء الترقيات الاستثنائية، استقراراً لأوضاع الأقدمية فى الجيش. عودة نجيب رئيساً لجمهورية برلمانية.

* * * *

26-27 فبراير 1954: قرارات القيادة بعودة محمد نجيب رئيساً للجمهورية. استقالة مجلس قيادة الثورة تشكيل حكومة مدنية برئاسة خالد محى الدين. عودة الحياة النيابية خلال ستة أشهر.

* * * *

28 فبراير 1954: خرجت مظاهرة من جامعة القاهرة إلى ميدان عابدين. تصادمت مع الشرطة عند كوبرى قصر النيل، محمد نجيب يحيى الجماهير من شرفة القصر. والمتظاهرون يهتفون: «لا رئيس إلا نجيب».

الإخوان يؤيدون نجيب.

الشيوعيون والوفديون يؤيدون الديمقراطية وانسحاب الجيش إلى ثكانته.

الغرب يسند جمال ضد نجيب باعتباره حاكماً قوياً لن يخضع للجماهير.

أوقفت الدراسة فى الجامعات الثلاث من أول مارس حتى 13 مارس.

تم القبض على 118 شخصاً من الإخوان والحزب الاشتراكى والوفديين والشيوعيين وآخرين.

* * * *

5 مارس 1954: الأزمة تتفاقم والصراع على السلطة يشتد. ويحاول مجلس قيادة الثورة الخروج من المأزق الذى وضع البلاد فيه فيصدر قرارات 5 مارس.

اتخاذ الإجراءات فوراً لعقد جمعية تأسيسية تنتخب بطريق الاقتراع العام المباشر فى خلال يوليو 1954. وتكون مهمتها:

«أولاً»: مناقشة مشروع الدستور الجديد وإقراره.

«ثانياً»: القيام بمهمة البرلمان إلى الوقت الذى يتم فيه عقد البرلمان الجديد وفقاً لأحكام الدستور الذى ستقره الجمعية، فيما عدا سلطة إسقاط الوزارة.

كما تقرر إلغاء الأحكام العرفية قبل إجراء انتخابات الجمعية التأسيسية بشهر.

كما تقرر إلغاء الرقابة على الصحف والنشر ابتداءً من 6 مارس عدا الشئون الخاصة بالدفاع الوطنى.

«ثالثاً»: يحدد الدستور الجديد كيفية تنظيم الأحزاب.

المفروض انتهاء فترة الانتقال فى 16 يناير 1956.

* * * *

8 مارس 1954: قرر مجلس قيادة الثورة تعيين اللواء محمد نجيب رئيساً لمجلس قيادة الثورة، ورئيساً لمجلس الوزراء.

* * * *

تصدر اللجنة المركزية لطليعة الشيوعيين المصريين منشورات تطالب بالديمقراطية والحياة النيابية وسقوط الديكتاتورية. كما تصدر قراراً للزملاء بضرورة المشاركة فى المظاهرات والمؤتمرات، مع توضيح موقفنا إلى جانب الديمقراطية والحياة النيابية وعودة الأمور إلى الشعب، ورفض الديكتاتورية بكل أشكالها، وعودة الأمور إلى الشعب ليمارس اختياره الإرادى.

* * * *

جريدة المصرى والجمهور المصرى وروز اليوسف تشن هجوماً ضارياً ضد ضباط الجيش عموماً. وتثير اتهامات خاصة بالتصرفات الشخصية والذمة المالية.

توالت قرارات نقابة المحامين، ومؤتمرات الطلبة وأساتذة الجامعات تدين تصرفات ضباط الجيش وتندد بها. وتطالب بعودة الجيش إلى ثكناته، وتشكيل حكومة جبهة، ومحاكمة المسئولين عما أرتكبوا من أخطاء.

* * * *

نشرت جريدة المصرى رسالة لعضو مجلس قيادة الثورة السابق يوسف صديق يقترح فيها قيام وزارة ائتلافية من الوفد والإخوان والاشتراكيين والشيوعيين برئاسة وحيد رأفت لإجراء انتخابات للبرلمان الجديد.

محمود عبد المنعم مراد يدافع صراحة فى جريدة المصرى عن حكم الشعب.

وجلال الدين الحمامصى يحذر، فى جريدة الأخبار، من الانتخابات.

* * * *

محمد نجيب يحاول استغلال الموقف لتحويل كل السلطات إليه.

والإخوان المسلمون، المعادون تماماً لعودة الحياة النيابية، يلتفون حوله.

* * * *

الأهرام والأخبار والجمهورية تؤيد عبد الناصر. وتروج لفكرة إما الثورة وإما الديمقراطية.

* * * *

19 مارس 1954: انفجرت أربع قنابل فى أنحاء متفرقة من القاهرة، فى الجامعة، وفى جروبى، ومخازن الصحافة بمحطة سكة حديد

القاهرة.
قال محمد نجيب أنه لا يوجد صاحب مصلحة فى التخريب إلا هؤلاء الذين يبتغون تعطيل مسار الشعب نحو الديمقراطية.
وقيل أن عبد الناصر هو الذى وراءها، إثارة «للفزع من الديمقراطية التى تعنى الفوضى».

* * * *

صرح عبد الناصر لوكالة أنسا الإيطالية أن الإخوان «سيكونون أحراراً فى تشكيل حزب إسلامى أو هيئة إسلامية».
«وأنه كلما بدا أنه من الممكن الاتفاق مع لندن قام الشيوعيون وعددهم ليس كبيراً، ولو أنه ممنظمون تنظيماً جيداً، ويزاولون نشاطهم تحت ستار المطالب الوطنية، قاموا بحملة تهدف للحيولة دون الوصول إلى اتفاق».

* * * *

أعلن الوفد أنه يتمسك بالنظام الجمهورى، والإصلاح الزراعى، والعودة إلى الحياة النيابية فوراً لتستقر الأوضاع. واقترح انضمام رجال الثورة إليه، على أن يكون عبد الناصر سكرتيراً عاماً للوفد.
وأعلن على ماهر أن مصر لا تستطيع الوقوف موقف الحياد، ويجب أن تنضم للغرب.

* * * *

25 مارس 1954: أفلتت الأمور، والأرض تهتز تحت أقدام مجلس قيادة الثورة بحضور محمد نجيب وخالد محى الدين، ومناقشة عاصفة انتهت إلى:-

1-السماح بقيام الأحزاب.
2-مجلس قيادة الثورة لا يؤلف حزباً.
3-لا حرمان من الحقوق السياسية حتى لا يكون هنالك تأثير على الانتخابات.
4-تنتخب الجمعية التأسيسية انتخاباً مباشراً دون تعيين أى فرد، ويكون لها السيادة والسلطة الكاملة. وتكون لها سلطة البرلمان كاملة والانتخابات حرة.
5-حل مجلس قيادة الثورة فى 24 يوليو باعتبار أن الثورة قد انتهت

وتسلم البلاد لممثلى الأمة.
6-تنتخب الجمعية التأسيسية رئيس الجمهورية بمجرد انعقادها.

* * * *

ما أن أعلنت القرارات حتى أفرج عن الإخوان المسلمين وعلى رأسهم حسن الهضيبى الذى زاره جمال عبد الناصر فى منزله فى منتصف الليل فور خروجه.
وقد صرح الهضيبى «أن الجماعة قائمة وأنها أقوى مما كانت».

* * * *

نقابة الصحفيين تطلب إلغاء الأحكام العرفية فوراً وتشكيل وزارة قومية.

* * * *

نقابة المحامين تعلن الإضراب.

* * * *

الصحف تنشر أنه لم يفرج عن النحاس أو أحمد حسين أو رشاد مهنا.

* * * *

القائمقام أحمد شوقى قائد الكتيبة 13 مشاه، والتى لعبت دوراً هاماً ليلة 23 يوليو يرسل بخطاب نشرته الصحف يعلن فيه نفس المطالب السابقة.

* * * *

الصاوى أحمد الصاوى، سكرتير اتحاد عمال النقل، يتصل بإبراهيم الطحاوى ويدبران خطة لاعتصام متزايد لعمال النقل ينتهى بإضراب.

* * * *

ضباط البوليس يعلنون أن العودة إلى الحياة النيابية، مع وجود الاحتلال، خدعة استعمارية.

* * * *

قيادة الحرس الوطنى ومنظمات الشباب ينقلان قواتهما إلى القاهرة.

* * * *

27 مارس 1954: الإخوان المسلمون يصرحون فى الصحف، فيما يختص بعودة الأحزاب السياسية، أملنا ألا يعود الفساد أدراجه مرة أخرى. فإننا لن نسكت على هذا الفساد. بل يؤيد بقوة حرية الشعب كاملة، ولن نطالب بتأليف أحزاب سياسية، لسبب بسيط، هو أننا ندعو المصريين جميعاً لأن يسيروا وراءنا، ويقتفوا أثرنا فى قضية الإسلام».

* * * *

نشرت جريدة الجمهورية أنه، «تقرر إعادة جماعة الإخوان المسلمين. وأن كل أثر لقرار حل الجماعة الصادر فى يناير الماضى قد زال».
تم الاتفاق بينهم وبين مجلس قيادة الثورة أن يجنحوا للسلبية، ويبتعدوا عن الاشتراك من أى مظاهرة معادية للمجلس.

* * * *

28 مارس 1954: مانشيت كبير يتصدر جريدة المصرى «مؤامرات ضد الشعب».

* * * *

28 مارس 1954: احتضنت هيئة التحرير الحركة العمالية وأبناء اتحاد الصعيد الذين شلوا حركة الأتوبيس والترام والتاكسى والقطارات.
ونزلوا إلى الشارع فى مظاهرات يحركها الطحاوى وطعيمة بعربات ركبت فيها الميكروفونات. واشتركت فيها قوات الحرس الوطنى ومنظمات الشباب وهيئة التحرير وعمال النقل ومديرية التحرير الذين وضعت سيارات اللورى ورجال الأمن تحت تصرفهم، وكانوا يهتفون بسقوط الحرية والديمقراطية. كما هتفوا بحياة الثورة ولا حزبية.
استقبلت مظاهرات مريرة محمد نجيب وهو عائد من الإسكندرية، فى محطات السلكة الحديدية بالهتاف: لا أحزاب ولا برلمان.
دعا مؤتمر نقابات العمال لإضراب عام اعتباراً من 29 مارس حتى يستجيب لهم مجلس قيادة الثورة بالعدول عن قراراته. كذلك أضرب عمال السكة الحديد والنقل العام مطالبين بإلغاء قرارات 5 مارس واستمرار الثورة. وأرسلت برقيات تأييد للثورة من النقابات والهيئات.

* * * *

قال جمال عبد الناصر لخالد محى الدين، أنه فيما يتعلقٍ بمظاهرة عمال النقل فإن الأمر لم يكلفه غير أربعة آلاف جنيهاً مصرياً.

* * * *

خرجنا مظاهرات من الجامعة، من الشيوعيين والوفديين تدافع عن قرارات 5 مارس وتطالب بعودة الديمقراطية والأحزاب.

* * * *

29 مارس 1954: أذاع صلاح سالم القرارات التالية باسم مجلس قيادة

الثورة:
1-إرجاء تنفيذ قرارات 5-25 مارس حتى نهاية فترة الانتقال.
2-يشكل فوراً مجلس وطنى استشارى يراعى فيه تمثيل الطوائف والهيئات والمناطق المختلفة. ويُحدد تكوينه واختصاصه بقانون.

* * * *

نشرت الأخبار خبراً عن اجتماع مفاجىء للجمعية العمومية لمجلس الدولة. وكان موقف د.عبد الرازق السنهدرى معادياً لأساليب العنف وافتعال المظاهرات.
وصلت مظاهرات، بدت مظاهرات عمالية، بتحريض الطحاوى وطعيمة. وكانت فى الواقع من جنود البوليس الحربى يرتدون ملابس مدنية مع بعض أعضاء هيئة التحرير. كانت المظاهرات تهتف الموت للخونة. وفتح مدير المباحث العسكرية الجنائية الأبواب التى كانت مغلقة، فاندفعوا إلى السنهورى وأعضاء الجمعية العمومية وانهالوا عليهم ضرباً وهم يهتفون، تحيا الثورة، تسقط الرجعية.
نقل د.عبد الرازق السنهورى إلى المستشفى ورفض مقابلة عبد الناصر عندما قام بزيارته.

* * * *

4 أبريل 1954: استقال خالد محى الدين من مجلس قيادة الثورة لخلافه الشديد معه، من تمسكه بعدم إلغاء قرارات 5 مارس، وقبل جمال عبد الناصر استقالته على الفور.

* * * *

14 أبريل 1954: صدر قرار يحرم من حق تولى الوظائف العامة، ومن كافة الحقوق السياسية، وتولى مجالس إدارة النقابات والهيئات لمدة عشر سنوات كل من سبق وتولى الوزارة فى الفترة من 6 فبراير 1942 حتى 23 يوليو 1952.
وقد استثنى حزب الكتلة الوفدية رغم تطبيق القرار على مكرم عبيد باعتباره وزيراً وفدياً.
ثم صدر قرار بحل مجلس نقابة الصحافة.

* * * *

17 أبريل 1954: عُين عبد الناصر، لأول مرة، رئيساً للوزارة، دخل

الوزارة الجديدة حسين الشافعى وزيراً للحربية وحسن إبراهيم وزيراً لشئون رئاسة الجمهورية.
وبذا أصبح هنالك ثمانية وزراء من مجلس قيادة الثورة، ولم يبقى خارجها غير عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة، وأنور السادات رئيس مجلس إدارة دار التحرير.

* * * *

24 أبريل 1954: تم القبض على عدد كبير من ضباط الفرسان بتهمة محاولة القيام بانقلاب.

* * * *

29 مايو 1954

اليوم تمت الضربة الثانية المتوقعة لطليعة الشيوعيين المصريين.
وتم القبض علىّ، فى الصباح الباكر، وأنا فى طريقى إلى مدرسة الأقباط الإعدادية بطنطا حيث أعمل مدرساً للطبيعة. الوقت رمضان. أخذونى من هناك، إلى مبنى المباحث العامة بلاظوغلى، حيث التقيت بزميلاى محمد محمود عثمان وصلاح هلال مقبوضاً عليهما. ثم إلى النيابة، فقسم الخليفة فسجن قره ميدان، حيث التقينا بعبد الله كامل ومحمد مصطفى درويش ومنصور زكى. وكان عمر مكاوى قد أفرج عنه وخرج.
منحنى الزملاء زنزانة انفرادية فسعدت بها للغاية. وأحسست بالراحة عندما أدار السجان مفتاحه فى قفلها ساعة التمام. أود أن الملم أنفاسى المتناثرة. تلك تجربة بشعة أعيشها لأول مرة فى حياتى. زلزال نفض كل شيء حولى. المباحث وما تخبئه. النيابة وهى تدبر منذ اللحظة الأولى للإيقاع بى لتصنع منى قضية. قسم الخليفة العفن النتن. سجن مصر ولقاء رفاق أعزاء، وراء جدران وقضبان، وعالم عجيب غريب.
فجأة جاءت دقات من الناحية الأخرى من الجدار، من عنبر (د) سجن النساء وأنادى منصور أسأل، ماذا أفعل. ويقهقه منصور:
-جيرانك بيقولولك حمد الله ع السلامه.
-يا منصور هوه أحنا فى سلامه ولا فى ندامه.
-ولا يهمك. عموماً أطلع فوق الترابيزه اللى تحت الشباك، وقولها عاوزه إيه؟
فعلت كما قال، فجاءنى صوت ناعم نائم:

-والنبى عاوزه برشامة، أحسن مخى هيطرشأ.
وأسرعت أقول لمنصور أنها تريد برشامة، وليس معى أى حبوب أو برشام. وسمعت درويش يضحك ثم يسرع إلى شراعة باب الزنزانة ليقول ضاحكاً:
-يا راجل يا كركى. برشامه يعنى سجاره. عاوزه توزن نافوخها.
وجاء صوت عبد الله:
-يا ابو لبيب متخليش الجماعه دول يعملو سوابق عليك.
-ما همه سوابق ياعُبد، بس كركى دى تطلع إيه؟
-جديد يعنى.
-طب وأعمل إيه مع الوليه اللى عاوزه برشامه دى؟
-مد إيدك من حديد الشباك وقول لها إرمى التليفون، هتلقيها رمت على إيدك كيس قماش صغير. حط فيه السيجاره.
ووجدت نفسى غاية فى الضيق.
-طب وأنا إيه اللى زنقنى على دا كله!
وقهقه عبد الله.
-الجيرة يا أبو لبيب. معلهش الجيران لبعضهم. أصل أنت لسه فى أول الحبسة.
مددت يدى من حديد النافذة التى تطل على حوش السجن. وقلت فى صوت خلت أن العالم كله قد سمعه، ارمى التليفون. وأحسست أن شيئاً قد هبط على يدى، كيس قماش صغير مربوط فى أحد أركانه بدوبارة، يبدو أننى شددتها أكثر مما يجب، إذ سمعت صوتاً «مائعاً» يقول:
-ما تشدش يا زميل، والحقنى بالبرشامه.
وفى سرعة وضعت سيجارتين وألقيت بالكيس من النافذة، وقبل أن أغادرها سمعتها تقول، يبدو بسبب السيجارتين بدل السيجارة الواحدة:
-تشكر يا زمل يا ذوق. احنا إنشاء الله هنبقه سمن على عسل. وتصبح على خير.
جلست على حافة السرير أتأمل ما حدث. آخر ما كنت أتوقع أن يكون جارى فى السجن أنثى، وأن تكون على ذمة الآداب. وأن يجرى هذا الحديث الغريب، الذى لا علاقة له بكل ما أنا فيه، وما أعانيه. نقلة

غريبة فى عالم غريب. وأنا واقف مادا زراعى لإمرأة لا أعرفها لأمنحها سيجارة توزن بها مزاجها.
تمددت على السرير، والماضى يدوى فى رأسى أحسست بإهارق شديد، وللحال سقطت نائماً.
استيقظت فى الصباح، ومفتاح السجان فى باب زنزانتى.

* * * *

فتح الباب وكان منصور هناك. قال بعد تحية الصباح عن أننا جميعاً ومحمد عثمان وصلاح هلال سنفطر فى زنزانتهم.
قال عبد الله، أننا سنعقد اجتماعاً بعد الإقطار.
ما أن بدأ الاجتماع حتى تساءل درويش:
-أنتو كام مدخن؟
-أنا ومحمد مدخنين.
ابتسم صلاح وهو يهز رأسه.
-أنا الحمد لله مش مدخن.
قدم درويش لكل منا، أنا ومحمد مبسماً خشبياً. نصيب الفرد من السجائر محدود. السيجارة الواحدة يتم تدخينها على مرتين أو ثلاثة، ولذا لزم المبسم الخشبى. العنبر الذى نحن منقسم إلى نوعين، نوع حرف (أ) وهم المساجين المتعلمين، ولكل واحد منهم أو ثلاثة، الحق فى زنزانة صغيرة. لا يسمح بوجود اثنين فقط فى الزنزانة بحجة الحرص من حدوث علاقة جنسية. ولهؤلاء أكل من المتعهد على حساب السجون. وفى الزنزانة الفردية سرير بمرتبة ووسادة وملاءات وحوض زنك موضوع على حامل حديد ووعاء زنك للمياه. والنوع الآخر حرف (ب) وهم العمال والسجناء العاديين، هؤلاء يحبسون فى أعداد يمكن أن تصل إلى عشرين فى زنازين كبيرة. والنوم على مراتب فوق أبراش موضوعة على الأرض مباشرة والأكل «يمك» السجن.
وأوضح درويش:
-ورغم أننا ملزمين بالنظام دا، لكن أحنا غير ملتزمين بيه. أو أكثر نحن الذين نوزع الزملاء على مختلف الزنازين. فلكل تنظيم زنزانة أو أكثر من الزنازين الصغيرة حسب عدده للأغراض الحزبية والصحية.
وهنالك زنازين كبيرة بعضها خالص لتنظيمات ما وبعضها مشترك.

وهنالك لجنة مشتركة بين كل التنظيمات هى لجنة الحياة العامة، وهى اللجنة المسئولة عن تنظيم كل ما له علاقة بالظروف الحياتية فى العنبر.
يوجد فى العنبر زملاء من تنظيمات الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو)، والحزب الشيوعى المصرى (الراية) وطليعة العمال (د.ش) والنجم الأحمر ونواة الحزب الشيوعى المصرى والتيار الثورى (ت.ث.حدتو) وطليعة الشيوعيين المصريين ووحدة الشيوعيين وبقايا المنظمة الشيوعية المصرية (م.ش.م).
وكانت النقطة التى ناقشناها بعد ذلك هى الأوضاع التنظيمية فى الخارج.
كان المفترض عند خروج عمر مكاوى أن يتصل بى، أما الآن فهو لا يعرف الزميل القيادى المتبقى فى الخارج. كما وجدنا أنه من المستحسن ترك عمر الآن دون ارتباط مباشر بالتنظيم، إذ لابد سيوضع تحت المراقبة الدقيقة. وأن يترك له كيفية معاودة الاتصال.
وكان علينا الاتصال بالزملاء خارج السجن بأساليب عمل جديدة تستفيد مما حل بنا. وأن نساعدهم قدر الإمكان.
وناقشنا الضربة التى وجهت إلينا، والاحتمال الكبير بوجود اختراق أدى إليها. وتوصلنا من الأدلة الأولية إلى استنتاج من يكون العنصر الذى وجه الضربة إلينا من داخلنا، وأهمية إرسال تحذير فورى إلى الزملاء الذين يعملون معه، على أن يتدارسوا ما لدينا من أدلة للنفى أو التأكيد.
وأوكلت هذه المهمة إلى صلاح هلال ومحمد عثمان لمتابعتها عن طريق حسن عثمان شقيق محمد عثمان.
وطلب درويش أن نطرح ملابسات القضية. فتحدث كل منا عن ظروفه وما ضبط لديه. وأننا جميعاً قد أنكرنا المضبوطات ومعرفتنا ببعضنا البعض أمام النيابة. وقال درويش أن هذا صواب لأنه يوفر مدخلاً للمحامين فى الدفاع.
كان الاجتماع مرهقاً وقد حان موعد الغداء. قال عبد الله:
-نتغدى سوا ونام لينا ساعة، وبعدين الطابور، واحنا نكمل قعدتنا بعدين.
تساءل صلاح عن الطابور. فقال منصور أن الطابور هو الخروج من العنبر إلى حوش السجن. ساعة فى الصباح، وساعة بعد الظهر. وهو فرصة للمشى، أو للعب الكره الطائرة أو الجلوس فى الشمس.

واضاف درويش مشاغباَ:
-وعشان فخرى كمان يشوف جيرانه.
وفاجأنى التعليق.
-جيران مين يا درويش؟
-بتوع البرشام.
-نشوفهم إزاى يعنى؟
-من دورة المياه الحريمى.
وصحت فيه:
-إيه دا اللى بتقوله!!
وعاد يقهقه.
-لأ مش قصدى. أصل دورة مياه سجن النسا خارج شويه عن بقيه المبنى وفيها شبابيك بتوقف فيها البنات.
-وأنت هتعرف جارتى إزاى؟
-توحه، ما أنا أصلى كنت فى زنزانتك قبل منك.
وتدخل عبد الله موضحاً:
-سيبونا من مشاغبات درويش. نتغدى ونتكلم واحنا بناكل.
كان منصور قد أعد الغداء فجلسنا إليه. وأكمل عبد الله.
هؤلاء الفتيات السجينات ممتازات. أننا نتحدث عنهن كبشريات. إن أقصى حكم يمكن أن يصدر على أى واحدة منهن، فى قضايا الآداب، سوف يكون ستة أشهر، ومع ذلك فإنهن يقمن لنا بأعمال يمكن أن تودى بهن وراء الشمس عشر سنوات مثلاً، وهن يعرفن ذلك. إن لنا فى عنبر النساء زميلات مسجونات أو تحت التحقيق، وهن يقمن بدور حلقة الاتصال بيننا وبينهن، يحملن منا لهن، أو منهن إلينا أوراقاً ومطبوعات. كما أن نهاية عنبرهن تطل على الإدارة وهن قد جعلن من أنفسهن «ناطورجية» يراقبن الإدارة، فإن حدث حشد سجانة للتفتيش يسرعن بإبلاغنا، فنبلغ نحن باقى العنبر فيتخذ الكل حذرهم.
بل وأحيانا نرسل إليهن بأوراق يبقينها معهن حتى يزول خطر ما فنستردها.
تأثرت بشدة من هذا الكلام، وتساءل محمد عثمان كيف أمكن تغيرهن

إلى هذا الحد.
قال منصور، إنها المعاملة الإنسانية. هؤلاء الفتيات محل طمع من الضباط والجنود، والمسجونات زميلاتهن يعاملهن بغلظة باعتبارهن فتيات بلا شرف. وأسرهن تخلت عنهن وأنكرتهن. غير أن الزميلات معهن فى العنبر يتعاملن معهن كما يتعاملن مع الجميع بإنسانية باعتبار أن الظروف المحيطة هى المسئول الأساسى على سقوط أ ى واحدة منهن. ونحن أمامهن شبان، زهرة الحركة الوطنية كما يطلقون علينا فى السجن، ندافع عن الفقراء والمظلومين، ولذا أحست بعضهن، وليس بالطبع كلهن، بأننا ندافع عنهن أيضاً. أو كأننا قد دخلنا السجن حتى لا يسقط أمثالهن ويدخلن السجون.
وأحسست بالأسى لهن والإعجاب بهن.
وقت الطابور خرجنا إلى حوش السجن. اقترب درويش من بناء دورة مياة عنبر النسا. كانت النافذة الطويلة الحديدية الضخمة مليئة بالإناث من مختلف الأعمال والأشكال. قال إحداهن عندما رأت درويش:
-اندهلك توحه.
قهقهن. هز درويش رأسه وهو ينظر إلىّ
-أيوه، قوليلها يوسف عاوزك.
تساءلت:
-أنت اسمك عندهم يوسف؟
أخذ يضحك:
-أيوه يا سيدى. يوسف ستالين. ومين قالك إن هيه اسمها توحه؟
-أنت اللى قلت.
-لأ، هيه اللى قالت. وضرورى هيكون دا اسم حركى برضه. ما هو كل واحد لازم ياخد حذره.
سرنا حتى نهاية «الحوش» ثم عدنا. عندما اقتربنا من النافذة ونحن عائدان شد درويش ذراعى.
-أهيه دى توحه.
كانت تقف فى النافذة جميلة، عذبة، عيناها تشعان أنوثة. اشار لها درويش نحوى. فهزت رأسها وابتسمت. قالت:

-حمد الله ع السلامة يا زميل.
هززت رأسى، وأعتقد أنى ابتسمت، لكزنى درويش.
-ما ردتش ليه.
تظاهرت بالثبات. قلت ونحن عائدان:
-الله يسلمك.
خيل إلىّ أن الدنيا كلها قد سمعتنى ورأتنى. انقذتنى صفارة شاويش العنبر يعلن انتهاء الطابور.
قلت لدرويش ونحن ندخل العنبر:
-بنت لذيذه قوى. إيه اللى وقعها الوقعه السوده دى؟
-أمال لما تعرف أنها بتتكلم إنجليزى وفرنساوى كمان؟
-يا نهار أسود. هيه أصلها خوجايه وألا إيه؟
-لا يا سيدى. دى أصلها مصرية. فلاحة. من البحيرة. اشتغلت من صغرها عند خواجات. ولما كبرت نقلت من خدمة الخواجات لخدمة زباين الكباريهات، لسجن الستات.
التقينا بعد الطابور لاستكمال الاجتماع. عرضنا لما استطعنا المشاركة به فى أحداث مارس 1954، وكيف كادت الأوضاع أن تؤدى بالديكتاتورية العسكرية. وكيف استعانت بقوى مأجورة لتثبيت وجودها ثم تشدد من قبضتها.

* * * *

كان نصيبى من العشاء يكفينى ويزيد، قطعة حلاوة طحينية وكمية من العسل الأسود، وزبدية وقطعة من مكرونة فرن. دققت الحائط بينى وبين توحة. وسرعان ما جاءنى صوتها من خارج القضبان، فطلبت منها أن تلقى بالتليفون. تلقيت الكيس القماشى ووضعت فيه الزبدية وقطعة المكرونة وسيجارتين. وسمعتها تشهق عندما رأت ما أرسلت، وتصيح:
-إيه دا كله يا زمل. إنشا الله ربنا يفك ضيقتك.
وشكرت لها دعوتها وتمددت فى زنزانة أقرب إلى مقبرة مضاءة.

* * * *

أتلهف على زيارة أسرتى. ما وقع القبض علىّ، عليهم؟ ماذا حل بمسكنى وما فيه من أثاث؟
كل يوم أنتظر أن ينادى اسمى عندما تنادى الأسماء للزيارة.

اليوم نادى المنادى باسمى «فخرى لبيب زيارة»، «محمد عثمان زيارة»، «صلاح هلال زيارة». سألت الزميل المنادى للتيقن فأكد لى صحة ما سمعت.
اسرعت أحلق ذقنى. وأرتدى أفضل ما عندى وأنزل إلى الطابق الأرضى أنتظاراً للسجان الذى سوف يصطحبنا إلى حجرة الزيارة.
ذكرت محمد وصلاح بضرورة متابعة مسألة القبض علينا.
غادرنا وغيرنا العنبر مع الشاويش. أخذنا إلى حجرة الزيارة. أحس برهبة شديدة. كيف سألقى والدىّ لقد أنتهى كل ما بذلاه من جهد وتضحية إلى ابن ملقى وراء الجدران. ما الذى يفكران فيه الآن؟
حجرة الزيارة كئيبة، مقسومة نصفين، نصف ينفذ إلى الداخل، نحن فيه، ونصف ينفذ إلى الخارج، وفيه سوف تكون أسرنا. وبين النصفين فاصل، بناء تعلوه أسلاك، وسجانة على الجانبين لمراقبة الجميع. وقفنا نحن الثلاثة إلى جوار بعضنا البعض. فجأة ارتفع هياص وزياط، وأصوات أقدام تهرول، ونداءات تتوالى. وصاح محمد وقد رأى والدته وشقيقه:
-هنا يا أم محمد. أنا هنا يا حسن.
واندفعت نحوه سيدة بيضاء ممتلئة، والدموع تنسال على خديها. لكنها ما أن رأته حتى أسرعت تجففها وتضع على وجهها ابتسامة جميلة، مادة ذراعيها وكأنها ستحتضن الحجرة كلها. وخلفها يسير حسن شقيق محمد الذى يصغره. عرفنى بهما محمد فى الوقت الذى ظهر فيه والدى ووالدتى فناديت:
-أبويا يا أمى.
واندفعا نحوى، غير أن حاجز السلك صدهما فاستندا إليه بكفيهما. قالت أمى فى حنان بالغ ودموعها تغمر وجهها.
-إزيك يا بنى؟ عامل إيه يا فخرى؟
قلت لها وأنا اغتصب ابتسامة، فقد تألمت كثيراً لبكائها:
-أنا حديد يا أمى.
تساءل أبى:
-إيه اللى حصل؟

قلت فى إيجاز:
-قبضو علىّ.
قال وهو يهز رأسه:
-دا اللى كنت خايف منه دايماً.
قالت أمى فى سرعة:
-أنا جبت لك بطه وبفتيك ومكرونه.
وأكمل أبى:
-وقاروصه بلمونت. وحطيت ليك خمسه جنيه فى الأمانات.
قالت أمى:
-خدوهم مننا واحنا كتبنا عليهم اسمك.
قلت أطمئنها:
-ما تقلقيش. كل حاجة هتوصل. بس إيه دا اللى فى إيديكو؟
كنت قد لاحظت لوناً أزرق فى كف كل منهما.
-دا ختم: ختمونى أنا وأمك بيه. ولازم يشوفوه واحنا خارجين.
أشرت لهما أعرفهما بمحمد وصلاح، وأعرف الأسر ببعضها البعض.
قال ابى:
-بخصوص الى أنت فيه دا. هيعملو لك قضيه وإلا إيه؟
-أعتقد فيه قضيه.
-وبعدين؟ هتعمل إيه فى مسألة المحامى؟
-الحكومة هتجيب لى محامى.
امتعض وجه أبى.
-أنا عندى صديق محامى ممتاز الأستاذ عبد القادر عوده. لو كلمته هيجى يترافع عنك على طول.
-عودة بتاع الإخوان؟
-افتكر هوه إخوانى. بس إيه يعنى؟
-يعنى مش ممكن.
قال أبى فى حيرة:
-مش ممكن إزاى يا بنى؟
-يا والدى دا إخوانى، من زعماء الإخوان. ودول بيعتبرو الشيوعيين

أعدى أعدائهم، إزاى هيترافع عنى؟
-زى أى محامى.
-لأ طبعاً دى قضية سياسية أساسًا. ولو كان عوده هوه اللى بيحكم كان أعدمنى مش سجنى بس. قوم يترافع عنى ويطالب لى بالإفراج!
قال ابى مستسلماً:
-طب وبعدين؟
-سيب المشكله دى دلوقت. الحكومه هتجيب لىّ محامى، وأنا كمان هترافع عن نفسى.
ورأيت، لأول مرة فى حياتى، دموع أبى تنساب من عينيه. وللحال أجهشت أمى بالبكاء أيضاً. يبدو أنى أضعت أملاً كانا يستندان إليه.
وقلت محاولاً تغيير الموضوع:
-إيه اللى حصل فى شقة طنطا. والعفش اللى فيها؟
ومسحت أمى دموعها. وكان والدى قد سبقها إلى ذلك. قال فى كلمات متقطعة:
-أنا رحت يا بنى هناك، أنا وإدوار. وحاولنتا ناخد العفش، وندفع الإيجار. الناس طيبين خالص. رفضو الإيجار ورفضو يدونا العفش، وقالو الشقة هتقعد زى ما هيه لغاية ما تخرج أنت بالسلامة، وترجع لينا.
كنت أعلم أنهم أصلاء بحق.
ودوت خلفى صفارة السجان يعلن انتهاء الزيارة.
قال ابى:
-شد حيلك يا أبنى.
قلت مؤكداً:
-أنا شديد. ما يهمكش.
قالت أمى:
-مش عاوز حاجه يا بنى أجيب هالك فى الزيارة الجايه.
قلت بجدية:
-ولا حاجه يا أمى، بلاش المصاريف دى كلها.
أعلم أن ظروف الأسرة المالية ليست طيبة. وقد غدوت الآن عبئاً عليهم، أشد هولاً من ذى قبل.

وظلا يتراجعان وهما يلوحان وأمى تمسح دموعها وأبى يداريها حتى اختفيا وراء باب الزيارة. وعدنا أنا ومحمد وصلاح صامتين فى حزن عميق، ونحن نحمل ما جاءت به عائلاتنا فى الزيارة.

تسلم منصور منا كل ما معنا. قال وهو يبتسم:

-كل دا بتستلمه لجنه الحياه العامه، وبعدين تعيد توزيعه علينا كلنا مع كل اللى جه فى الزيارات.

قال محمد ونحن نتجه إلى زنازيننا:

-أنا كلمت حسن. شرحت ليه الحكاية، وقلت له لازم يتحقق.

وقال صلاح:

-وأنا وصيت والدتى تعرف حسن بزميل مهم من زملائنا فى شبرا عشان ينسقو سوا.

كان لدى فى العشاء وفرة من الطعام. الزيارات اليوم كثيرة، ومفردات المأكولات تزيد كثيراً عن الحاجة. ناديت على توحة وملأت لها التليفون، بفتيك ودجاج وبطاطس وسجائر. وما أن وصلتها الأشياء حتى سمعتها تنادى. قلت لها:

-عجبتك الحاجات يا توحه؟

قال بامتنان:

-هية عجبتنى أنا بس يا زمل يا أبو الكرم. دا كل البنات هنا بيمسو. وبيقولولك إنشاء الله فرجه قريب. أنا مش عارفه أشكرك إزاى؟

ثم صمتت لحظة، وأكملت:

-تحب أغنى لك؟

قلت لها:

-أنا سامعك.

وكانت المفاجأة، أنها تغنى بالإنجليزية. لم أفهم كل ما نطقت جيداً. لكن قلبى انتفض بصوتها وشحنة الشجن الدافئة التى كانت تسبح فيها الكلمات. أمسكت بقضبان النافذة، اسندت رأسى إلى حديدها، وانطلقت أذناى إلى الخارج، ممسكان بكل همسة ينبض بها غناؤها. عندما أنهت أغنيتها سألتنى:

-إيه رأيك يا...

ثم صمتت قليلاَ:
-إلا صحيح. اقول لك يا مين؟
-رأيى إنك آخر جمال. وألف خساره على الجمال دا فى السجن والزنزانه. وإن كنت عاوزه تقول لى يا مين قوليلى يا فتحى.
وجاءنى صوتها كلمسة ناعمة أو ربتة حانية:
-تصبح على خير يا سى فتحى.

* * * *

العنبر يدوى بالخطب والبيانات.
«تدور أقاويل كثيرة حول الوحدة، وحدة الحركة الشيوعية المصرية، وهل الظروف مواتية أم غير مواتية؟ والحقيقة أن القضية ليست أبداً قضية الوقت المناسب أم غير المناسب. القضية فى الأساس هى قضية مبدأ. والمبدأ هنا هو الماركسية ذاتها. هل يمكن للماركسيون أن يتحدوا مع غير الماركسيين؟ وعلى أى قاعدة تتم مثل هذه الوحدة. تلك هى القضية. ففى مصر تيارات، تيار ماركسى وتيار متمركس. التيار الماركسى هو التيار الثورى الذى سيبنى الاشتراكية فى مصر. أما التيار المتمركس فهو تيار يدعى الماركسية ليخفى انتهازيته. أى أننا أمام تيار ثورى يسعى لتحقيق الاشتراكية، وتيار انتهازى يسعى لتدميرها وتدمير نضال الطبقة العاملة. وكفر الدوار وما حدث فيها ليس ببعيد.
إنهما تياران لا يلتقيان فما البال بأن يتحدا.
إن طليعة العمال تؤمن بأن هذه الوحدة المزعومة تتعارض جذرياً مع المبدأ اللينينى القائل بأن الوحدة مع الانتهازية دعم لها».
وارتفع صوت ثان.
«نحن التيار الثورى حدتو، نحن الذين رفضنا دعم حدتو للديكتاتورية العسكرية، ورفضنا بيان السجن الحربى. نحن الذين رفضنا الديكتاتورية التنظيمية، نعلن أن الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى لا تمتلك القدرة على التوحيد. إنها تدمر قضية الوحدة بالتمسك بنظرية النمو الذاتى، أى اندماج الآخرين فيها، أى ابتلاعها لمن حولها وقهرهم داخلها لتصبح هى وحدها الحزب.
إن خروجنا من حدتو يؤكد فساد تلك النظرية. ويؤكد ضرورة أن تجرى معركة الوحدة على أسس جديدة فيها الندية، وفهم واقع الحركة الشيوعية

فى مصر، وأسباب الانقسامية سياسياً وتنظيمياً. وضرورة تحديد الإتفاق والاختلاف بوضوح تام».

ثم جاء صوت رزين.

«لنتفق أولاً على أن الوحدة ضرورة تاريخية، إذ لن تتحقق الثورة دون قيادة الطبقة العاملة، ولن تتحقق قيادة الطبقة العاملة، دون قيادة الحزب الشيوعى لها. إن التفريط فى تكوين الحزب هو تفريط فى الثورة ذاتها. وتلك هى مسئوليتنا جميعاً.

إن منظمتنا، منظمة النجم الأحمر، قد استطاعت الحصول على خطاب الرفيق بالم دات، سكرتير عام الحزب الشيوعى البريطانى فى اجتماع الأحزاب الشيوعية فى بلدان الكومنولث، حيث قال ما معناه أن الشيوعيين المصريين يتصارعون فيما بينهم أكثر مما يصارعون السلطة. وهذا يعنى أننا جميعاً شيوعيون. وأن صراعنا الداخلى يضعف حركتنا فى مواجهة السلطة. وأن الوحدة وتكوين الحزب الشيوعى هى الوسيلة الصحيحة للمقاومة».

واندفع كالصاروخ صوت أجش يصيح فى تحد وعدوانية.

«أى وحدة تتحدثون عنها؟ ومع من تتم؟ أنتم تتحدثون عن قضية لا وجود لها. فقد تكون الحزب الشيوعى المصرى من شرفاء هذا البلد، من شيوعييه وبلاشفته الحقيقيين. وإن كنتم تتحدثون عن اللينينية التى لا علاقة لكم بها، فاللينينية تقول أن لا شيوعية خارج الحزب. ولتعلموا يا من تتحدثون عن الشيوعية أنه لا مكان للشيوعية إلا داخل حزبنا الشيوعى، ومن خارجه ليسوا غير انتهازيين وخونة وجماعات بوليسية وعملاء للفاشية».

ودوى العنبر بالشتائم:

-إخرس يا كلب.

-إخرس يا مخرب.

-إخرس يا انقسامى.

-إخرس يا فاشيستى.

-أنت اللى خاين.

-أنت اللى عميل.

وفزعت أشد الفزع. وناديت على منصور وأنا غاية فى الإنفعال:
-إيه الحكايه؟
فقال منصور مهوناً:
-ما تشغلش بالك. دى معركه الوحده بطريقه انقساميه.
-والراجل المجنون اللى شتم الناس دى كلها!!
-دا شخص استفزازى، وغير مريح وعاوز يولعها.
وسمعت صوت عبد الله من داخل الزنزانة:
-يا أبو لبيب نام، الصباح رباح.

* * * *

التقينا بعد الإفطار. كان محمد وصلاح منزعجين مثلى أشد الإنزعاج.
قال محمد:
-الاختلافات واردة، لكن الخلافات العدائية دى هتودى على فين؟
وقال صلاح:
-الراجل الاستفزازى دا، واضح إنه مش شيوعى أبداً.
وقال درويش:
-هوه استفزازى صحيح، لكن فيه كثير من زملاته ناس كويسين. ومش كده خالص.
وقال عبد الله:
-سيبونا من الراجل دا. وخلينا فى الموضوع الأصلى، موضوع الوحده.
هنالك مفاوضات تجرى داخل السجن بين ست منظمات شيوعية هى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو)، والتيار الثورى (حدتو) والنجم الأحمر، ونواة الحزب الشيوعى، ووحدة الشيوعيين، ونحن طليعة الشيوعيين. والجو عامة يبشر بالأمل. قيادة حدتو تقول أنها ليست ضد الوحدة لكن الوحدة في مفهومها هى أن نحل نحن أنفسنا ونندمج فيها بعد أن ننقد أنفسنا نقداً ذاتياً لأننا خرجنا منها، أى أنها تطالبنا بالتسليم دون قيد أو شرط. لكن تيار الوحدة الحقيقى قوى للغاية بداخلها، خاصة بعد مواقفها من الديكتاتورية العسكرية، وبيان السجن الحربى وتغييرها موقفها السياسى. القواعد فى كل هذه التنظيمات تحكمها رغبة قوية فى الوحدة، فى داخل السجن وخارجه.
هنالك منظمة الحزب الشيوعى المصرى (الراية)، ومنظمة طليعة

العمال (الدلاشنة) وهؤلاء لا يرون أن هنالك معركة وحدة. ويرون أنهم وحدهم الثوريين وغيرهم انتهازيين.
وحتى تكتمل الصورة هنالك بقايا منظمة تاسعة هى المنظمة الشيوعية المصرية (م.ش.م) والمتبقون منها ثلاثة فقط، نيقولا غازيس (يونانى)، البرير محمد حامد (سودانى)، وسعد الطويل (مصرى). وهم لا علاقة لهم لا بمعركة الوحدة ولا بأحد. ولا يتحدثون معنا، بل ولا يتحدثون مع بعضهم البعض، فهم يرون أن الجميع خارجهم بوليس وخونة.
وقلت أن الصورة عموماً لا بأس بها فتفاوض ست منظمات خطوة هامة جداً على الطريق. فالوحدة بالنسبة لنا تشكل ركنا هاماً من فكرنا ونضالنا.
-بس الكلام اللى اتقال إمبارح...
وقبل أن أكمل قاطعنى عبد الله:
-سيبك من سوق عكاظ دا....
لقد لاحظت أننا لم ندخل فيه. ولا أصدرنا بيانات كالآخرين. أن كل هذه، باستثناء هذا الولد الاستفزازى إعلان للمواقف القصوى. ونحن نرى أن المفاوضات المباشرة أجدى من إثارة النعرات التى لجأ البعض إليها.
وسوف نجرى اليوم معهم حواراً حول وقف هذا الأسلوب، على الأقل، حتى نتفق على الشكل الذى سنعالج به قضية الوحدة.
وتساءلت عن أساس التفاوض. قال عبد الله: الأساس هو الاعتراف بأننا جميعاً شيوعيون. وأن هنالك قضية وحدة. وهنالك ضرورة تاريخية لتأسيس الحزب الشيوعى الذى يضم كل الشيوعيين حتى هؤلاء الذين يشتموننا الآن. وأن وحدة تتم الآن ليست هى الوضع النهائى للحزب الشيوعى. وأن المناقشات التى تجرى الآن، أو مستقبلاً، يجب ألا تنفصل عن التنسيق فى المجال العملى فى الشارع.
وأيدت ومحمد وصلاح ما يجرى فى حماس. فالضربات البوليسية قاتلة، ومصير الحركة منقسمة يشكل خطراً فادحاً عليها.
وهز عبد الله رأسه، مؤكداً أن قدومى القريب من الخارج، والإحساس العميق بضرورة الوحدة، كقضية عملية، يجعله يقترحنى مندوباً للمنظمة فى لجنة الوحدة عند تشكيلها.

ووافق الزملاء على اقتراحه، غير أنى طلبت التمهل حتى نرى نتائج المفاوضات التى ستجرى اليوم.

* * * *

أمضى عبد الله طوال اليوم فى مفاوضات مع الأطراف المختلفة. كان اجتماع اليوم حاسماً، ولذا سبقته محاولات الأمس كضغوط يطرح فيها كل طرف رؤيته لعله يشكل حولها رأياً عاماً.

أخيراً، فى المساء، قبل إغلاق التمام، أخبرنا عبد الله أنه قد تم الاتفاق فعلاً على تشكيل لجنة للوحدة بين المنظمات الخمس. حدتو، النواة، النجم، ت.ث والطليعة.

وإن ممثل منظمة وحدة الشيوعيين قد أخبرهم أنه معهم شخصياً فى هذه المعركة، لكنه لا يستطيع تمثيل منظمته لأن موقفها مخالف لذلك. وأنه قد تم الاتفاق على عقد اجتماع باكر بعد الإفطار مباشرة.

واصبح من الضرورى أن نجتمع نحن الآن للإتفاق بصورة نهائية على مندوب لمنظمتنا ومندوب مناوب فى لجنة الوحدة.

ولم يستغرق الاجتماع طويلاً. وتم الاتفاق بالإجماع على أن أكون أنا مندوب المنظمة وعبد الله المندوب المناوب.

* * * *

توجهت فى اليوم التالى وعبد الله إلى واحدة من غرف حدتو فى الدور الثالث. وهنالك التقينا بمندوبى المنظمات وتعرفت بهم. وكانوا جميعاً أعضاء بلجانهم المركزية.

الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى: مبارك عبده فضل وفؤاد حبشى.

التيار الثورى حدتو: حمدى عبد الجواد وفؤاد عبد الحليم.

النجم الأحمر: عدلى جرجس وأحمد خضر.

نواة الحزب الشيوعى: إبراهيم عرفة وبكر الشرقاوى.

طرحت منذ البداية فكرة تسجيل محاضر الاجتماع، وأن يكون هنالك سكرتير للجلسات، واقترح اسم رفعت السعيد، وتم الاتفاق عليه فحضر. وأعلن أكثر من مندوب أن هنالك طلباً من الرفيق فخرى مكى سكرتير عام الحزب الشيوعى الفلسطينى والسجين معنا لحضور هذا الاجتماع، أو بعض الاجتماعات، كمراقب محايد يمثل حزباً شقيقاً. وتمت الموافقة على دعوته. كما أعلن مندوبون أن الزميل محمد المستجير ممثل منظمة

وحدة الشيوعيين يرغب فى المشاركة كمراقب فتمت الموافقة على دعوته.
أعلن الحاضرون أنهم يلتقون معاً بهدف توحيد الحركة الشيوعية المصرية، طبقاً للقواعد التى أنفق عليها أثناء المفاوضات التمهيدية وجرى تلخيصها وتسجيلها.
طلب مندوبا حدتو والنواة البدء بمناقشة كيفية إتمام الوحدة. طرح مندوب حدتو أن لمنظمته رؤية تقوم على أن كل المنظمات الأخرى المشاركة فى اللجنة، وهى منظمات صغيرة قياساً بها، إنما هى فى الأصل انقسامات على حدتو. من ثم فإن السبيل الصحيح المبدئى للوحدة هو أن تنقد هذه المنظمات نفسها وتعود إلى المنظمة الأم. وأن قيادة حدتو تملك من المرونة قدرًا كبيرًا بحيث تقبل تمثيلاً لهذه المنظمات فى لجنتها المركزية.
وتوتر الجو بشدة. وتلاحقت الردود عن أن حدتو هى بؤرة الانقسامات منذ نشأت حتى القريب. وهذا يطرح مسئوليتها هى عن الإنقسامية، وتلك قضية لو فتحت لغرقنا من بحر من التهم. والنقطة الثانية أن المنظمات الحالية لا ينتمى منها تاريخياً إلى حدتو إلا أعداد محدودة، قيادية فى الغالب. أما الغالبية الساحقة فليس لها علاقة بحدتو، بل هى ترفض حدتو ولن تنضم إليها بهذا الأسلوب. إن الحل المطروح لا يسعى إلى توحيد الحركة، لكنه يسعى إلى استقطاب بعض القيادات تحت راية النقد الذاتى، وتلك هى نظرية النمو الذاتى المرفوضة.
واحتج فؤاد حبشى فى غضب، غير أن الآخرين أوضحوا أن حدتو هى التى بدأت وهى التى تتهم الآخرين، ولا تقدم حلاً حقيقيًا للأزمة.
وتنحنح إبراهيم عرفه. قال أنه يود أن يسجل أن منظمته ترى أن الشكل اللينينى الأمثل للوحدة هو نشرة عامة لكل الشيوعيين، تدير الصراع الأيديولوجى والحوار حول الوثائق، ينتهى إلى مؤتمر عام منتخب، يقر الوثائق وينتخب اللجنة المركزية. ويعلن تكوين الحزب. وقلت أذكر إبراهيم عرفة (الرفيق حوتر) بأن النواة نفسها، عندما تشكلت، لم تتقيد بهذا النهج.
وقال آخرون أنه لا يوجد صراع مفتوح أوسع من ذلك الذى سيكون

على نطاق الكادر الأساسى للحركة الشيوعية كلها، والذى يوجد الآن فى هذا السجن.
وانتهى الاجتماعى إلى إتفاق باعتبار تلك جلسة تمهيدية افتتاحية، وأن اللجنة سوف تبدأ أعمالها الفعلية بعد غد على أن يكون الحضور قاصرًا على مندوب واحد لكل منظمة. وأن يكون هنالك رد نهائى لمن يقبلون بالنهج الذى جرى التفاوض حوله، والذى تقبل به منظمات النجم الأحمر والطليعة والتيار الثورى، أم أن هنالك تمسك بما طرحته كل من حدتو والنواة من تحفظات، حتى لا تستمر دوامة النقاش بلا نهاية.
كان زملاؤنا، شأنهم شأن باقى زملاء التنظيمات الأخرى، ينتظرون فى قلق ما أسفر عنه هذا اللقاء.
أخبرنا زملاؤنا بتفصيل ما جرى. وأوضح عبد الله أننا قد بدأنا ولن نتوقف، ولو اقتصر الأمر علينا والنجم والتيار الثورى.
أكدت أن الأمر محفوف بالمخاطر. وإن جهدًا ضخمًا مطلوب لإنجاح المعركة. علينا أن نشن حملة مناقشات على أعضاء حدتو والنواة للضغط على القيادتين لقبول المنهج التوحيدى.
وعلق درويش أن هذا هام للغاية على ألا نلجأ للاستفزاز أو التحدى، فذلك مطلب البعض حتى يفجروا المعركة.
وأكد صلاح أن هذا هو المنهج الذى يتبعونه فى العمل الجماهيرى. التركيز على الأساسيات وعدم الأنسياق وراء الفروع الآن.
وانتهينا إلى تقسيم أنفسنا، كى يناقش كل واحد منا مجموعة من الزملاء.

* * * *

السجن يدوى بالنقاش. الاجتماعات العامة المفتوحة والاجتماعات المغلقة على قدم وساق. الوضع داخل حدتو يواجه تحدياً شديداً من الكادر للقيادة، وضغطاً عنيفاً للقبول بالمنهج التوحيدى. هنالك فى اللجنة المركزية عناصر تقف بصلابة مع الوحدة.
عرفنا قبل اجتماع لجنة الوحدة أن حدتو قد قررت تسجيل وجهة نظرها للتاريخ باعتبارها الرؤية الصحيحة، والقبول فى ذات الوقت بالمنهج المطروح فى لجنة الوحدة كتنازل منها يثبت حسن نيتها.
وكان زملاء النواة فى الداخل قد اتصلوا بقيادتهم فى خارج السجن، فجاء الرد بالموافقة على المنهج المطروح باعتباره منهجاً عملياً، مع

تسجيلهم لرؤيتهم المبدئية باعتبارها المنهج اللينينيى الصحيح.
انعقد الاجتماع وتأكدت من خلاله الأقاويل التى تناثرت قبله حول موقف حدتو والنواة.
تم الاتفاق فى هذا الاجتماع على وثيقة سياسية هى الخط السياسى ووثيقة تنظيمية هى لائحة الحزب ونظامه الداخلى. وأن المعركة مفتوحة على النطاق العام، داخل السجون والمعتقلات وفى خارجها.
ليست هنالك مناقشات مغلقة، ولا اتفاقات غير معلنة. كل شىء مطروح على كل الزملاء.

* * * *

جاءت زيارة لمحمد عثمان. كانت والدته وشقيقاه حسن وسيد. أخبر حسن، محمد، أن الشخص الذى ثار الشك حوله هو بالفعل الذى قام بتسليمنا، وأن العمال قد استدرجوه إلى منطقة نائية، وأوسعوه ضرباً، ففر من المنطقة كلها.

* * * *

19 أكتوبر 1954: الاتفاق النهائى للجلاء. وكانت الاتفاقية الأولى التى تضمنت المبادىء الأساسية للاتفاق النهائى المقترح إعداده لتنظيم الجلاء قد تم توقيعها فى 27 يوليو 1954.
وقد جاء فى الاتفاقية أنه فى حالة وقوع هجوم مسلح من دولة من الخارج على أى بلد يكون طرفاً فى معاهدة الدفاع المشترك بين دول الجامعة العربية أو تركيا، تقدم مصر لبريطانيا من التسهيلات ما قد يكون لازماً لتهيئة القاعدة (التى كانت للإنجليز فى قناة السويس) للحرب وإدارتها. وتتضمن هذه التسهيلات استخدام الموانىء المصرية.

* * * *

26 أكتوبر 1954: أقيم احتفال تكريماً لعبد الناصر وزملائه، فى الأسكندرية، بميدان المنشية بمناسبة اتفاقية الجلاء. أطلقت ثمانى رصاصات متتابعة على عبد الناصر أثناء إلقائه خطابه. أطلقها محمود عبد اللطيف من الإخوان المسلمين ولم يصب عبد الناصر.
لقد انقلب الحليف إلى عدو. وبدأت حملة هائلة على الإخوان المسلمين.

* * * *

الأخبار تتوالى عن أعمال تعذيب، قاسية وكثيفة، للإخوان المسلمين،

بهدف الوصول إلى أكبر قدر من المعلومات والاعترافات السريعة سباقاَ مع الزمن، خشية محاولة إنقلابية كبرى.
قيل أن عدداً منهم قد جيء به إلى سجن مصر، وأجسادهم تحمل دلائل تعذيب مخيف. ومعلومات أن عنبرى (ج)، (د)، عنبرنا وعنبر النساء سوف يخليان، وأننا سننتقل إلى سجن آخر هو سجن القناطر رجال والقناطر نساء.
تأكدت الأخبار، بل وتحدد موعد إخلائنا لعنبرنا، وانتقالنا إلى السجن الآخر.

* * * *

تلاحقت دقات توحة على الجدار الفاصل، فامتطيت المنضدة الصغيرة أسفل طاقة الزنزانة.
-أيوه يا توحه؟
-أنتو خلاص ماشيين قال؟
-أيوه يا توحه. رايحيين سجن القناطر وأنتو هتحصلونا على طول.
قالت فى فرحة:
-يعنى هنبقه سوا زى هنا؟
وضحكت لسذاجتها:
-لأ، احنا هنبقه فى سجن الرجال وأنتو فى سجن النساء.
-وعشان إيه دا كله؟
-عشان يحطو الإخوان المسلمين مكانا.
وتساءلت مندهشة:
-وهمه مين دول؟
-دول اللى حاولو قتل عبد الناصر.
-يا نهار أسود.
-ربنا يستر.
قالت فى حزن:
-يعنى مش هشوفك تانى؟
-لأ طبعاً هشوفك بره إنشاء الله. وأنت خلاص قربتى تطلعى. شد حيلك بقه، وبلاش ترجعى هنا خالص.
وجاء صمت ثقيل ثم قالت فى تأكيد:

-ربنا يقدرنى وأتوب توبه نصوح، ولا عمرى أهوب ع السكه دى تانى.
-إنشاء الله، لو أنت ناويه، ربنا هيقف معاكى.
-إنشاء الله، بس اشوفك قبل ما تمشو.
-ضرورى إنشاء الله وتصبحى على خير.
-وأنت من أهله.

* * * *

كان على كل منظمة أن تتخلص من كل ما تستطيع الاستغناء عنه من أوراق، حرقاً أو بأخراجه خارج السجن. إننا عرضة أثناء النقل ودخول سجن جديد إلى التفتيش الدقيق. ويمكن أن تحاك، لمن تضبط معه أوراق، قضية جديدة. لذا اتفقنا، فيما بيننا، أن نحمل أنا ومحمد عثمان أى أوراق يلزم أخذها، كذا الأفلام وورق البفرة، وورق الأرز الخفيف، إذ لو ضبط أى شيء معنا، فإنه لا يشكل قضية جديدة، لكنه يعتبر استمرارًا للقضية الأولى ويضاف إليها تأكيداً للإدانة. لم تكن لدينا مخطوطات تذكر، وبذا تركز النقل والتهريب فى الأدوات الكتابية.

* * * *

جاءنى إبنا صاحب البيت الذى كنت أسكنه فى طنطا. كانت مفاجأة شديدة لم أتوقعها البتة. سعدت بهما سعادة بالغة.
عندما دخلا حجرة الزيارة ورأيانى، صاحا مهللين:
-دا أنت عال العال. أنت قدها وقدود.
وصحت أحييهما:
-دا أنتو أجدع من المجدعه. وصلتو هنا إزاى وعرفتو تخشو إزاى أهلاً يا أهلاً.
قالا معتذرين:
-ما كناش نعرف أن فيه أكل بيخش. معلهش أسمح لنا نسيب فلوس فى الأمانات.
قلت محذراً:
-أنا متشكر قوى قوى بلاش الحكايه دى، ممكن يسألوكو أنتم مين وعلاقتكو بىّ إيه؟
-بس لازم، لازم نعمل حاجه.
-مجيتكو دى بالدنيا كلها. أخبار الشقه إيه.

قالا مؤكدين.
-الشقه هتقعد زى ما هيه لغايه ما تخرج. أنسى الحكايه دى خالص.
-أصل أنا هاخد قضيه. ممكن اتسجن خمس سنين وممكن عشره. عشان كدة أرجوكم ابعتو للعيله عندى ييجو ياخدو العفش. وكتر خيركو ألف مره.
صاحا معاً:
-مش ممكن.
قلت مؤكداً:
-لأ ممكن ونص. دى قضية سياسية. والحكم سياسى، حسب الظروف.
قالا فى حزن:
-اللى تشوفه. بس كدة يبقه غصب عننا.
-أنا عمرى ما هنساكم، ولا أنسى اللى عملتوه معايا.
ودوت صفارة سجان الزيارة.
-شد حيلك، ربنا معاك.
-سلامى للوالد والوالده، ولكل العيله عندكو. وربنا يقدرنى على رد جمايلكو.
وابتعدا وقطرات دمع تلمع فى عيونهما.

* * * *

جاء يوم الانتقال من سجن قره ميدان إلى إصلاحية الرجال. جثم التوجس والتوتر على عنبر (ج). الانتقال من سجن إلى سجن لم يكن دوماً رحلة ميمونة. كان فى الغالب الأعم رحلة غير مضمونة. هنالك خبرات عديدة وحزينة عن الانتقال والاستقبال. نحن هنا نتمتع بميزات حققناها بمعارك دامية، وإضرابات عن الطعام وصدامات. هل سنبدأ فى إصلاحية الرجال من الصفر من جديد؟ وماذا عن المناخ الذى يجرى الانتقال فى إطاره؟ معركة وحدة الشيوعيين فى حزب واحد. وتلك كارثة كبرى للنظام، فالإنقسامية حليفه الأساسى بين الشيوعيين. إنها سياسة فرق تسد التى ورثها عن السادة المستعمرين.
ويقوم نظام السجون على «الحسنة تخص والسيئة تعم». واليوم يعلو صوت السيئة، صوت التعذيب. والدولة تفرض جو إرهاب على السياسيين، مما يرجح كفة الصفر والبداية من لا شىء.. صورة من

صور التكدير.
صاح الزميل مندوبنا عند الإدارة:
-السمع يا زملا. اللى يسمع اسمه ياخد حاجته ويتجه للإداره عشان يسترد أماناته. ويطلع بعد كده على عربيات الترحيل. الرجا السرعة عشان نلحق نخلص النهارده.
ثم أخذ فى تلاوة الأسماء.

* * * *

لمحت توحة، كما كنت أتوقع، فى نافذة دورة مياه سجن النساء. أسرعت أودعها.
أمسكت بيديها من خلال القضبان فانهمرت دموعها.
-سلام يا توحه. ونشوفك بخير إنشاء الله.
أجهشت بالبكاء.
-مع ألف سلامة. ألف سلامة ليك ولزملاتك. ربنا يحميكو لشبابكو.
وأحسست أنها قد وضعت شيئاً فى يدى، ورقة، فأطبقت عليها.
ونودى على اسمى فغادرت. تمهلت. فتحت الورقة وقرأت.
سى فتحى
باحبك باحبك
توحه

* * * *

موكب سيارات الترحيلات ينطلق، تتقدمه سيارات بوليس، تفسح الطريق وتحمل ضباط الترحيلات الذين قاموا باستلامنا من هنا، وسيقومون بتسليمنا هناك، ووراءه سيارات بوليس.
وصلنا سجن القناطر، إصلاحية الرجال. الزحام شديد، ونحن محملون بحقائبنا ولفافاتنا وأماناتنا. ووقعت إدارة السجن فى «حيص بيص».
وضباط الترحيلات يودون الانتهاء من مسئوليتهم الثقيلة، والمغادرة.
فهم لا علاقة لهم بالورطة التى وضعت فيها إدارة السجن بسبب الرغبة العاجلة فى إفراغ قره ميدان من الشيوعيين.
مأمور السجن سيد والى. وهو ضابط قادر على التصرف، فاتخذ القرار الوحيد الممكن، وهو أن ندخل العنبر بكل ما نحمل، وأن يجرى التفتيش فيما بعد، وكذا تسجيل الأمانات. شىء واحد عكر المياه. ضباط

الترحيلات يحملون كشوفاً بالتسكين صادرة عن المباحث العامة.
وتستهدف تلك الكشوف خلط الأوراق، خلط التنظيمات المختلفة ببعضها البعض مما يشل عملها، ويهدد بتفجير الخلافات فيما بينها. كما تستهدف أيضاً توزيع عملائها المعروفين وغير المعروفين فى مختلف الزنازين، بحيث تصبح كل أعمالنا وأوراقنا ومخابئنا خريطة مكشوفة لها.
قال سيد والى أنه يتحمل مسئولية إدخالنا كما نحن، وهو يعلم أننا نتحرك ومعنا ممنوعات كثيرة نحرص على عدم فقدها. كما أن عدم تسجيل الأمانات سوف يعطى فرصة للنقود السائلة التى معنا أن تختفى، وأن تستخدم من أغراض ممنوعة. هو يعرف كل ذلك ويتحمل مسئوليته باعتباره مرتبطاً بنظام السجن ومسئوليته فيه. لكنه لا يستطيع التغاضى ابداً عن الكشوف الواردة من المباحث العامة. وألمح إلى أن تلك مسألة يمكن معالجتها فيما بعد. لكننا الآن أمام حد السكين، وعلينا تفاديه.
كان الكلام منطقياً والصفقة معقولة. دخلنا بكل ما معنا. لكن التسكين لم ينفذ حرفياً كما جاء، وإن بدا كذلك.
أجرى ضابط العنبر، فيما بعد، تفتيشاً يكاد يكون شكلياً لتأكيد أن ممنوعات لم تدخل السجن مع الترحيلة. وتوجه كل من معه أمانات إلى الإدارة لتسليمها وتسجيلها.
العنبر الذى نحن فيه مثير للدهشة. الدور الأرضى ملىء بالأجانب المحبوسين على ذمة قضايا أو فى طريقهم للترحيل خارج البلاد. سجناء الإصلاحية لا تبدو عليهم ذرة من إصلاح. هم فى عنبر مستقل عنا، لكن البعض منهم نوبطشية يخدمون فى عنبرنا. والبعض منهم مدانين بأحكام تصل إلى مائة عام. والبعض أطلق لحيته وأدعى «المشيخة». لكنهم يتعاملون معنا باحترام شديد. تلك هى المرة الأولى التى يجيىء فيها شيوعيون، كما يبدو، فى هذا المكان. إنهم يجلوننا لأننا وقفنا أمام الحكومة التى يخافها الجميع. وتلك لديهم كبيرة للغاية.

* * * *

استدعى ضابط العنبر زميلنا مسئول الاتصال بالإدارة. أخبره أن لدى المباحث العامة تأكيدات أن التسكين لم ينفذ، وأن هذه المسألة قد وضعت الإدارة فى حرج شديد. وأنه يلزم الالتزام به. ووعده زميلنا بالمحاولة.
رفض الزملاء جميعاً الالتزام بتسكين المباحث العامة. يكفى أن يكون

المرء مقهوراً بالسجن، فلا يضاف إليه قهر المباحث العامة بتسكينه فى زنزانة مع أناس لا يرغب فى معايشتهم ليل نهار.
جاء مأمور السجن إلى العنبر وحوله كوكبة من ضباطه وصولاته وشاويشيته والسجانة. جاء بكل هيلمانه. وانطلقت زعقة شاويش الدور الأرضى: انتباه، قوية تتبىء بوصوله. وساد التوتر الشديد العنبر. وقف أمام أحد الزنازين وطلب أن يتعرف بسكانها. كان يود أن يطابق الموجودين بكشف التسكين الذى يحمله ضابط العنبر. طلب من الزملاء أن يظلوا فى الزنازين حتى ينتهى «المرور».
واشتدت المناقشة بين المأمور وزملاء الزنزانة يوضحون له موقفهم. غير أنه أعلن أنه لم يحضر إلى العنبر للمناقشة ولكن للتنفيذ.
وبدأ الزملاء يخرجون من الزنازين. وفجأة هتف أحدهم بكل قوة:
-تسقط الإدارة المجرمة.
وردد البعض الهتاف فدوى فى العنبر كله. كان ذلك تصرفاً فردياً، لم يتم الإتفاق عليه، وكان دفعاً للأوضاع فى السجن إلى أزمة عاصفة لم نعد أنفسنا لها. ووجدت الزملاء يتقاطرون من الأدوار العليا. ورأيت أحدهم يدفع بالزملاء إلى أسفل، بينما يتراجع هو إلى أعلى، بعيداً عن ما يحدث، وهو يقول:
-تقدم يا رفيق. تقدم يا رفيق.
إنه يغطى انسحابه بشعار ثورى. وعجبت مما يجرى. وحاولنا وقف الأمر، ودفع الزملاء إلى الزنازين. غير أن الوضع تفاقم أكثر وأكثر.
كان الجنود قد أحاطوا بضباط السجن، وفى القلب منهم المأمور، لحمايتهم من أى احتمال. وأسرع زملاء منا يفعلون المثل. وأعلن سيد والى مأمور السجن:
-بقه أنا إداره مجرمه. طيب. أنا هوريكو الإداره المجرمه تبقه إزاى.
واندفع وضباطه وجنوده خارج العنبر.
وارتفعت الصفارات فى السجن كله. وأحسسنا أن سحابة سوداء تحلق فوقفا. وزعق ضابط العنبر:
-كل مسجون يخش زنزانته.
كان ذلك النداء نذيراً. وقد حاول الزملاء مقابلته للتفاهم فرفض.

أغلقت الزنازين. وهرع الجميع إلى تأمين أوراقهم وإخفاء ما لديهم من ممنوعات. همس شاويش الدور للزميل مسئول الإدارة، بأنهم قد أغلقوا الزنازين على جميع المسجونين فى السجن. وأنهم قد أستدعوا القوات الاحتياطية من المنطقة. وأعلنوا الحالة (ج).

شخص واحد واندفاعة هوجاء فتحت أبواب الجحيم.

خرجنا بعد الظهر إلى دورة المياه، لكننا لم نخرج إلى الحوش للطابور. وكان ذلك إنذارًا آخر، مؤشرًا آخر أن هنالك ما يدبر لنا. تفاوضنا سريعاً. إذا حدث شىء، اعتداء علينا مثلاً، فلابد من المقاومة.

دق جرس تمام المساء. الزنازين مغلقة. سمع صوت مفتاح بوابة العنبر فى قفله. هذا أمر غير معتاد. من الذى يدخل العنبر بعد التمام!

المفروض أن الضباط حميعاً وعلى رأسهم المأمور، باستثناء الضابط النوبطشى، قد ذهبوا إلى بيوتهم.

ارتفع دبيب أقدام فى صمت العنبر. لنا زنزانتان فى الدور الأرضى. فجأة ارتفع صراخ مدوى، وصوت كعواء ذئاب. ودوت صيحة فى العنبر:

-المأمور بيهاجمنا فى الدور الأرضى بالكلاب البوليسية.

وتحول الصمت إلى زلزال. دقات «القروان» و»الأطباق» على الأبواب وعلى حديد النوافذ، وفى بعضه البعض يهدد كالبركان. وارتفع العواء ليصبح هريراً مذعوراً وعلت الهتافات:

«تسقط الديكتاتورية العسكرية» «تسقط الفاشية» «عاش كفاح الشعب المصرى». «عاش كفاح الطبقة العاملة» «عاش كفاح الشيوعيين».

وعاد الصمت إلى الدور الأرضى. وهمس السجان، خفير الليل فى العنبر:

-دول مشيو. غارو فى داهيه همه وكلابهم.

وطلب منه الزميل مندوبنا عند الإدارة:

-عاوزين نطمن يا شاويشنا على زملاتنا فى الدور الأرض.

-حاضر. بس لما اتأكد إنهم مشيو خالص وسابو السجن.

-همه لسه فى السجن.

-أنا سمعت من الحرس إنهم عاملين اجتماع فى الإداره.

وارتفعت أصوات من الدور الأرضى:
-يا زملا. دول هاجمونا بالكلاب المتوحشه. وأحنا قاومنا، لكن فيه إصابات. عاوزين علاج وإبلاغ النيابه فوراً.
لم يكن ممكنا الآن، وفى هذا الوقت، أن تجرى الإدارة علاجاً، أو تبلغ النيابة. فالقاتل لا يعالج ضحيته أو يحاول إنقاذها. كما أنه لا يبلغ النيابة عن جريمته. ولكن كان علينا أن نحاول وأن نضغط وأن نهدد، حتى توقف، على الأقل، مثل تلك الأعمال الإجرامية البربرية..
وقال زميلنا لخفير الليل:
-عاوزين نقابل المأمور فوراً.
-بلاش المأمور دلوقت. الضابط النبوطشى أحسن.
بعد فترة أعلن خفير الليل أن الضابط النوبطشى موجود فى حجرة ضابط العنبر وأنه على استعداد لمقابلة واحد فقط مندوباً عنا جميعاً.
مر الزميل سريعاً على حجرات قيادات التنظيمات المختلفة، والذين اتفقوا على نقاط ثلاث: الإصرار على رفض التسكين. إرسال الزملاء المصابين إلى المستشفى للعلاج. استدعاء النيابة للتحقيق.
واتخذ الضابط موقفاً حاسماً. ليس هنالك مجال للنقاش قبل تنفيذ التسكين. أوضح زميلنا أننا إما سجناء أو تحت التحقيق، أى تابعين لمصلحة السجون أو النيابة العامة. وبذا فنحن فى كل من الحالتين لسنا تابعين للمباحث العامة، ولا يحق لها التدخل فى شئوننا. وخضوع إدارة السجن لها يجعلها المسئول المباشر عما يحدث لنا نتيجة مؤامراتها، والتى سنقاومها مهما كان الثمن. إن الإدارة هى التى ستحاسب عما سيحدث الليلة، أو ما يمكن أن يحدث مستقبلاً، وحينئذ ستتخلى عنها المباحث العامة، بل وتقدمها كبش فداء.
وأسقط فى يد الضابط النوبطشى. لم يكن مستعداً لمثل هذا المنطق. لكنه أمسك بنقطتين، الأولى أننا نحن من دفع الوضع إلى ما هو عليه. لقد قابلتنا الإدارة بكل ترحاب، فكان ردنا عليها هو الإساءة وإعلان ما يشبه التمرد. والثانية أننا اضعنا هيبة الإدارة أمام السجناء الجنائيين وأمام المباحث العامة مما زاد من تدخلها وتشددها.
وأكد زميلنا أن التسكين سوف يكون مصدر اضطراب وتوتر لنا ولهم.

ولخص الضابط الموقف فى خيارين، تنفيذ التسكين، والتفاهم مستقبلاً
على كيفية التصرف فيه، وسوف يصاحب ذلك بقاء الفسح والطوابير
وأبواب الزنازين مفتوحة طوال اليوم والزيارات والتعامل مع الكانتين أو
الإصرار على رفض التسكين ومعنى ذلك تنفيذ التكديرة التى قررتها
الإدارة بالفعل. الإغلاق طوال اليوم باستثناء ربع ساعة صباحاً ومثلها
مساء من أجل دورة المياه. لا طوابير، لا زيارات، لا تعامل مع الكانتين.
وفى حالة القبول بالخيار الأول، سوف يكون هنالك تكديرة محدودة، إذ
لا يمكن ترك ما حدث يمردون رد فعل.
ورد زميلنا بأن ما حدث منهم من إصابات وعدوان بالكلاب البوليسية لن
يمر مرور الكرام أيضاً. وطالب بنقل المصابين إلى المستشفى،
واستدعاء النيابة للتحقيق.
وقال الضابط أنه بما عرض قد تجاوز حدود سلطاته، وما اتفقت عليه
الإدارة الليلة. وهو يخاطر بتصرفه هذا لأنه لا يود أن تتفاقم الأمور.
وتفاقمها سيعود علينا أساساً بالضرر، فالوزارة ليست على استعداد، بناء
على الأوضاع الحالية، أن ترخى للبعض وتشد مع الآخرين. وأن مجيئنا
إلى هنا هو تمهيد لذلك. ولذا يستحسن ألا نعطيهم المبرر للهجوم علينا.
وقال لرفيقنا، ضعوا كل الأوضاع فى كفة، والتسكين فى الكفة وأحسبوها
جيداً. إن التسكين يمكن معالجته فى ظل وجود الأوضاع الأخرى. أما
الأوضاع الأخرى فلا يمكن معالجتها فى ظل العصيان وكسر هيبة
الإدارة برفض التسكين.
ولا ثبات حسن نيته قال أنه سيسمح لزميلنا برؤية زملاء الدور
الأرضى، وإحضار طبيب لهم من زملائنا. أما النيابة فإن الإدارة لا
تستدعيها إلا فى حالة الوفاة فقط. وهى حالة لم تحدث حتى الآن.
ليحضر الطبيب دون ضجة ودون إعلان ومعه أدوات الإسعاف الأولية.
وليكن الحديث الذى دار فيما بينهما قاصراً على من يثق فيهم زميلنا مائة
بالمائة وليس تسعة وتسعين بالمائة.
-أنا بتصرف على مسئوليتى تماماً. وأرجو أن نتيجة دا متكونش دخولى
العنبر معاكو. وغادر بعد أن أمر خفير الليل بفتح زنزانتى الدور
الأرضى.

* * * *

ما أن فتحت الزنزانتين حتى ووجه الزميل المندوب بعاصفة من الاحتجاجات والاتهامات على تراجع القيادات وتخاذلها. وصبر الزميل حتى هدأوا.
-أولاً نشوف الإصابات ونعالجها.
وانهمك الزميل الطبيب فى مداواتها وهو يتمتم:
-الحمد لله. حاجات سطحية كلها.
وصرخ فيه أحدهم:
-المشكلة مش فى الإصابات، المشكلة فى السلوك البربرى. فى الهمجية.
كان هو بعينه الزميل الذى هتف بسقوط الإدارة المجرمة قبل أن تكون «مجرمة».
وقال الزميل الطبيب:
-أنت اللى جرتنا للى أحنا فيه دلوقت. أنت اللى استفزيت الإداره دون مبرر، ودون أى مسئوليه. أنت متصور أن البطوله جعجعه. أنت بتقول أن تصرف الإدارة تصرف همجى وبربرى، وأنت تصرفك كان إيه؟ ثورى؟ بلشفى؟ ومين اللى أداك الحق إنك تحطنا كلنا فى الوضع دا.
وحاول الزميل أن يحتج فأمسك به باقى الزملاء.
-خلينا فى العلاج دلوقت.
وتدخل الزميل المندوب.
-يا زملا الوضع اللى أحنا فيه وضع خطير جداً. وأحنا اللى أديناهم بإيدينا مبررات الهجوم علينا. ومسئولية الزميل اللى لسه بيعملنا الثوريه مش هتمر من غير حساب.
أنهى الزميل الطبيب مهمته فغادرا.

* * * *

ترك خفير الليل الزميل المندوب يمر على بعض الحجرات حيث العناصر القيادية للتنظيمات المختلفة. عرض عليهم ملخصاً لما دار بينه وبين الضابط النوبطشى والاحتمالات الواردة وقرار التكديرة. الاختيار محدود. وأبدى رأيه بأنه لا داعى لإعطاء المباحث العامة فرصة التصعيد واستعداء الإدارة علينا. لنتراجع اليوم خطوة لنا لنكسب خطوات فى المستقبل. إن الأولوية الأولى التى يراها الآن فى مهامنا هى الوحدة. والتسكين سيكون معوقاً محدوداً إذا قيس بالتكديرة التى سوف تنهى كل

شىء، المعركة فى الداخل والاتصال بالخارج. وتطرح أولوية جديدة هى الصراع مع الإدارة من أجل الظروف الحياتية. وطالب أن يناقش كل تنظيم تلك الأوضاع. وأن يصل إلى قرار نناقشه معاً أثناء فسحة الصباح، لأن التكديرة سوف تبدأ بعدها مباشرة.

* * * *

فى الصباح الباكر هاجم السجانة وضابط العنبر الزنازين فى حملة تفتيش تعلن بداية التكديرة. وحاول بعض السجانة تفتيش الزملاء ذاتياً، فأحتجوا على ذلك، فطلب ضابط العنبر من السجانة الاكتفاء بتفتيش الزنازين. وكان ذلك التصرف منه إشارة إلى أن الإدارة يمكنها فعل هذا وذاك. والأمر بيدها.

عندما وصل التفتيش إلى الزنزانة التى يوجد بها الزميل المندوب مال عليه ضابط العنبر وهمس:

-عملتو إيه فى كلام الضابط النوبطشى معاك إمبارح؟

-مش معقول نلحق نعمل حاجه بالليل. بعد طابور الصبحيه إنشاء الله.

-ما هو مفيش طابور صبحيه. ما حنا ابتدينا.

-يبقه أنتو كده مش عاوزينا نوصل لحل.

فكر الضابط ملياً:

-شوف يا سيدى. أحنا هنقفل بعد فسحة دورة الميه. لكن الشاويش هيخلى زنزانه كبيره مفتوحه. وأى حد أنت عاوزه يجيبهولك فى الزنزانه دى.

-الطريقة دى هتفرض التوتر على العنبر.

هز الضابط رأسه.

-على فكره الطريقه دى على مسئوليتى الشخصيه. وربنا يستر.

* * * *

اجتمع الزملاء من التنظيمات المختلفة، ودار حوار عاصف قال الذين يرفضون معركة الوحدة أن التراجع سوف يؤدى إلى تراجع. وأن الإدارة لن تقف عن حد التسكين. وإن اكتفت هى فلن تكتفى المباحث العامة.

وقال الآخرون أن كل شىء يتوقف علينا. ويجب ألا ننسى أننا نحن الذى بدأنا الاستفزاز، فى الوقت الذى تعاملت فيه الإدارة معنا بمرونة عالية، لكنها لا تستطيع تجاهل تعليمات المباحث العامة، فهى السلطة التى تعلو

كل السلطات.
وأنتهى الاجتماع بقبول التسكين حالياً، وتفويض الزميل المندوب بالتصرف فى ضوء ما جرى أمامه من اتفاقات، على أن ينفذ التسكين، منعاً للاستفزازات المتبادلة، بمعرفة ضابط العنبر وشاويش الدور والزميل المندوب.

* * * *

1 نوفمبر 1954: اصدر مجلس قيادة الثورة أمراً بتأليف محكمة مخصوصة، سماها «محكمة الشعب» لمحاكمة الأفعال التى تعد خيانة للوطن أو ضد سلامته. ثم تشكلت ثلاث دوائر فرعية لمحكمة الشعب، لنظر قضايا الإخوان المسلمين المشتركين فى حوادث الاغتيال والإرهاب.
وعددهم حوالى سبعمائة شخصاً.

* * * *

14 نوفمبر 1954: إعفاء محمد نجيب من جميع المناصب التى كان يشغلها، واستمرار منصب رئاسة الجمهورية شاغراً.

* * * *

22 ديسمبر 1954: حل نقابة المحامين.

* * * *

الفصل الثامن عشر

الحزب الشيوعى الموحد- المحاكمة 1955

المناقشات حول وثائق الحزب، والمفاوضات حول إجراءات الوحدة جارية على قدم وساق فى الداخل والخارج. الكادر الوسيط وزملاء القواعد يمسكون بالمعركة بالنواجذ.

تم الانتهاء من الوثيقة السياسية، وقد تضمنت إدانة لموقف حدتو من حركة الجيش التى وصفت بأنها انقلاب أمريكى، يحكم حكماً ديكتاتورياً عسكرياً.

مندوب حدتو فى لجنة الوحدة يرى أن الوثائق مجرد أوراق، وأن الحقيقة فى الشارع وحده، فى الفعل والعمل الجماهيرى. ويعتبر هو وبعض قيادات حدتو، أن الوثيقة السياسية هزيمة سياسية لحدتو. وأن تلك لابد وأن تقود إلى هزيمة تنظيمية.

الوحدة تتم فى ظل جذر سياسى لقيادة حدتو، وهجوم عنيف عليها من داخلها ومن خارجها.

ورأى مندوب حدتو فى الوثيقة التنظيمية ورقة ليبرالية، فقد اعتادت قيادات حدتو أن تجمع بين النقيضين، الاتصالات الجانبية والشللية من أسفل، والقبضة الحديدية من أعلى. لذا رأى مندوب حدتو فى احتواء الوثيقة التنظيمية على حقوق ديمقراطية تضمن مشاركة الأعضاء فى اتخاذ القرارات، كالكونفرنسات والمؤتمرات والطرح العام على القاعدة، ليبرالية.

وبسبب الضغوط الداخلية والخارجية وافقت حدتو، فيما يتعلق بإجراءات الوحدة، وخاصة تشكيل اللجنة المركزية، أن يكون تمثيلها، وهى المنظمة الكبرى، هو النصف ناقص واحد. وأن يكون مجموع المنظمات الأخرى هو النصف زائد واحد، أى أن تكون حدتو أقلية فى اللجنة المركزية. وهذا ما رآه مندوب حدتو هزيمة تنظيمية نتيجة للهزيمة السياسية.

أتفق على أن تكون اللجنة المركزية ثلاثة وعشرين عضواً. منهم أثنى عشر للمنظمات الأربع وهم:

نواة الحزب الشيوعى: فوزى جرجس، بهيج نصار ومحمود العالم.

النجم الأحمر: عدلى جرجس، أحمد خضر وعبد المنعم شتلة.
التيار الثورى: حمدى عبد الجواد، فؤاد عبد الحليم وعيد سيد أحمد.
طليعة الشيوعيين: فخرى لبيب، عبد الله كامل وعمر مكاوى.
وأعضاء حدتو الأحد عشر هم:
زكى مراد، محمد شطا، مبارك عبده فضل، أحمد الرفاعى، محمد على عامر، محمد يوسف الجندى، شهدى عطية، فؤاد حبشى، سعد رحمى.
وهنرى كورييل عضواً ملعقًا العضوية لحين بحث مشكلته.
واستبعد كمال عبد الحليم بسبب بيان السجن الحربى.
أقرت الوثيقتان السياسية والتنظيمية، رغم بعض تحفظات من حدتو. وتم الاتفاق على كل شىء، ولم يعد باقياً غير إعلان الحزب الشيوعى المصرى الموحد.
وفجأة بدا وكأننا نتراجع ولا نتقدم. أخذت حدتو تطالب بعدم «العجلة» فى إعلان الحزب. ولم تعد تهتم بحضور الاجتماعات. وكان لابد من التحرك السريع وإلا أفلت الزمام وذهب كل الجهد الذى بذل هباء.
وتناقشنا معاً، المنظمات الأربع غير حدتو، ومع كادرات أساسية فى حدتو ذاتها. وسرعان ما تم الاتفاق على ضرورة إعلان الحزب الشيوعى الموحد فوراً، قطعاً لخط الرجعة التى تود حدتو السير فيه.
5 فبراير 1955: ساد التوتر السجن. اليوم تتخذ الخطوة المحسوبة طبقاً لمعرفتنا إلى حد كبير، بردود الفعل المحتملة. اجتمعنا نحن ممثلو التنظيمات الأربعة: الطليعة، النجم، النواة، التيار الثورى وأعددنا بيانا مشتركاً، ناقشناه بكل تدقيق. وانتهى الاجتماع بإعلان الحزب الشيوعى المصرى الموحد، والدعوة إلى اجتماع موسع مفتوح للاستماع إلى القرار الذى توصلنا إليه. وسرعان ما تقاطر الزملاء على الزنزانة الكبيرة التى حددناها مكاناً للقاء. الفرحة طاغية، والزملاء يهنئون بعضهم البعض، بل إن عدداً من زملاء طليعة العمال والحزب الشيوعى (الراية) هنأوننا بهذا النصر. وقد اشتمل البيان على مقدمة حول معركة الوحدة ومسارها، والإنجازات التى حققتها والعقبات التى لاقتها مؤخراً من قيادة حدتو ومسارها، واضطرارنا لإعلان الوحدة دونها إنقاذاً للجهد الذى بذل، وتتويجاً له، على أننا ملتزمون بكل ما تم الاتفاق عليه والباب

مفتوح أمامها. ودوى التصفيق وارتفع الهتاف: عاش الحزب الشيوعى المصرى الموحد.

واستمر بيان الإعلان. إن تكوين الحزب الموحد ليس إلا خطوة تاريخية على طريق الوحدة الشاملة. ونحن ندعو من هم خارج الحزب للدخول معنا فى مفاوضات جادة من أجل الحزب الواحد لكل الشيوعيين المصريين.

أعلن محمد المستجير، مسئول منظمة وحدة الشيوعيين، أنه يعلن طلب إنضمامه الشخصى رغم موقف منظمته بعدم الدخول. ودوت عاصفة من التصفيق. أما المفاجأة العظمى فقد جاءت من زملاء المنظمة الشيوعية المصرية (م.ش.م) نيقولا غازيس (اليونانى) والبرير محمد حامد (السودانى) اللذين نطقا بالكلام بعد طول مقاطعته، وطلبًا الانضمام إلى الحزب الموحد، فجلجل السجن بالتصفيق.

واجتمعت اللجنة المركزية للحزب الموحد، لتؤكد وجود القيادة، وتشكل اللجان القيادية. وتعلن قبول عضوية محمد المستجير ونيقولا غازيس والبرير محمد حامد. وقد تقدم عدد من أعضاء حدتو وكوادرها طالبين الدخول، غير أن طلبهم رفض على أساس أن موقفم داخل حدتو اليوم أكثر أهمية بكثير للضغط على قيادتها حتى تلتزم بالإتفاقات، وأن القضية ليست أخذ عضوية من حدتو ولكن مجىء حدتو بكاملها إلى الحزب.

طرقات العنبر وحجراته تموج بالفرحة، وقد أخذ نيقولا والبرير فى الرقص والزملاء يطبلون لهما على دلاء المياه. والضحكات تدوى فى كل مكان.

الهجوم شديد للغاية على قيادة حدتو من أعضائها وأعضاء المنظمات الأخرى، أعلن محمد على عامر عضو اللجنة المركزية بها أنه سوف يترك المنظمة.

أعلنت كوادر هامة من حدتو جهاراً من داخل السجن أنهم وبإصرار مع الوحدة أياً كان الثمن.

أعلنت القيادة المؤقتة فى الخارج أنها مع الوحدة.

وأصبحت حدتو مهددة بانفجارات جديدة.

ولم يعد أمام قيادتها إلا أن تعلن دخولها فى الحزب الموحد بعد حوالى

شهر من إعلانه. وبذا تشكل، ولأول مرة فى تاريخ الحركة الشيوعية المصرية، الحزب الشيوعى المصرى الموحد من خمس منظمات، بناء على معركة مفتوحة ناقش فيها الكادر وثائق هذا الحزب، وشارك فى كل خطوات وحدته بإيجابية وفاعلية.
وقد أعلن فوزى جرجس وهو الرجل الأول، فى منظمة نواة الحزب الشيوعى المصرى، أنه لا يوافق على الوحدة التى كان يجب أن تلتزم بالمنهج اللينينيى: النشرة العامة والمؤتمر التأسيسى. وأن الوحدة على النحو الذى تمت به، وحدة علوية، إنها اتفاق علوى دون مشاركة القواعد والكوادر. ويمكن ألا تعتبر وحدة، ولكن تواطأ بين القيادات.
وللحال أتخذ رفاقه قراراً بأن يحل حسين غنيم محله فى اللجنة المركزية للحزب الموحد. ولم يخرج مع فوزى من منظمته غير عدد محدود للغاية. مما يؤكد بالفعل أن المعركة كانت بين الكادر، وأن ذلك هو الذى حسمها لصالح الوحدة ولصالح تكوين الحزب الشيوعى الواحد فى مصبر.

* * * *

24 فبراير 1955: إعلان حلف بغداد بين العراق وتركيا. ورفض مصر دخوله.

* * * *

28 فبراير 1955: شنت إسرائيل هجوماً غادراً على غزة مساء، ونسفت قواتها محطة المياه وقتلوا 39 شخصاً وجرحوا 33 آخرين.

* * * *

صدر قرار الإتهام عن النيابة العمومية فى قضية الجناية العسكرية العليا المتهم فيها فخرى لبيب (متهم أول)، ومحمد محمود عثمان (متهم ثان)، (مع عدم اتهام صلاح هلال، مما يعنى الإفراج عنه).
وقد جاء فى قرار الإتهام إنهما:
«أولاً» أسسا وأدارا جمعية سرية بجمهورية مصر ترمى إلى قلب النظم الأساسية، الاقتصادية والاجتماعية. والقضاء على النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية، وإلى سيطرة طبقة اجتماعية على غيرها من الطبقات، والقضاء على طبقة اجتماعية. وكان استعمال القوة والوسائل غير المشروعة ملحوظاً فى ذلك، بأن انضما إلى جمعية سرية باسم «طليعة

الشيوعيين المصريين» تعمل على القضاء على طبقة الملاك والرأسماليين، وسيادة الطبقة العاملة وحكمها المطلق، وإلغاء الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج ونقلها للدولة. كل ذلك عن طريق خلق مجتمع مصرى على غرار الوضع القائم فى روسيا بالأسلوب الثورى الذى اتبعه لينين وستالين فى الثورة الروسية، وبتحريض العمال على الاغتصاب والاعتداء على حقوق الغير، وتحريضهم على بعض طائفة الملاك والرأسماليين تحريضاً من شأنه تكدير السلم العام.

«ثانياً»: روجا فى جمهورية مصر لتغيير مبادىء الدستور، وقلب نظم الدولة الأساسية. الاقتصادية والاجتماعية. وإلى تسويد طبقة اجتماعية على غيرها من الطبقات، والقضاء على طبقة اجتماعية. وكان استعمال القوة والوسائل غير المشروعة ملحوظاً فى ذلك بأن أسساً وأدارا الجمعية سالفة الذكر، التى تعمل على ترويج الأفكار التى تدعو إليها، وعلى تحبيذ المبادىء التى تدعو إليها هذه الجمعية، وتوزيع النشرات التى تصدرها منضمنة الدعوة لمبادئها.

وطلبت فى المحكمة معاقبة المتهمين بالمادتين 98أ و 98 هـ للجناية و 98 ب و 98 ج للجنحة من قانون العقوبات.

* * * *

سعدنا للغاية لإفلات صلاح هلال من المحاكمة والسجن. فهذا يعنى خروجه إلى الحياة قريباً. وهو مناضل جماهيرى، يشكل ثروة لنا فى الخارج.

وكان علينا أن نناقش موقفنا فى المحاكمة بناء على قرار الاتهام واحتمالات الإدانة أو الإفراج.

سوف ننكر أمام المحكمة معرفتنا بأية مضبوطات وجدت معنا. لكن علينا أن ندافع عن أفكارنا، ندافع عن إيماننا بالديمقراطية والاشتراكية والإنحياز إلى قوى الشعب، إلى العمال والفلاحين. علينا أن نتحدث عن رؤيتنا السياسية فيما يتعلق بالنظام الحاكم فى مصر. وأن نقدم دفاعاً سياسياً ينقسم إلى قسمين: قسم يعبر عن رؤيتنا للسياسة الخارجية يقدمه محمد عثمان فى دفاعه السياسى، وقسم يعبر عن رؤيتنا للسياسة الداخلية أقدمه أنا فى دفاعى السياسى.

وتم الاتفاق على أن تلك هى النقاط الرئيسية فى الدفاع السياسى، وهو

دفاعٍ واحد يكمل بعضه البعض، وإن لم يستطع أحدنا أن يلقى دفاعه كاملاً، لأى سبب من الأسباب، فعلى الآخر محاولة استكماله.

* * * *

18-24 إبريل 1955: انعقد مؤتمر باندونج فى أندونيسيا. شاركت فيه دول آسيا وأفريقيا المتحررة، ومصر يمثلها جمال عبد الناصر. وقد لعبت مصر دورًا بارزًا فى إنجاحه.

اتخذ المؤتمر قرارات هامة تدعم حقوق الإنسان، وسيادة الأمم، وعدم التدخل فى شئونها الداخلية، وحقها فى الدفاع عن نفسها، وتسوية النزاعات سلمياً، وتنمية المصالح المشتركة، والتعاون المتبادل، واحترام العدالة والالتزامات الدولية.

ووضع المؤتمر قواعد للتعاون الاقتصادى والثقافى بين شعوب آسيا وأفريقيا وكذلك قواعد للسلم العالمى، واستنكر سياسة التمييز العنصرى، وأعلن محاربة الاستعمار بكل أشكاله ودعا إلى التعايش السلمى.

* * * *

27 سبتمبر 1955: أعلن عن صفقة أسلحة عقدتها مصر مع تشيكوسلوفاكيا. وقد عرفت باسم «صفقة الأسلحة التشيكية».

* * * *

جاء المحامى المنتدب لزيارتنا. هو عضو سابق فى حزب أحمد حسين الاشتراكى. حاول أن يخبرنا بذلك حتى يطمئنا على موقفه السياسى. إلا أن ذلك آثار قلقنا. فحزب أحمد حسين ليس بحزب اشتراكى، إنه حزب فاشى، استمد اشتراكية من نازية هتلر وإنجيله «كفاحى». لذا كان موقفنا معه حاسماً. لا علاقة له بالسياسة فيما يخص قضيتنا. حذرناه من التعرض لأفكارنا أو ارائنا. وأننا لو أحسسنا بتدخله ولو تلميحاً، تدخلاً يسيء إلينا، فإننا سنوقفه فوراً ونعلن أنه لا يمثلنا، وأننا نرفض رفضاً باتاً دفاعه عنا.

طلبنا منه أن يقتصر دوره على الجانب القانونى فقط. وأهمية الدفع ببطلان القبض والتفتيش، حيث أننا لم نر أوامر قبض أو تفتيش مع من قبضوا علينا. وأننى اختطفت من الشارع إلى منزلى، الذى اقتحموه دون أى سند قانونى. كذلك تفنيد المضبوطات المدعى وجودها لدينا.

كان المحامى شاباً فى حدود الخامسة والثلاثين. استمع إلينا فى اهتمام

شديد، أو هكذا بدا. وعندما أنهينا كلامنا، أنا ومحمد عثمان، هز رأسه بالموافقة، وعلق:
-لكن القضية قضية سياسيه، ولازم كلمه فى السياسه.
-تمام واحنا اللى هنقول الكلمه دى.
برقت عيناه وبدا عليه الخوف.
-هتقولوا إيه؟
-هتمسعها فى المحكمه إنشاء الله.
-بس يعنى لو الكلمه كده ولا كده، ممكن اتإذى أنا.
-إنت محامى حكومى وشغلتك ومسئوليتك القانون. وأحنا متهمين شيوعيينٍ وشغلتنا ومسئوليتنا السياسيه. ما تقلقش.
-عموماً أنا هالتزم بالجانب القانونى، وربنا يجيب ما فيه الخير.
وأنصرف.

* * * *

تشكلت المحكمة العسكرية العليا التى ستجرى المحاكمة أمامها بأمر الحاكم العسكرى العام رقم 35074/100 الصادر بتاريخ 4/2/1952، بمقتضى السلطة المخولة له بالمرسوم الصادر فى 26 يناير سنة 1952، بإعلان الأحكام العرفية فى البلاد المصرية طبقاً للقانون رقم 15 سنة 1923 الصادر بنظام الأحكام العرفية.
تشكلت المحكمة برئاسة السيد الأستاذ محمود محمد عبد اللطيف رئيس الدائرة، وبحضور السادة الأستاذين على إبراهيم الزمزى وفرح يوسف المستشارين بمحكمة استئناف القاهرة، والضابطين البكباشيين منير جرجس إلياس وهاشم سعيد العربى، وبحضور السيد الأستاذ أحمد على موسى ممثل النيابة العسكرية العليا، وبحضور السيد إبراهيم عبد الحميد أبو علم كاتب المحكمة.

* * * *

بدأت المحاكمة بجلسة إجراءات يوم 7 يونيو 1955.
ثم تحددت جلسة السبت 15 أكتوبر عام 1955-6 ربيع أول 1375.
وجرى ترحيلنا قبل موعد الجلسة بيومين من سجن إصلاحية الرجال بالقناطر الخيرية إلى سجن الاستئناف بباب الخلق بالقاهرة. وهو سجن يقع خلف المحكمة مباشرة.

كنا خمسة أشخاص: فخرى لبيب ومحمد محمود عثمان (قضية طليعة الشيوعيين المصريين)، نسيم يوسف وشوقى مجاهد (قضية طليعة العمال) وفوزى حبشى (قضية النجم الأحمر).

* * * *

15 أكتوبر 1955: نادى الشاويش السجان، فى الصباح الباكر، أسماءنا وزعق وراءها «جلسة». وان ذلك يعنى الاستعداد للانتقال إلى المحكمة. أفطرنا سريعاً. شرب الزملاء الشاى ودخنت أنا سيجارتين واحدة وراء الأخرى. كنا نضحك ونتبادل النكات، غير أن توتراً كان يسرى هنالك تحت السطح. المحاكمات التى سبقتنا نال فيها زملاؤنا خمس سنوات وعشر سنوات أشغال شاقة وسجن عادى. ومن حكم عليهم بالأشغال الشاقة رُحلوا إلى ليمان طره ومنه إلى منفى «جناح» بالواحات الخارجة. أى حبس وراء الشمس وخارج الزمن. ماذا سيجرى اليوم فى تلك الجلسة التى سأواجه فيها لأول مرة فى حياتى شخصاً يرتدى ثياب الأرباب ويملك تحديد مصيرى.

أخرجت ومحمد دفاعاتنا السياسية من مخابئها، ووضعناها فى مكان آمن من ملابسنا، يسهل الوصول إليه. إننا سنلقيها شفاهة، فإن أوقفونا أو قاطعونا، قدمنا الدفاعات المكتوبة. لكننا لن نبدأ ابداً بتقديمها مكتوبة لأن المحكمة سوف تمنعنا حينذاك من الكلام اكتفاء بالأوراق.

فى مبنى الإدارة كان هنالك خمسة جنود فى معصم كل منهم فردة قيد حديدى، والفردة الأخرى السائبة وضعها فى معصم واحد منا. لنسير نحن العشرة وحولنا حراسة مشددة بقيادة ضابطين شابين، عبر دهليز يصل سجن الاستئناف بمبنى المحكمة. كانت عائلاتنا هنالك، فتقاطرت علينا. كانت هنالك أمى ومعها رأفت. وما أن رأتنى حتى هرعت نحوى تنادى اسمى والهلع يرسم ملامحها. وما أن وقع بصرها على القيد فى معصمى حتى دقت صدرها وهى تصرخ:

-إيه دا يا بنى؟

وبدأ الحرس يدفعون بأهلنا بعيداً عنا. فصحنا بهم أن يتركوهم، فأخذوا فى دفعنا نحن داخل المحكمة، إلى ذلك القنص الحديدى الذى يجاور المنصة، قفص الاتهام، وقد أحاط به وبنا الحراس. وحاول المحامون أن يتحدثوا معنا فمنعهم الحراس فصحنا بهم وصاح المحامون معنا. فسمح

لهم الضابطين بالحديث معنا. وساد قاعة المحكمة ضوضاء رهيبة. فقد أخذنا نخاطب أسرنا عن بعد، وأمى تقول لى أن أبى يهدينى السلام، ويأسف لأن ظروف عمله منعته من المجىء. ورأفت يسألنى عن أحوالنا، وأنا أقول أن الأحوال رديئة لكننا نحن حديد في حديد. رجال المباحث ملأوا القاعة وأحاطوا بالعائلات. غير أن أحداً لم يبالى بهم. فالعائلات تشعر بعداوة حقيقية لهؤلاء الذين وضعوا أبناءهم وراء القضبان. وفجأة علت زعقة داوية. قالها الحاجب فصمت الجميع إلا من همسات خافتة. واحتلت هيئة المحكمة المنصة.

وبدأت إجراءات المحاكمة.

طلب الرئيس شهود الإثبات. فظهر البكباشى حسن المصلحى، ثم من بعده اليوزباشى محمود مراد. وقد تحدثا فى شهادتهما عن المعلومات التى حصلا عليها عن نشاطنا ومتابعتهما لنا ولمطبوعاتنا ومنشوراتنا وخطاباتنا إلى زملائنا فى السجن، وحضورى من طنطا إلى القاهرة بانتظام لعقد اجتماعات اللجنة المركزية، والمضبوطات التى عثر عليها لدينا: رونيو، وأعداد مطبوعة من مجلة «الصراع»، وأوراق خطية، وما جاء فى كل ذلك من حض على كراهية نظام الحكم، وتأليب طبقة على أخرى، والسعى إلى قلبه باستخدام القوة والعنف.

وسألهما رئيس المحكمة عن مصدر معلوماتهما. فأعلنا إنهما لا يستطيعان الافصاح عنها حيث أن ذلك من ضرورات العمل وسريته. ولم يلح عليهما رئيسٍ المحكمة. كان واضحاً أن السؤال روتينى، وأن الإجابة روتينية أيضاً.

ثم نودى على شهود النفى. ولم أكن أعرف من هم هؤلاء. غير أننى فوجئت بخالى الأكبر وليم يتقدم إلى منصة القضاة ليحلف اليمين، وأنه سيقول الحق ولا شىء غير الحق. وسأله رئيس المحكمة عما لديه من معلومات. فتحدث فى ثبات مؤكداً أننى عندما كنت أجىء إلى القاهرة، كنت أجىء للدراسة فى معهد التربية حتى اتأهل تربوياً وأكون مدرساً ناجحاً. وأننى كثيراً ما كنت آتى إلى منزله وأظل به لحين موعد العودة إلى طنطا.

وسأله رئيس الجلسة:

-هل لديك أقوال أخرى.
فأجاب فى ثبات أيضاً:
-لا، دا كل اللى عندى.
علاقة خالى بالسياسة علاقة هامشية هشة. هو رجل أعمال ناجح. هو عميد عائلة والدتى، رغم أن عمره لا يزيد عن عمرى بأكثر من عشر سنوات. إنه أقرب إلى أن يكون أخى الأكبر. وأكبرت موقفه الشجاع الرائع هذا، وخشيت أن يصيبه ذلك بالضرر، فرجال المباحث العامة لا يقبلون أن يعترض طريقهم أحد. عندما أنهى شهادته جلس إلى جوار أمى وأخى. نظرت إليه أشكره بعمق، وإن كنت على يقين من أن شهادته لن تكون ذات أثر. المحاكمة سياسية، والأحكام تكاد تكون جاهزة. لقد عرض نفسه لخطر شديد لعله يعيننى فى «محنتى» وذلك أمر لن أنساه له أبداً.
كنت كلما نظرت إلى أمى أراها دامعة وقد ثبتت عينيها علىّ، وكأنها تلقى بنظرات ليست على يقين أن هنالك ما بعدها.
ثم ترافع ممثل النيابة العسكرية العليا مردداً ما جاء فى قرار الاتهام، مستنداً إلى شهود الإثبات، وما ضبط لدينا من أدوات طباعة ومطبوعات تؤكد دورنا القيادى لمنظمة شيوعية تسعى إلى قلب نظام الحكم والتحريض على استخدام العنف والقوة ثم انهى مرافعته مطالباً المحكمة بمعاقبتنا طبقاً للمادة 98 أ، ب،ج،هـ.
وما أن انتهى وكيل النيابة من مرافعته حتى اتجه القاضى إلينا أنا ومحمد يسألنا:
-ما قولك فيما هو منسوب إليك؟
وأجاب كل منا أننا سنرد على كل ما جاء على لسان شهود الإثبات أو مرافعة النيابة، فى دفاعنا السياسى الذى نتمسك بحقنا فى ممارسته تعبيراً عن قناعتنا السياسية.
كنا طوال الوقت نجلس على أهبة الاستعداد للانقضاض على أى شاهد أو على وكيل النيابة إن أساء إلينا أو إلى مبادئنا. وكنا على استعداد لمواجهة أى وضع كان، وألا نترك لأحد فرصة الإهانة أو التشهير. كنا نعرف أن بعض رجال المباحث العامة، وبعض وكلاء النيابة يخرجون

عن التناول القانونى إلى الإسفاف. وكان ذلك أمراً لا نقبل به البتة.
وأصدر رئيس المحكمة قراره بالتأجيل إلى جلسة 22/10/1955 للاستماع إلى مرافعة المحامين ودفاعات المتهمين.
وغادرت الهيئة المنصة.
ورفعت الجلسة.
وانطلقنا ننادى على الأهل. غير أن جنود الترحيلة والحراس عجلوا بخروجنا من القاعة إلى الدهليز إلى سجن الاستئناف.

* * * *

جلسنا فى الزنزانة صامتين. كل منا مشحون بدفقات عاطفية عارمة. أثارت رؤية الأهل والكلمات الحزينة الخاطفة أشجان عميقة. كانت هنالك الأمهات والزوجات والأخوات والأخوة والأبناء والبنات، البعض متماسك لكن الغالبية يرهقها المجهول. وقد أثارت شهادات الإثبات ومرافقة النيابة مخاوف عارمة فى نفوسهم، حتى أن حالهم بعد الجلسة كان اسوأ بما لا يقاس عما كانوا عليه قبل الجلسة. الشهادات أضفت علينا صفة الضالين فى طريق مسدود ولا مخرج ولا مفر. الإدانة قادمة قادمة، وعشرات السنين خلف القضبان فى انتظارنا.
الجالسون على المنصة اتشحوا بالصمت والمهابة، أغلبهم لم ينطق حرفاً، وإن شاء همس به فى أذن الرئيس أو وضعه على ورقة ومررها إليه. لا ملامح لوجوههم، ينصتون أو هكذا يبدون، فى تأمل. البعض يخط كلمات أمامه. الرئيس لم ينظر إلينا إلا لحظة سألنا رأينا فيما هو منسوب إلينا.
المحامون فى أرديتهم السوداء، يبدون وكأنهم فى جنازة أو جاءوا للعزاء. الذين بأجر يدونون أشياء فى أوراق أمامهم، وهم ينظرون إلى زبائنهم تأكيداً لمتابعتهم ويقظتهم، أما المنتدبون الحكوميون فغارقون فى الملل، شأنهم شأن أى موظف ينتظر جرس الإنصراف.
رجال المباحث العامة يتربصون يثيرون ذعر ضباط الترحيلات، فينصب خوفهم لعنات على جنود الترحيل، حتى لا يسمحوا لأحد بالاقتراب منا. هم أيضاً يلتصقون بقضبان القفص الحديدية يتلصصون، يحاولون سماع كل ما يقال، أو يراقبون حركة الأيدى لعلهم يمسكون بأوراق داخلة أو خارجة. وهم، تأكيداً لدورهم ينشرون الخوف والحذر،

أو التوتر فى أقل الأحوال، ونحن نتربص بهم، نهاجمهم بلا توانى، لفضح إندساسهم ونمزق الفزع الذى يبثون، ورضاء وارتياح خفى فى عيون ضباط الترحيلات.

قال شوقى مجاهد:

-إيه يا جماعه وحدوه.

ورد فوزى حبشي:

-أى والله، داحنا زى ما نكون لسه فى الجلسه.

وقال نسيم يوسف:

-نحضر الغدا. أنا شامم ريحة حاجات ومحتاجات.

واستجاب محمد عثمان باسماً:

-أيوه يا نسيم. يلا نشوف سوا الأكل قبل ما يبوظ.

قلت:

-ما تتسوش شاويش الدور، والراجل اللى عليه اعدام جنبينا.

يبدو هذا الرجل منهاراً تماماً. لا أحد يأتى لزيارته. ينظر أمامه وكأنه يراقب الفراغ، سوف يجيئه الموت من هذا المجهول. أنه يعيش فى زنزانة خاصة مبطنة حتى لا يصيب نفسه بأذى. والمصباح الكهربى يصب نوره وحرارته من خارج الزنزانة لا من داخلها أو سقفها حتى لا ينتحر، بصعق نفسه. الحكومة حريصة ألا يمون بيده، لابد أن تقتله هى بنفسها. أنه يسمع فى هذه الزنزانة صوت الطبلية وهى تدوى فى حجرة الإعدام مما يعنى أن ضلفتيها قد هوتا، إلى اسفل تحت قدمى المعدوم، فاندفع وراءها فى عجلة، وتعلق من رقبته فى حبل المشنقة فانقصفت رقبته واختنقت أنفاسه.

كانت زوجته كثيرة الشجار والنقار، فألزمها الصمت الأبدى. كان يقول وهو يبتسم ابتسامة ذاوية أنه قتلها دفاعاً عن النفس. كان يسخر من نفسه. وظل طويلاً يخشى الموت كلما سمع مفتاح باب زنزانته يلج قفلها ساعة الصباح، ثم استسلم. لم يعد يخشى أو يتعجل. اصبح مثل قطة أليفه يتمسح فى المساجين والسجانة، يطلب منهم المغفرة، وقراءة الفاتحة على روحه.

كانت إدارة السجن تعرض أفلاماً عربية ترفيهاً عن السجناء، فيجلس

إلى جوارنا صامتاً وقد ركز عينيه على الشاشة. لا يضحك، ولا ينفعل.
وكان الشاوسش يزغده أحياناً (هو يقصد زغزغته) وهو يقول:
-اضحك يا وله.
فيبتسم ابتسامته الذاوية، ويتركها هنالك معلقة فوق شفتيه.
كان فى الحقيقة قدمات مائة مرة، ألف مرة، ولم يبق غير الإعلان الرسمى عن وفاته، إعلان سوف يجرى ذات يوم عندما يرتفع العلم الأسود فوق سارية السجن خصيصاً له. وعندما تدق هيئة التنفيذ ذات صباح باكر، باب زنزانته، قبل أن تفتح كل الزنازين. ويخيم الحزن على السجن حتى صباح اليوم التالى.

* * * *

زارنا المحامون. فالجلسة القادمة هى جلستنا وجلستهم. قالوا أن الأستاذ محمود عبد اللطيف رئيس المحكمة رجل ممتاز، له شخصيته، ولا يخضع للضغوط، ويحكم بالعدل. ولذا علينا ألا نستفزه أو نسىء إليه. علينا أن نؤكد دوره قاضياً محايداً لا طرفاً فى الخصومة.
أثلج هذا الحديث صدورنا، فنحن لا نسعى إلى خصومة القاضى.

* * * *

22 أكتوبر 1955: صباح يوم السبت. ارتدينا ملابسنا التى أعددناها نظيفة مكوية لهذا اليوم. أفطرنا واحتسى الزملاء الشاى، بينما رشفت سيجارة فأخرى، وضعنا الدفاعات السياسية فى ملابسنا فى أماكن آمنة، فى متناول اليد.
ناقشنا بالأمس موقفنا اليوم. اتفقنا أنه عند صدور الآحكام على أحدنا أن يبدأ بالهتاف فنرد عليه جميعاً. اتفقنا أن يكون البادى هو من نال الحكم الأشد. كان زملاؤنا قد حكم عليهم أحد القضاة بتهمة جديدة تماماً، هى تهة الهمهمة فى القفص. كانوا قد هتفوا بعد الحكم عليهم، فلفقت لهم، من باب الإفراط فى العدالة والديمقراطية، قضية الهمهمة تلك. ونالوا حكماً عليها. غير أن ذلك لم يردعنا. وقررنا مواصلة هذا التقليد مهما كان الثمن. واتفقنا على الشعارات التى سنطلقها كما اتفقنا أن نطلب من الأهل ألا يرددوا الهتاف معنا حتى لا نعرضهم للضرر أو المضايقة.
فى الإدارة وضعت معاصمنا فى القيود. وأحاط بنا الحراس والضباط، لنسير فى موكب مهيب إلى المحكمة. كنا نسير بخطى واثقة نتبادل

النكات أمام دهشة الحراس. رهبة المحكمة انكسرت بعد المرة الأولى. غدا الأمر وكأن بيننا وبين القضاة والمحامين والأهل موعد لقاء فى ساحة المحكمة. دخلنا القاعة من باب خلفى، فإذا بها مزدحمة بصورة ما كنت أتصورها. أحاط الضباط والحراس ومخبرو المباحث العامة بقفص الاتهام الحديدى. امتطينا الأرائك الخالية من المساند، والتى يجلسوننا عليها وأخذنا ننادى أهلنا. كان والدى يقف هنالك إلى جوار نافذة للقاعة تطل على الشارع. ما أن رآنى حتى ابتسم مشجعاً، لكن الابتسامة كانت مغتصبة. كان واضحاً أنه فى حالة من التوتر الشديد رفع ذارعه إلى أعلى ضاماً قبضته، رسالة منه إلىّ، فصرخت بأعلى صوتى:

-إزيك يا والدى.

هز قبضته بقوة. رأيت أمى وأخى، مع آخرين، يتكأكأون يحاولون الوصول إلى القفص، والحراس يمنعونهم، وكذا أم محمد عثمان وأخوته، وأم نسيم يوسف وأخوته وزوجة فوزى حبشى وأخوة وأخوات شوقى مجاهد. الكل هنا. تحولت قاعة المحكمة إلى ساحة نزال، وتدخل المحامون لدى الضباط يطلبون منهم السماح لواحد أو واحدة من الأسرة بالحديث معنا، فأصروا على الرفض. فأصر المحامون على ضرورة أن يتحدثوا هم معنا، فسمح لهم بذلك. كنا نرى أهلنا ونستطيع محادثتهم عن بعد، لكننا كنا نود أن نخبرهم بأننا سنهتف بعد الحكم، ونطلب منهم ألا يرددوا البتة الهتافات معنا. عندما نجح المحامون فى الوصول إلينا، واستطعنا أن نهمس إليهم بما لدينا، هدأ الجو بعض الشىء. غير أن هيئة المحكمة لم تجد فى القاعة بضجيجها مكاناً مناسباً للمحاكمة، فعقدت الجلسة فى غرفة المداولة. وبدأ استدعاؤنا نحن والمحامون للمثول أمامها، فساد جو من الصمت والترقب.

استدعى فوزى حبشى ولم يلبث طويلاً حتى خرج.

اندفعت زوجة فوزى نحو القفص فأوقفها الحراس. كان المحامى قد وصل فطمأنها، لكنها صاحت:

-إيه يا فوزى؟

فصاح فوزى يرد عليها:

-الجو عموماً كويس.

جلست وهى ترقبه.
استدعى نسيم يوسف وشوقى مجاهد. سألت فوزى هامساً، كيف الحال؟
قال، استمع القاضى بانتباه شديد إلى مرافعة أحمد الخواجة المحامى.
سألنى بعض الأسئلة التى تؤكد نفى التهمة عنى وبراءتى.
أسعدنى هذا الكلام فهنأته مقدماً.
عاد نسيم وشوقى. كان منفعلين. قال نسيم:
-الراجل رئيس المحكمة، على آخر المرافعة يكون كتب الحكم.
وأكمل شوقى:
-واضح أنه دارس القضايا كويس قوى، ووصل فيها إلى وجهة نظر محدده. وهوه بيسأل أسئله عشان يحسم موقفه نهائياً. وعشان كده هوه جاهز.
ونادى الحاجب اسمى واسم محمد عثمان. أسرعنا والجنديين الحارسين والمحامى. كانت المحكمة كلها مرصوصة. بدا وكأننا فى جلسة خاصة.
سأل كاتب الجلسة:
-الإسم والسن والوظيفة والعنوان.
سجل البيانات.
قال رئيس الجلسة موجهاً الحديث إلى المحامى:
-اتفضل يا أستاذ.
أثنى المحامى علينا باعتبارنا مثقفين نسعى إلى خير البلد ولا نضمر له شراً وأننا أبرياء من تهمة قلب نظام الحكم. فكل ما جاء فى الأوراق المضبوطة هو نقد للنظام.
قاطعه الرئيس:
-والمطالبة بإسقاط الديكتاتورية العسكرية؟
ارتبك المحامى وارتعشت الأوراق فى يديه. قال:
-لا توجد لدينا ديكتاتورية عسكرية حتى ينطبق عليها هذا الكلام. إن لدينا ثورة.
تنحنحت أنبهه حتى لا ينزلق فى السياسة أكثر.
طافت بفم الرئيس ابتسامة. قال:
-كمل يا أستاذ. وأوجز والله، لإن احنا لسه هنسمعهم همه كمان.

قال أن النيابة تطلب محكامتنا طبقاً للمادتين 98 أ-98 هـ للجناية و 98ب و 98ج للجنحة من قانون العقوبات. والحقيقة أن هذا القانون قد صدر أمام إسماعيل باشا صدقى أى أيام الرجعية والاستعمار اللذين قضت عليهما الثورة، فكيف تقضى الثورة على طبقة وتحتفظ بقوانينها تحاكم بها المواطنين. إن هذه القوانين قد سقطت بقيام الثورة. هذه القوانين وضعت لمحاكمة من يقوم بتغيير نظام الحكم الملكى الاستعمارى باستخدام القوة، وقد قلبته الثورة، ولم يحاكمها أحد. فهل تحاكم الثورة الوطنيين اليوم بهذا القانون الذى خرقته الثورة ذاتها!

واتسعت ابتسامة رئيس المحكمة وقال:

-يعنى إيه يا أستاذ الكلام دا؟ يعنى أنت بتقترح محاكمة الثوره وإلا إيه.

بدا أن الرئيس يلاعبه. وأحسست وكأنه لا يحب المحامين المنتدبين.

ارتبك المحامى أشد الارتباك، عندما ملأت الابتسامات وجوه باقى هيئة المحكمة بما فيهم ممثل النيابة العسكرية العليا.

ولملم المحامى نفسه وأعلن طعنه فى إجراءات القبض والتفتيش. وأن أوامر القبض والتفتيش قد صدرت بعد عملية القبض والتفتيش. وأن المتهمين طالبا الضباط بإبراز هذه الأوامر غير أنهم لم يبرزوا شيئاً.

هز رئيس المحكمة رأسه:

-تقدر تثبت ده بغير كلام المتهمين؟ دا معناه إنك بتتهم المباحث العامه بالتزوير. وبناء عليه، طلباتك؟

جف ريق المحامى، أكمل:

-فيما يتعلق بالبرواز الناقص الذى يقولون أنه رونيو..

قاطعه الرئيس:

-دا مش رونيوز. هيه غيره.

قال المحامى:

-والأوراق اللى قيل أنها ضبطت لديهما...

قاطعه الرئيس:

-مش بتاعتهم. والطبيب الشرعى أثبت إنها مش بخطهم. خلصت يا أستاذ. وبناء عليه، انت عاوز إيه؟

أصاب الشلل المحامى. بدا عاجزاً.

-أطالب بالبراءة لموكلىّ.
هز الرئيس رأسه.
-اتفضل أقعد.
نظر إلينا. تساءل:
-مين فيكو هيتكلم.
تقدم محمد خطوة ووراءه جندى الترحيلات الخاص به، قال:
-أنا هتكلم فى السياسة الخارجية للديكتاتورية العسكرية.
انجعص رئيس المحكمة إلى الوراء. بان الارتياح على وجهه. كسا الذعر وجه المحامى. تحدث محمد عن الحكومة واتجاهها إلى الغرب وخاصة أمريكا. واتفاقية الجلاء مع بريطانيا، والبند الخاص بالعلاقة بتركيا، والذى يربطنا بصورة أو أخرى بالأحلاف العسكرية حيث أن تركيا طرف فى حلف بغداد الاستعمارى. وربط عودة القوات البريطانية إلى قاعدة السويس، إذا وقع هجوم مسلح من دولة من الخارج على أى بلد يكون طرفاً فى معاهدة الدفاع المشترك بين دول الجامعة العربية أو تركيا وهذا يؤكد أن الحياد الذى تزعمه الحكومة لا وجود له. فربطنا بالأحلاف العسكرية، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، يؤكد أن النظام منحاز بالفعل للمعسكر الغربى. وأنه جزء من سلسلة الأحلاف والمخططات الاستعمارية المعادية للشعوب العربية والمعسكر الاشتراكى، مما ينفى بشكلٍ حاسم أى زعم بالحياد.
إن النظام الحالى يقف تماماً فى المعسكر الغربى، ويتأكد ذلك من أن كل علاقاته الاقتصادية والتجارية، والثقافية مع الغرب، وليس له أى علاقة مثيلة مع المعسكر الآخر، المعسكر الاشتراكى. بل إن النظام تماشيا مع الغرب لم يعترف حتى الآن بالصين الشعبية.
إننا نطالب بحياد إيجابى حقيقى يقوم على رفض أية علاقة بأى حلف عسكرى. كما نطالب بتعامل اقتصادى واجتماعى وثقافى مع المعسكر الاشتراكى تأكيداً لهذا الموقف الإيجابى. إننا نطالب أيضًا بضرورة التعامل مع إسرائيل باعتبارها قاعدة استعمارية وجزء من العالم الغربى، ورأس رمح له، وكلب حراسة لمصالحه. وأنه يدعمها والصهيونية العالمية اقتصادياً ومادياً وعسكرياً.

كان رئيس المحكمة يهز رأسه وهو ينصت إلى محمد، وكأنه يستمتع بما يسمع. وما أن أنتهى محمد من كلمته حتى قال له فى هدوء:
-خلصت يا محمد؟
فقال محمد بنفس الهدوء:
-أيوه خلصت.
فنظر إلىّ متسائلا:
-وأنت يا فخرى لسه عندك حاجه عاوز تقولها؟
قلت فى هدوء:
-أيوه، أنا هتكلم فى السياسة الداخليه.
قال وكأن هذا الأمر كان غائباً:
-أيوه صحيح. اتفضل. بس أوجز والله، لأن الكتاب باين من عنوانه.
وتراجع محمد خطوة. وتقدمت وورائى حارسى خطوة. قلت:
إن السياسة الخارجية تشكل انعكاساً للأوضاع الداخلية، أى أن كل منهما يكمل الآخر. وبالتالى أوافق على كل ما قاله زميلى محمد عثمان.
وأعتبره جزءًا من وجهة نظرى.
إن حركة الجيش، انقلاب عسكرى، قام ديمقراطياً بإلغاء الدستور وحل الأحزاب وكل اشكال الحياة السياسية وحل النقابات المهنية. وصادر الحياة السياسية كلها فيما تسمى بهيئة التحرير كحزب واحد تحكم به الدولة. حقاً، لقد ألغى الملكية وأعلن الجمهورية، لكن العبرة ليست بالمسمى، العبرة بالعائد على الشعب. لقد كنا نناضل من أجل إسقاط الملكية، إسقاطاً للاستبداد والسلطة المطلقة، والاعتماد على القوى الأجنبية والرجعية فى إدارة البلاد. وما فعله الإنقلاب العسكرى منذ أن جاء هو الاعتماد على بعض رجال السراى والقوى الرجعية المعادية للشعب، وإقامة ديكتاتورية عسكرية انفردت بكل مقاليد السلطة مستخدمة كل وسائل القهر والاستبداد، من سجن واعتقال ونفى وتعذيب، تجاوز بمراحل زمن الملكية ذاتها.
واتسعت عينا المحامى هلعاً. وهب واقفاً يصرخ:
-أننى أطالب بوقفه فى الحال.
ونظرت إليه كل الهيئة مجتمعة مندهشة وعلى رأسها رئيس المحكمة

الذى قاله متهكماَ:
-طيب ما توقفه أنت. مش أنت المحامى بتاعه. أهو قدامك سد حنكه إن كنت تقدر. المحكمه سمحت له بالكلام. وهتستمر فى الاستماع إليه.
وانطلق المحامى مذعوراً يغادر الجلسة. ونظر رئيس المحكمة إلىّ وقال:
-كمل يا فخرى، بس أوجز، أحسن نرجعلك المحامى.
لقد اتخذ الانقلاب العسكرى موقفاً شديد العداء من الطبقة العاملة، كما حدث فى كفر الدوار، إذ فض إضراباً سلمياً بالدبابات، وأعدم عاملين هما خميس والبقرى. أما من الناحية الاقتصادية فقد أصدر الانقلاب قراراً يسمح بمشاركة رأس المال الأجنبى بنسبة 51% من رأس المال، وهو قرار لم تصدره أشد القوى رجعية وتخلفًا وتعاملا مع الغرب.
أما عن الإصلاح الزراعى فقد نفذ بطريقة غير ديمقراطية البتة. وأوكل الإشراف عليه إلى قوى متخلفة تماماً. إن الغرض الرئيسى منه هو توسيع رقعة السوق الرأسمالى.
ونظر رئيس المحكمة إلى ساعته، فقلت:
بقيت نقطة واحدة هى هبة مارس 1954، والتى قمعتها السلطة بقسوة. وأخرجت مظاهرات تهتف بسقوط الديمقراطية وسقوط المثقفين. إننى أعلن دفاعى عما نادى به الشعب فى هذه الهبة، عن الحياة الديمقراطية الحقة، عن العدالة الاجتماعية، عن الدفاع عن مصالح الشعب عامة، والعمال والفلاحين خاصة، عن عودة الجيش إلى ثكناته، وإنهاء النظام الديكتاتورى العسكرى، وإقامة حكم مدنى يقوم على احترام سيادة الشعب.
ورفع رئيس المحكمة يده.
-افتكر كفايه قوى كده.
وهززت رأسى شاكراً. ومحمد عثمان يقول:
-وأنا اتفق معه فى كل ما قاله.
وخرجنا من غرفة المداولة، وفوجئت بالجندى الحارس يمسك بيدى، يضغط عليها، ويقول فيما يشبه الدعاء:
-إبقه افتكرنى يا أستاذ يوم ما ربنا ينصركو.

وضغطت يده وأنا أشكره شكراً جزيلاً.
-إنشاء الله، ربنا يسمع منك.
جلسنا فى القفص ونظرت إلى أمى، فإذا بها تنظر إلىّ فى هلع وتصيح:
-إيه اللى عملته دا يا فخرى؟!
وأخوتى ينظرون إلىّ وكأنها نظرات الوداع الأخير. وامتدت نظرتى إلى أبى فرأيت الحزن يغمر وجهه، وهو ينظر نحوى فى تسائل معاتب.
وهمست لنسيم الذى كان يجلس إلى جوارى:
-هيه إيه الحكايه، يا نسيم؟
وقال نسيم:
-المحامى بتاعك يا سيدى، جه وقالهم إنك عكيت الدنيا جوه. وشتمت الحكومه واللى جاب الحكومه. وأنك لو خدت عشر سنين يبقه المحكمه رأفت بيك.
وأدركت الأمر كله، وكدت أصرخ، «الجبان»، غير أن الحاجب صرخ «محكمة»، فوقفنا جميعاً حتى جلس الرئيس وهيئة المحكمة على المنصة. فجلسنا، وساد صمت شديد وقد تعلقت العيون كل العيون والآذان بالمنصة، بالرئيس وهو ينظر فى الأوراق أمامه، ثم يبدأ فى تلاوة الأحكام:
قضية الجناية العسكرية العليا المتهم فيها فوزى حبشى براءة.
وارتفعت من القاعة شهقة فرحة. ولم أعد أسمع التفاصيل ركزت على الأحكام.
القضية المتهم فيها نسيم يوسف وشوقى مجاهد، ثلاث سنوات سجن لكل منهما.
وارتفعت شقهة فرحة ثانية.
والقضية المتهم فيها فخرى لبيب، أشغال شاقة ثلاث سنوات، ومحمد محمود عثمان ثلاث سنوات سجن.
وارتفعت شهقة فرحة ثالثة.
كنت أنا الذى نال الحكم الأشد. وللحال نسيت كل شيء غير ما اتفقنا عليه، فأسرعت أعتلى الأريكة التى نقتعدها وهتفت بأعلى صوتى:
-عاش كفاح الشعب المصرى.

وأذهلنى الرد الذى لم يجىء من زملائى فى قفص الاتهام فقط، لكنه جاء داوياً من القاعة كلها. كانت العائلات بأكملها تهتف بحماس بالغ. وأسرع رئيس المحكمة وهيئة المحكمة بالانسحاب. وأكملت:

-عاش كفاح الطبقة العاملة.

وجاء الهتاف الثانى أقوى من الأول. ورأيت والدى يتقدم من جوار النافذة نحوى يوسع لنفسه برفق طريقاً بين العائلات، وقد انزاح الحزن والعتاب من ملامحه.

-عاش كفاح الشيوعيين.

ورأيت أمى وقد غمر الدمع وجهها تهتف، وأخوتى بحماس بالغ. وأخذت العائلات تكرر الهتاف وكأنها تهتف لنا نحن هتافاً يخصنا. وهتفت بأعلى صوتى شعارنا الأخير:

-تسقط الديكتاتورية العسكرية.

وأحسست كأن الدنيا كلها تهتف معنا. إذ يبدو أن العديد من رواد المحكمة جذبتهم الشعارات الأولى، فشاركوا فى الشعار الأخير. وهبطت من فوق الأريكة. وأحسست بكفين يقبضان على كفىّ فى حنان بالغ. كان أبى قد وصل إلى القفص ووضع راحتيه على راحتىّ

قال والدموع تلمع فى عينيه:

-ولا يهمك يا بنى. أنت قدها وقدود، أنا دلوقت أطمأنيت عليك.

وضغطت راحيته مشدداً، وقد أحاطت به أمى وأخوتى.

-يا والدى، أنا ابنك، أنا منك. أنت اللى حطيتنى على أول الطريق. والنهارده أنت هوه أنا فى زمن جديد. وأنا ضرورى هكمل المشوار.

فخرى لبيب

8/2/2005 الساعة 21

المراجع التى تمت العودة إليها

1-ثورة 23 يوليو 1952 (1952-1959)، عبد الرحمن الرافعى، مكتبة النهضة المصرية- الطبعة الأولى 1959.
2-قصة ثورة 23 يوليو، أحمد حمروش- المؤسسة العربية للدراسات والنشر- الطبعة الثانية 1977.
3-تاريخ الحركة الشيوعية المصرية، هكذا تكلم الشيوعيون- المجلد الخامس، د. رفعت السعيد، شركة الأمل للطباعة والنشر والتوزيع- 1989.
4-والآن أتكلم- خالد محى الدين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، 1992.
5-محاكمة الشيوعيين المصريين (1946-1954)، عادل أمين المحامى، مطبعة صوت العرب- الطبعة الأولى 1996.
6-من تاريخ الحركة الشيوعية فى مصر، شهادات ورؤى- الجزء الأول- مركز البحوث العربية- لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية فى مصر حتى عام 1965، تقديم د.عاصم دسوقى- د. فخرى لبيب، 1998.
7-عمال وطلبة فى الحركة الوطنية المصرية، مركز البحوث العربية- لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية حتى عام 1965- مركز الجيل، تحرير وتقديم د.عاصم الدسوقى، دار المحروسة، 1998.
8-من تاريخ الحركة الشيوعية فى مصر، شهادات ورؤى- الجزء الثانى، مركز البحوث العربية- لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام 1965، تقديم د.عاصم الدسوقى، 1999.
9-من تاريخ الحركة الشيوعية فى مصر، شهادات ورؤى- الجزء الرابع، مركز البحوث العربية، لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام 1965، تقديم د.عاصم الدسوقى، 2000.
10-فرسان الأمل، تأمل فى الحركة الطلابية المصرية، فاروق القاضى، مركز البحوث العربية، 2000.
11-العمال فى الحركة الشيوعية المصرية حتى عام 1965، مركز البحوث العربية- لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى

عام 1965، تحرير رمسيس لبيب- تقديم د. عاصم دسوقى 2001.
12-الطلبة فى الحركة الشيوعية المصرية حتى عام 1965، مركز البحوث العربية- لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام 1965، تحرير د.فخرى لبيب، تقديم د.عاصم الدسوقى 2003.
13-الإنقسامية وأزمة الحركة الشيوعية المصرية حتى عام 1965، مركز البحوث العربية والأفريقية- لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام 1965، تحرير رمسيس لبيب، تقديم: د.عاصم دسوقى 2003.